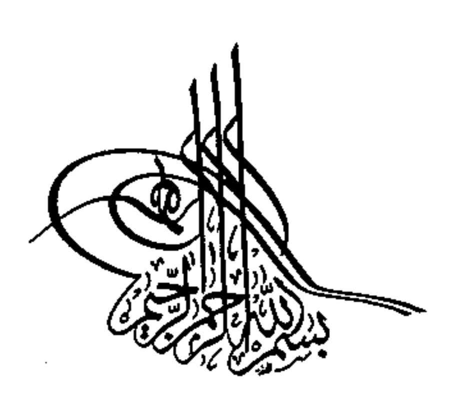
سلسلة الخلفاء

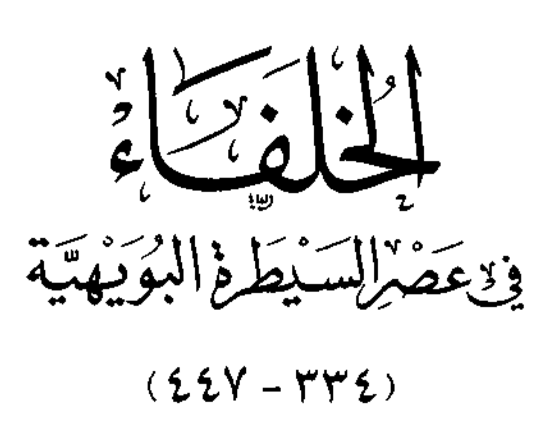


محمود شاكر

المكتب الإسلامي


بسم الله الرحمن الرحيم

الخلفاء
(٤٠ - ٤٣)



٤٠ - المطيع : ٣٣٤ - ٣٦٣هـ

٤١ - الطائع : ٣٦٣ - ٣٨١هـ

٤٢ - القادر : ٣٨١ - ٤٢٢هـ

٤٣ - القائم : ٤٢٢ - ٤٦٧هـ

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ ـ هاتف: ٤٥٦٢٨٠(٠٥)

دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ ـ هاتف: ١١١٦٣٧

عمَّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ ـ هاتف: ٤٦٥٦٦٠٥



مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيّد المرسلين محمد الأمين وعلى إخوانه النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين *أما بعد* :

فإنه عندما قامت دولة الإسلام أيام رسول الله ﷺ، وأيام من سار على نهجه، واقتدى به، انطلق المسلمون يُؤدّون المهمّة الأساسيّة لهم في الحياة وهي الدعوة إلى الله والعمل على نشر الإسلام لإنقاذ الناس من الجاهلية التي هم عليها وإخراجهم من الظلمات إلى النور وإبعادهم عن عبادة العباد إلى عبادة الله خالق الخلق ومُنشئ الكون ومُدبّر سيره وإليه المرجع والمآب.

انطلق المسلمون مجاهدين في سبيل الله لتحقيق ما أُنيط بهم من مُهمّةٍ، ومن انطلق مجاهداً فإن أمله نيل الشهادة في سبيل الله فمن نالها فقد فاز ووصل إلى جنّة النعيم الدائم وذلك هو الفوز العظيم مع ما حقّق مع إخوانه الذين بقوا النصر لأمة الإسلام فارتفعت راية

الإيمان وفُتحت أبواب البلدان أمام المجاهدين.

انطلق المسلمون مجاهدين يطلبون الشهادة لذا لم تكن هناك قوة تقف أمامهم مهما كان عدد أفرادها، ولم يكن هناك زحف يُمكنه تغيير وجهتهم مهما زاد حشده، ولم يكن هناك جيش يستطيع صدّهم مهما كان تجهيزه، ولم تكن هناك دولة تصمد أمامهم مهما اتسعت رقعتها وكثُر أبناؤها، فذلّت دولة الفرس وخضعت، وهانت دولة الروم وانسحبت، وتلكما أوسع الدول أرضاً وأكثرها سكاناً وأعظمها عتاداً وأقواها جيوشاً، وذلك لأن المسلمين يطلبون الشهادة فيندفعون غير هيّابين ولا مُبالين وأعداءهم يطلبون الحياة فترتعد فرائصهم وترتجف قلوبهم فيُصرعون تحت الأقدام أو يُولّون الأدبار قبل أن تدوسهم حوافر خيل المسلمين.

أيقن الذين يُحاربون المسلمين أن لا أمل لهم بالنصر ما دامت راية الجهاد لدى المسلمين مرفوعةً وخاصةً أن سكان البلاد التي انسحب منها الروم قد دانوا بالإسلام بعد أن رأوا فيه من الخير ما رأوا من حقٍّ وراحة نفسٍ وأصبحوا سيوفاً بيد المسلمين ضدّ الروم بعد أن كانوا معهم، وأن دولة الفرس قد قُضي عليها وانتهت، وغدا أهلها من المسلمين وقوةً لهم

ودرعاً بعد أن كانوا يقفون في وجههم. وبذا فالجهاد في سبيل الله هو سيف المسلمين الصارم وقوتهم الكاسحة التي تُرهب أعداءهم وتُخيف خصومهم ويتهيّبها كل مُعادٍ لهم على مدى الأيام لذا يسعى الأعداء على إماتتها والعمل على خنقها بالوسائل التي يستطيعونها من ماديةٍ ومعنويةٍ فالحرب والمكر والإعلام بعض هذه الوسائل.

لما رأى أعداء الإسلام ما رأوا من قوة المسلمين، واقتنعوا بما اقتنعوا به من أن الإسلام لا يُهزم، وأيقنوا بما أيقنوا به من أنه لا أمل لهم بالنصر على المسلمين ما دامت راية الجهاد مرفوعةً لذا فكّروا أن يلجؤوا إلى المكر والخداع والغدر بالرجال والظهور بغير ما يُبطنون لتحقيق ما يبغون.

قلنا: إن غالبية الفرس قد أسلموا ودانوا بالإسلام وخضعوا وسلّموا قيادهم للفاتحين وسكنوا، غير أن فئةً قليلةً من أصحاب العصبية والسلطان وأهل المصالح والبلدان قد صعُب عليهم التخلّي عما كانوا عليه من جاهٍ ونفوذٍ ومكانةٍ أورثها لهم سلفهم، ومن وثنيةٍ نشأوا عليها وتربّوا في أحضان طقوسها فرسخت في قلوبهم وحُفرت وثبتت في نفوسهم ونُقشت وجُبلوا على

تعاليمها، ولكن ماذا يفعلون فقومهم قد أسلموا وصدقوا ورأوا النور الحقيقي فاتّبعوا.

وجدت هذه الفئة القليلة المتعصّبة لجاهليتها الفارسية المتمسّكة بوثنيتها المجوسية أن تلجأ إلى التلوّن فتُظهر الإسلام وتعمل من الداخلِ بمعاول الهدم غدراً وفتناً وخيانةً، فأسلمت بألسنتها تجاه الخلق ولم تُؤمن قلوبها فأغرت من استطاعت، واشترت من قدرت عليه، واتخذت مكرها، واستعملت دهاءها، وتعاونت مع شياطين الإنس والجنّ فأوحت إليها قرائنها بقتل الرجال المقدّمين والفتك بالرعاة فإن ذلك يُضعف الهمم ويُثير الفتن ويُخيف الأمة ويوصل إلى الهدف. فوُجّهت السهام إلى الخليفة فهو الذي قضت جيوشه على دولة فارس ودكّت عروشها، وأزالت مجوسيتها والناس له مُقدّمون، وحوله مُلتفّون، ولصحبته مُقدّرون، ولمكانته عارفون، فإصابته محنة لأُمته، وإزالته غُنم لكم يا أتباع زرادشت. وانطلق السهم إلى المرمى وأصاب الهدف وقُتل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه واهتزّ المجتمع هزّةً عنيفةً برهةً يسيرةً، فالمسلمون لا يرتبطون بالرجال مهما كانوا ولكن يرتبطون بالعقيدة، ويسيرون على النهج، ويُطبّقون شرع الله، ويتّبعون ولا يبتدعون، فقد مات من

قبل أبو بكر الصديق ﷺ وسار الركب بعده كما انطلق به من قبل، بل قد مات من قبل رسول الله ﷺ نبيّ هذه الأمة الإسلامية وقائدها والذي أُنزل عليه القرآن الكريم منهجُ الأمة وشرعها، والذي أوحى إليه الله ﷻ، وإلى العالم أجمع أرسله، مات عليه الصلاة والسلام، ومشت الأمة على دربه بعده.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾[1].

قُتل الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ بيدٍ آثمةٍ غادرةٍ مُجرمةٍ، وراءها فئة محدودة، وكان لهذه الجريمة أثر في نفوس أبناء الأمة الذين لم يتوقّعوا ذلك لما كان عليه الخليفة من عدلٍ واستقامةٍ على النهج، وظنّ الأعداء المتلوّنون أنهم قد حقّقوا شيئاً، ولكن خسئوا وخابوا ومن النار اقتربوا فما هي إلا أيام حتى قضي على المجرمين، وبويع لعثمان بن عفان ﷺ فسار على الطريق نفسها واتّبع النهج القويم، فانطلق الركب كأن لم يكن شيء سوى ما في النفوس من غليان على

(١) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

الأعداء، وتابع عثمان ﷺ الفتوحات فاتّسعت، وامتدت رقعة الخلافة وقويت، بل وأنهت جيوش الخلافة على ما بقي من آثارٍ مجوسيةٍ، وتوسّعت ديار الإسلام نحو الشرق أكثر. وزاد ما في نفوس المتلوّنين من أحقادٍ، كما زاد اشتعالها، واتسع لهيبها، وكثُر غليانها.

لم يكن المتلوّنون من المجوس فقط بل كان اليهود أيضاً وقد اجتُثّت جذورهم من عدة مواقع لهم، وقُلّمت أظافرهم من مواطن لهم أيضاً، وهم أصحاب حقدٍ معروفٍ وعصبيةٍ مشهورةٍ، وعدم حب الخير لأحدٍ في الدنيا غيرهم، وحسدٍ واسعٍ للآخرين ممن يُنعم الله عليهم ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[1]. واليهود أكثر من المجوس حقداً، وأشدّ دهاءً، وأقوى مكراً، وأخبث طويةً، وأدقّ تخطيطاً و.... فقد أظهر الإسلام أحدهم ويُدعى عبد الله بن سبأ، ويُعرف بـ«ابن السوداء» وجاء إلى مدينة الرسول ﷺ، فأبدى العبادة، والتقى ببعض الصحابة، ثم خرج إلى الأمصار يلتقي بالعامة وبعض الأعراب وحديثي العهد بالإسلام، فيثني

(١) سورة النساء: الآية ٥٤.

على بعض الصحابة وخاصةً علي بن أبي طالب ﷺ ويُبدي المحبة الشديدة له ولكن ليس محبةً صادقةً ولكن مكراً وفتنةً، وفي الوقت نفسه يطعن في ولاة الخليفة عثمان بن عفان ﷺ والقصد الخليفة نفسه وليس له من هدفٍ سوى إحداث الفتنة، وبذل ابن السوداء جهداً وأكثر من الادّعاءات الكاذبة واختلق أحداثاً باطلةً فقَبِل ذلك منه بعض الرجال لما أقسم من أيمانٍ، واستشهد بأفاضل غائبين هذا إضافةً إلى البسطاء والعامة والأعراب وحديثي العهد بالإسلام ومن في نفسه زيغ أو نفاق، ووقعت فتنة، وقُتل الخليفة عثمان بن عفان ﷺ. وفقد المسلمون الخليفة صحابياً جليلاً، وهو كمن سبقه ومات قبله.

وبويع علي بن أبي طالب ﷺ خليفةً، فسار على الطريق نفسها واتّبع النهج القويم، وانطلق الركب بحماسةٍ وعزمٍ على الدعوة والجهاد. ولكن ظهرت آراء متطرفة متأثّرة بما وقع، وظهر فيها الانحراف، وقُتل علي ﷺ وكانت مأساةً موجعةً ومحنةً أليمةً.

وآل الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان ﷺ وجدّ في متابعة الطريق فعادت الفتوحات وتتابعت، ورجعت أحقاد المتلوّنين تغلي في نفوسهم كالمرجل، وانتبهوا إلى نقطةٍ وهي أن الخليفة السابق عليّ بن أبي

طالب ﷺ كان من بني هاشمٍ، والخليفة الحالي معاوية بن أبي سفيان ﷺ من بني أمية، وكان بين هذين الفخذين بني هاشم وبني أمية وكلاهما من بني عبد مناف كانت بينهما في الجاهلية منافسة وتسابق نحو المعالي، فأراد المتلوّنون إحياءها لإثارة الفتنة بين الفريقين. ولما كانت الخلافة قد آلت إلى بني أمية فإن المتلوّنين يجب أن يقفوا إلى جانب بني هاشمٍ أو بالأحرى إلى جانب بني أبي طالب، لأن الخلافة بيد بني أمية وليسوا بحاجةٍ إلى من يقف بجانبهم، وإلا فإن الفريقين بالنسبة إلى المتلوّنين سواء في الكراهية.

وأعطى معاوية بن أبي سفيان ﷺ ولاية العهد من بعده لابنه يزيد بن معاوية اجتهاداً منه لما رأى من خلافٍ، فكانت هذه الولاية لأول مرةٍ في الإسلام، وليس معنى هذا أنها لا تصحّ، ولكن ليس هناك وراثة في الإسلام بالخلافة، فوجد المتلونون في هذا فرصة لإثارة الفتنة فتكلّموا وتحرّكوا واندفعوا لدعوة الحسين بن عليّ ﷺ للخروج على الخليفة، فتردّد وتمنّع ونصحه الصحابة رضوان الله عليهم بعدم الخروج وعدم الاستماع للمغرضين، ولكن المتلوّنين استعملوا الحيل والأساليب الشيطانية في إقناعه ﷺ فخرج إليهم مع

أبنائه والنساء والصبيان. وما أن وصل ﷺ إلى العراق حتى خرج إليه والي البصرة والكوفة عبيد الله بن زياد، ووقف في وجهه وقاتله، وظنّ الحسين ﷺ أن الذين دعوه سيكونون ردءاً له يمنعونه ممن دعوه للخروج عليه فإذا بهم يتخلّون عنه، وتقع المأساة، وما كان لأخذ الأولاد والنساء من داعٍ ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ وبدلاً من أن يلوم الذين دعوا الحسين ﷺ أنفسهم على ما قاموا من التخلّي عنه ﷺ، فقد قاموا ينوحون عليه ويندبون لا حزناً عليه وأسفاً بل لإثارة الفتنة إذ من أجلها ذهبوا إليه، ومن أجلها تخلّوا عنه، ومن أجلها النواح والندب واللطم والضرب. وغدت هذه الأعمال تحدث سنوياً بهذه المناسبة وهي في العاشر من شهر المحرم للغرض نفسه، وهو الفتنة بإثارة الناس على ما أصاب سبط رسول الله ﷺ بحجة أن بني أمية هم الذين قتلوه، وما قتله فعلاً إلا الذين أخرجوه ثم تخلّوا عنه وقت المحنة وعند الشدّة.

وعاد المتلوّنون إلى عادتهم وهي دعوة رجال من آل عليّ بن أبي طالب ﷺ إلى العراق لمبايعتهم، وكانوا يُزيّنون لهم الخروج، وأن أتباعهم كثيرون جداً ينتظرون قدومه إليهم بفارغ الصبر لينعموا برؤيته،

ويظفروا بحكمه، ويسعدوا بعدله، ويفخروا أمام الآخرين، ويتباهوا بمكانته، وسيكون ـ إن شاء الله ـ قدوةً بين الناس، ورمزاً للحق في التاريخ، ويزيّنون له ويزيّنون و. . . . حتى إذا تأثّر وسار إليهم وخرج إليه الوالي والتقى الطرفان تخلّوا عنه، وكانت المأساة كما حدث في السابق، وأخذ المتلوّنون بالإثارة لإيقاع الفتن، رحم الله زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب الذي قال للذين دعوه: أرفضتموني.

واستمرّت حركات المتلوّنين أيام الدولة الأموية، دعوةً للخروج وتخلّياً، والعمل على إثارة الفتن لا يتعدّى الأمر ذلك ولكن يرافق ذلك افتراءات وادعاءات كاذبة وشائعات باطلة.

وأخذ المتلوّنون عن ابن السوداء عبد الله بن سبأ اليهودي ما خطّط له، وهو إعطاء صورة لمن يدعو له أو يدّعي أنه من أتباعه صورة فوق مستوى البشر في سبيل إفساد عقيدة المسلمين، فوصف المتلوّنون من يعملون باسمه بتلك الصورة كما نقلوها إلى أبنائه وأحفاده من بعده واستمرّ ذلك حتى سنة ٢٦٠هـ.

وإن لم تكن لهذه الصفة التي أعطوها لمن يدعون له ذلك الأثر الكبير الذي كان يحلم به المتلوّنون إلا

أنها في الواقع قد تركت أثراً لا يُنكر في فكر الذين تبعوهم من العامة إذ لم يرجعوا إلى أصول العقيدة التي ترفض هذا من أصله أشدّ الرفض، ونُقل هذا ـ مع الأسف ـ بالوراثة حتى غدا جزءاً من العقيدة، ويجب العمل على محوه.

ولما لم تُجْدِ حركات المتلوّنين بالإثارة وإحداث الفتن وإيقاع الخلاف تحت شعار الدعوة إلى الطالبيين وإعطائهم المكانة العليا ـ دون موافقة أولئك الطالبيين الفضلاء ـ والعمل على الطعن بالذين يتسلّمون الخلافة والادّعاءات الكاذبة عنهم بل ووضع أحاديث غير صحيحة النسبة ـ افتراءً ـ ثم ظهرت الدعوة العباسية ووجد المتلوّنون فيها قوةً، عند ذلك اتّجه المتلوّنون إليها وانضمّوا إلى صفوفها، وتركوا الذين كانوا يدعون لهم، وهذا يدلّ على:

١" ـ أن المتلوّنين ليس لهم مبدأ بل لهم هدف أساسي وهو الهدم من الداخل بإحداث الفتن وإيقاع الخلاف لشلّ حركة الأمة وإضعافها ثم إمكانية السيطرة عليها في سبيل القضاء عليها، وإعادة دولتهم السابقة ووثنيتهم القديمة. والكل من أمويين وطالبيين وعباسيين عند المتلوّنين سواء، وإن كانوا يظهرون العمل إلى جماعةٍ.

٢" ـ أن المتلوّنين كانوا ينضمّون إلى جانب من يجدون عنده القوة لتحقيق مراميهم البعيدة لذا كانوا يُظهرون العمل للطالبيين ثم تركوهم واتّجهوا إلى العباسيين عندما لم يستطيعوا تحقيق أهدافهم عن طريق الطالبيين، ثم لما رأوا قوة العباسيين أخذوا بالعمل ضدهم سرّاً ومكراً فنبشوا قبور بني أمية، وقتلوا ونهبوا فأخذ الناس يكرهون القادمين الجدد لهذه التصرّفات التي يقوم بها جندهم وأتباعهم وفيها المخالفات الشرعية والتصرّفات الحاقدة، وكل عملٍ يُنسب إلى القيادة وإن قام به الأفراد، ثم عملوا على الإيقاع بين أفراد الأسرة العباسية، بين الإخوة والأعمام وأبناء العمومة و.... وإن الأحداث بين المنصور وعمّه عبد الله بن علي، وبين الأمين والمأمون و.... يعلمها الجميع ويعرفون من يقف خلفها.

لم يُجْدِ مكرهم ولم تنفعهم فتنهم إذ لم تمضِ مدة حتى تزول حزازات النفوس، وتنتهي الخلافات، وتلتئم الجراح، وتعود وحدة القلوب، ويرجع التماسك، لذا رجع المتلوّنون إلى مخططهم السابق وهو إبراز الطالبيين ودفعهم إلى الأمام والعمل من خلفهم بمكرٍ وخبثٍ وهدوءٍ وكتمانٍ، فلم ينفعهم ذلك شيئاً

وبقوا في مكانهم يحدوهم الأمل ويدفعهم المكر و.... وأخيراً قرروا السيطرة على الأمور وإزالة العوائق كلها من أمامهم دون خوفٍ ولا حذرٍ باستثناء الخلافة، فإنهم لا يمكنهم الاقتراب منها إذ لو فكّروا التخطّي إليها لهبّ المسلمون دفعةً واحدةً في وجههم وانتهوا منهم، لذا هيّؤوا الأمور لأن يتركوا الخلافة لبني العباس، ويجعلوا الخليفة مجرد هيكلٍ، وهم يتصرّفون بالأمور حسبما يرون إلى أن يصلوا إلى مراميهم.

رسموا الخطط، ووجّهوا الأنظار إلى عددٍ من الأُسر التي تعود في أصولها إلى الأرومة الأصلية وإلى الوثنية القديمة وغيّروا أماكن إقامتها لتُنسب إلى المواقع الجديدة وينسى ماضيها، وابتدؤوا العمل وسيطر بنو بويه على الخلافة، والسامانيون على مشرق الخلافة، وعاث القرامطة الفساد في بلاد العرب، وبرز الحمدانيون في الشمال وهم ممن تحرّكه العاطفة إلى جانب ادعاءات أولئك، وإن كانوا يعودون إلى العرب. كما سيطر نظراؤهم اليهود على شمالي إفريقية كلها وقد جعلوا لهم نسباً إلى آل بيت رسول الله ﷺ، وما أكثر صغار العقول الذين يتحرّكون بالأسماء والادّعاء بالانتماءات.

نجح المتلوّنون وسيطروا مع أعوانهم على

الأمور، وحصروا الخليفة، وأخذوا بالتصرّف ورمي الفتن، فكان في كل عامٍ فتن محددة في العاشر من شهر المحرم[1]، وفي الثامن عشر من شهر ذي الحجة[2]. وكانت الفتن تُثار في كثيرٍ من الجهات، وكلها بين جماعتين من المسلمين، يُثيرها السلطان ويقف إلى جانب إحداها. وهذا ما أقضّ مضاجع المجتمع عامةً، وقد انتبه كثير من المسلمين إلى أسباب ما يجري وأثر السلطان وموقفه.

وانتبه كذلك كثير من الناس إلى أثر العصبية

---

(١) العاشر من المحرم: مناسبة مقتل الحسين بن علي ﷺ. فكان السلطان البويهي يأمر في كل عامٍ في مثل هذا اليوم أن تغلق الأسواق وأن تلبس النساء المسوح من الشعر، وأن يخرجن في الأسواق سافراتٍ عن وجوههن ناشرات شعورهن مُسوّدات وجوههن ممزّقات ثيابهن يدرن في البلد بالنواح على الحسين بن علي ﷺ ويلطمن الخدود. ولم يكن بالإمكان منع ذلك لأن السلطان وراء هذا. فكانت بدعة شنيعة منكرة.

(٢) وفي الثامن عشر من شهر ذي الحجة يأمر السلطان بإظهار الزينة في بغداد، وأن تفتح الأسواق ليلاً كما في الأعياد، وأن تضرب الأبواق، وتشعل النيران عند أبواب الأمراء، وعند الشرط فرحاً بعيد الغدير ـ غدير خُمّ (بين مكة والمدينة، بينه وبين الجحفة «رابغ» ميلان) والغدير يصب في البحر.

الجاهلية إذ كانت الأسماء «أحمد أبو الحسين» و«الحسن أبو علي» و«علي أبو الحسن» وذلك في سبيل التعمية، والظهور باتجاهٍ معينٍ، وإبداء محبة آل بيت رسول الله ﷺ فلما أن سيطرت هذه الفئة فإذا بالأسماء تصبح «بختيار» و«فناخسرو» وهذان الاسمان من أسماء أبناء معزّ الدولة البويهي أحمد أبي الحسين، وكذا «خسرو» بن ركن الدولة الحسن أبو علي. وبدأت تظهر نقمة داخلية وأخيراً تحرّك السلاجقة سنة ٤٤٧هـ، وقضوا على البويهيين بعد سيطرةٍ دامت ١١٣ سنة. ولم يحدث انتقام ولا تشفٍّ من البويهيين بعد أن زال سلطانهم.

وأخذ المتلوّنون يُفكّرون فيما يفعلون ليُضعفوا الخلافة ويُذلّوا المسلمين عسى أن يستطيعوا القضاء عليهم وأخيراً مدّوا أيديهم إلى المغول الوثنيين وكانوا سبباً رئيسياً بتعاونهم مع المغول للقضاء على الخلافة وسقوط قاعدتها بغداد سنة ٦٥٦هـ.

وأخيراً فإني أرجو من الله العليّ الكريم العزيز الحكيم أن يوفّقني في إعطاء صورةٍ صحيحةٍ عن هذه المرحلة من تاريخنا مرحلة السيطرة البويهية على الخلافة العباسية ٣٣٤ ـ ٤٤٧هـ سعياً وراء الحقيقة وصحة

الأحداث وبُعداً عن الانحياز المذموم والتعصّب الممقوت والله من وراء القصد.

كما نرجو من الله ﷻ أن يكون عملي خالصاً له، وأن يكون لي أجر فيما أعمل. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الرياض: غرة ذي القعدة ١٤٢١هـ

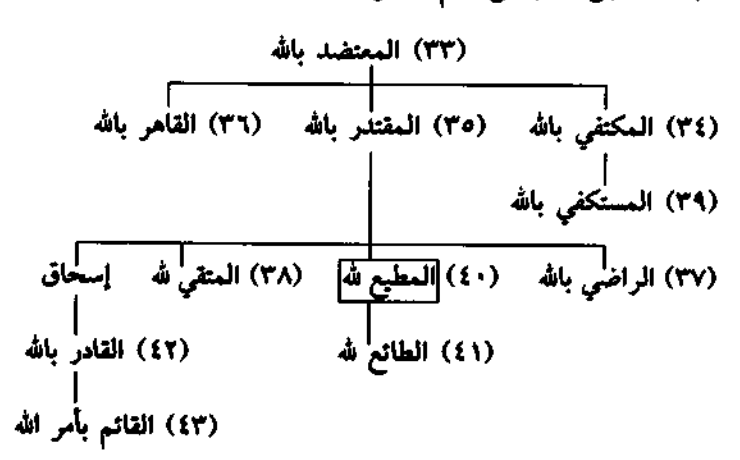
محمود شاكر

الفصل الأول

٤٠ - المطيع لله

٣٣٤ - ٣٦٣هـ

المطيع لله هو أبو القاسم الفضل بن جعفر المقتدر بن أحمد المعتضد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس عمّ رسول الله ﷺ.



المطيع لله قبل الخلافة:

وُلد المطيع سنة ٣٠١هـ في أيام خلافة أبيه المقتدر، وأمه أم ولد تُدعى «شغلة»، وما أن شبّ المطيع حتى بدأ يلاحظ تسلّط الموالي على الخلافة وتلاعبهم بالخليفة الذي لا يستطيع أن يفعل شيئاً. ففي شهر المحرم من سنة ٣١٧هـ اشتدّت الوحشة بين أبيه الخليفة المقتدر وبين مؤنس الخادم، وتفاقم الوضع وآل الأمر إلى أن اجتمع مؤنس الخادم مع أعوانه وقرّروا خلع المقتدر من الخلافة وتولية أخيه محمد، فأتوا بأخيه فبايعوه بالخلافة، وسلّموا عليه بها، ولقّبوه القاهر بالله، وذلك ليلة السبت النصف من المحرم، وقلّد القاهر الوزارة إلى علي بن مقلة، ونُهبت دار المقتدر، وأخذوا منها شيئاً كثيراً والمطيع شاب ينظر بعينيه ولا يستطيع عمل شيء، ثم حوصرت دار الخلافة وأُخرج منها الخليفة المقتدر وأمه وخالته وأهله وخواصه وجواريه، كما هرب من كان بها من الحجبة والخدم.

وأُلزم الخليفة المقتدر بأن يكتب على نفسه كتاباً بالخلع من الخلافة وأشهد على نفسه بذلك جماعةً من الأمراء والأعيان، وسلّم الكتاب إلى القاضي أبي عمر

محمد بن يوسف، فقال لولده الحسين: احتفظ بهذا الكتاب فلا يرينه أحد من خلق الله.

وفي يوم الأحد السادس عشر من المحرم جلس القاهر بالله، أخو المقتدر بالله، أي عمّ المطيع لله في منصب الخلافة، وجلس بين يديه الوزير أبو علي بن مقلة، وكتب إلى العمال بالآفاق يُخبرهم بولاية القاهر بالله بالخلافة عوضاً من المقتدر، وزاد في إقطاع جماعةٍ من الأمراء الذين قاموا بدعمه، منهم أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان. فلما كان يوم الاثنين السابع عشر من شهر المحرم سنة ٣١٧هـ جاء الجند وطلبوا أرزاقهم وشغبوا، وبادروا إلى «نازوك» فقتلوه، وهرب الوزير علي بن مقلة، وهرب الحجاب، ونادى الجند: يا مقتدر يا منصور، ولم يكن مؤنس الخادم حاضراً، ومشى الجند إلى باب مؤنس يطالبونه بالمقتدر فما كان يستطيع أن يمنعه فأمره بالخروج إليهم، فخاف المقتدر أن يكون حيلةً عليه، ثم تجاسر وخرج، فحمله الرجال على أعناقهم حتى أدخلوه دار الخلافة.

وهكذا رجع المقتدر إلى الخلافة بعد يومين اثنين فقط جلس فيهما أخوه القاهر بالله في الخلافة، وسأل المقتدر عن أخيه القاهر وعن أبي الهيجاء عبد الله بن

حمدان وهو والد سيف الدولة الحمداني، فإذا بأبي الهيجاء مقتول. ثم استدعى المقتدر بالله أخاه القاهر بالله، وقبّل بين عينيه، وقال له: يا أخي أنت لا ذنب لك، وقد علمت أنك مُكره مقهور.

وفي سنة ٣٢٠هـ قُتل أبوه الخليفة المقتدر بعد معركةٍ بينه وبين مؤنس الخادم، وأُتي بعدها بالقاهر بالله وبابن أخيه وهو عبد الله بن المكتفي، وعُرضت عليهما الخلافة وكان عبد الله زاهداً بها فلم يجبهم إلى ما يريدون، وقال لهم: عمّي أحقّ بها مني، فبويع القاهر بالله، وما أن تسلّم أمور الخلافة حتى عذّب أبناء أخيه المقتدر، ومنهم المطيع.

وما أن تسلّم القاهر بالله الخلافة حتى عمل مؤنس الخادم وآخرون على خلعه، فأُخبر بالأمر فاحتال عليهم، فذبح منهم من استطاع، ونجا ابن مقلة، فاختفى وأخذ يُحرّض عليه، وأجمع مخالفوه أمرهم، ودخلوا عليه، فهرب، فلحقوا به وقبضوا عليه في ستٍ من جمادى الآخرة سنة ٣٢٢هـ، فامتنع عن خلع نفسه، فكحل بقضيب حديدٍ محمّى ففقئت عيناه وحُبس، وبقي في سجنه مدة سنةٍ، ثم أُطلق سراحه فعاش يعاني الحاجة حتى توفي سنة ٣٣٩هـ. والمطيع ينظر ما فعل عمه وما حدث له.

وبويع الراضي بن المقتدر أخو المطيع بعد خلع عمّه القاهر بالله، وكان الحلّ والعقد بيد محمد بن رائق، ثم جاء «بجكم» فحلّ محلّ ابن رائق، حتى توفي الراضي سنة ٣٢٩هـ، والمطيع لا يستطيع عمل شيء، وبعد موت أخيه الراضي بويع أخوه الآخر المتقي، غير أنه اختلف مع أمير الأمراء «توزون»، ثم اتفقا، وكان الخليفة بالموصل فسار إلى بغداد، فاستقبله توزون، وترجّل له، ومشى بين يديه حتى وصلوا إلى المخيم المعد لهم، فكحّله بميلٍ محمّى، وأدخله إلى بغداد مسمول العينين، فخلعه من الخلافة، وأُحضر ابن عمه عبد الله بن المكتفي بالله فبايعه بالخلافة كما بايعه الخليفة المخلوع المتقي لله، ولُقّب الخليفة الجديد بالمستكفي بالله.

دخل أحمد بن بويه بغداد فقرّبه الخليفة الجديد المستكفي، ولقّبه معزّ الدولة، وكذلك لقب أخاه علي بن بويه عماد الدولة، وأخاهما الآخر الحسن ركن الدولة. وقوي أمر معزّ الدولة فحجز على الخليفة، وقدّر له نفقةً يوميةً قدرها خمسة آلاف درهمٍ، وأبقاه صورةً، وتوهّم معزّ الدولة أمراً فدخل على الخليفة ومعه جنده، فانتزعه بعض جند معز الدولة من سريره وجرّوه، ثم انتهب

الجند دار الخلافة حتى لم يبق فيها شيء، وسار معز الدولة إلى منزله راكباً، وساقوا المستكفي إليه ماشياً، ثم خُلع، وسُملت عيناه. وهكذا فالمطيع كان على مقربةٍ من هذا كله يسمعه وقد يرى: قتل أبيه، وسمل عيني عمه القاهر، وعيني أخيه المتقي، وعيني ابن عمه المستكفي، وهم خلفاء الأمة، وقد جاء دوره للخلافة، فماذا يعمل؟.

خلافة المطيع لله:

كان المطيع لله مختفياً من ابن عمه المستكفي بالله، وهو يحثّ على طلبه ويجتهد فلم يقدر عليه. فلما دخل معز الدولة البويهي بغداد، وقبض على المستكفي، أحضر ابن عمه الفضل بن جعفر المقتدر يوم الخميس الثاني عشر من جمادى الآخرة سنة ٣٣٤هـ فبايعه بالخلافة، وفي الوقت نفسه أحضر عنده المستكفي بالله فسلّم عليه بالخلافة، وأشهد على نفسه بالخلع. ولقّب الفضل بالمطيع لله. ولم يكن للفضل إلا أن يرضخ للأمر ويقبل به، وهو يرى أمامه ابن عمه مسمول العينين، يُقاد كالدابة.

تسلّم المطيع لله الخلافة ولم يكن سوى صورةٍ، والحلّ والعقد بيد معز الدولة. وازداد أمر الخلفاء

إدباراً، ولم يبق لهم من الأمر شيء البتة، وقد كانوا من قبل يُراجعون ويُؤخذ أمرهم فيما يفعل والحرمة قائمة بعض الشيء، فلما كانت أيام معزّ الدولة زال ذلك جميعه حتى إن الخليفة لم يبق له وزير بل كان له كاتب يُدبّر إقطاعه وإخراجاته لا غير، وصارت الوزارة لمعزّ الدولة يستوزر لنفسه من يريد.

ولما رأى معزّ الدولة قوة يده على السلطة وقوة هيبته على الأمراء رغب في إخراجها من يد العباسيين وتسليمها إلى بعض أدعياء النسب إلى بيت رسول الله ﷺ من أبناء أبي طالب، وما ذلك لتفضيل بيتٍ على آخر أو أسرةٍ على ثانيةٍ فالجميع عندهم سواء في الصف المعادي الذي أزال دولة أمجادهم وقضى على عقيدة أسلافهم، ولكن إظهار التفضيل إنما هو لإيقاع الخلاف وبثّ الفتنة وإيجاد الصراع وإضعاف أمة الإسلام عساهم أن يزيلوا ما جثم على صدورهم ـ حسب قناعتهم ـ ولعلهم يُعيدوا ما قد اندثر. بل فكّر معزّ الدولة بالبيعة لعبيد الله (المهدي) صاحب إفريقية ومصر، حفيد ديصان، فهو صاحب سلطانٍ ونفوذٍ، وأهل مكرٍ وتخطيط.

استشار معزّ الدولة خواص أصحابه فيما يُفكّر

فأشار عليه أكثرهم بذلك إذ يحملون في قلوبهم ما يحمل عدا بعضهم فقد قال: ليس هذا برأيٍ فإنك اليوم مع خليفةٍ تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلّين دمه، ومتى أجلست بعض من ترى خلافتهم وتعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوه فأعرض عن ذلك.

تسلّم معز الدولة العراق بأسره، ولم يبق بيد الخليفة منه شيء البتة إلا ما أقطعه له معز الدولة مما يقوم ببعض حاجته، كما أن مشرق الخلافة مع معز الدولة وشماليها الغربي بيد بني حمدان الذين يلتقون مع بني بويه بالعاطفة التي يقتنع بها بنو حمدان، ويُظهرها بنو بويه بألسنتهم وتأباها قلوبهم. وما وقع من خلافٍ ظاهريٍ بين الطرفين، وصدامٍ رمزيٍ بين الفريقين إنما خُطّط له لإخفاء بعض المعالم التي لا يفيد إظهارها ولا يصحّ نشرها.

وقع **الخلاف** بين ناصر الدولة بن حمدان وبين معز الدولة بن بويه، فخرج الخليفة المطيع لله ومعز الدولة من بغداد باتجاه الموصل لقتال ناصر الدولة بن حمدان فلما وصلا إلى «عكبرا» كان ناصر الدولة قد

ركب إلى بغداد من دربٍ آخر فدخلها وأخذ الجانب الشرقي ثم الغربي، وضعف أمر معز الدولة والديلم الذين كانوا معه، ثم مكر به معز الدولة حتى استظهر عليه، وانتصر أصحابه فنهبوا بغداد وما قدروا عليه من أموال التجار وغيرهم، وكان قيمة ما أخذ أصحاب معز الدولة من الناس عشرة آلاف ألف دينارٍ، ثم وقع الصلح بين ناصر الدولة ومعز الدولة، ورجع ابن حمدان إلى بلده الموصل، واستقرّ أمر معز الدولة ببغداد. وهكذا لم يحدث صدام بين الفريقين، ولكن قوي أمر ابن حمدان، وربح معز الدولة وأصحابه، وخسرها مخالفوه المخالفة القلبية، كما استقرّ وضع معز الدولة في بغداد وضعف أمر خصومه فيها بالفقر، وصفا الجو بين ناصر الدولة ومعز الدولة بعد هالةٍ من الخلاف، ولم يكن للخليفة المطيع رأي بالموضوع، ولا موقف مرسوم، ولكن طاعة صاحب السيطرة والنفوذ معز الدولة بن بويه.

حجز معز الدولة بن بويه على الخليفة المطيع لله، وقرّر له كل يومٍ مائة دينارٍ نفقةً غير أنه بعد سنةٍ أي في سنة ٣٣٥هـ عاد فرفع عنه الحجز، وأعاده إلى دار الخلافة.

حارب ناصر الدولة بن حمدان «تكين» التركي فاقتتلا مراتٍ متعددةٍ، ثم ظفر ناصر الدولة بـ«تكين»

وسُملت عيناه بين يديه، واستقرّ أمره بالموصل والجزيرة.

انتزع ركن الدولة بن بويه منطقة الريّ من الخراسانية، واتسعت مملكة بني بويه كثيراً فإنه صار بأيديهم أعمال الري والجبل وأصبهان وفارس والأهواز والعراق، ويحمل إليهم ضمان الموصل وديار ربيعة من الجزيرة وغيرها، هذا إضافةً إلى نفوذهم وسلطانهم المعنوي.

واقتتل جيش معز الدولة بن بويه وجيش أبي القاسم البريدي، فهُزم أصحاب البريدي وأُسر جماعة كثيرة من أعيانهم.

وخرج الخليفة المطيع لله ومعز الدولة من بغداد إلى البصرة، فاستنقذاها من يد أبي القاسم البريدي، وهرب هو وأكثر أصحابه، واستولى معز الدولة على البصرة، وبعث يتهدّد القرامطة ويتوعّدهم بأخذ بلادهم بالكلام ودون أن يتحرّك خطوةً واحدةً فالمرامي البعيدة واحدة والسهام موجّهة إليها والسير نحوها. وزاد معز الدولة في إقطاع الخليفة ضياعاً تعمل في كل سنةٍ مائتي ألف دينارٍ إذ غدا معز الدولة هو الأول في الخلافة وهو يمنح الخليفة ويُعطيه، ويمُنّ عليه.

وسار معز الدولة ليلقى أخاه عماد الدولة بالأهواز

فلما وصل إليه قبّل الأرض بين يديه وقام بين يديه مقاماً طويلاً احتراماً وتقديراً فأمره بالجلوس فلم يفعل. ثم عاد معز الدولة إلى بغداد بصحبة الخليفة.

أخذ ركن الدولة بن بويه بلاد طبرستان وجرجان من يد «وشمكير» أخي «مرداويج» ملك الديلم، فانطلق «وشمكير» إلى خراسان مستصرخاً.

وركب معز الدولة من بغداد إلى الموصل ليؤدّي مهمةً إعلاميةً فهرب منه ناصر الدولة بن حمدان إلى نصيبين دون صدامٍ بين الفريقين إذ لا يحتاج الأمر إلى فقدان رجالٍ، فتملّك معز الدولة بن بويه الموصل في رمضان سنة ٣٣٧هـ فظلم أهلها وأخذ أموالهم ليزدادوا محبةً لناصر الدولة بن حمدان وليشتدّ ارتباطهم به، وفعلاً كثر الدعاء على معز الدولة. وأعلن معز الدولة أنه قد عزم على أخذ البلاد كلها من ناصر الدولة بن حمدان، ومن يعزم على شيءٍ من أمور القتال لا يُعلنه ولا يصرّح به، ولكنه المخطط. وانتهت المهمة، فأُعلن أن ركن الدولة بن حمدان طلب من أخيه معز الدولة نجدةً إلى طبرستان، فاقتضى الأمر إلى مصالحة ناصر الدولة على أن يحمل ما تحت يده من بلاد الجزيرة والشام في كل سنةٍ ثمانية آلاف ألف درهمٍ، وأن يخطب له ولأخويه: عماد الدولة وركن الدولة على

منابر بلاده كلها ـ هكذا ارتأى وهكذا قرّر واشترط والطرف الثاني وافق ـ ففعل، وعاد معز الدولة إلى بغداد، وبعث إلى أخيه بجيشٍ هائلٍ، وأخذ له عهد الخليفة بولاية خراسان[1].

نهاية المطيع لله:

أصيب الخليفة المطيع لله بفالج سنة ٣٦٣هـ، وثقل لسانه، فدعاه حاجب عزّ الدولة «سبكتكين» إلى خلع نفسه، وتسليم الأمر إلى ولده عبد الكريم (الطائع لله) ففعل، وذلك يوم الأربعاء الثالث عشر من ذي القعدة سنة ٣٦٣هـ. فكانت مدة خلافته تسعاً وعشرين سنة وخمسة أشهرٍ. وكان يُعرف بعد خلعه بـ«الشيخ الفاضل».

وتوفي المطيع لله في مطلع سنة ٣٦٤هـ، في شهر المحرم منها، فكان عمره يوم وفاته ثلاثةً وستين سنةً.

الإمارات في عهد المطيع

سيطر البويهيون على الخلافة، ومع ذلك كانوا يمثّلون إماراتٍ محليةً متعددةً. وقد عمّ فكرهم على ديار الخلافة كلها دعماً وتأييداً، وإن اختلفت هذه الأفكار أصولاً

---

(١) البداية والنهاية: ابن كثير، أحداث سنة ٣٣٧هـ. يُنظر إلى هذه الأحداث من الناحية السياسية والعسكرية.

ومرمى، فالبويهيون من المتلوّنين، والحمدانيون من أصحاب العاطفة مع تعصّبٍ، والعبيديون من أصولٍ يهوديةٍ مع ادّعاء الانتساب لآل البيت حتى تسمّوا بالفاطميين، والقرامطة من أصول مجوسيةٍ مع ادّعاءاتٍ مختلفةٍ، وجميعهم يزعمون العمل لآل البيت، والتعاطف معهم.

أولاً: البويهيون:

وهم ثلاثة إخوة: عماد الدولة أبو الحسن عليّ، وركن الدولة أبو علي الحسن، ومعزّ الدولة أبو الحسين أحمد[1] أولاد أبي شجاع بويه بن فناخسرو بن تمام بن كوهي بن شيرزيل الأصغر بن شيركيده بن شيرزيل الأكبر بن شيران شاه بن شيرويه بن سيسان شاه بن سيس بن فيروز بن شيرزيل بن سنباد بن بهرام جُور الملك بن يزدجرد الملك بن سابور الملك بن سابور ذي الأكتاف الفارسي. ـ كذا نسبهم الأمير أبو نصر بن ماكولا في كتابه ـ وإنما قيل لهم: الديالمة، لأنهم جاوروا الديلم، وكانوا بين أظهرهم مدةً[2]، وقد كان أبوهم أبو شجاع بويه فقيراً فقراً مدقعاً، يصطاد السمك ويحتطب

(١) انظر التكلّف بالأسماء والكنى بغرض إظهار بعض المعاني.
(٢) لا بدّ لمن يُرسم له لعب دورٍ من أن يُغيّر موطنه لإخفاء الجذور التي ينتمي إليها وبعض المعاني.

بنوه الحطب على رؤوسهم، وقد ماتت امرأته، وخلّفت له هؤلاء الأولاد الثلاثة، فحزن عليها وعليهم[1].

سابور ذو الأكتاف
سابور
يزدجرد
بهرام
سنباد
شيرزيل
فيروز
مبيس
سيسان شاه
شيرويه
شيران شاه
شيرزيل الأكبر
شيركيله
شيرزيل الأصغر
كوهي
تمام
فناخسرو
بويه أبو شجاع

(١) البداية والنهاية: ابن كثير.

كان هؤلاء الإخوة الثلاثة عند ملكٍ يقال له: «ماكان بن كالي» في بلاد طبرستان، فتسلّط عليه «مرداويج» فضعف «ماكان»، فتشاوروا في مفارقته حتى يكون من أمره ما يكون، فخرجوا عنه ـ ومعهم جماعة من الأمراء ـ فصاروا إلى «مرداويج»، فأكرمهم، واستعملهم على الأعمال في البلدان، فأعطى عماد الدولة علي بن بويه نهاية الكرخ، فأحسن فيها السيرة، والتفّ عليه الناس وأحبوه، فحسده «مرداويج» وبعث إليه بعزله عنها، ويستدعيه إليه، فامتنع من القدوم عليه، وصار إلى أصبهان، فحاربه نائبها، فهزمه عماد الدولة هزيمةً منكرةً، واستولى على أصبهان، وإنما كان معه سبعمائة فارسٍ، فقهر بها عشرة آلاف فارسٍ، وعظم في أعين الناس، فلما بلغ ذلك «مرداويج» قلق منه فأرسل إليه جيشاً فأخرجه من أصبهان، فقصد أذربيجان، فأخذها من نائبها، وحصل له من الأموال شيء كثير جداً. ثم أخذ بلداناً كثيرةً واشتهر أمره، وبعُد صيته، وحسنت سيرته، فقصده الناس محبةً وتعظيماً، فاجتمع إليه من الجند خلق كثير، وجمّ غفير، فلم يزل يترقّى في مراقي الدنيا حتى آل به وبأخويه الحال إلى أن ملكوا بغداد من أيدي الخلفاء العباسيين، وصار لهم فيها القطع والوصل، والولاية والعزل، وإليهم تُجبى

الأموال، ويُرجع إليهم في سائر الأمور والأحوال[1].

كان كبيرهم علي أبو الحسن عماد الدولة يحكم فارس، وهو أمير الأمراء، وكان أخوه الحسن أبو علي ركن الدولة يحكم الريّ وهمدان وأصبهان، وكان أخوه الآخر وهو أصغرهم أحمد أبو الحسين معز الدولة يحكم باسم أخيه عماد الدولة العراق والأهواز وكرمان ونيابةً عنه، وكان فيهم تعسف شديد ومغالاة كبيرة في إظهار محبة الطالبيين باللسان دون القلب ومن غير محاولة لتقليد السلوك وفعل الخير.

وأقبل أحمد أبو الحسين معز الدولة بن بويه في جحافل عظيمةٍ من الجيوش قاصداً بغداد سنة ٣٣٤هـ في خلافة المستكفي بالله، فلما اقترب منها بعث إليه الخليفة المستكفي بالله الهدايا، وقال للرسول: أخبره أني مسرور به، وأني إنما اختفيت من شرّ الأتراك الذين انصرفوا إلى الموصل، وبعث إليه بالخلع والتحف، ودخل معز الدولة بغداد في جمادى الأولى من سنة ٣٣٤هـ، فنزل بباب الشماسية، ودخل من الغد إلى الخليفة فبايعه. ودخل عليه المستكفي بالله ولقّبه بمعز

(١) البداية والنهاية: ابن كثير.

الدولة، ولقب أخاه علياً أبا الحسن بعماد الدولة، وأخاه أبا علي الحسن بركن الدولة، وكتب ألقابهم على الدراهم والدنانير، ونزل معز الدولة بدار مؤنس الخادم، ونزل أصحابه من الديلم بدور الناس، فلقي الناس منهم ضائقةً شديدةً، وأمّن معز الدولة ابن شيرزاد، فلما ظهر استكتبه على الخراج، ورتّب للخليفة نفقاته ـ خمسة آلاف درهمٍ كل يومٍ ـ، واستقرّت الأمور على هذا النظام ـ والله أعلم ـ.

ولما كان اليوم الثاني والعشرين من شهر جمادى الآخرة حضر معز الدولة إلى الحضرة فجلس على سريرٍ بين يدي الخليفة، وجاء رجلان من الديلم فمدّا أيديهما إلى الخليفة فأنزلاه عن كرسيه وسحباه، وجعلا عمامته في حلقه، ونهض معز الدولة واضطربت دار الخلافة حتى خلص إلى الحريم، وتفاقمت الحال، وسيق الخليفة ماشياً إلى دار معز الدولة فاعتقل بها، وأُحضر أبو القاسم الفضل بن المقتدر فبويع بالخلافة، وسُملت عينا المستكفي بالله، وأُودع السجن، فلم يزل به مسجوناً حتى كانت وفاته سنة ٣٣٨هـ.

وكان علي أبو الحسن بن بويه عماد الدولة أول من ملك من بني بويه سنة ٣٢٢هـ، إذ كان على بلاد

فارس وعاصمته شيراز، واستمرّ في ملكه ست عشرة سنةً. وفي سنة ٣٣٨هـ قويت عليه الأسقام وتواترت عليه الآلام فأحسّ من نفسه بالهلاك، ولم يفده ولا دفع عنه أمر الله ما هو فيه من الأموال والملك وكثرة الرجال والأملاك، ولا ردّ عنه جيشه من الديلم والأتراك والأعجام، مع كثرة العدد والعُدد، بل تخلّوا عنه عندما كان أحوج ما كان إليهم، فسبحان الله الملك القادر القاهر العلّام.

ولم يكن لعماد الدولة ولد إذ كان عقيماً فأرسل إلى أخيه ركن الدولة الحسن أبي علي بن بويه يستدعيه إليه وولده عضد الدولة فناخسرو ليجعله ولي عهده من بعده، فلما قدم عليه فرح به فرحاً شديداً، وخرج بنفسه في جميع جيشه يتلقّاه، فلما دخل به إلى دار المملكة أجلسه على السرير وقام بين يديه كأحد الأمراء، ليرفع من شأنه عند أمرائه ووزرائه وأعوانه، ثم عقد له البيعة على ما يملكه من البلدان والأموال وتدبير المملكة والرجال، وفيهم من بعض رؤوس الأمراء كراهةً لذلك، فشرع في القبض عليهم، وقتل من شاء منهم، وسجن آخرين، حتى تمهّدت الأمور لعضد الدولة[١].

---

(١) البداية والنهاية: ابن كثير.

ثم كانت وفاة عماد الدولة في شيراز سنة ٣٣٨هـ عن عمرٍ يناهز السابع والخمسين[١]، وكان هو أمير الأمراء، وكان أخوه معز الدولة ينوب عنه في العراق والسواد.

وكان قد خرج رجل يقال له: عمران بن شاهين قد كان استوجب بعض العقوبات فهرب من السلطان إلى ناحية البطائح، وكان يقتات بما يصيده من السمك والطيور، والتفّ حوله عدد من الصيادين وقطّاع الطرق فقويت شوكته، واستعمله أبو القاسم البريدي على بعض تلك النواحي، وأرسل إليه معز الدولة بن بويه جيشاً مع وزيره أبي جعفر الصيمري، فهزم ذلك الصياد الوزير، واستحوذ على ما معه من الأموال، فقويت شوكة ذلك الصياد. ولما مات عماد الدولة اشتغل الوزير أبو جعفر الصيمري عن محاربة الصياد عمران بن شاهين وذلك أن معز الدولة كان قد كتب إليه أن يسير إلى شيراز ويضبط أمورها، فقوي أمر عمران بن شاهين بعد ضعفه.

ومات الوزير أبو جعفر الصيمري سنة ٣٣٩هـ، فاستوزر معز الدولة مكانه أبا محمد الحسين بن محمد

---

(١) كان عماد الدولة قد ولد سنة ٢٨١هـ.

المهلبيّ في شهر جمادى الأولى من السنة نفسها، فاستفحل أمر الصياد عمران بن شاهين، وتفاقم الأمر به فبعث إليه معز الدولة جيشاً بعد جيشٍ، كل ذلك يهزمهم مرةً بعد مرةٍ، ثم عدل معز الدولة إلى مصالحته واستعماله له على بعض تلك النواحي.

الفتن:

كان في كل عامٍ في العاشر من المحرم تقع فتنة في البلاد عامةً وفي بغداد خاصةً وذلك بين أهل العلم والعقل وبين العامة الذين يُحركّهم المتلوّنون فيندفعون عاطفةً وجهلاً ويتصرّفون تصرّفات يأباها الدين والعلم ويُنكرها العقل السليم ويمقتها المجتمع الحريص على وحدة الأمة.

كان معز الدولة بن بويه[1] يأمر في مطلع كل سنةٍ أن تغلق الأسواق، وأن تلبس النساء المسوح من

---

(١) معز الدولة بن بويه: أحمد أبو الحسين، ولد سنة ٣٠٣هـ، تولّى في صباه كرمان وسجستان والأهواز نيابةً عن أخيه عماد الدولة. وكان يقال له: الأقطع، لأن يده اليسرى قطعت في معركةٍ له مع الأكراد. امتلك بغداد سنة ٣٣٤هـ في خلافة المستكفي بالله، ودام ملكه أربعةً وعشرين سنةً إلا شهراً، وتوفي ببغداد سنة ٣٥٦هـ. كان سريع الغضب، بذيء اللسان، يسبّ وزراءه وعماله وخدمه، ويفتري عليهم.

الشعر، وأن يخرجن في الأسواق كاشفاتٍ عن وجوههن، ناشراتٍ شعورهن يلطمن وجوههن ينحن على الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ[1]، ولم يمكن

(١) قيل: لماذا لم يحدث هذا أيضاً في ١٧ رمضان يوم طعن عبد الرحمن بن ملجم الخارجي علي بن أبي طالب ﷺ وعليّ أفضل من ولده الحسين ﷺ والفتنة أسبق زمناً وأكثر خطراً؟
فأقول: إن هذا التصرّف وُجد أصلاً لإثارة الفتنة بين المسلمين، ولم يحدث فيما مضى أيام أسلافنا ولو كان فيه خير لما تركوه حتى يأتي هؤلاء المبتدعون. وإن القيام به بمناسبة مقتل علي بن أبي طالب ﷺ لم يحدث فتنة عارمة لأن الفئة التي طعن علياً ﷺ أحد أفرادها إنما هي فئة قليلة والمسلمون جميعاً ينكرون عليها آراءها التي تُؤدّي إلى مثل هذه التصرّفات المستنكرة، والمسلمون جميعاً يلعنون عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي بن أبي طالب ﷺ، فإن وقعت فتنة بإقامة تصرّفات بهذه المناسبة فإنما هي فتنة صغيرة لا تتعدّى أفراداً وخاصةً أن أكثر أفراد فئة الخوارج إنما يقيمون خارج المدن الكبرى وفي البراري والمروج والبوادي والسهوب، والفئة في تراجعٍ ونقصان، كما أن أفرادها لا يمثّلون قبائلَ معروفةً أو بطوناً من قريشٍ مشهورةً. والمتلوّنون يريدون فتنةً عارمةً تشمل مجتمعات الأمة كلها، فالصحابة الذين يطعن بهم المتلوّنون إنما يمثّلون بطون قريشٍ الرئيسة، كما أنهم من صحابة رسول الله ﷺ ومن المبشّرين بالجنة، فهم قدوة المسلمين جميعاً على مدار الأيام حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فكيف لا يدافعون عنهم؟ وبالمقابل فإن الطرف الآخر الذين يُحرّضهم المتلوّنون فإنهم من العامة، =

لأهل العلم والرأي أن يمنعوهم من ذلك لغلبة العامة، وكثرة الغوغائيين، وتحريض المتلوّنين لهم، ولادعاءاتِ إمامهم عن حسن ذلك والخير فيه.

وكان المتلوّنون يُحرّضون أحياناً أتباعهم على كتابة عباراتٍ على أبواب المساجد فيها لعن معاوية بن أبي سفيان ﵁ ولعن من غصب حق فاطمة ﵂ ويعنون

= والعامة كثير ما يُلعب بعواطفهم، تُثيرهم أقل الشائعات، وتحرّكهم أضعف الأقوال، فإذا وقعت فتنة بين هذين الفريقين كانت خطيرةً، وهذا ما يريده المتلوّنون وما يخططون، وتبقى آثارها واضحةً تُثار كل عامٍ وتُحرّك في هذه المناسبة.

وهناك ناحية أخرى لا يصحّ إغفالها أو التغاضي عنها، وهي أن الحسن بن علي بن أبي طالب ﵄، هو شقيق الحسين ﵁ وسبط رسول الله ﷺ مثله أي ابن فاطمة ﵂ فلماذا هذا الجفاء له والابتعاد عنه، وهذا دليل صريح على أنهم لا يحبون علياً ﵁ ولا أحداً من المسلمين وإنما تحرّكهم العصبية فهم يفضّلون الحسين على الحسن ﵄ لأن زوجة الحسين (سلافة) تعود وإياهم إلى أرومةٍ واحدةٍ ولكن حاشاها أن تُفكّر هي في هذا الموضوع، وابنها علي زين العابدين بن الحسين ﵄ يجعلون من أحفاده دون غيرهم سادةً لهم ومرجعاً، وينسبون لهم ما لا يقولونه، ويعطونهم صفات فوق مستوى البشر إفساداً وتهديماً، وحاشا لهؤلاء الأحفاد من الحسين بن علي ﵄ أن يُفكّروا بالذي يُنسب لهم أو يقال عنهم. ويفعل المتلونون ذلك تعميةً عن الأهداف، وإبعاداً عن التهم، وما الله بغافلٍ عما يعملون.

أبا بكر، ويلعنون من أخرج العباس ﷺ من الشورى، ويقصدون عمر ﷺ ويلعنون من نفى أبا ذر ﷺ ويعنون عثمان ﷺ ويلعنون من منع دفن الحسن عند جده، ويعنون مروان بن الحكم. وبلغ ذلك جميعه معز الدولة فلم يُنكره ولم يُغيّره.

وأمر معز الدولة أيضاً إظهار الزينة ببغداد وأن تفتح الأسواق بالليل كما في الأعياد، وأن تضرب الأبواق والدبادب، وأن تُشعل الأنوار في أبواب الأمراء وعند الشرط فرحاً بيوم ـ غدير خمّ ـ في الثامن عشر من شهر ذي الحجة من كل عامٍ.

وفي سنة ٣٤٠هـ قصد صاحب عُمان في مراكب كثيرةٍ البصرة ليأخذها، وجاء لنصرته أبو يعقوب الهَجَريّ، فحال بينه وبين هدفه أبو محمد المهلبي وزير معز الدولة، وصدّه عن البصرة، وأسر جماعةً من أصحابه، وغنم كثيراً من مراكبه، وأبحر بها في نهر دجلة، ودخل بها بغداد في أبهةٍ عظيمةٍ.

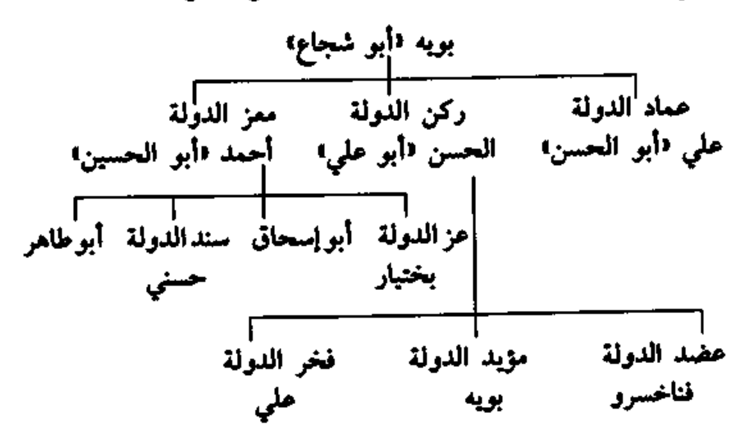
وفي سنة ٣٤٥هـ انحاز «الروزبهان» إلى الأهواز وعصى على معز الدولة، ولحق به عامة من كان مع أبي محمد الحسين بن محمد بن هارون المهلبيّ الذي كان يحاربه، فلما بلغ الخبر معز الدولة لم يصدقه لأنه كان

قد أحسن إليه، ورفع من قدره بعد الضعة والخمول، ثم تبيّن له أن ذلك حق، فخرج لقتاله وتبعه الخليفة المطيع لله خوفاً من ناصر الدولة الحمداني، فإنه قد بلغه أنه جهّز جيشاً مع ولده إلى بغداد ليأخذها ـ ومن يريد الهجوم يفعل ذلك بغاية الكتمان، فالخبر للتمثيل ـ فأرسل معز الدولة حاجبه سبكتكين إلى بغداد، ولكن لم يأت جيش ابن ناصر الدولة، وصمد معز الدولة إلى «الروزبهان» فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم هزمه معز الدولة وفرّق أصحابه وأخذه أسيراً إلى بغداد فسجنه، ثم أخرجه ليلاً وألقاه في دجلة فذهب غريقاً، لأن الديلم كانوا يريدون إخراجه من السجن قهراً، وانطوى ذكر الروزبهان وإخوته، وزادت حظوة الأتراك عند معز الدولة وانحطت رتبة الديلم بعدما رأى من وقوفهم مع الروزبهان ضده، إذ خرج على معز الدولة بشيراز «بلكا» عندما خرج أخوه الروزبهان بن ونداد خورشيد الديلمي، كما خرج أخوهما «أسفار» بالأهواز، وكان يقاتل عمران بن شاهين بالبطيحة فعاد إلى واسط، وسار إلى الأهواز في شهر رجب سنة ٣٤٥هـ، وبها الوزير أبي محمد المهلبيّ فأراد محاربة «الروزبهان» غير أن رجاله من الديلم قد استأمنوا الروزبهان لذا انحاز عنه المهلبيّ.

وتتمةً للدور المرسوم ولما قيل فإن معز الدولة عندما رجع إلى بغداد تجهّز لقتال ناصر الدولة الحمداني بالموصل، فراسله ناصر الدولة والتزم له بأموالٍ يحملها إليه كل سنةٍ، فسكت عنه. وسرت شائعات في المدينة بين الناس أن ذلك حرب كلامٍ، فرجع معز الدولة عما قاله، وقصد ناصر الدولة في شهر المحرم سنة ٣٤٧هـ، ودخل الموصل دون قتالٍ أو أيّ تصرّفٍ عدوانيٍ، وخرج ناصر الدولة مع بعض مرافقيه إلى نصيبين ثم إلى ميافارقين، فلحقه معز الدولة فصار إلى حلب إلى عند أخيه سيف الدولة، ثم أرسل سيف الدولة إلى معز الدولة في المصالحة بينه وبين أخيه، فوقع الصلح على أن يحمل ناصر الدولة في كل سنة ألفي ألف وتسعمائة ألف إلى معز الدولة في بغداد، ورجع كل إلى مقرّه بعد انعقاد الصلح، وكأن شيئاً لم يكن، غير أن أهل العلم والرأي كانوا يضحكون من هذه التصرّفات أمام المجتمع، ويغمزون سرّاً بهم، إذ لا قوة لهم، ولا جماعة خلفهم، ولا مظلّة تقيهم، ولا سلطان يحميهم، وأما العامة فتحرّكهم العواطف، ويسعون وراء المصالح، وتوجّههم الادعاءات، ويدفعهم المتلوّنون الذين هم رجال السلطة وأصحاب القوة، والمسيطرون على الساحة لذا امتلأت البلاد تلوّناً وسبّاً للصحابة من

بني بويه، وبني حمدان، والفاطميين، والسامانيين إضافةً إلى القرامطة، وما فئة عن الأخرى ببعيدةٍ في أهدافها ومراميها.

وعندما رجع معز الدولة من الموصل إلى بغداد زوّج ابنته من ابن أخيه مؤيّد الدولة بن ركن الدولة.



وفي سنة ٣٤٩هـ ظهر رجل بأذربيجان من أبناء عيسى بن الخليفة المكتفي بالله، ولقّب نفسه بـ«المستجير بالله» ودعا إلى الرضا من آل محمد، وذلك لفساد دولة المرزبان في أذربيجان في ذلك الوقت، فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم انهزم أصحاب المستجير بالله، وأُخذ أسيراً فمات، وانتهى أمره.

ومرض معز الدولة بن بويه بانحصار البول في شهر المحرم سنة ٣٥٠هـ فقلق كثيراً، وجمع بين صاحبه

سبكتكين ووزيره المهلبيّ، وأصلح بينهما، وأوصاهما بولده بختيار خيراً. ثم عوفي معز الدولة من مرضه، فعزم على الرحيل إلى الأهواز لاعتقاده أن ما أصابه من هذه العلّة بسبب هواء بغداد ومائها، فأشاروا عليه بالمقام بها، وأن يبني بها داراً في أعلاها حيث الهواء أصفى والماء أنقى ففعل.

وخرج معز الدولة من بغداد إلى واسط سنة ٣٥٥هـ لقتال عمران بن شاهين حين اشتهر أمره وتفاقم خطره في تلك النواحي، فاشتدّ المرض بمعز الدولة فاستناب على الحرب ورجع إلى بغداد، وأصبح لا يثبت شيء أبداً في معدته، ولما أحسّ بالموت أظهر التوبة، وأناب إلى الله عزّ وجلّ، وردّ كثيراً من المظالم، وتصدّق بكثيرٍ من ماله، وأعتق كثيراً من مماليكه، وعهد من بعده إلى ولده بختيار عزّ الدولة. وفي الثالث عشر من ربيع الأول سنة ٣٥٦هـ توفي معز الدولة. ولما مات قام بالأمر بعده ولده بختيار فبعث إلى رؤوس الأمراء في هذه السنة بمالٍ جزيلٍ لئلا تجتمع الدولة على مخالفته قبل مبايعته، وهذا من دهائه، ولما تمّ له الأمر أقبل على اللعب واللهو والاشتغال بأمر النساء، فتفرّق شمله، واختلفت الكلمة

عليه، وطمع الأمير منصور بن نوح الساماني صاحب خراسان في ملك بني بويه، وأرسل الجيوش الكثيرة بصحبة «وشمكير»، فلما علم بذلك ركن الدولة بن بويه أرسل إلى ابنه عضد الدولة وإلى ابن أخيه عز الدولة يستنجدهما، فأرسلا إليه بجنودٍ كثيرةٍ فركب فيها ركن الدولة، وبعث إليه «وشمكير» يتهدّده ويتوعّده، ويقول: لئن قدرت عليك لأفعلنّ بك ولأفعلنّ، فبعث إليه ركن الدولة يقول: لكني إن قدرت عليك لأُحسننّ إليك ولأصفحنّ عنك. فكانت الغلبة لهذا، فرفع الله عنه شره، ذلك أن «وشمكير» ركب فرساً صعباً يتصيّد عليها، فحمل عليها خنزير فنفرت منه الفرس فألقته على الأرض فخرج الدم من أُذنيه فمات من ساعته، وتفرّقت العساكر، وبعث ابن وشمكير يطلب الأمان من ركن الدولة فأرسل إليه بالمال والرجال، ووفى بما قال من الإحسان، وصُرف عنه كيد السامانيين.

ومع انتشار الادّعاء إلى آل بيت رسول الله ﷺ كثر الأدعياء فشاع الخبر ببغداد وغيرها من البلاد أن رجلاً ظهر يقال له: محمد بن عبد الله، وتلقّب بالمهدي، وزعم أنه الموعود به، وأنه يدعو إلى الخير، وينهى عن الشرّ، ودعا إليه ناس ممن يدعون أنهم من

أشياع آل البيت، وقالوا: هذا من أعواننا، وكان هذا الرجل إذ ذاك مقيماً بمصر عند كافور الأخشيدي قبل أن يموت (سنة ٣٥٧هـ)، وكان يكرمه، وكان من جملة المستحسنين له سبكتكين الحاجب وكان ممن يدّعي محبة آل البيت وأنه من مؤيّديهم ويغالي في إظهار ذلك فظنّه كذلك، وكتب إليه أن يقدم إلى بغداد ليأخذ له البلاد، فارتحل من مصر قاصداً العراق فتلقّاه سبكتكين الحاجب إلى قريب الأنبار، فلما رآه عرفه وإذا هو محمد بن المستكفي بالله العباسي، فلما تحقّق أنه عباسيّ وليس بطالبيّ غيّر رأيه فيه، فتفرّق شمله، وتمزّق أمره، وذهب أصحابه كل مذهبٍ، وحُمل إلى معز الدولة فأمنه وسلّمه إلى الخليفة المطيع لله، فجدع أنفه، واختفى أمره، فلم يظهر له خبر بالكلية بعد ذلك.

وأراد عز الدولة بن معز الدولة قتال الصياد عمران بن شاهين سنة ٣٥٩هـ فسار إليه غير أنه لم يقدر عليه فصالحه ورجع إلى بغداد.

وأمدّ عزّ الدولة سنة ٣٦٠هـ القرامطة بسلاحٍ وعُدَدٍ كثيرةٍ وقد دخل القرامطة دمشق واتجهوا إلى الرملة ومنها إلى مصر.

وفي سنة ٣٦١هـ وقعت جفوة بين الخليفة

المطيع لله وبين عز الدولة، وذلك عندما دخلت الروم ديار الإسلام من جهة الجزيرة الفراتية فقتلوا خلقاً كثيراً من أهل الرها ووصلوا إلى نصيبين ففعلوا بها كما فعلوا بالرها فهام أهل الجزيرة على وجوههم ووصلوا إلى بغداد، وأرادوا أن يدخلوا على الخليفة يستنصرونه ويستصرخونه، فرثا لهم أهل بغداد، وجاءوا معهم إلى الخليفة، فلم يمكنهم ذلك. وكان عز الدولة البويهي مشغولاً بالصيد، فذهبت الرسل وراءه، فبعث الحاجب سبكتكين يستنفر الناس، فاستنهض الناس واستعدّوا، فكتب سبكتكين إلى أبي تغلب بن ناصر الدولة أن يستعدّ ويُعدّ المال والإقامة. وأرسل عزّ الدولة بختيار بن معزّ الدولة إلى الخليفة المطيع لله يطلب منه أموالاً يستعين بها على الغزو، فبعث إليه يقول: لو كان الخراج يأتي إليّ لدفعت منه ما يحتاج المسلمون إليه، ولكن يأتي إليك وأنت تصرف منه في وجوهٍ ليس بالمسلمين إليها ضرورة، وأما أنا فليس عندي شيء أرسله إليك، فترددت الرسل بينهم، وأغلظ بختيار للخليفة في الكلام، وتهدّده، فاحتاج الخليفة أن يُحصّل له شيئاً فباع بعض ثياب بدنه، وشيئاً من أثاث بيته، ونقض بعض سقوف داره، وحصّل له أربعمائة ألف درهم، فصرفها بختيار عز الدولة في مصالح نفسه،

وأبطل تلك الغزاة، فنقم الناس للخليفة، وساءهم ما فعل به ابن بويه المتلوّن من أخذه مال الخليفة وتركه الجهاد.

وسار بختيار عز الدولة إلى الموصل، وزوّج ابنته بابن أبي تغلب بن ناصر الدولة الحمداني. وقد وقعت فتنة كبيرة بالبصرة بين الديالم والأتراك، فقويت الديلم على الترك بسبب أن المُلك فيهم حيث يُعدّ بنو بويه منهم اسماً ـ كما ذكرنا ـ فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وحبسوا كبارهم، ونهبوا كثيراً من أموالهم. وكتب عز الدولة إلى أهله ببغداد: إني سأكتب إليكم أني قدمتّ، فإذا وصل إليكم الكتاب فأظهروا النياحة، واجلسوا للعزاء، فإذا جاء سبكتكين للعزاء فاقبضوا عليه فإنه ركن الأتراك ورأسهم. فلما جاء الكتاب إلى بغداد بذلك، أظهروا النوح وجلسوا للعزاء، ففهم سبكتكين أن هذه مكيدة فلم يقربهم، وتحقّق العداوة بينه وبين عز الدولة، وركب من فوره في الأتراك فحاصر دار عز الدولة يومين، ثم أنزل أهله منها ونهب ما فيها، وبعث بهم إلى واسط منفيين، وكان قد عزم على إرسال الخليفة المطيع لله معهم، فتوسّل إليه الخليفة فعفا عنه، وأقرّه بداره، وقويت شوكة سبكتكين والأتراك في بغداد،

ونهب الأتراك دور الديالم، وكانت العامة مع الأتراك، وأحرقوا محلة الكرخ لأنها محلة أعوان الديالم من حيث العقيدة. وتغلبت الأرومة عند سبكتكين على العقيدة لمصلحته الذاتية مما يدلّ على تفاهة ما أظهر من تعصّبٍ للطالبيين إذ تخلّى عن ذلك عصبيةً لجماعته.

ثم خلع الخليفة المطيع لله نفسه في التاسع عشر من ذي القعدة سنة ٣٦٣هـ بناءً على رأي سبكتكين وعُقدت البيعة لولده الطائع لله.

ثانياً: بنو حمدان:

وتعود هذه الأسرة إلى حمدان بن حمدون بن الحارث التغلبي الوائلي. وأول من ظهر من هذه الأسرة الحسين بن حمدان سنة ٢٨٣هـ حيث قاتل مع الخليفة الخوارج الذين يتزعّمهم هارون بن عبد الله، فقصده وأسره، فارتفعت مكانة الحسين بن حمدان عند الخليفة المعتضد، وأقام ببغداد إلى أن كانت فتنة خلع الخليفة المقتدر بابن المعتزّ، فكان الحسين من أنصار ابن المعتزّ، فلما أُعيد المقتدر رحل الحسين بأهله إلى الموصل، فطلبه المقتدر فلم يظفر به، فبعث إليه بالأمان، فعاد إلى بغداد، فولّاه بلدة «قم»، فسار إليها، ثم عاد فامتنع على الخليفة المقتدر، فسيّر الجيوش في

طلبه، ورضي عنه بعد ذلك فولّاه ديار ربيعة فأقام بقاعدتها الموصل، فبقي فيها حتى عزله علي بن عيسى وزير المقتدر، فعاد الحسين إلى الخروج عن الطاعة، واجتمع له في الجزيرة نحو عشرين ألف مقاتل، ولكن لم يلبث أن تفرّق جيشه، وقُبض عليه أسيراً ومعه ابنه عبد الوهاب وجميع أهله. ثم سار مؤنس به إلى بغداد ومعه ابنه فحُبسا. وقبض المقتدر على أخيه عبد الله أبي الهيجاء بن حمدان وعلى إخوته كلهم وحبسوا، وكان قد هرب بعض أبناء الحسين بن حمدان فجمع جمعاً ومضى نحو آمد، فأوقع بهم نائبها وقتل ابن الحسين وبعث رأسه إلى بغداد، ثم قُتل الحسين بن حمدان في جمادى الأولى سنة ٣٠٦هـ.

ومنهم إبراهيم بن حمدان، وقد ولّاه الخليفة المقتدر ديار ربيعة فلم تطل إقامته فيها وعاجلته المنية سنة ٣٠٨هـ.

ومنهم عبد الله بن حمدان أبو الهيجاء والد ناصر الدولة وسيف الدولة، ولّاه الخليفة المكتفي بالله الموصل وأعمالها سنة ٢٩٣هـ، فأقام إلى أن عزله الخليفة المقتدر بالله سنة ٣٠١هـ، فقدم بغداد، ثم أعاده الخليفة، ثم قبض عليه سنة ٣٠٣هـ مع أخيه الحسين بن

حمدان، وأطلقه سنة ٣٠٥هـ، وقلّده طريق خراسان والدينور سنة ٣٠٨هـ فكان يتولّى ذلك وهو ببغداد، وضمن أعمال الخراج والضياع بالموصل والبلاد المجاورة لها سنة ٣١٥هـ، ثم قتله أحد رجال المقتدر بالله في فتنه خلعه والبيعة للقاهر بالله سنة ٣١٧هـ.

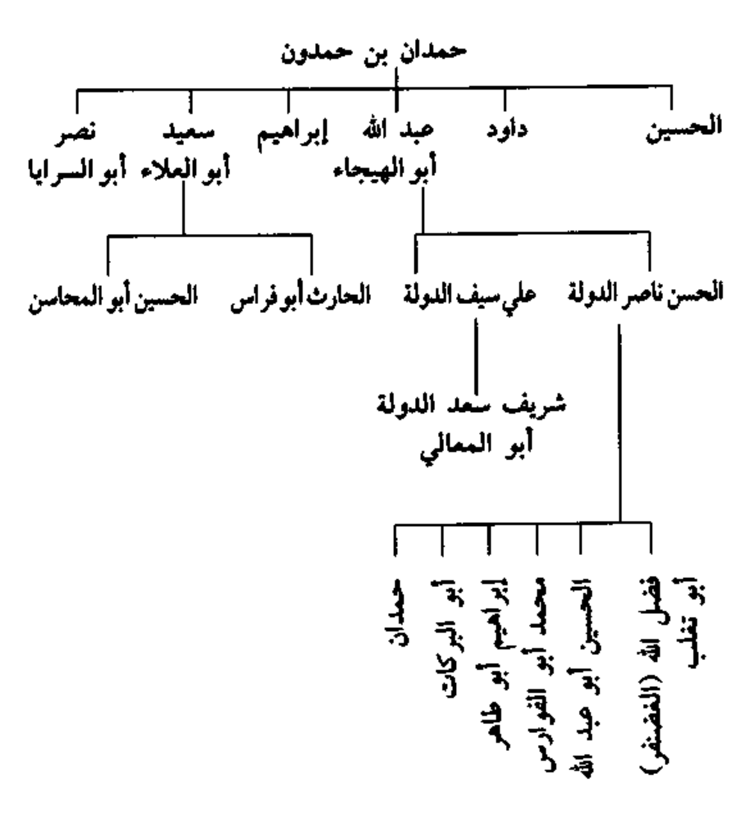
ومنهم داود بن حمدان، ويُضرب المثل بشجاعته، كان قد ربّاه مؤنس قائد جيش الخليفة المقتدر بالله، فلما امتنع مؤنس على المقتدر بالله حاربه بنو حمدان وفي جملتهم داود فأصابه سهم فقتله وذلك سنة ٣٢٠هـ.

ومنهم نصر أبو السرايا بن حمدان، ولي الموصل سنة ٣١٨هـ، وكان أصغر إخوته سناً، وقاتل الخوارج، قتله الخليفة القاهر بالله العباسي سنة ٣٢٢هـ بسبب جاريةٍ.

ومنهم سعيد أبو العلاء بن حمدان والد أبي فراس الحمداني الشاعر، وقد قُتل سعيد سنة ٣٢٣هـ، قتله ابن أخيه الحسن بن عبد الله أبي الهيجاء والملقب بناصر الدولة، وسبب ذلك أن ناصر الدولة كان على الموصل من قبل الخليفة الراضي بالله، فطالبه الراضي بمال الضمان فماطل، واشترط على الراضي أن يكتب له عهداً بإثباته في ولاية الموصل، فراوغ الراضي، واتفق

سرّاً مع سعيد على أن يُولِّيه الموصل بشروطٍ أفضل من الشروط التي كان ناصر الدولة متعهداً بها. وأمر الراضي سعيداً أن يدخل الموصل ببعض غلمانه بحجة أنه يريد مفاوضة ابن أخيه ناصر الدولة بشأن المال الذي عليه، ولكن ناصر الدولة ارتاب بأمره على تكتّمه، ولم يكد سعيد يذهب بغلمانه الخمسين ليدخل الموصل حتى تظاهر ناصر الدولة بأنه خارج إلى لقائه، ولكنه اتخذ طريقاً غير الطريق التي كان سعيد قادماً فيها، فدخل سعيد المدينة وسار إلى قصر ابن أخيه، وهذا ما كان يرغب فيه ناصر الدولة، لأن عمه أصبح في حوزته، فأرسل إليه بعض غلمانه فقتلوه ونكّلوا به.

وهكذا فقد مات أبناء حمدان بن حمدون جميعاً قبل مرحلة سيطرة البويهيين على الخلافة العباسية، وانحصرت زعامة بني حمدان بعدها في ولدي عبد الله بن حمدان أبي الهيجاء، وهما ناصر الدولة الحسن، وسيف الدولة عليّ، وقد حصلا على لقبيهما ناصر الدولة وسيف الدولة سنة ٣٣٠هـ بعد مقتل محمد بن رائق، وفي ولدي سعيد بن حمدان أبي العلاء، وهما الحارث أبو فراس، والحسين أبو المحاسن، وأولادهم.



كان الحمدانيون يظهرون العاطفة نحو الطالبيين، وهذا ما دفع المتلوّنين نحوهم فكانوا يتكلّمون عنهم بخيرٍ في كل مجلسٍ ويُثنون عليهم في كل مجتمعٍ، ويُحاولون الرفع من مكانتهم في كل مجالٍ رغبةً في كسب جماعةٍ قويةٍ من العرب كي يتولّون أمرهم في المستقبل دون أن تكون هناك حساسية عصبيةٍ إن كان المسؤول عنهم من غير العرب.

لما نشط بنو بويه، وقويت الدعاية لهم، واستطاع معزّ الدولة البويهي من دخول بغداد والسيطرة على الخلافة سنة ٣٣٤هـ قوي إظهار التوجّه عند الحمدانيين نحو الطالبيين، وازداد الارتباط مع البويهيين، ولكن ليس من المصلحة إظهار ذلك حتى لا يُثير ذلك الجانب الآخر، ويقتضي الأمر إخفاء الحقيقة والتعمية على الأحداث لذا كانت تحدث خلافات مصطنعة بين البويهيين والحمدانيين تؤدّي إلى تحركاتٍ وتنتهي بالمصالحات ولكن تذرّ الرماد بالعيون، وتضع غطاءً شفافاً على الساحة يشفّ على ما تحته للمفكّر ويُخفي ذلك على غيره.

وتسلّم سيف الدولة الحمداني حلب سنة ٣٣٣هـ فكان على الثغور الشامية والجزرية مع الروم وكثيراً ما كانت المواجهات معهم، وغالباً ما تكون الغلبة للروم فيدخلون الثغور الإسلامية والمدن فيفعلون الأفاعيل من قتلٍ وأسرٍ وسبيٍ ونهبٍ ويرجعون متغطرسين جبابرةً، وربما ينتصر سيف الدولة أحياناً بجهود جنده. وما تفوّق الروم على المسلمين على هذه الجبهة إلا لسببين اثنين:

١" ـ **عدم رفع راية الجهاد:** والجهاد هو الدافع الأساسي للمسلمين للقتال في سبيل الله أملاً في

ثواب الله ورغبةً بنيل الشهادة وهي الأمل العظيم والفوز الكبير بجنّةٍ عرضها السموات والأرض تجري من تحتها الأنهار والخلود فيها أبداً ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء الله. وما انتصارات المسلمين الأولى إلا بالجهاد حتى ظنّ الأعداء أن المسلمين لا يُهزمون أبداً، وهو ظنّ صحيح إلى درجةٍ كبيرةٍ فبإخلاص النيّة لله، والصدق بالقول والعمل للدعوة لدين الله لا يكون معه إلا نصر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾[1]، والمسلم المجاهد الصادق هو أقوى من أيّ مقاتلٍ في الدنيا سوى أمثاله من المسلمين ذلك لأنه يطلب الشهادة فلا يهاب الموت بل يسعى إليه، لذا فالأعداء يخافون جهاد المسلمين ويخشونه ويعملون على إبعاده عن الساحات القتالية وإبعاد وإلصاق صفاتٍ غير حسنةٍ بالداعين له والحاملين راياته.

والحمدانيون رغم الصراع الدائر والقتال الدائم بينهم وبين الروم لكنهم لم يُعلنوا الجهاد، ولم يرفعوا راياته، ولم يحثّوا الجند على القتال في سبيل الله، لذا كانوا يخرجون وقلوبهم عند أهليهم، وهمّهم بالسلامة والنهب والسلب كقتال القبائل بعضها لبعضٍ. وبلاط

---

(١) سورة محمد: الآية ٧.

سيف الدولة العامر بالشعراء أمثال المتنبي، وأبي فراس الحمداني ابن عمْ سيف الدولة وغيرهما غير أن شعر الجهاد ليس له حساب في هذا المكان، ولا هو في هذا المجال، وليس معنى هذا أن الحمدانيين لا يريدون النصر على الروم، بلى يريدونه ولكن لا يبغون رفع هذا الشعار الذي يُعطي الصفة الدينية مع العلم أن الروم كان البطارقة يتقدّمون جندهم، ويُعطون قتالهم الصفة النصرانية، ويحثّون جندهم على هذا.

وأبو فراس الحمداني وهو الشاعر المجيد، وابن هذه الأسرة، وأحد مقاتليها بل واحد من قادتها فإن شعره خالٍ من معاني الجهاد، وقد وردت كلمة النصارى في شعره مرةً واحدةً وقد بعث برسالةٍ إلى سيف الدولة يحثّه على المفاداة لفكّ أسره.

وتأبى وآبى أن أموت موسّداً

بأيدي النصارى موت أكمد أكبد

هذا رغم الشجاعة التي يحاول أن يُبديها بشعره والقوة التي يعمل على أن يُظهرها، ولكن لا يفكر بموضوع الجهاد والقتال في سبيل الله، ودعوة جنده لهذا.

٢" ـ شخصية سيف الدولة: رغم كل ما قيل في

سيف الدولة من ثناءٍ على شجاعته وبطولته وإقدامه ورجولته في سبيل الدعاية له لتوطيد ما يحمل من فكرٍ وتثبيت ما يدعو له ولإيجاد الرغبة لدى الناس للانضواء تحت سلطانه والخضوع لقيادته كي يمتدّ بذلك نفوذ الذين يتعاون معهم، وقد دوّنت تلك الدعاية في ذلك العصر ولا تزال تطفح بها الكتب حتى اليوم حيث يدوّن الكُتّاب ما يقرؤون، وينقلون ما قد سُجّل ويبقى الاستمرار في تجديد ما قيل ورغم ذلك فإن سيف الدولة كان جباناً يهاب الموت ويرهب الردى ويهوى أن يعيش مخلّداً فلا يتقدّم الجيش وهو القائد ولا يندفع أمام الجند وهو الرأس بل كان يُنيب عنه قائداً، ويُعطي الكتائب للأمراء، ويقف هو على تلّةٍ مُشرفةٍ على الجيش من بعيدٍ يُراقب ما يجري، ويُرسل بالتعليمات التي يراها، ويُقدّر الأعطيات حسبما يظهر له، فإذا ما انتصر جيشه وتقدّم سار وراءه بعد ما تمت السلامة، وإذا ما انهزم وتراجع سار مع طلائع المتراجعين مبتسماً لهم على سلامتهم. وكان المتنبي يغمز منه في موضع المدح وقد لا يلفت الانتباه. فمثلاً يقول له في القصيدة التي يمدحه بها والتي مطلعها:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

وتأتي على قدر الكرام المكارم

فيغمز منه المتنبي ومن موقفه فيقول:

تمرّ بك الأبطال كلمى هزيمةً

ووجهك وضّاح وثغرك باسم

فأخذ ذلك بموضع المدح وكثر الشارحون لها يومذاك بالمدح ولا يزال الأمر كذلك ما دامت القصيدة في موضع المدح، وبعد معركةٍ تقدّم جيشه في بدايتها وانتصر، ثم عاد فتقهقر وتراجع.

وقد جرت عادة المتأخرين أن يشرحوا ما سبق تدوينه على أنه حقيقة، وقد يُعلّلون أموراً ليتفق المدوَّن مع الواقع. ففي القصيدة السابقة يقول المتنبي:

هل الحَدَثُ الحمراء تعرف لونَها

وتعلم أيّ الساقيين الغمائم

سَقَتْها الغمام الغرّ قبل نزوله

فلما دنا منها سقتها الجماجم

بناها فأعلى والقنا تقرع القنا

وموج المنايا حولها متلاطم

والحَدَثُ قلعة حصينة بين ملاطية وسُمَيساط ومرعش من الثغور، ويُقال لها الحمراء لأن تربتها جميعاً حمراء، وقلعتها على جبلٍ يقال له الأُحيدب،

وكان الحسن بن قحطبة قد غزا الثغور وأشجّ العدو، فلما قدم على المهدي أخبره بما في بناء طرسوس والمصيصة من المصلحة للمسلمين، فأمر ببناء ذلك، وأن يكون بالحدث، وذلك سنة ١٦٢هـ. وفي كتاب أحمد بن يحيى بن جابر: كان حصن الحَدَث مما فتح في أيام عمر ﷺ، فتحه حبيب بن مسلمة الفهريّ من قبل عياض بن غَنْم، وكان معاوية يتعاهده بعد ذلك، وكان بنو أمية يُسمّون درب الحَدَث درب السلامة للطيرة، لأن المسلمين أُصيبوا به، وكان ذلك الحَدَث الذي سُمّي به الحَدَث فيما يقول بعضهم، وقال آخرون: لقي المسلمين على درب الحَدَث غلام حدث فقاتلهم في أصحابه قتالاً استظهر فيه، فسمّي الحدث بذلك الحدث، ولما كان في فتنة مروان بن محمد خرجت الروم فقدمت مدينة الحدث، وأَجْلَت عنها أهلها كما فعلت بملاطية، فلما كان سنة ١٦١هـ خرج ميخائيل إلى عمق مرعش، ووجّه المهدي الحسن بن قحطبة فساح في بلاد الروم حتى ثقلت وطأته على أهلها وحتى صوّروه في كنائسهم، وكان دخوله من درب الحَدَث فنظر إلى موضع مدينتها، فأُخبر أن ميخائيل خرج منه فارتاد الحسن موضع مدينة هناك، فلما انصرف كلم المهدي في بنائها وبناء طرسوس، فأمر بتقديم بناء

الحدث وكان في غزوة الحسن هذه مندل العنزي المحدث، ومعتمر بن سليمان البصري[1]، فأنشأها علي بن سليمان[2] وهو على الجزيرة وقنّسرين. ومات المهدي مع فراغهم من بنائها، وكان بناؤها باللَّبِن، وكانت وفاته سنة ١٦٩هـ، واستُخلف موسى الهادي فعزل علي بن سليمان، وولّى الجزيرة وقنسرين محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس[3]،

(١) معتمر بن سليمان بن طرخان، الإمام الحافظ القدوة، أبو محمد بن الإمام أبي المعتمر التيمي البصري، وهو من موالي بني مرة، ونُسب إلى تيم لنزوله فيهم هو وأبوه. كان من كبار العلماء، ثقة. ولد سنة ١٠٦هـ، ومات بالبصرة سنة ١٨٧هـ.

(٢) علي بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس، أبو الحسن: أمير من الولاة، ولي لموسى الهادي مصر سنة ١٦٩هـ، وكان بالعراق فرحل إليها، وحسنت سيرته. ومات الهادي، وولي الخلافة هارون الرشيد، فأقرّه على الإمارة، وطمع علي بالخلافة، وفاتح بعض أهل مصر بذلك، فكتبوا إلى الرشيد، فعزله سنة ١٧١هـ، وعاد إلى العراق، فولّاه الرشيد بعض الأعمال في الجيش، واستمر مكرماً إلى أن مات سنة ١٧٨هـ.

(٣) محمد بن إبراهيم (الإمام) بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس: كان مقيماً ببغداد، وولي إمارة الحج والمسير بالناس إلى مكة في أيام المنصور عدة سنين، ثم عزله المهدي، وولّاه موسى الهادي الجزيرة وقنسرين، ثم أقام بعدها في بغداد إلى أن توفي سنة ١٨٥هـ. وكان يجلس لولده وولد ولده في كل يوم خميس يعظهم ويُحدّثهم.

وكان فرض علي بن سليمان بمدينة الحدث لأربعة آلافٍ فأسكنهم إياها، ونقل إليها من أهل ملاطية وسميساط وشمشاط وكيسوم ودلوك ورعبان[1] ألفي رجلٍ، وفرض لهم في أربعين من العطاء. قال الواقدي: ولما بنيت مدينة الحَدَث هجم الشتاء، وكثرت الأمطار، ولم يكن بناؤها وثيقاً فهدم سور المدينة وشَعّثها، ونزل بها الروم فتفرّق عنها من كان نزلها من الجند وغيرهم، وبلغ الخبر موسى الهادي فقطع بعثاً مع المسيّب بن زهير[2]، وبعثاً مع روح بن حاتم[3]، وبعثاً

---

(١) بلدان في منطقة الثغور.

(٢) المسيب بن زهير بن عمرو الضبيّ، أبو مسلم: قائد من الشجعان، ولد سنة ١٠٠هـ، وكان على شرطة المنصور والمهدي والرشيد ببغداد، وولّاه المهدي خراسان مدةً قصيرةً، مات في مِنى سنة ١٧٥هـ، ودُفن أسفل العقبة.

(٣) روح بن حاتم بن المهلّب بن أبي صفرة الأزدي: أمير، من الأجواد الممدوحين، كان حاجباً للخليفة المنصور، وولّاه الخليفة المهدي السند، ثم نقله إلى البصرة، فالكوفة. وولّاه الرشيد على منطقة بيت المقدس، ثم صرفه عنها، فتوجّه إلى بغداد، فوافق وصوله نعي أخيه (يزيد بن حاتم أمير إفريقية)، فأرسله الرشيد إليها والياً على القيروان سنة ١٧١هـ، فاستمر إلى أن مات فيها. ودُفن إلى جانب أخيه. وكان موصوفاً بالعلم والشجاعة والحزم، وكانت وفاته سنة ١٧٤هـ.

مع عمرو بن مالك فمات قبل أن ينفذوا، ثم ولي الرشيد الخلافة فدفع عنها الروم، وأعاد عمارتها، وأسكنها الجند، وكانت عمارتها على يد محمد بن إبراهيم، ثم لم ينته إليّ شيء من خبره إلا ما كان في أيام سيف الدولة بن عبد الله بن حمدان، وكان له وقعات، وخرّبتها الروم في أيامه، وخرج سيف الدولة في سنة ٣٤٣هـ لعمارتها، فعمره، وأتاه الدمستق في جموعه فردّهم سيف الدولة مهزومين[١].

ولما وردت في شعر المتنبي:

بناها فأعلى والقنا تقرع القنا

وموج المنايا حولها متلاطم

والقصد الترميم والإصلاح ومع ذلك فقد عُدّ سيف الدولة باني الحَدَث ودوّن ذلك الأدباء وأخذه المؤرّخون واستمر وشاع، وأضيف إلى سيف الدولة أمور لم يقم بها، كان القصد منها الدعاية والمدح، فغدا تاريخاً.

وكانت دار سيف الدولة الحمداني في شمالي حلب وما أن يقترب الروم من حلب حتى يفرّ سيف

---

(١) معجم البلدان: ياقوت الحموي.

الدولة إلى «خناصر» جنوب مدينة حلب بحوالي أربعين كيلو متراً، ويترك داره وفيها أهله، وقد أخذ الروم نساءه أكثر من مرةٍ.

وإذا سار سيف الدولة مع جيشه لغزو الروم، يُذكر أنه فتح مدناً وحصوناً لكن دون تسميةٍ لها، حيث لا يمكن ذكر مواقع وهي لم تفتح، وكل ذلك في سبيل الدعاية والشهرة له، ولأسرته لما تحمله من فكرٍ، وهذا ما نراه في كتب الأدب وبعض كتب التاريخ.

وكذا أبو فراس فإنه قد أُسر وسُجن في ثغر «خرشنة»، وهو بالأصل ثغر إسلامي أخذه الروم منهم، فقال أبو فراس في سجنه بخرشنة مفتخراً بأنه قد أغار فيما مضى على خرشنة، فغدا عند الأدباء ثم عمّ ذلك أنه بلدة رومية، وقد أغار عليها أبو فراس، وأنه أحرق فيها ما استطاع إحراقه، فيقول:

إن زرت خرشنة أسيراً
فلكم أحطت بها مغيراً
ولقد رأيت النار تنـ
ـتهم المنازل والقصورا
ولقد رأيت السبي يُجْـ
ـلَب نحونا حُوّاً وحورا

نـخـتـار مـنـه الـغـادة الــ
ـحـسـنـاء، والـظـبـيّ الـغـريـرا

ويظهر من قول أبي فراس هدف القتال ومرماه.

ومن أحداث تاريخ الدولة الحمدانية في مرحلة السيطرة البويهية على الخلافة العباسية هي:

عصيان تكين:

بعد الصلح الذي جرى بين معز الدولة البويهي وناصر الدولة الحمداني، سار ناصر الدولة نحو الموصل ونزل في الجانب الشرقي من تكريت، فلما علم الأتراك بذلك، وكانوا قد تأثّروا بالصلح الذي تمّ دون علمهم لذا ثاروا على ناصر الدولة فهرب منهم إلى الجانب الغربي من تكريت، ونزل على القرامطة فأجاروه، ثم اتجه إلى الموصل ولكن لم يستقر فيها بل اتجه إلى نصيبين وذلك سنة ٣٣٥هـ، أما الأتراك فقد أمّروا عليهم «تكين»، ودخل تكين والأتراك معه الموصل، وتبعوا ناصر الدولة إلى نصيبين، فمضى إلى سنجار فتبعوه، فانطلق إلى الحديثة، فلحقوا به، فاستصرخ معز الدولة البويهي، فأرسل له العسكر بإمرة وزيره أبي جعفر الصيمري، فالتقى ناصر الدولة وأبو جعفر الصيمري، وسارا بعسكرهم إلى الحديثة لقتال

تكين وجنده، فالتقى الفريقان واقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم تكين ومن معه بعد أن كادوا ينتصرون، فلما انهزموا تبعهم الأعراب من أصحاب ناصر الدولة فأدركوهم وأكثروا القتل فيهم، وأسروا تكين وحملوه إلى ناصر الدولة، وسملوا عيني تكين بين يدي ناصر الدولة، وحمله إلى قلعةٍ من قلاعه وسجنه بها. وسار ناصر الدولة والصيمري إلى الموصل، فتسلّم الصيمري من ناصر الدولة مالاً وحنطةً وشعيراً وانطلق بما تسلّم مع جنده إلى بغداد، واستقرّ الوضع لناصر الدولة بالموصل والجزيرة.

عصيان جمان:

كان جمان من أصحاب توزون، وصار من رجال ناصر الدولة فضمّ إليه ناصر الدولة من معه من الديلم لقلّة ثقته بهم، وقلّده الرحبة، وأخرجه إليها، فارتفع شأنه هناك، وقصده الرجال فأظهر العصيان على ناصر الدولة، وعزم على أخذ الرقة وديار مضر، فسار إلى الرقة وحاصرها سبعة عشر يوماً، فحاربه أهلها وهزموه، ووثب في غيابه أهل الرحبة على عماله وأصحابه سنة ٣٣٦هـ فقتلوهم لشدة ظلمهم وسوء معاملتهم، فلما عاد من الرقة وضع السيف في أهل الرحبة فقتل منهم مقتلةً

عظيمةً، فأرسل له ناصر الدولة حاجبه «ياروخ» في جيشٍ فاقتتلوا على شاطئ الفرات، فانهزم جمان ووقع في نهر الفرات فغرق، واستأمن أصحابه إلى «ياروخ»، وأخرج جثمان جمان من الماء فدفن في مكانه.

قتال الروم:

تمّت مفاداة سنة ٣٣٥هـ بين المسلمين والروم على يد نصر المستعلي أمير الثغور لسيف الدولة بن عبد الله بن حمدان، فكان عدد الأسارى ألفين وخمسمائة مسلم.

دخل سيف الدولة بلاد الروم، والتقى بهم فاقتتلوا فانهزم سيف الدولة، وأخذ الروم بلدة مرعش وأوقعوا بأهل طرسوس وذلك سنة ٣٣٧هـ.

وعاد سيف الدولة فدخل بلاد الروم سنة ٣٣٩هـ مع جيشه الذي يبلغ تعداده نحو ثلاثين ألفاً، ففتح حصوناً، وقتل كثيراً، وأسر عدداً كبيراً، وغنم كثيراً ثم رجع، فأخذت عليه الروم الدرب الذي يخرج منه، فقتلوا عامة من معه، وأسروا بقيتهم، واستردّوا ما كان أخذه، ونجا سيف الدولة في نفرٍ يسيرٍ من أصحابه كانوا في منأىً عن الجيش، بعيدين عن المؤخرة.

ودخل الروم بلاد المسلمين، واحتلّوا بلدة

«سروج»[1]، وقتلوا أهلها، وحرقوا مساجدها وذلك سنة ٣٤١هـ.

وانطلق سيف الدولة مع جيشه إلى بلاد الروم سنة ٣٤٢هـ فقتل منهم خلقاً كثيراً، وأسر آخرين، وغنم أموالاً جزيلةً، ورجع سالماً غانماً.

وفي سنة ٣٤٣هـ في شهر ربيع الأول غزا سيف الدولة مع جيشه بلاد الروم فقتل وأسر وسبى وغنم، وكان فيمن قتل قسطنطين بن الدمستق، فعظم الأمر على الروم وعلى الدمستق وخاصةً أنه كان بين الأسرى جماعة من رؤساء البطارقة، فجمع الدمستق جميع عسكره من الروم والروس والبلغار وغيرهم، وسار إلى الثغور، وقصده سيف الدولة مع جنده فالتقوا عند الحَدَث في شهر شعبان من سنة ٣٤٣هـ، واشتدّ القتال بينهم، وصبر الفريقان، فنصر الله المسلمين وخذل الكافرين، وكان ممن أخذه المسلمون من الأسرى صهر الدمستق، وابن ابنته، وكثير من بطارقته، وعاد الدمستق مهزوماً مخذولاً.

---

(١) سروج: وهي بلدة قريبة من حران من ديار مضر، غلب عياض بن غنم ﷺ على أرضها، ثم فتحها صلحاً على مثل صلح الرها في أيام عمر بن الخطاب ﷺ.

وسار سيف الدولة مع جيشه سنة ٣٤٥هـ إلى بلاد الروم، وغزاها، ووصل إلى خرشنة وصارخة في شهر رجب وفتح عدة حصونٍ، وسبى، وأسر، وأحرق، وخرّب، وأكثر القتل فيهم، ورجع إلى أضنة فأقام بها حتى جاءه رئيس طرسوس فخلع عليه وأعطاه شيئاً كثيراً، وعاد إلى حلب، وحميت الروم فجمعوا جموعهم وأقبلوا إلى ميافارقين فأحرقوا سوادها ونهبوا، وخرّبوا، وسبوا أهله، ونهبوا أموالهم، ثم ركبوا في البحر إلى طرسوس فقتلوا من أهلها ألفاً وثمانمائةٍ، وسبوا وحرقوا قرىً كثيرةً.

ودخلت الروم سنة ٣٤٧هـ آمد وميافارقين فقتلوا ألفاً وخمسمائة إنسانٍ، وأخذوا مدينة سميساط وخرّبوها، وعادوا، ولكن رجعوا سنة ٣٤٨هـ فدخلوا طرسوس والرها فقتلوا وسبوا كثيراً، وأخذوا الأموال ورجعوا.

وفي سنة ٣٤٩هـ دخل سيف الدولة بلاد الروم في جمعٍ كثيرٍ، فقتل من أهلها خلقاً كثيراً، وفتح حصوناً، وأحرق بلداناً كثيرةً، وسبى وغنم وكرّ راجعاً، ثم إن الروم أخذوا عليه المضائق، فلما أراد الرجوع قال له من معه من أهل طرسوس: إن الروم قد ملكوا الدرب خلف ظهرك فلا تقدرِ على العودة منه، والرأي أن ترجع

معنا، فلم يقبل منهم، وكان مُعجباً برأيه، يحبّ أن يستبدّ ولا يُشاور أحداً لئلا يقال: إنه أصاب برأي غيره. وعاد بالدرب الذي دخل منه فظهر الروم عليه واستردّوا ما كان معه من الغنائم، وأخذوا أثقاله، ووضعوا السيف في أصحابه فأتوا عليهم قتلاً وأسراً، وتخلّص هو في ثلاثمائة رجلٍ بعد جهدٍ ومشقةٍ. وكان معه ثلاثون ألف مقاتلٍ. وهذا من سوء رأي كل من يجهل آراء الناس العقلاء والله أعلم بالصواب.

وفي سنة ٣٥٠هـ سار جمع عظيم من إنطاكية إلى طرسوس ومعهم صاحب إنطاكية فخرج عليهم كمين للروم فأخذ أكثرهم وقتل عدداً كبيراً منهم، وأُفلت صاحب إنطاكية وبه جراحات.

وفي شهر رمضان من سنة ٣٥٠هـ دخل «نجا» غلام سيف الدولة بلاد الروم من ناحية ميافارقين غازياً، وأنه غنم في رمضان ما قيمته عظيمة، وسبى، وأسر، ورجع سالماً. وفي شهر المحرم من سنة ٣٥١هـ، نزل الروم مع الدمستق على «عين زربة» وهي في سفح جبلٍ عظيمٍ وهو مشرف عليها، والروم في جمعٍ عظيمٍ، فأنفذ الدمستق بعض عسكره فصعدوا على الجبل فملكوه، فلما رأى ذلك أهلها، وأن الدمستق قد ضيّق عليهم ـ ومعه العدد والعُدد، وقد وصل إلى السور،

وشرع في النقب ـ طلبوا الأمان فأمنهم الدمستق، وفتحوا له باب المدينة فدخلها، فرأى أصحابه الذين في الجبل قد نزلوا إلى المدينة فندم على إجابتهم إلى الإمان، ونادى في البلد أول الليل بأن يخرج جميع أهله إلى المسجد الجامع ومن تأخّر في منزله قُتل، فخرج من أمكنه الخروج، فلما أصبح أنفذ رجاله في المدينة وكانوا ستين ألفاً، وأمرهم بقتل من وجدوه في منزله فقتلوا خلقاً كثيراً من الرجال والنساء والصبيان، وأمر بجمع ما في البلد من سلاحٍ، فجُمع فكان شيئاً كثيراً، وأمر من في المسجد بأن يخرجوا من البلد حيث شاءوا يومهم ذلك ومن أمسى قُتل، فخرجوا مزدحمين، فمات بالزحمة جماعة، ومروا على وجوههم لا يدرون أين يتوجّهون فماتوا في الطرقات، وقتل الروم من وجدوه بالمدينة آخر النهار، وأخذوا كل ما خلّفه الناس من أموالهم وأمتعتهم، وهدموا سوري المدينة. وأقام الدمستق في بلد الإسلام واحداً وعشرين يوماً، وقد هدم المسجد، وكسر المنبر، وقطع أربعين ألف نخلةٍ من حول البلد. ودخل حول «عين زربة» عدداً من حصون المسلمين بعضها بالسيف وبعضها بالأمان إذ يئس الناس من نجدة سيف الدولة، وإن حصناً من تلك الحصون التي فتحت بالأمان أمر أهله بالخروج منه

فخرجوا، فتعرّض أحد الأرمن لبعض حرم المسلمين، فلحق المسلمين غيرة عظيمة فجرّدوا سيوفهم، فاغتاظ الدمستق لذلك فأمر بقتل جميع المسلمين، وكانوا أربعمائة رجل، وقتل النساء والصبيان، ولم يترك إلا من يصلح أن يُسترق. فلما أدركه الصوم انصرف على أن يعود بعد العيد، وخلّف جيشه بـ«قيصرية».

وسار الدمستق إلى حلب في مائتي ألف مقاتل، ودخلها بغتةً فنهض إليه سيف الدولة بمن حضر عنده من المقاتلة، فلم يقو عليه لكثرة جنوده، وقُتل من أصحاب سيف الدولة عدد كبير، وكان سيف الدولة قليل الصبر ففرّ منهزماً في نفرٍ يسيرٍ من أصحابه، فأول ما استفتح به الدمستق أنه استحوذ على دار سيف الدولة، وكانت ظاهر حلب من الجهة الشمالية فأخذ ما فيها من الأموال العظيمة والحواصل الكثيرة، والعدد وآلات الحرب، أخذ من ذلك ما لا يُحصى كثرةً، وأخذ ما فيها من النساء والولدان وغيرهم، ثم حاصر سور حلب، فقاتل أهل البلد دونه قتالاً عظيماً، وقتلوا خلقاً كثيراً من الروم، وثلمت الروم بسور حلب ثلمةً عظيمةً فوقف فيها الروم، فحمل المسلمون عليهم فأزاحوهم عنها. وكان سيف الدولة قد وصل هارباً إلى خناصر.

فلما جنّ الليل جدّ المسلمون في إعمار الثلمة

التي أوجدها الروم في السور، فما أصبح الصباح إلا وهي كما كانت، وحفظوا السور حفظاً عظيماً، فلما رأى الروم ذلك تأخّروا إلى جبل الجوشن، ثم بلغ المسلمين أن الشُّرَط وقُطّاع الطرق قد عاثوا الفساد في داخل البلد ينهبون البيوت، فرجع الناس إلى منازلهم يمنعونها منهم، فلما فعلوا ذلك غلبت الروم على السور، فارتقوا عليه، ودخلوا البلد يقتلون من التقوا به، فقتلوا من المسلمين خلقاً كثيراً، وانتهبوا الأموال، وأخذوا الأولاد والنساء، وخلّصوا من كان بأيدي المسلمين من أسارى الروم، وكانوا ألفاً وأربعمائةٍ، فأخذ الأسارى السيوف، وقاتلوا المسلمين، وكانوا أكثر ضرراً على المسلمين من قومهم، وأسروا نحواً من بضعة عشر ألفاً ما بين صبيٍّ وصبيّةٍ، ومن النساء شيئاً كثيراً، ومن الرجال الشباب ألفين، وخرّبوا المساجد وأحرقوها، وصبّوا في جباب الزيت الماء حتى فاض الزيت على وجه الأرض، وأهلكوا كل شيءٍ قدروا عليه، وكل شيءٍ لم يقدروا حمله أحرقوه، وأقاموا في البلد تسعة أيامٍ يفعلون فيها الأفاعيل الفاسدة العظيمة.

ثم عزم الدمستق على الرحيل، فقال له ابن أخت الملك وكان معه: هذا البلد قد حصل في أيدينا وليس

من يدفعنا عنه فلأيّ سببٍ تنصرف عنه؟ فقال الدمستق: قد بلغنا ما لم يكن الملك يأمله وغنمنا وقتلنا وخربنا وأحرقنا وخلّصنا أسرانا وبلغنا ما لم يسمع بمثله، فتراجعا الكلام إلى أن قال له الدمستق: انزل على القلعة فحاصرها فإني مقيم بعسكري على باب المدينة، فتقدّم ابن أخت الملك إلى القلعة، وتبعه الروم، فلما قَرُب من باب القلعة أُلقي عليه حجر فسقط قتيلاً فأخذه أصحابه وعادوا به إلى الدمستق، فلما رآه قتيلاً أمر بإحضار من في يديه من أسارى المسلمين، وكانوا قريباً من ألفين فضُربت أعناقهم بين يديه، وكرّ راجعاً، ولم يتعرّض لسواد حلب، وأمر أهله بالزراعة ليعود إليهم بزعمه. ولكن ثارت الروم بملكهم فقتلوه سنة ٣٥٢هـ وولّوا غيره، كما مات الدمستق ملك الأرمن واسمه نقفور، وقد كان أغلظ الملوك قلباً، وأشدّهم كفراً، وأقواهم بأساً، وأحدهم شوكةً، وأكثرهم قتلاً وقتالاً للمسلمين في زمانه، استحوذ في أيامه على كثيرٍ من السواحل، وأكثرها انتزعها من أيدي المسلمين قسراً، واستمرت في يده قهراً، وأُضيفت إلى مملكة الروم قدراً وذلك لتقصير أهل ذلك الزمان وظهور البدع الشنيعة فيهم وكثرة العصيان من الخاص والعام، فلهذا أديل عليهم أعداء الإسلام، فانتزعوا ما بأيديهم من البلاد مع

الخوف الشديد ونكد العيش والفرار من بلادٍ إلى بلاد فلا يبيتون ليلةً إلا في خوفٍ من قوارع الأعداء وطوارق الشرور المترادفة[١].

وفي سنة ٣٥٢هـ أيضاً أغارت الروم على مدينة الرها فقتلوا وأسروا، وعادوا غانمين. وفي شهر شوال من السنة نفسها دخل أهل طرسوس بلاد الروم غازين، ودخلها أيضاً «نجا» غلام سيف الدولة من دربٍ آخر، ولم يكن سيف الدولة معهم لمرضه فإنه كان قد لحقه قبل سنتين فأقام على رأس دربٍ من تلك الدروب. فأوغل أهل طرسوس في غزوتهم حتى وصلوا إلى قونية وعادوا، فرجع سيف الدولة إلى حلب، وفي طريق عودته أصابته غشية أرجف الناس عليه بالموت، فوثب هبة الله بن أخيه ناصر الدولة بابن دنجا النصراني فقتله وكان خصيصاً بسيف الدولة وإنما قتله لأنه كان يتعرّض لغلامٍ له فغار لذلك، ثم أفاق سيف الدولة، فلما علم هبة الله أن عمه لم يمت هرب إلى حران، فلما دخلها أظهر لأهلها أن عمه مات، وطلب منهم اليمين على أن يكونوا سلماً لمن سالمه وحرباً على من حاربه فحلفوا

(١) البداية والنهاية: ابن كثير.

له واستثنوا عمه من اليمين، فأرسل سيف الدولة غلامه «نجا» إلى حران في طلب هبة الله، فلما اقترب منها هرب هبة الله إلى أبيه بالموصل فنزل «نجا» على حران في السابع والعشرين من شوال فخرج أهلها إليه من الغد فقبض عليهم وصادرهم على ألف ألفٍ، ووكّل بهم حتى أدّوها، فباعوا لذلك كل ما لديهم، فأصابهم الفقر والحاجة، وسار «نجا» إلى ميافارقين وترك حران شاغرةً دون والٍ فتسلّط عليها الغوغائيون. ثم اتجه «نجا» نحو أرمينية، وقتل أبا الورد، واحتلّ ما كان أبو الورد قد سيطر عليه، ثم خلع طاعة سادته الحمدانيين، واتصل مع معز الدولة البويهي حيث كان على خلافٍ مع الحمدانيين، فلما تمّ الصلح بينهما سار سيف الدولة إلى قتال «نجا»، فسيطر على ما كان تحت يد «نجا» كما استأمن إليه عدد من أصحاب «نجا» فقتلهم، واستأمن إليه أخو «نجا» فأحسن إليه وأكرمه، وأرسل إلى «نجا» يرغّبه ويرهبه إلى أن حضر عنده فأحسن إليه وأعاده إلى مرتبته، غير أن غلمان سيف الدولة وثبوا عليه في دار سيف الدولة وقتلوه سنة ٣٥٤هـ.

وفي سنة ٣٥٣هـ أقبل الروم مع ملك الأرمن إلى «المصيصة»، وألقوا الحصار عليها، ونقبوا سورها

فدافعهم أهلها، فأحرقوا ما حولها، وقتلوا خمسة عشر ألفاً، كما عاثوا فساداً في أضنة وطرسوس لأن المسلمين فيهما ساعدوا أهل المصيصة، ثم كرّ الروم والأرمن راجعين.

ورجع ملك الروم في السنة نفسها ٣٥٣هـ، ونزل على طرسوس، وحاصرها، وجرى بينه وبين أهلها حروب كثيرة سقط في بعضها الدمستق بن الشمشقيق إلى الأرض وكاد يؤسر، فقاتل عنه الروم وخلّصوه، وأسر أهل طرسوس بطريقاً كبيراً من بطارقة الروم، ورحل الروم عنهم، وتركوا عسكراً على المصيصة فحصرها ثلاثة أشهرٍ لم يمنعهم منها أحد فاشتدّ الغلاء على الروم، كما انتشر الوباء بين الروم فمات منهم كثير فاضطروا إلى الرحيل.

وفي سنة ٣٥٤هـ دخل الروم المصيصة وطرسوس، وذلك أن نقفور ملك الروم بنى بمدينة قيصرية مدينةً له ولجنده ليكون قريباً من بلاد الإسلام وأقام بها ليُغير في كل وقتٍ على ديار المسلمين، ونقل أهله إليها، وأبقى أباه بالقسطنطينية، فأرسل إليه أهل المصيصة وطرسوس يبذلون له أتاوةً، ويطلبون منه أن ينفذ إليهم بعض أصحابه يقيم عندهم فعزم على إجابتهم إلى ذلك، فأتاه الخبر بأنهم قد ضعفوا وعجزوا وأنهم لا ناصر لهم،

وأن الغلاء قد اشتدّ عليهم وقد عجزوا عن القوت وأكلوا الكلاب والميتة، وقد كثر فيهم الوباء فكان يموت منهم في اليوم ثلاثمائة نفسٍ، فعاد نقفور عن إجابتهم، وأحضر الرسول، وأحرق الكتاب على رأسه، واحترقت لحيته، وقال لهم: أنتم كالحيّة في الشتاء تخدر وتذبل حتى تكاد تموت فإن أخذها إنسان وأحسن إليها وأدفأها انتعشت ولدغته، وأنتم إنما أطعتم لضعفكم، وإن تركتكم حتى تستقيم أحوالكم تأذّيت بكم، وأعاد الرسول وجمع جيوش الروم، وسار إلى المصيصة بنفسه فحاصرها ودخلها عنوةً بالسيف يوم السبت الثالث عشر من رجب، ووضع السيف فيهم فقتل منهم مقتلةً عظيمةً، ثم رفع السيف ونقل كل من فيها إلى بلاد الروم وكانوا نحو مائتي ألف إنسانٍ، ثم سار إلى طرسوس فحاصرها فأذعن أهلها بالطاعة وطلبوا الأمان فأجابهم إليه، وفتحوا البلد فلقيهم بالجميل، وأمرهم أن يحملوا من سلاحهم وأموالهم ما يطيقون ويتركوا الباقي ففعلوا ذلك، وساروا براً وبحراً وسيّر معهم من يحميهم حتى بلغوا إنطاكية. وجعل الملك المسجد الجامع بطرسوس اصطبلاً لدوابه وأحرق المنبر، وعمّر طرسوس وحصّنها، وجلب الميرة إليها حتى رخصت الأسعار، ورجع إليها كثير من أهلها،

ودخلوا في طاعة الملك، وتنصّر بعضهم. وأراد الملك المقام بها ليقرب من بلاد المسلمين، ثم عاد إلى القسطنطينية، وأراد الدمستق ـ وهو ابن الشمشقيق ـ أن يقصد ميافارقين وبها سيف الدولة، فأمره الملك باتباعه إلى القسطنطينية فمضى إليه.

وعصى أهل إنطاكية على سيف الدولة الحمداني، وكان سبب ذلك إن إنساناً من أهل طرسوس كان مقدماً فيها يُسمّى رشيقاً النسيميّ كان من جملة من سلّمها إلى الروم، وخرج إلى إنطاكية، فلما وصل إليها خدمه إنسان يُعرف بابن الأهوازي كان يضمن الأرجاء[1] بإنطاكية فسلّم إليه ما اجتمع عنده من حاصل الأرجاء وحسّن له العصيان، وأعلمه أن سيف الدولة بميافارقين قد عجز عن العودة إلى الشام فعصى واستولى على إنطاكية، وسار إلى حلب وجرى بينه وبين النائب عن سيف الدولة وهو قرعويه حروب كثيرة، صعد قرعويه إلى قلعة حلب فتحصّن بها، وأنفذ سيف الدولة عسكراً مع خادمه «بشارة» نجدةً لقرعويه، فلما علم بهم رشيق النسيميّ انهزم عن حلب فسقط عن فرسه فنزل إليه إنسان عربي فقتله وأخذ رأسه وحمله إلى قرعويه وبشارة.

---

(١) الأرجاء: الضواحي.

ووصل ابن الأهوازي إلى إنطاكية فأظهر إنساناً من الديلم اسمه «دزبر» وسماه الأمير، وتقوّى بإنسانٍ علويٍّ ليقيم له الدعوة، وتسمّى هو بالأستاذ، فظلم الناس، وجمع الأموال، وقصد قرعويه إلى إنطاكية وجرت بينهما وقعة عظيمة فكانت على ابن الأهوازي أولاً ثم عادت على قرعويه فانهزم وعاد إلى حلب، ثم إن سيف الدولة عاد عن ميافارقين عند فراغه من الغزاة إلى حلب فأقام بها ليلةً، وخرج من الغد فواقع «دزبر» وابن الأهوازي فقاتل من بها فانهزموا، وأسر «دزبر» وابن الأهوازي فقتل دزبر، وسجن ابن الأهوازي مدةً ثم قتله[1].

وثار رجل من القرامطة اسمه «مروان» كان يحفظ الطرقات لسيف الدولة، ثار بحمص فملكها وما حولها، فقصده جيش من حلب مع الأمير بدر، فاقتتلوا معه، فرماه بدر بسهمٍ مسمومٍ فأصابه، واتفق أن أسر أصحاب مروان بدراً فقتله مروان بين يديه صبراً، ومات مروان بعد أيامٍ وتفرّق عنه أصحابه[2].

وقصدت الروم سنة ٣٥٥هـ آمد في شهر شوال فحاصروها فلم يقدروا عليها، ولكن قتلوا من أهلها

---

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

(٢) البداية والنهاية: ابن كثير.

ثلاثمائة رجلٍ، وأسروا أربعمائةٍ، ثم ساروا إلى نصيبين وفيها سيف الدولة فهمّ بالهرب مع العرب، ثم تأخّر مجيء الروم فثبت مكانه وقد كادت تتزلزل أركانه. وانطلق الروم من ديار الجزيرة إلى إنطاكية فأقاموا عليها مدةً طويلةً يقاتلون أهلها، فلم يتمكّنوا من دخولها فخربوا ونهبوا وعادوا إلى طرسوس.

وجرت مفاداة بين سيف الدولة وبين الروم في شهر رجب سنة ٣٥٥هـ، فاستنقذ سيف الدولة منهم أسارى كثيرة منهم: ابن عمه أبو فراس الحمداني بن سعيد بن حمدان، وأبو الهيثم بن حصن القاضي.

وفاة سيف الدولة:

توفي سيف الدولة علي بن عبد الله أبي الهيجاء بن حمدان في حلب في شهر صفر سنة ٣٥٦هـ، وحُمل إلى ميافارقين فدُفن فيها. وكانت علّته الفالج، وقيل: عسر البول، ومات عن عمرٍ يقارب الثالثة والخمسين إذ كان مولده في شهر ذي الحجة سنة ثلاثٍ وثلاثمائةٍ. ولما توفي سيف الدولة ملك بعده ابنه شريف أبو المعالي، وكان في ميافارقين عندما مات أبوه بحلب، فقصدها وجلس على سرير أبيه سنة ٣٥٦هـ، وقامت وحشة بينه وبين خاله أبي فراس الحمداني، وقيل: كان أبو فراس ينافسه.

مقتل أبي فراس:

كان سيف الدولة قد قلّد ابن عمه أبا فراس الحارث بن سعيد بن حمدان منبج وحران وأعمالها، ثم تملّك حمص فلما مات سيف الدولة سنة ٣٥٦هـ سار أبو فراس إلى حلب ليتملكها وليتسلّم مكان ابن أخته شريف أبي المعالي بن سيف الدولة، وكان شريف قد تلقّب باسم «سعد الدولة»، فأرسل أبو المعالي حاجبه «قرعويه» على رأس قوةٍ إلى خاله أبي فراس. ووصلت قوة من الروم لغزو حلب فخاف سعد الدولة أن يحصر بين الروم وخاله فخرج إلى ميافارقين وأمه فيها. واستطاع قرعويه أن يقتل أبا فراس في صدد[1] التي انحاز إليها أبو فراس وذلك سنة ٣٥٧هـ.

واستولى قرعويه غلام سيف الدولة على حلب سنة ٣٥٨هـ، وأخرج منها شريف أبو المعالي بن سيف الدولة. فسار أبو المعالي إلى حران فمنعه أهلها من الدخول إليها، فطلب منهم أن يأذنوا لأصحابه أن يدخلوا ليتزوّدوا منها مدة يومين فأذنوا لهم، وذهب هو إلى والدته بميافارقين وهي ابنة سعيد بن حمدان أخت

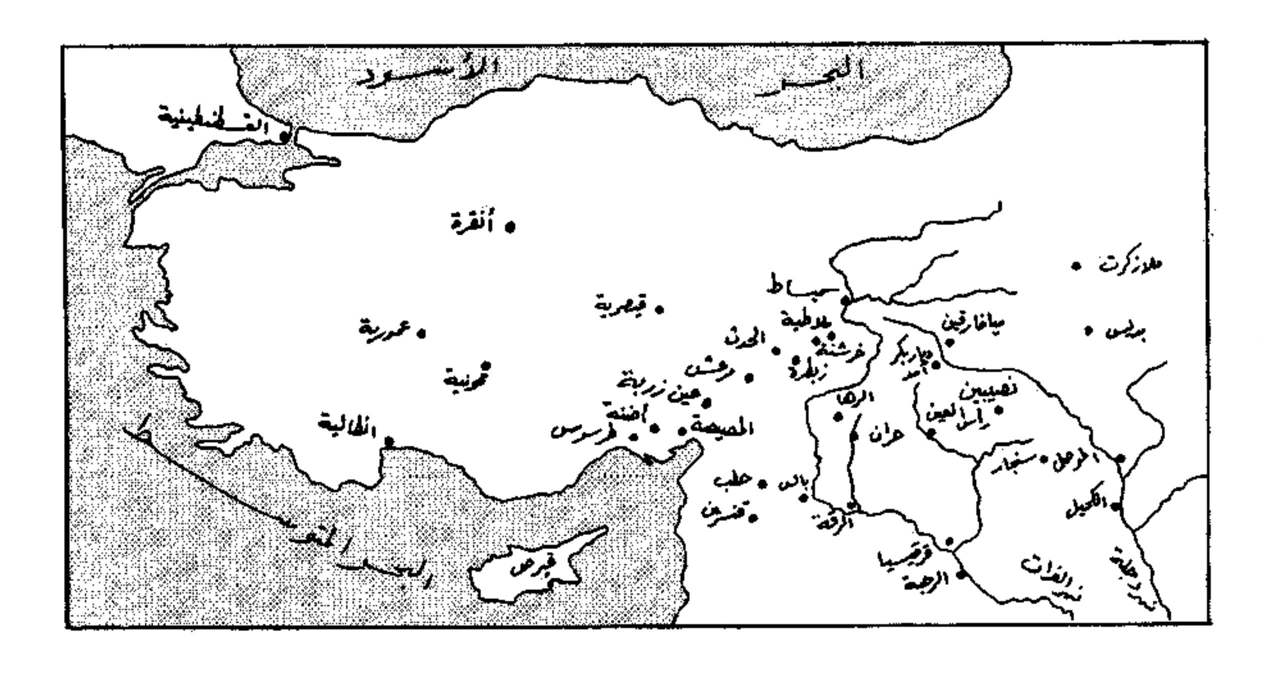
---

(١) صدد: بلدة إلى الجنوب الشرقي من حمص وعلى بعد خمسين كيلو متراً منها.

أبي فراس، وتفرّق عنه أكثر أصحابه ومضوا إلى أبي تغلب بن ناصر الدولة بن حمدان. فلما وصل إلى والدته بلغها أن غلمانه قد عملوا على القبض عليها وحبسها كما فعل أبو تغلب بأبيه ناصر الدولة، فأغلقت أبواب المدينة، ومنعت ابنها من دخولها ثلاثة أيامٍ حتى أبعدت من تحب إبعاده، واستوثقت لنفسها، وأذنت له ولمن بقي معه في دخول البلد، وفيها جماعة من مقدمي أهلها يحكمون فيها، ويصلحون من أمور الناس. ثم إن أبا المعالي عبر الفرات إلى الشام وقصد حماة فأقام بها.

وفاة ناصر الدولة:

لما مات معزّ الدولة البويهي سنة ٣٥٦هـ عزم أبو تغلب بن ناصر الدولة الحمداني ومن وافقه من أهل بيته على أخذ بغداد، فقال لهم أبوهم: إن معزّ الدولة قد ترك لولده عز الدولة أموالاً جزيلةً فلا تقدرون عليه ما دامت في يده، فاصبروا حتى ينفقها فإنه مُبذّر، فإذا أفلس فسيروا إليه فإنكم تغلبونه، فلم يقبلوا كلامه، وحقد عليه ولده أبو تغلب بسبب هذا القول، ولم يزل بأبيه حتى سجنه بالقلعة، واختلف الأبناء فيما بينهم وصاروا أحزاباً. فبعث أبو تغلب إلى عز الدولة يضمن منه بلاد الموصل بألف ألفٍ كل سنةٍ، واستقرّ أبو تغلب بالموصل وملكها.


البحر الأسود
القسطنطينية
أنقرة
قيصرية
عمورية
قونية
ملازكرت
ملطية
ميافارقين
بدليس
الحدث
خرشنة
زبطرة
مرعش
عين زربة
ديار بكر
آمد
نصيبين
رأس العين
الرها
حران
المصيصة
أذنة
طرسوس
حلب
بالس
قنسرين
الرقة
سنجار
الموصل
الكحيل
قرقيسيا
الرحبة
الفرات
دجلة
قبرص

وكان ناصر الدولة قد أقطع ابنه حمدان مدينة الرحبة وماردين وغيرهما، وكان أبو تغلب وأبو البركات وأختهما جميلة أولاد ناصر الدولة من زوجته فاطمة بنت أحمد الكردية، وكانت مالكة أمر ناصر الدولة، فاتفقت مع ابنها أبي تغلب وقبضوا على ناصر الدولة، فابتدأ ناصر الدولة يدبّر الحيل في القبض عليهم، فكاتب ابنه حمدان يستدعيه ليتقوّى به عليهم، فظفر أولاده الآخرون بالكتاب فلم ينفذوه وخافوا أباهم وحذروه فحملهم خوفهم على نقله إلى قلعة «كواشي»[1]، واتصل ذلك بحمدان فعظم عليه، وصار عدوّاً مبايناً لإخوته وكان أشجعهم، وكان قد سار عند وفاة عمه سيف الدولة من الرحبة إلى الرقة فملكها، وسار إلى نصيبين، وجمع من أطاعه، وطالب إخوته بالإفراج عن والده وإعادته إلى منزلته، فسار أبو تغلب إليه ليحاربه فانهزم حمدان قبل اللقاء إلى الرقة، فنازله أبو تغلب، وحصره، ثم اصطلحا على دخن[2]، وعاد كل واحدٍ منهما إلى موضعه، وعاش ناصر الدولة بن أبي الهيجاء عبد الله بن

---

(١) كواشي: قلعة على جبل في شرق الموصل، ليس لها طريق إلا لرجلٍ واحدٍ.

(٢) على دخن: على غشٍ فالنية ليست صافيةً.

حمدان بن حمدون التغلبي شهوراً ومات في ربيع الأول سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائةٍ، ودُفن بتلّ توبة شرق الموصل، وقبض أبو تغلب أملاك أخيه حمدان، وسيّر أخاه أبا البركات إلى أخيه حمدان، فلما قرب من الرحبة استأمن إليه كثير من أصحاب حمدان، فانهزم حينئذٍ وقصد العراق مستأمناً إلى بختيار عزّ الدولة فوصل إلى بغداد في شهر رمضان سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائةٍ، فأكرمه بختيار وعظمه وحمل إليه هديةً كثيرةً جليلة المقدار ومعها كل ما يحتاج إليه مثله، وأرسل إلى أبي تغلب النقيب أبا أحمد الموسوي والد الشريف الرضي والشريف المرتضى في الصلح مع أخيه فاصطلحوا وعاد حمدان إلى الرحبة، وكان مسيره من بغداد في جمادى الأولى سنة تسعٍ وخمسين وثلاثمائةٍ، فلما سمع أبو البركات بمسير أخيه حمدان على هذه الصورة فارق الرحبة، ودخلها حمدان، وراسله أخوه أبو تغلب في الاجتماع به فامتنع من ذلك، فعاد أبو تغلب وسيّر إليه أخاه أبا البركات، فلما علم حمدان بذلك فارق الرحبة فاستولى أبو البركات عليها، واستناب بها من يحفظها في طائفةٍ من الجيش وعاد إلى الرقة ثم منها إلى عَرَبان[1]،

---

(١) عَرَبان: بليدة بالخابور من أعمال الجزيرة.

فلما سمع حمدان بعودته عنها، وكان ببرية تدمر عاد إليها في شعبان فوافاها ليلاً فأصعد جماعةً من غلمانه السور وفتحوا له باب البلد فدخله ولا يعلم من به من الجند بذلك. فلما صار في البلد وأصبح أمر بضرب البوق فبادر من بالرحبة من الجند منقطعين يظنّون أن صوت البوق من خارج البلد، وكل من وصل إلى حمدان أسره حتى أخذهم جميعهم فقتل بعضاً واستبقى بعضاً، فلما سمع أبو البركات بذلك عاد إلى قرقيسيا، واجتمع هو وأخوه حمدان منفردين، فلم تستقرّ بينهما قاعدة، فقال أبو البركات لحمدان: أنا أعود إلى عَرَبان، وأرسل إلى أبي تغلب لعله يجيب إلى ما تلتمسه منه. فسار عائداً إلى عَرَبان، وعبر حمدان الفرات من مخاضةٍ بها وسار في أثر أخيه أبي البركات فأدركه بعَرَبان ـ وهو آمن ـ فلقيهم أبو البركات بغير مجنةٍ ولا سلاح فقاتلهم واشتدّ القتال بينهم، وحمل أبو البركات بنفسه في وسطهم فضربه أخوه حمدان فألقاه وأخذه أسيراً فمات من يومه وهو الثالث من شهر رمضان سنة ٣٥٨هـ، فحُمل إلى الموصل، ودفن بتلّ توبة عند أبيه، وتجهّز أبو تغلب ليسير إلى أخيه حمدان وقدّم بين يديه أخاه أبا الفوارس محمداً إلى نصيبين، فلما وصل إليها كاتب أخاه حمدان ومالا على أبي تغلب، فبلغ الخبر

أبا تغلب فأرسل إليه ليزيد في إقطاعه، فلما حضر عنده قبض عليه وسيّره إلى قلعة كواشي من بلاد الموصل وأخذ أمواله، وكانت قيمتها خمسمائة ألف دينارٍ. فلما قبض عليه سار إبراهيم والحسين ابنا ناصرِ الدولة إلى أخيهما حمدان خوفاً من أبي تغلب فاجتمعا معه، وساروا إلى سنجار، فسار أبو تغلب إليهم من الموصل في شهر رمضان سنة ٣٦٠هـ، ولم يكن لهم بلقائه طاقة فراسله أخواه إبراهيم والحسين يطلبان العودة إليه خديعةً منهما ليأمنهما ويفتكا به فأجابهما إلى ذلك فهربا إليه وتبعهما كثير من أصحاب حمدان، فعاد حمدان حينئذٍ من سنجار إلى عَرَبان، واستأمن إلى أبي تغلب غلام حمدان وأطلعه على حيلة أخويه عليه ـ وهما إبراهيم والحسين ـ فأراد القبض عليهما فحذرا وهربا. ثم إن «نما» غلام حمدان ونائبه بالرحبة أخذ جميع ما له بها وهرب إلى أصحاب أبي تغلب بحرّان وكانوا مع صاحبه «سلامة البرقعيدي». فاضطر حمدان إلى العودة إلى الرحبة، وسار أبو تغلب إلى قرقيسيا، وأرسل سريةً عبرت الفرات، وكبس رجالها حمدان بالرحبة ـ وهو لا يشعر ـ فنجا هارباً واستولى أبو تغلب عليها، وعمر سورها، وعاد إلى الموصل ودخلها في ذي الحجة سنة ستين وثلاثمائة. وسار حمدان إلى بغداد فدخلها آخر

ذي الحجة ملتجئاً إلى بختيار عزّ الدولة بن معزّ الدولة البويهي ومعه أخوه إبراهيم، وكان أخوهما الحسين قد عاد إلى أخيه أبي تغلب مستأمناً. وحمل بختيار إلى حمدان وأخيه إبراهيم هدايا جليلةً كثيرة المقدار وأكرمهما واحترمهما[١].

عودة إلى الروم:

دخل ملك الروم بلاد الشام مُغيراً فلم يمنعه أحد، ولا وقف في وجهه أحد، فسار في البلاد إلى طرابلس الشام، فأحرق البلد، وحاصر قلعة «عرقة»[٢] فملكها، ونهبها، وسبى من فيها. وكان صاحب طرابلس قد أخرجه أهلها لشدّة ظلمه فأخذه الروم وجميع ماله، وكان كثيراً، وقصد ملك الروم حمص، وكان أهلها قد انتقلوا عنها وأخلوها فأحرقها ملك الروم، ورجع إلى بلدان الساحل فأتى عليها نهباً وتخريباً وملك ثمانية عشر منبراً، وأما القرى فكثير، وأقام بالشام شهرين يقصد أي موضعٍ شاء ويخرّب ما شاء ولا يمنعه أحد إلا أن بعض

---

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

(٢) عرقة: بلدة شرق طرابلس تبعد عنها عشرين كيلومتراً، وتقع في سفح جبل وتبعد عن البحر اثنين من الكيلو مترات، وهي غير عامرة الآن.

الأعراب كانوا يُغيرون على أطرافهم، فأتاهم جماعة منهم وتنصّروا، وكادوا المسلمين من العرب وغيرهم، فامتنعت العرب من قصدهم، وصار للروم الهيبة العظيمة في قلوب المسلمين. فأراد أن يحصر إنطاكية وحلب فبلغه أن أهلها قد أعدّوا الذخائر والسلاح وما يحتاجون إليه فامتنع من ذلك، وعاد ومعه من السبي نحو مائة ألف رأس، ولم يأخذ إلا الصبيان والصبايا والشبان[1]، فأما الكهول والشيوخ والعجائز فمنهم من قتله ومنهم من أطلقه. وكان بحلب قرعويه غلام سيف الدولة فقد صانع الروم عليها فعادوا إلى بلادهم، فقيل: كان سبب عودتهم كثرة الأمراض والموت، وقيل: ضجروا من طول السفر والغيبة عن بلادهم، فعادوا على نيّة الرجوع.

وسيّر ملك الروم سريةً كثيرةً فبلغوا كفرتوثا[2] ونهبوا وسلبوا وأحرقوا، وعادوا ولم يكن من أبي تغلب بن ناصر الدولة في ذلك نكير ولا أثر.

---

(١) في سبيل تنشئتهم على النصرانية، وفتنة الشباب.

(٢) كفرتوثا: قرية من أعمال الجزيرة بين رأس العين ودير الزور، وتبعد عن دير الزور خمسة وعشرين كيلو متراً، وهي غير عامرة الآن، وتوجد قرية أخرى تحمل الاسم نفسه في فلسطين.

دخول الروم إنطاكية:

تمكّن الروم سنة ٣٥٩هـ من دخول إنطاكية، وقد حاصروا حصناً بالقرب من إنطاكية، يقال له: حصن لوقا، وأنهم وافقوا أهله ـ وهم نصارى ـ على أن يرتحلوا منه إلى إنطاكية، ويُظهروا أنهم إنما انتقلوا منه خوفاً من الروم فإذا صاروا بإنطاكية أعانوهم على دخولها، وانصرف الروم عنهم بعد موافقتهم على ذلك، وانتقل أهل الحصن، ونزلوا بإنطاكية بالقرب من الجبل الذي بها، فلما كان بعد انتقالهم بشهرين وافى الروم مع أخي نقفور الملك، وكانوا نحو أربعين ألف رجلٍ فأحاطوا بسور إنطاكية وصعدوا الجبل إلى الناحية التي بها أهل حصن لوقا، فلما رآهم أهل البلد قد ملكوا تلك الناحية طرحوا أنفسهم من السور، وملك الروم البلد، ووضعوا في أهله السيف، ثم أخرجوا الشيوخ والعجزة والأطفال، وقالوا لهم: اذهبوا حيث شئتم، وأخذوا الشباب من الرجال والنساء والصبيان والصبايا فحملوهم إلى بلاد الروم سبياً، وكانوا يزيدون على عشرين ألف إنسانٍ، وكان حصار الروم لإنطاكية في شهر ذي الحجة سنة ٣٥٩هـ.

دخول الروم حلب:

بعد أن دخل الروم إنطاكية وتملّكوها أنفذوا جيشاً كثيفاً إلى حلب، وكان أبو المعالي شريف بن سيف الدولة محاصراً لها، وفيها قرعويه غلام أبيه متغلّباً عليها، فلما سمع أبو المعالي خبرهم فارق حلب وقصد البرية ليبعد عنهم، فحاصر الروم البلد وفيه قرعويه، وأهل البلد قد تحصّنوا بالقلعة، فسيطر الروم على المدينة وحاصروا القلعة فخرج إليهم جماعة من أهل حلب وتوسّطوا بينهم وبين قرعويه، وتردّدت الرسل فاستقرّ الأمر بينهم على هدنةٍ مؤبدةٍ على مالٍ يحمله قرعويه إليهم، وأن يكون الروم إذا أرادوا الغزاة لا يمكن لقرعويه الجلاء عنها ليبتاع الروم ما يحتاجون إليه منها، وكان مع حلب حماه وحمص وكفرطاب والمعرة وأفامية وشيزر وما بين ذلك من الحصون والقرى، وسلّموا الرهائن إلى الروم، وعادوا عن حلب، وتسلّمها المسلمون.

دخول الروم ملازكرت:

وأرسل ملك الروم عام ٣٥٩هـ جيشاً إلى ملازكرت في شرقي تركيا اليوم فحاصروها، وضيّقوا على من بها من المسلمين، ودخلوها عنوةً وقهراً،

وعظمت شوكتهم، وخافهم المسلمون في تلك الأمصار، وصارت كلها سائبةً لا تمتنع عليهم يقصدون أيها شاءوا.

مقتل نقفور ملك الروم:

لم يكن نقفور الذي ملك الروم في هذه الآونة من الأسرة الحاكمة للروم بل كان دمستقاً، والدمستق هو الذي كان يلي المناطق الشرقية من بلاد الروم، وكان كل من يليها يُلقّب بالدمستق، وكان نقفور هذا شديداً على المسلمين، وكان هو الذي دخل حلب أيام سيف الدولة فعظم شأنه عند الروم، وهو أيضاً الذي دخل طرسوس والمصيصة وأضنة وعين زربة وغيرها، ولم يكن نصراني الأصل وإنما هو من ولد رجلٍ مسلمٍ من أهل طرسوس يُعرف بـ ـ ابن الفقّاس ـ تنصّر، وكان ابنه هذا شهماً شجاعاً، حسن التدبير لما يتولّاه، فلما عظم أمره وقوي شأنه قتل الملك الذي كان قبله وتملّك الروم بعده، فلما ملك تزّوج امرأة الملك المقتول على كرهٍ منها، وكان لها من الملك المقتول ابنان، وجعل نقفور همته قصد بلاد الإسلام والاستيلاء عليها وتمّ له بعض ما أراد لاشتغال ملوك المسلمين بعضهم ببعضٍ، فدوّخ البلاد، وكان قد بنى أمره على أن يقصد سواد البلاد

فينهبه ويُخرّبه فتضعف المدن فيملكها، وغلب على الثغور الجزرية والشامية. وسبى وأسر ما يخرج عن الحصر، وهابه المسلمون هيبةً عظيمةً، ولم يشكّوا في أنه سيملك جميع الشام ومصر والجزيرة وديار بكر لخلو الجميع من مانعٍ، فلما استفحل أمره أتاه أمر الله من حيث لم يحتسب، وذلك أنه عزم على أن يخصي ابني الملك المقتول لينقطع نسلهما ولا يُعارض أحد أولاده في الملك، فلما علمت أمهما ذلك قلقت منه، واحتالت على قتله فأرسلت إلى ابن الشمشقيق ـ وهو الدمستقي حينئذٍ ـ ووافقته على أن يصير إليها في زي النساء ومعه جماعة، وقالت لزوجها: إن نسوةً من أهلها قد زاروها، فلما صار إليها هو ومن معه جعلتهم في بيعةٍ تتصل بدار الملك، وكان ابن الشمشقيق شديد الخوف منه لعظم هيبته فاستجاب للمرأة إلى ما دعته إليه، فلما كان ليلة الميلاد من هذه السنة نام نقفور واستثقل في نومه ففتحت امرأته الباب ودخلوا عليه فقتلوه، وثار بهم جماعة من أهله وخاصته فقُتل منهم نيف وسبعون رجلاً، وأجلس في الملك الأكبرُ من ولدي الملك المقتول، وصار المدبّر له ابن الشمشقيق، ويقال: إن نقفور ما بات قط إلا بسلاحٍ إلا تلك الليلة لما يريده الله من قتله ونهاية أجله.

أغار ملك الروم في شهر المحرم سنة ٣٦١هـ على مدينة الرها ونواحيها، وساروا إلى ديار الجزيرة حتى بلغوا نصيبين فغنموا وسبوا وأحرقوا وخربوا البلاد، وفعلوا مثل ذلك في ديار بكر، ولم يكن من أبي تغلب بن ناصر الدولة في ذلك حركة، ولا سعى في دفع ملك الروم لكنه حمل إليه مالاً كفّه به عن نفسه، فسارت جماعة من أهل تلك الديار إلى بغداد مستنفرين، وقاموا في الجوامع واستنفروا المسلمين، وذكروا ما فعله الروم من النهب والقتل والأسر والسبي فاستعظمه الناس، وخوفهم أهل الجزيرة من انفتاح الطريق وطمع الروم وأنهم لا مانع لهم عندهم فاجتمع معهم أهل بغداد وقصدوا دار الخليفة المطيع لله وأرادوا الهجوم عليه، فمُنعوا من ذلك، وأُغلقت الأبواب فأسمعوا ما يقبح ذكره، وكان عزّ الدولة بختيار يتصيّد بنواحي الكوفة فخرج إليه وجوه أهل بغداد مستغيثين منكرين عليه اشتغاله بالصيد وقتال عمران بن شاهين وهو مسلم وتركه جهاد الروم ومنعهم عن بلاد الإسلام حتى توغّلوا فيها، فوعدهم التجهّز للغزاة وأرسل إلى الحاجب سبكتكين يأمره بالتجهّز للغزو، وأن يستنفر العامة، ففعل سبكتكين ذلك فاجتمع من العامة عدد كثير لا يحصون كثرةً، وكتب بختيار إلى أبي تغلب بن ناصر

الدولة صاحب الموصل يأمره بإعداد الميرة والعلوفات ويُعرّفه عزمه على الغزاة فأجابه بإظهار الفرح وإعداد ما طلب منه.

وحدثت فتنة في بغداد نتيجة استنفار العامة وتحزّب الناس نتيجة الخلافات الطائفية فنُهبت الأموال وأُحرقت الدور، وقُتل الرجال. ثم إن عزّ الدولة بختيار أنفذ إلى المطيع لله الخليفة يطلب منه مالاً يخرجه في الغزاة، فقال المطيع لله: إن الغزاة والنفقة عليها وغيرها من مصالح المسلمين تلزمني إذا كانت الدنيا في يدي، وتُجبى إليّ الأموال، وأما إذا كانت حالي هذه فلا يلزمني شيء من ذلك، وإنما يلزم مَن البلاد في يده، وليس لي إلا الخطبة، فإن شئتم أن اعتزل فعلت، وتردّدت الرسائل بينهما حتى بلغوا إلى التهديد، فبذل المطيع لله أربعمائة ألف درهم فاحتاج إلى بيع ثيابه وأنقاض داره وغير ذلك، وشاع بين الناس من العراقيين وحجّاج خراسان وغيرهم أن الخليفة قد صودر، فلما قبض عزّ الدولة بختيار المال صرفه في مصالحه وبطل حديث الغزاة. فنقم الناس للخليفة وساءهم ما فعل به ابن بويه من أخذه مال الخليفة وتركه الجهاد.

اجتمع العلماء بعزّ الدولة وحرّضوه على غزو

الروم فبعث جيشاً لقتالهم فأظفره الله بهم، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وبعثوا برؤوسهم إلى بغداد فسكنت أنفس الناس وذلك سنة ٣٦٢هـ.

وفي السنة نفسها سارت الروم مع ملكهم لحصار «آمد» وعليها «هزار مرد» غلام أبي الهيجاء الحمداني فكتب إلى أبي تغلب يستنصره، فبعث إليه أخاه أبا القاسم هبة الله بن ناصر الدولة، واجتمعا على حرب الروم، فسارا إليهم في رمضان سنة ٣٦٢هـ، وكان الدمستق في كثرة ولكن لقياه على مضيق، لا تجول فيه الخيل والروم على غير أهبةٍ فانهزموا، وأخذ المسلمون الدمستق أسيراً، ولم يزل محبوساً إلى أن مرض سنة ٣٦٣هـ، فبالغ أبو تغلب في علاجه وجمع الأطباء له فلم ينفعه ذلك ومات.

أرسل عزّ الدولة الدولة بختيار في شهر ذي الحجة سنة ٣٦٢هـ الشريف أبا أحمد الموسوي والد الرضى والمرتضى في رسالةٍ إلى أبي تغلب بن ناصر الدولة بالموصل فمضى إليه وعاد في شهر المحرم سنة ٣٦٣هـ.

وفي شهر ربيع الأول من سنة ٣٦٣هـ سار عزّ الدولة بختيار إلى الموصل ليستولي عليها وعلى أعمالها وعلى كل ما بيد أبي تغلب بن ناصر الدولة الحمداني

وكان سبب ذلك مسير حمدان بن ناصر الدولة وأخيه إبراهيم إلى عزّ الدولة بختيار واستجارتهما به وشكواهما إليه من أخيهما أبي تغلب فوعدهما أن ينصرهما ويخلص أعمالهما وأموالهما منه وينتقم لهما، غير أنه شُغل عن ذلك بما كان له في البطيحة وغيرها من مشكلات، فلما فرغ من كل ما كان فيه رجع حمدان وإبراهيم ابنا ناصر الدولة إلى الحديث معه، وبذل له حمدان مالاً جزيلاً، وصغّر عنده أمر أخيه أبي تغلب، وطلب منه أن يضمنه بلاده ليكون في طاعته، ويحمل إليه الأموال، ويُقيم له الخطبة. ثم إن الوزير أبا الفضل حسّن ذلك، وأشار به ظنّاً منه أن الأموال تكثر عليه فتمشي بين يديه، ثم إن إبراهيم بن ناصر الدولة هرب من عند بختيار عزّ الدولة وعاد إلى أخيه أبي تغلب، فقوي عزم بختيار عزّ الدولة على قصد الموصل أيضاً، ثم عزل الوزير أبا الفضل واستوزر ابن بقية، فكاتبه أبو تغلب فقصّر في خطابه فأغرى به بختيار وحمله على قصده، فسار عن بغداد ووصل إلى الموصل في التاسع عشر من شهر ربيع الثاني، ونزل بالدير الأعلى، ولما اقترب من الموصل سار أبو تغلب عنها، وقصد سنجار، وأخلى الموصل من المواد الغذائية، ثم سار من سنجار يطلب بغداد، ولم يتعرّض إلى أحدٍ من

سوادها، بل كان هو وأصحابه يشترون الأشياء بأوفى الأثمان، فلما سمع بختيار بذلك أعاد وزيره ابن بقية والحاجب سبكتكين إلى بغداد، فأما ابن بقية فدخل بغداد، وأما سبكتكين فأقام بـ«حربى» قرية هناك. وكان أبو تغلب قد قارب بغداد، وقد حدثت فتنة فيها طائفية من ناحيةٍ واجتماعية من ناحيةٍ أخرى.

ولما بلغ أبا تغلب خبر دخول ابن بقية بغداد ونزول الحاجب سبكتكين «حربى» عاد عن بغداد ونزل بالقرب منه، وجرى بينهما مطاردة يسيرة، ثم اتفقا في السرّ على أن يُظهرا الاختلاف إلى أن يتمكّنا من القبض على الخليفة والوزير ووالدة بختيار وأهله فإذا فعلوا ذلك انتقل سبكتكين إلى بغداد، وعاد أبو تغلب إلى الموصل ليبلغ من بختيار ما أراد ويملك دولته، ثم إن سبكتكين خاف سوء العاقبة فتوقّف، وسار الوزير ابن بقية إلى سبكتكين فاجتمع به، وانفسخ ما كان بينهما، وتراسلوا بالصلح على أن يضمن أبو تغلب البلاد على ما كانت معه وعلى أن يطلق لبختيار ثلاثة آلاف «كرّ» غلّة عوضاً عن مؤنة سفره، وعلى أن يردّ على أخيه حمدان أملاكه وأقطاعه غير «ماردين»، ولما اصطلحوا أرسلوا إلى بختيار بذلك ليرحل عن الموصل، وعاد أبو تغلب إليها، ودخل سبكتكين بغداد.

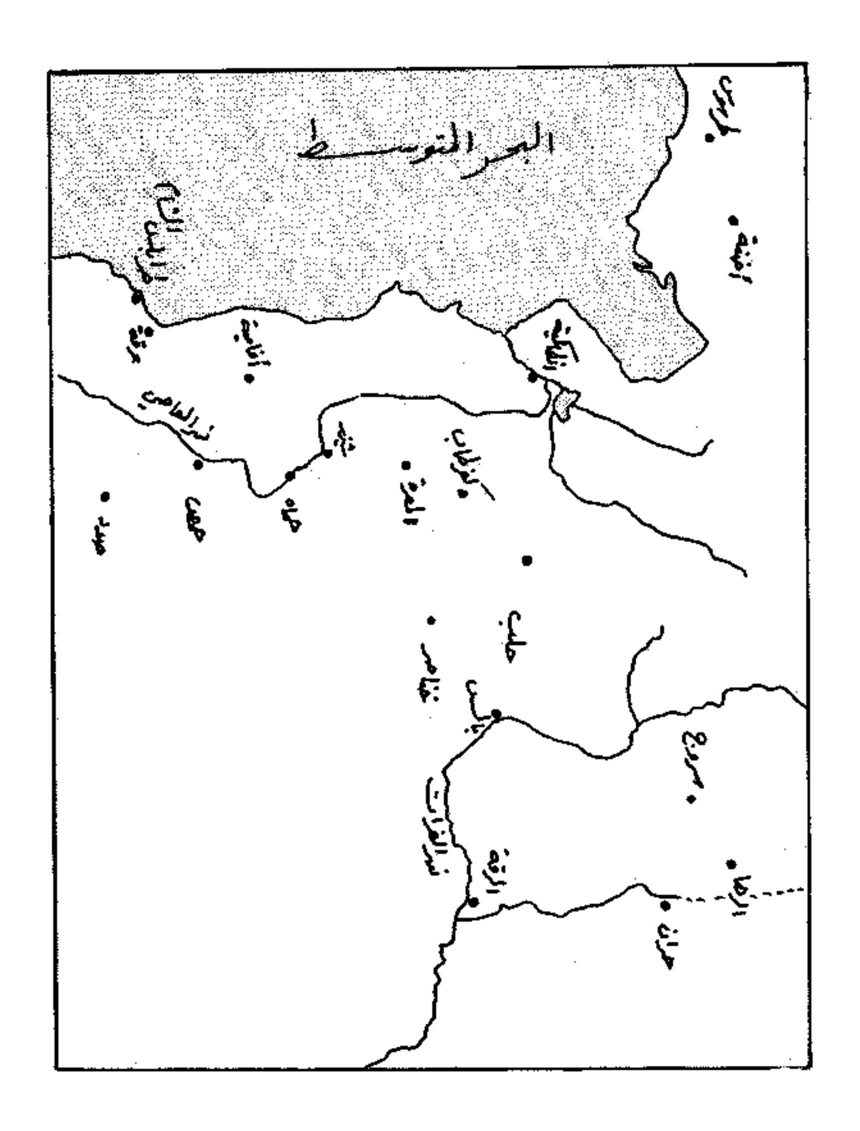
فلما سمع بختيار بقرب أبي تغلب منه خافه لأن عسكره كان قد عاد أكثره مع سبكتكين. وطلب الوزير ابن بقيّة من سبكتكين أن يسير نحو بختيار فتثاقل، ثم فكّر في العواقب فسار على مضضٍ. وأما عزّ الدولة بختيار فإنه جمع أصحابه ـ وهو بالدير الأعلى ـ ونزل أبو تغلب بالحصباء تحت الموصل وبينهما عرض البلد، وتعصّب أهل الموصل لأبي تغلب وأظهروا محبته لما نالهم من بختيار من المصادرات وأخذ الأموال، ودخل الناس بينهما بالصلح فطلب أبو تغلب من بختيار أن يُلقّب لقباً سلطانياً وأن يُسلّم إليه زوجته ابنة بختيار، وأن يحطّ عنه من ذلك القرار فأجابه بختيار خوفاً منه وتحالفاً. وسار بختيار عن الموصل عائداً إلى بغداد فأظهر أهل الموصل السرور برحيله لأنه كان قد أساء معهم السيرة وظلمهم، فلما وصل بختيار إلى «الكحيل»[1] بلغه أن أبا تغلب قد قتل قوماً كانوا من أصحابه وقد استأمنوا إلى بختيار فعادوا إلى الموصل ليأخذوا ما لهم بها من أهلٍ ومالٍ فقتلهم فلما بلغه ذلك اشتدّ عليه وأقام بمكانه، وأرسل إلى الوزير أبي طاهر بن بقية والحاجب سبكتكين يأمرهما بالإصعاد

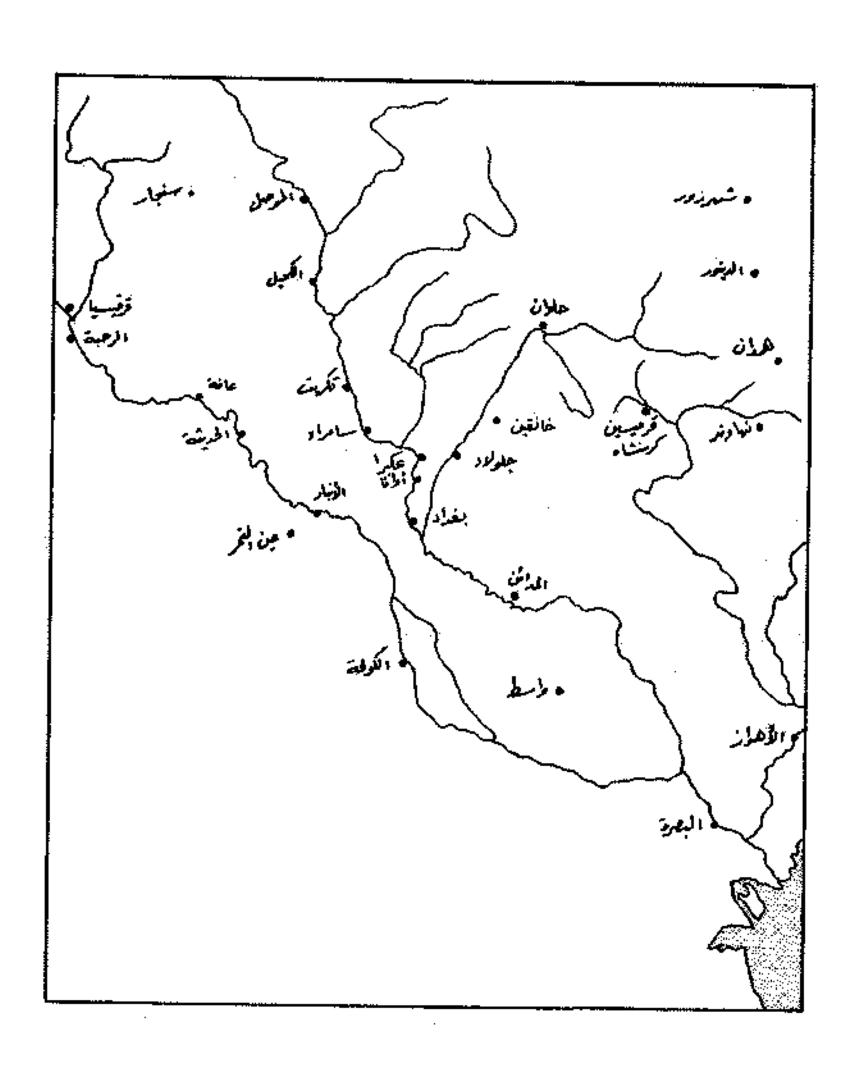
---

(١) الكحيل: مدينة على الجانب الغربي من دجلة بين الزابين.

إليه، وكان قد أرسل إليهما يأمرهما بالتوقّف، ويقول لهما: إن الصلح قد استقرّ، فلما أرسل إليهما يطلبهما أصعدا إليه في العساكر فعادوا جميعهم إلى الموصل، ونزلوا بالدير الأعلى أواخر جمادى الآخرة سنة ٣٦٣هـ، وفارقها أبو تغلب إلى «تل يعفر» وعزم عزّ الدولة على قصده وطلبه أين سلك، فأرسل أبو تغلب كاتبه وصاحبه أبا الحسن علي بن أبي عمرو إلى عزّ الدولة فاعتقله، واعتقل معه أبا الحسن بن عرس وأبا أحمد بن حوقل، وما زالت المراسلات بينهما، وحلف أبو تغلب أنه لم يعلم بقتل أولئك، فعاد الصلح واستقرّ، وحمل إليه ما استقرّ من المال، فأرسل عزّ الدولة الشريف أبا أحمد الموسوي والقاضي أبا بكر محمد بن عبد الرحمن فحلّفا أبا تغلب وتجدّد الصلح، وانحدر عز الدولة عن الموصل في السابع عشر من شهر رجب سنة ٣٦٣هـ، وعاد أبو تغلب إلى بلده. ولما عاد بختيار عن الموصل جهّز ابنته وسيّرها إلى أبي تغلب[١].

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.


البحر المتوسط
طرسوس
أذنة
الرها
سروج
حران
اللاذقية
حلب
الرقة
بالس
كفرطاب
خناصرة
نهر الفرات
المعرة
شيزر
حماه
أفامية
حمص
نهر العاصي
طرابلس الشام
عرقة



سنجار
الموصل
شهرزور
الدينور
الكحيل
قرقيسيا
الرحبة
حلوان
همذان
عانة
تكريت
الحديثة
سامراء
خانقين
قرميسين
كرمنشاه
نهاوند
عكبرا
أوانا
جلولاء
الأنبار
بغداد
عين التمر
المدائن
الكوفة
واسط
الأهواز
البصرة

ثالثاً: السامانيون:

ينتسب السامانيون إلى أحد رجالات الفرس واسمه «سامان»، ورغم إسلام معظم الفرس غير أن هذه الأسرة قد بقيت على مجوسيتها محافظةً عليها، متمسكةً بها، وفي بداية القرن الهجري الثاني كان أحد أفرادها، وهو سامان، قد بلغ مرحلة الشباب، ورأى نفسه وسط مجتمعٍ مخالفٍ له في العقيدة، فإذا بقي على عقيدته السابقة بقي منبوذاً في مجتمعه بعيداً عن وسائل الارتقاء نائياً عن أسباب الشهرة لذا وجد إظهار عقيدة المجتمع وهي الإسلام مع بقاء ارتباطه بما ورثه من عقيدة أجداده وهي المجوسية ارتباطاً قلبياً شديداً لا يزحزحه عنها أمر مهما قوي حيث يرى ذلك ارتباطاً في مجده ومحافظةً على عهده وثباتاً على مكنون فؤاده، وعزم على ذلك.

عين الخليفة الأموي هشام عبد الملك سنة ١٠٥هـ خالد بن عبد الله القسريّ والياً على العراق، فعيّن خالد أخاه أسد بن عبد الله القسريّ والياً على خراسان فجاءه سامان متقرّباً إليه ومرحّباً، وتكلّم بما يقوله المتزلّفون، وأعلن إسلامه مدّعياً أنه إيمان من القلب بعدما عرف الحق، ومحبّةً في أن يكون إسلامه على يد من أحبّ وهو والي خراسان أسد بن عبد الله القسريّ، وسمّى ابنه أسداً باسم الوالي.

وأخذ الموكب الساماني نهج العصبية، واتخذ طريق التلّون، ولما رأى المتلوّنون قوة الدعوة العباسية انحازوا إليها، وأخذوا لون السواد الذي اتّخذه العباسيون شعاراً لهم، وتخلّوا عن الطالبيين، وما ذلك حباً بالعباسيين ولا كرهاً بالطالبيين، فالكل عندهم سواء من جهة العداوة، الطالبيون والعباسيون والأمويون عندهم سواء ما داموا مسلمين، فالعداوة للإسلام والانحياز لطرفٍ ضد طرفٍ آخر إنما هو تخطيط لإحداث الفتنة وإضعاف الأمة.

وتوفي أسد بن سامان سنة ١٢٠هـ في مدينة بلْخ، ولم تنجح الدعوة العباسية بعد، وإن كانت لا تزال في طريق نشاطها وتقدّمها، وأخيراً أحرزت النجاح وتسلّمت الخلافة، غير أن المتلوّنين قد خاب أملهم وطاش صوابهم حيث لم يستفيدوا شيئاً إذ زال فريق عن الساحة وحلّ مكانه أخوه وإن كان بينهما خلاف وكان للمتلوّنين دور في زيادة الخلاف ويدٌ فيما وقع من صراعٍ، ولم ينل المتلوّنون شيئاً من حصاده، كما لم يقطفوا شيئاً من ثماره بل فقدوا ضحايا في صراعه.

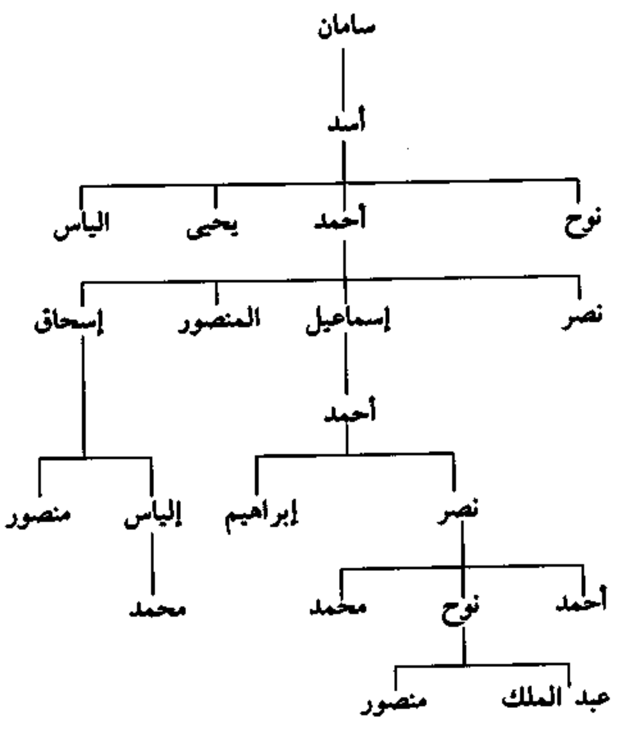
عمل المتلوّنون من جديدٍ ضدّ أحلافهم بالأمس وقادتهم الذين يدعون لهم، ويدّعون أنهم يعملون لهم

وهم العباسيون، فعندما حدث ما حدث ورأوا قوّتهم، وتمكّنهم من الخلافة، فأرادوا إضعافهم وتفتيت قوتهم سرّاً وبأساليب خاصةً قبل أن يستفحل أمرهم أكثر ويقوى ساعدهم بشكل أشدّ، فأخذ المتلوّنون يتصرّفون باسم سادتهم ما داموا يتبعونهم ويعملون لهم يتصرّفون بما يسيء إلى سمعتهم ويُولّد الكراهية لهم فأخذوا بنبش القبور، وقتل الأبرياء، والإساءة إلى المؤسسات الرسمية، غير أن هذا قد مرّ مع أحداث الصراع التي انتهت، ولكن بقي مدّوناً في كتب التاريخ بصورةٍ تسيء لمن قام العمل باسمه، بل وللمسلمين جميعاً ما دام الذين قاموا به يُعدّون أفراداً منهم إضافةً إلى التاريخ الإسلامي عامةً.

لم تنجح مخططات المتلوّنين التي قاموا بها لتشويه سمعة العباسيين في محاولةٍ لإثارة الفتنة ضدهم، فرأوا العمل على إيقاع الخلاف بين أفراد الأسرة العباسية التي آلت الخلافة إليها لتتفكك عُراها وتسير إلى زوال، فأوقعوا الخلاف بين الخليفة الثاني أبي جعفر المنصور وبين عمه عبد الله بن عليّ القائد العباسيّ، ولكن انتهى الصراع بحكمةٍ، وزال بحنكةٍ، وعادوا فأنشبوا الخلاف بين المنصور وبين ابن أخيه

عيسى بن موسى من أجل ولاية العهد فانتهى بالضغط والمراضاة، وكرروا الموضوع نفسه وهو ولاية العهد بين الخليفة العباسي الثالث محمد المهدي وابن عمه عيسى بن موسى ولكن انتهى بوسيلة المراضاة نفسها، ثم جرّبوا إثارة الفتنة بين الخليفة العباسي الرابع موسى الهادي وأخيه هارون الرشيد غير أنهم فشلوا، ثم جمعوا كيدهم، ونفثوا سمومهم، وأعملوا مكرهم فأوقعوا الفتنة بين ولدي هارون الرشيد الأمين والمأمون، وقد وقفوا إلى جانب المأمون بحجّة أن أمّه من بني جلدتهم وذلك تعميةً عن مراميهم وتغطيةً لأهدافهم، وبذل المتلوّنون قصارى جهدهم وإمكاناتهم، وتغلّب المأمون على أخيه الأمين، وقُتل الأمين، وأخذ المأمون الخلافة، وبدأ المتلّونون يُقدّمون للخليفة من يريدون إبرازهم ويرغبون رفعهم على أنهم أصحاب كفاءاتٍ وأهل صدقٍ وإخلاصٍ، يجيدون الإدارة ويحسنون القيادة، فولّى أحمد بن أسد فرغانة، ونوح بن أسد سمرقند، ويحيى بن أسد الشاش وأشروسنة، والياس بن أسد هراة وذلك حوالي سنة ٢٠٤هـ.

ولما آل حكم خراسان والمشرق سنة ٢٠٥هـ إلى طاهر بن الحسين، وهو من المقدّمين لدى المتلوّنين أقرّ أولاد أسد بن سامان على ما تحت أيديهم.



ولما توفي أحمد بن أسد خلفه ابنه نصر فحكم فرغانة وأقره الطاهريون عليها، وفي سنة ٢٦١هـ جعله الخليفة المعتمد على الله والياً على بلاد ما وراء النهر كلها، فجعل قاعدة ملكه مدينة سمرقند، وولّى أخاه إسماعيل مدينة بخارى، ولكن وقع الخلاف بينهما، فسار نصر لحرب أخيه إسماعيل سنة ٢٧٢هـ، غير أنهما تصالحا، ثم عادت الحرب بينهما سنة ٢٧٥هـ، وانتصر إسماعيل على نصر الذي وقع في الأسر، وحمل إلى

أخيه إسماعيل، فلما وصل إليه ترجّل إسماعيل وقبّل يدي أخيه، وأعاده إلى سمرقند، وعدّه هو الوالي، أما هو فعدّ نفسه نائباً لأخيه على بخارى، وبقي الأمر هكذا حتى مات نصر سنة ٢٧٩هـ، فآلت زعامة السامانيين إلى إسماعيل حتى توفي سنة ٢٩٥هـ، وخلفه ابنه أحمد بن إسماعيل.

قُتل أحمد بن إسماعيل بن أحمد بن أسد سنة ٣٠١هـ على يد أحد غلمانه، وخلفه ابنه نصر، وكان صغيراً لم يزد عمره على ثماني سنوات فاستصغرته أسرته فطلب عمّ أبيه إسحاق بن أحمد ولاية خراسان، وكان قد استمال إليه بلاد ما وراء النهر عدا بخارى، وكذا عمّ أبيه الآخر المنصور إلا أن الخليفة المقتدر بالله أقرّ نصراً على البلاد التي كانت لأبيه رغم صغر سنّه، فأدار له شؤون الولاية محمد بن عبد الله الجيهاني.

ثار على نصر بن أحمد عم أبيه إسحاق وابنه إلياس بن إسحاق، وسارا نحو بخارى غير أنهما قد هُزما أمام جيوش نصر التي استولت على سمرقند، وأسر إسحاق بعد اختفائه، أما الياس فقد فرّ إلى بلاد فرغانة، وثار ابن إسحاق الثاني وهو منصور سنة

٣٠٢هـ، وانضمّ إليه بعض قواد نصر، واستولوا على سجستان وحكموها باسم منصور بن إسحاق، وكذلك على نيسابور. واستمرت الحرب بين نصر ومنصور حتى عام ٣٠٦هـ حيث انتصر نصر وعادت سجستان ونيسابور إليه.

رجع إلياس بن إسحاق يستعدّ لمنازلة نصر، وتمكّن أن يجمع جيشاً قوامه ثلاثون ألفاً، وتقدّم به سنة ٣١٠هـ نحو سمرقند غير أن الهزيمة قد حلّت به، واضطر للرجوع إلى فرغانة، واختفى بها، غير أن جيوش نصر قد دخلت فرغانة سنة ٣١٢هـ، وبدأ إلياس يعمل لإعادة الكرّة على نصر وتعاون مع صاحب الشاش، غير أنه هُزم ثانيةً، وأسر صاحب الشاش الذي مات في السجن.

وثار أبو علي محمد بن إلياس الساماني على نصر بن أحمد الساماني واستولى على كرمان، فأرسل له نصر جيشاً كبيراً هزم أبا علي محمد بن إلياس ودخل كرمان سنة ٣٣٢هـ، وحكمها باسم السامانيين، وكان نصر قد قضي عليه سنة ٣٣١هـ.

أخذ نصر بن أحمد بن إسماعيل بمبادئ الإسماعيلية، ونشرها بين شعبه، وراسل عبيد الله

(المهدي). صاحب إفريقية إذ يدّعي الإسماعيلية، ويزعم انتساب سلفه إلى فاطمة ﵂ بنت رسول الله ﷺ لذا تسمّوا بالفاطميين، ولم ينتبه نصر إلى أن الإسماعيلية التي أخذها إنما يرجع مدّعوها إلى أصولٍ مجوسيةٍ على حين أن الإسماعيلية التي يدّعيها عبيد الله (الفاطمي) إنما يعود أدعيائها إلى أصولٍ يهوديةٍ، وأولهم عبيد الله نفسه. لذا فإن قادة نصر قد دبّروا مؤامرةً لاغتيال زعيمهم نصر بن أحمد بن إسماعيل الساماني، ولما أحسّ نصر بالخطر تنازل عن الحكم لابنه نوح غير أن هذا التصرّف لم ينجه فقُضي عليه سنة ٣٣١هـ ـ كما سبق أن ذكرنا ـ. وانقضت الصلة بين أتباع إسماعيلية المجوس وإسماعيلية اليهود.

عفا نوح بن نصر عن بعض الأمراء المخالفين له ليؤلّف بين القلوب.

وفي سنة ٣٣٢هـ خلع الطاعة عبد الله بن اشكام وامتنع بخوارزم على الأمير نوح بن نصر، فسار نوح من بخارى إلى مرو بسببه، وسيّر إليه جيشاً بإمرة إبراهيم بن بارس، وسار نحوه، غير أن إبراهيم قد مات في الطريق، وكاتب عبد الله بن اشكام ملك الترك واحتمى به، وكان لملك الترك ولد في يد نوح ـ وهو محبوس

ببخارى ـ فراسل نوح أباه في إطلاقه ليقبض على عبد الله بن اشكام، فأجابه ملك الترك إلى ذلك، فلما علم ابن اشكام بما تمّ عاد إلى طاعة نوح، وفارق خوارزم، فأحسن إليه نوح وأكرمه وعفا عنه.

ولما استقرّ نوح بن نصر في ولايته بما وراء النهر وخراسان أمر أبا عليّ بن محتاج أن يسير في عساكر خراسان إلى الريّ ويستنقذها من يد ركن الدولة بن بويه، فسار أبو علي في جمعٍ كثيرٍ فلقيه «وشمكير» بخراسان وهو يقصد الأمير نوحاً فسيّره إليه، وكان نوح حينئذٍ بـ«مرو» فلما قدم عليه أكرمه وأنزله وبالغ في إكرامه والإحسان إليه، وأما أبو علي فإنه سار نحو الريّ، فلما نزل ببسطام خالف عليه ببعض من معه، وعادوا عنه مع منصور بن قراتكين ـ وهو من أكابر أصحاب نوح وخواصّه ـ فساروا نحو جرجان وبها الحسن بن الفيرزان فصدّهم الحسن عنها فانصرفوا إلى نيسابور، وسار أبو علي بن محتاج نحو الريّ فيمن بقي معه فخرج إليه ركن الدولة محارباً فالتقوا على ثلاثة فراسخ من الريّ، وكان مع أبي علي جماعة كبيرة من الأكراد فغدروا به واستأمنوا إلى ركن الدولة فانهزم أبو علي وعاد نحو نيسابور، وغنموا بعض أثقاله.

ولما عاد أبو علي إلى نيسابور لقيه «وشمكير» وقد سيّره الأمير نوح ومعه جيش فيهم مالك بن شكرتكين، وأرسل إلى أبي علي يأمره بمساعدة «وشمكير» فوجّه فيمن معه إلى جرجان وبها الحسن بن الفيرزان فالتقوا واقتتلوا وانهزم الحسن، واستولى وشمكير على جرجان في صفر سنة ٣٣٣هـ.

وسار أبو علي بن محتاج من نيسابور إلى الأمير نوح وهو بـ«مرو» فاجتمع به وأعاده إلى نيسابور، وأمره بقصد الريّ، وأمدّه بجيشٍ كثيرٍ، فعاد إلى نيسابور وسار منها إلى الريّ في جمادى الآخرة سنة ٣٣٣هـ وبها ركن الدولة، فلما علم ركن الدولة بكثرة جموع أبي عليّ سار عن الريّ واستولى عليها أبو علي وعلى سائر أعمال الجبال، وأنفذ نوابه إلى الأعمال وذلك في شهر رمضان سنة ٣٣٣هـ.

سار الأمير نوح من مرو إلى نيسابور، وأقام بها مدة خمسين يوماً فوضع أعداء أبي علي بن محتاج جماعةً من الغوغاء والعامة فاجتمعوا واستغاثوا بالأمير نوح وشكوا له سوء سيرة أبي علي وسيرة نوابه، فاستعمل الأمير نوح على نيسابور إبراهيم بن سيمجور، وعاد الأمير نوح إلى بخارى، وكان مراد أعداء أبي

عليّ أن يقطعوا طمعه عن خراسان ليقيم بالريّ وبلاد الجبل، فاستوحش أبو عليّ لذلك فإنه كان يعتقد أنه يُحسن إليه بسبب استيلائه على الريّ وتلك الأعمال، فلما عُزل شقّ ذلك عليه ووجّه أخاه أبا العباس الفضل بن محمد إلى كور الجبال وولّاه همدان وجعله خليفةً على من معه من العساكر فقصد الفضل نهاوند والدينور وغيرها واستولى عليها، واستأمن إليه رؤساء الأكراد من تلك الناحية وأنفذوا إليه رهائنهم.

وفي سنة ٣٣٤هـ خالف أبو علي بن محتاج على الأمير نوح بن نصر صاحب خراسان وما وراء النهر، وسبب ذلك أن أبا علي لما عاد من مرو إلى نيسابور وتجهّز للسير إلى الريّ أنفذ إليه الأمير نوح عارضاً يستعرض العسكر، فأساء العارض السيرة معهم، وأسقط منهم وأنقص، فنفرت قلوبهم فساروا وهم على ذلك، وأُضيف إلى ذلك أن الأمير نوحاً أنفذ معهم من يتولّى أعمال الديوان، وجعل إليه الحلّ والعقد والإطلاق بعد أن كان جميعه أيام الأمير نصر بن أحمد والد الأمير نوح بن نصر إلى أبي عليّ فنفر قلبه لذلك، ثم إنه عُزل عن خراسان، واستعمل عليها إبراهيم بن سيمجور.

ثم إن المتولّي أساء إلى الجند في معاملاتهم

وحوائجهم وأرزاقهم فازدادوا نفوراً، فشكا بعضهم إلى بعض ـ وهم يومذاك بهمدان ـ واتفق رأيهم على مكاتبة عمّ الأمير، وهو إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل، واستقدامه إليهم ومبايعته وتمليكه البلاد. وكان إبراهيم حينئذٍ بالموصل في خدمة ناصر الدولة الحمداني. فلما تمّ اتفاقهم أظهروا لأبي عليّ ما بيّتوا عليه، فنهاهم عنه، فتوعّدوه بالقبض عليه إن خالفهم فأجابهم إلى ما طلبوا، فكاتبوا إبراهيم بن أحمد، وعرفّوه حالهم فسار إليهم في تسعين فارساً فقدم عليهم في رمضان سنة ٣٣٤هـ، ولقيه أبو عليّ بهمدان، وساروا معه إلى الريّ في شهر شوال من السنة نفسها، فلما وصلوا إليها اطلع أبو عليّ من أخيه الفضل على كتابٍ كتبه إلى الأمير نوح يطلعه على حالهم، فقبض عليه وعلى المتولّي الذي أساء إلى الجند، وسار إلى نيسابور، واستخلف على الريّ والجبل نوابه.

ووصل الخبر إلى الأمير نوح فتجهّز وسار من بخارى إلى مرو، وكان الأجناد قد ملّوا من محمد بن أحمد الحاكم المتولّي للأمور لسوء سيرته، فقالوا لنوح: إن الحاكم أفسد عليك الأمور بخراسان وأحوج أبا عليّ إلى العصيان وأوحش الجنود، وطلبوا تسليمه إليهم وإلا

ساروا إلى عمه إبراهيم وأبي عليّ، فسلّمه إليهم فقتلوه في شهر جمادى الأولى سنة ٣٣٥هـ.

ولما وصل أبو عليّ إلى نيسابور كان بها إبراهيم بن سيمجور ومنصور بن قراتكين وغيرهما من القواد فاستمالهما أبو عليّ، فمالا إليه، وصارا معه، ودخلها، ثم ظهر له من منصور ما يكره فقبض عليه، ثم سار أبو علي وإبراهيم من نيسابور إلى مرو وبها الأمير نوح، فلما اقترب منها أتاه كثير من عسكر الأمير نوح الذي غادرها إلى بخارى، واستولى أبو علي على مرو وأقام بها أياماً، وأتاه أكثر جنود الأمير نوح فسار نحو بخارى فغادرها الأمير نوح واتجه إلى سمرقند. ودخل أبو عليّ بخارى في شهر جمادى الآخرة سنة ٣٣٥هـ، وخطب فيها لإبراهيم بن أحمد عمّ الأمير نوح، وبايع له الناس. ثم إن أبا عليّ اطلع من الأمير الجديد إبراهيم على سوءٍ قد أضمره له ففارقه وسار إلى تركستان، وبقي إبراهيم بن أحمد أميراً في بخارى.

أثناء ذلك أطلق أبو علي من السجن منصور بن قراتكين فسار إلى الأمير نوح. ثم إن الأمير إبراهيم قد وافق جماعةً في السرّ على أن يخلع نفسه من الأمر ويردّه إلى ولد أخيه الأمير نوح ويكون هو صاحب

جيشه، ويتفق معه على السير على أبي عليّ، ودعا أهل بخارى إلى ذلك فأجابوه واجتمعوا وخرجوا إلى أبي عليّ وقد تفرّق عنه أصحابه، وركب إليهم في خيل، فردّهم إلى البلد أقبح ردٍّ، وأراد إحراق البلد فشفع إليه مشايخ بخارى، فعفا عنهم، وعاد إلى مكانه، واستحضر أبا جعفر محمد بن نصر بن أحمد ـ وهو أخو الأمير نوح ـ وعقد له الإمارة وبايع له وخطب له في النواحي كلها، ثم ظهر لأبي عليّ فساد نيّات جماعةٍ من الجند، فرتّب أبا جعفر في البلد، ورتّب ما يجب ترتيبه، وخرج عن البلد يظهر المسير إلى سمرقند، ويضمر العودة إلى الصغانيان ومنها إلى نسف، فلما خرج من البلد ردّ جماعةً من الجند والحشم إلى بخارى، وكاتب نوحاً بإفراجه عنها، ثم سار إلى الصغانيان. ولما غادر أبو عليّ بخارى خرج إبراهيم وأبو جعفر محمد بن نصر إلى سمرقند مستأمنين إلى نوح مظهرين الندم على ما كان منهم فقرّبهم ووعدهم وقبلهم وعاد إلى بخارى. وقتل نوح في تلك الأيام «طغان»، وسمل عيني عمه إبراهيم، وأخويه أبي جعفر محمد وأحمد، وعادت الجيوش فاجتمعت عليه، وأصلح الفساد، وأما الفضل بن محمد أخو أبي عليّ فإنه لما هرب من أخيه ولحق بـ«قهستان» جمع جمعاً

كثيراً، وسار نحو نيسابور وبها محمد بن عبد الرزاق من قبل أبي عليّ فخرج منها إلى الفضل فالتقيا وتحاربا فانهزم الفضل ومعه فارس واحد فلحق ببخارى فأكرمه الأمير نوح وأحسن إليه وأقام في خدمته.

ولما عاد الأمير نوح إلى بخارى وأصلح البلاد، وكان أبو عليّ بالصغانيان، وأبو أحمد محمد بن علي القزويني بمرو، فرأى نوح أن يجعل منصور بن قراتكين على جيوش خراسان فولّاه ذلك وسيّره إلى مرو وبها أبو أحمد وقد غوّر المناهل ما بين آمل ومرو، ووافق أبا علي ثمّ تخلّى عنه، وسيّر إليه منصور جريدةً في ألفي فارس، فلم يشعر القزويني إلا بنزول منصور بـ«كشماهن» على بعد خمسة فراسخ من مرو، واستولى منصور على مرو، واستقبله القزويني فأكرمه وسيّره إلى بخارى مع ماله وأصحابه فلما بلغها أكرمه الأمير نوح وأحسن إليه إلا أنه وكّل به فظفر بعض الأيام برقعةٍ قد كتبها القزويني بما أنكره فأحضره وبكّته بذنوبه ثم قتله.

وبلغ أبا عليّ وهو بالصغانيان أن الأمير نوحاً قد عزم عل تسيير عسكرٍ إليه، فجمع أبو علي الجيوش وخرج إلى بلْخ، وأقام بها، وأتاه رسول الأمير نوح في الصلح فأجاب إليه فأبى عليه جماعة ممن معه من قواد

الأمير نوح الذين انتقلوا إليه، وقالوا: نحبّ أن تردّنا إلى منازلنا، ثم صالح فخرج أبو علي إلى بخارى فخرج إليه الأمير نوح في عساكره، وجعل الفضل بن محمد أخا أبي عليّ صاحب جيشه فالتقوا بـ«جرجيك» في شهر جمادى الأولى سنة ٣٣٦هـ، وتحاربوا قبيل العصر فاستأمن إسماعيل بن الحسن الداعي إلى نوح وتفرّق العسكر عن أبي عليّ فانهزم ورجع إلى الصغانيان، ثم بلغه أن الأمير نوحاً قد أمر العسكر بالمسير إليه من بخارى وبلْخ وغيرهما، وأن صاحب الختل قد تجهّز لمساعدة أصحاب أبي عليّ، فسار أبو علي في جيشه إلى ترمذ وعبر نهر جيحون، وسار إلى بلْخ فنازلها واستولى عليها، وعلى طخارستان وجبى مال تلك الناحية. وسار من بخارى عسكر جرار إلى الصغانيان، فأقاموا بـ«نسف» ومعهم الفضل بن محمد أخو أبي عليّ، فكتب جماعة من قواد العسكر إلى الأمير نوح بأن الفضل قد اتهموه بالميل إلى أخيه فأمرهم بالقبض عليه، فقبضوا عليه وسيّروه إلى بخارى، وبلغ خبر العسكر إلى أبي علي وهو بـ«طخارستان» فعاد إلى الصغانيان، ووقعت بينهم حروب وضيّق عليهم أبو علي في العلوفة فانتقلوا إلى قريةٍ أخرى على فرسخين من الصغانيان فقاتلهم أبو علي في شهر ربيع الأول سنة

سبعٍ وثلاثين وثلاثمائةٍ قتالاً شديداً فقهروه، وسار إلى «شومان» وهي على ستة عشر فرسخاً من الصغانيان، ودخل عسكر نوح إلى الصغانيان فأخربوا قصور أبي علي ومساكنه، وتبعوا أبا علي فعاد إليهم، واجتمع إليه الكتيبة وضيّق على عسكر نوح، وأخذ عليهم المسالك فانقطعت عنهم أخبار بخارى وأخبارهم عن بخارى نحو عشرين يوماً، فأرسلوا إلى أبي علي يطلبون الصلح فأجابهم إليه، واتفقوا على إنفاذ ابنه أبي المظفر عبد الله رهينةً إلى الأمير نوح، واستقرّ الصلح بينهما في شهر جمادى الآخرة سنة ٣٣٧هـ، وسيّر ابنه إلى بخارى فأمر نوح باستقباله فأكرمه وأحسن إليه، وكان قد دخل عليه بعمامة فخلع عليه القلنسوة وجعله من ندمائه.

وفي سنة ٣٣٩هـ أمر الأمير نوح منصور بن قراتكين بالسير من نيسابور إلى الريّ، وكان ركن الدولة البويهي في فارس، فوصل منصور إلى الريّ وبها عليّ بن كامة خليفة ركن الدولة فسار عنها إلى أصبهان، ودخل منصور الريّ واستولى عليها، وفرّق العساكر في البلاد فملكوا بلاد الجبل إلى قرميسين، وأزالوا عنها نواب ركن الدولة ـ وهو بفارس ـ فكتب إليه أخيه معز الدولة يأمره بإنفاذ عسكر يدفع تلك العساكر عن النواحي

المجاورة للعراق فسيّر سبكتكين الحاجب في عسكرٍ ضخمٍ من الأتراك والديلم والعرب، فلما سار سبكتكين عن بغداد خلف أثقاله وأسرع إلى من بقرميسين من الخراسانيين فكبسهم وهم غاوون فقتل فيهم وأسر مقدمهم، واسمه «بجكم الخمارتكيني» فأنفذه مع الأسرى إلى معز الدولة فحبسه مدةً ثم أطلقه، فلما بلغ الخراسانية ذلك اجتمعوا إلى همذان فسار سبكتكين نحوهم ففارقوا همذان ولم يحاربوه، ودخل سبكتكين همذان وأقام بها إلى أن ورد عليه ركن الدولة.

وسار منصور بن قراتكين من الريّ في عسكره نحو همذان وبها ركن الدولة فلما بقي بينهما مقدار عشرين فرسخاً عدل منصور إلى أصبهان. وتقدّم ركن الدولة إلى سبكتكين بالمسير في مقدمته، فلما أراد المسير شغب عليه بعض الأتراك مرةً بعد أخرى، فقال ركن الدولة: هؤلاء أعداؤنا ومعنا، والرأي أن نبدأ بهم فواقعهم، واقتتلوا فانهزم الأتراك، وبلغ الخبر إلى معز الدولة فكتب إلى ابن أبي الشوك الكردي وغيره يأمرهم بطلبهم والإيقاع بهم فطلبوهم وأسروا منهم وقتلوا، ومضى من سلم منهم إلى الموصل، وسار ركن الدولة نحو أصبهان، ووصل منصور بن قراتكين إلى أصبهان

فانتقل من كان بها من أصحاب ركن الدولة وأهله وركبوا الصعب والذلول حتى البقر والحمير، وبلغ كراء الثور والحمار إلى خان «النجان» مائة درهم، وهي على تسعة فراسخ من أصبهان فلم يمكنهم مجاوزة ذلك، ولو سار إليهم منصور لغنمهم وأخذ ما معهم وملك ما وراءهم ـ لكنه المخطط ـ إلا أنه دخل أصبهان وأقام بها، ووصل ركن الدولة وأقام بخان «النجان»، وجرت بينهما حروب عدة أيامٍ، وقلّت المواد الغذائية على الطرفين، وبلغ بهم الأمر إلى أن ذبحوا دوابهم. ثم إن منصوراً وعسكره قد انسحبوا إلى الريّ ليلاً وتركوا خيامهم حتى لا ينتبه خصمهم وكان ذلك في شهر المحرم سنة ٣٤٠هـ. فأتى الخبر ركن الدولة فلم يصدقه حتى شاع فركب هو وعسكره واحتوى ما خلفه أصحاب منصور.

بعد أن عاد منصور بن قراتكين من أصبهان إلى الريّ لم يلبث أن مات، وكانت وفاته في شهر ربيع الأول سنة ٣٤٠هـ، ورجعت العساكر الخراسانية إلى نيسابور، وأُعيد أبو علي بن محتاج إلى قيادة الجيوش بخراسان، فسار إلى نيسابور.

كتب «وشمكير» إلى الأمير نوح يستمده فكتب

نوح إلى أبي علي بن محتاج يأمره بالمسير في جيوش خراسان إلى الريّ وقتال ركن الدولة، فسار أبو عليّ في جيوشٍ كثيرةٍ واجتمع معه «وشمكير» فسارا إلى الريّ، وبلغ الخبر ركن الدولة فعلم أنه لا طاقة له بمن قصده فرأى أن يحفظ بلده ويقاتل عدوّه من وجهٍ واحدٍ فحارب الخراسانيين، وأقام أبو علي عدة شهورٍ يقاتله فلم يظفر به، وهلكت دواب الخراسانيين وأتاهم الشتاء، وملّوا فلم يصبروا فاضطر أبو علي إلى الصلح، فتراسلوا في ذلك، وكان الرسول أبا جعفر الخازن، وكان المشير به محمد بن عبد الرزاق فتصالحا، وتقرّر على ركن الدولة كل سنةٍ مائتا ألف دينارٍ، وعاد أبو علي إلى خراسان، وكتب «وشمكير» إلى الأمير نوح يُعرّفه الحال، ويذكر له أن أبا عليّ لم يصدق في الحرب، وأنه مالأ ركن الدولة، فاغتاظ نوح من أبي علي. وأما ركن الدولة فإنه لما عاد عنه أبو علي سار نحو «وشمكير» فانهزم وشمكير من بين يديه، واستولى ركن الدولة على طبرستان.

كتب الأمير نوح إلى أبي علي يعزله عن خراسان، وكتب إلى القواد يعرفهم أنه قد عزله عنهم، واستعمل على الجيوش بعده أبا سعيد بكر بن مالك الفرغاني،

فبعث أبو علي يعتذر، وراسل جماعةً من أعيان نيسابور يقيمون عذره، ويسألون أن لا يُعزل عنهم فلم يجابوا إلى ذلك، وعُزل أبو علي عن خراسان، فأظهر الخلاف وخطب لنفسه بنيسابور، وكتب الأمير نوح إلى وشمكير والحسن بن فيرزان يأمرهما بالصلح، وأن يتساعدا على من يخالف ركن الدولة ففعلا ذلك، فلما علم أبو علي باتفاق الناس مع الأمير نوح عليه كاتب ركن الدولة بالمسير إليه لأنه علم أنه لا يمكنه المقام بخراسان ولا يستطيع العودة إلى الصغانيان فاضطر إلى مكاتبة ركن الدولة بالمسير إليه فأذن له.

كان الخليفة المطيع لله قد أرسل رسلاً إلى خراسان لمحاولة الصلح بين ركن الدولة البويهي والأمير نوح الساماني فلما وصلت الرسل إلى «حلوان» خرج عليهم ابن أبي الشوك في أكراده فنهبهم ونهب القافلة التي كانت معهم، وأسر الرسل ثم أطلقهم، فسيّر معزّ الدولة عسكراً إلى حلوان فأوقعوا بالأكراد وأصلحوا البلاد هناك وعادوا.

سار أبو علي بن محتاج إلى الريّ بعد أن أذن له ركن الدولة، فاستقبله ركن الدولة وأكرمه وأقام له الإنزال والضيافة له ولمن معه، وطلب أبو علي أن

يكتب له عهداً من جهة الخليفة بولاية خراسان، فأرسل ركن الدولة إلى أخيه معز الدولة في ذلك، فبعث له عهداً بما طلب، وسيّر له نجدةً من عسكره، فسار أبو علي إلى خراسان، واستولى على نيسابور، وخطب للخليفة المطيع لله بها وبما استولى عليه من خراسان، ولم يخطب له بها قبل ذلك.

مات الأمير نوح بن نصر الساماني سنة ٣٤٣هـ في شهر ربيع الثاني، وتولّى بعده ابنه عبد الملك، وقام بأمره بكر بن مالك الذي كان نوح قبل موته قد استعمله على جيوش خراسان، ولكن لم يخرج إلى خراسان، فلما استقرّ وضع عبد الملك بن نوح سيّر بكر بن مالك إلى خراسان وأمره بإخراج أبي علي بن محتاج منها، فسار بالعساكر نحو أبي عليّ فتفرّق عن أبي عليّ أصحابه وعسكره، وبقي معه من أصحابه مائتا رجلٍ سوى من كان معه من الديلم نجدةً له فاضطر أبو علي إلى الهرب فسار نحو ركن الدولة البويهي، فأنزله معه في الريّ، واستولى بكر بن مالك على خراسان فأقام في نيسابور وتتبع أصحاب أبي عليّ.

وسار ركن الدولة إلى جرجان ومعه أبو علي بن محتاج فدخلها بغير حربٍ وانصرف وشمكير عنها إلى

خراسان، وسار ركن الدولة إلى الريّ في شهر المحرم سنة ٣٤٤هـ، وكتب إلى أخيه معز الدولة يستمدّه فأمده بعسكرٍ على مقدمتهم الحاجب سبكتكين، وسيّر عسكراً آخر من خراسان إلى أصبهان على طريق المفازة وبها الأمير أبو منصور بويه بن ركن الدولة، فلما بلغ بويه بن ركن الدولة مسير الخراسانيين إليه غادر أصبهان وأخذ معه حرم أبيه وخزائنه فبلغوا خان «النجان»، وكان مقدم العسكر الخراساني محمد بن ماكان فوصلوا إليها ودخلوها، وتبعوا أبا منصور بويه فأدركوا الخزائن فأخذوها، وساروا في أثره، ووصل إليهم ساعتذاك أبو الفضل بن العميد وزير ركن الدولة، والتقى بمحمد بن ماكان فقاتله فانهزم أصحاب ابن العميد عنه، واشتغل أصحاب محمد بن ماكان بالنهب.

قال ابن العميد: فبقيت وحدي وأردت اللحاق بأصحابي ففكّرت، وقلت: بأيّ وجهٍ ألقى صاحبي وقد أسلمت أهله وأولاده وأمواله وملكه ونجوت بنفسي، فرأيت القتل أيسر عليّ من ذلك، فوقفت وعسكر ابن «ماكان» ينهب أثقالي، وأثقال عسكري. فلحق بابن العميد نفر من أصحابه ووقفوا معه، وأتاهم غيرهم فاجتمع معهم جماعة فحمل على الخراسانيين ـ وهم

مشغولون بالنهب ـ وصاحوا فيهم فانهزم الخراسانيون فأُخذوا بين قتيلٍ وأسيرٍ، وأُسر ابن «ماكان» وأُحضر عند ابن العميد، وسار ابن العميد إلى أصبهان فأخرج من كان بها من أصحاب ابن «ماكان»، وأعاد أولاد ركن الدولة وحرمه إلى أصبهان، واستنقذ أمواله.

ثم إن ركن الدولة راسل بكر بن مالك صاحب جيوش خراسان واستماله فاصطلحا على مالٍ يحمله ركن الدولة إليه، وتكون الريّ وبلاد الجبل مع ركن الدولة، وأرسل ركن الدولة إلى أخيه معزّ الدولة يطلب خلعاً ولواءً بولاية خراسان لبكر بن مالك فأرسل إليه.

قبض الأمير عبد الملك بن نوح على أحد قادته وأمرائه ويُسمّى «تجتكين» وقتله فاضطربت خراسان، وذلك سنة ٣٤٩هـ. وتعثّر الفرس تحت الأمير عبد الملك بن نوح فسقط على الأرض فمات، وكانت وفاته في الحادي عشر من شهر شوال سنة ٣٥٠هـ، وكانت فتنة في خراسان بعده، وتولّى أمر بلاد ما وراء النهر وخراسان بعد عبد الملك أخوه منصور بن نوح.

أرسل الأمير منصور بن نوح إلى أحد قادته، وهو «الفتكين» يستدعيه فامتنع فبعث إليه جيشاً فالتقى بهم «الفتكين» فهزمهم وأسر وجوه القادة منهم وفيهم خال

الأمير منصور وذلك في شهر ربيع الأول من سنة ٣٥١هـ.

سار أبو علي بن الياس صاحب كرمان سنة ٣٥٦هـ إلى الأمير منصور بن نوح ملتجئاً إليه فلما وصل إليه أكرمه الأمير منصور وعظمه.

فأطمع أبو علي الأمير منصور بممالك بني بويه وحسّن له غزوها، وعرّفه أن نوابه على البلدان لا يناصحونه، وأنهم يأخذون الرشوة من الديلم فوافق كلامه ما كان يذكره له «وشمكير».

فكاتب الأمير منصور وشمكير والحسن بن الفيرزان يعرّفهما ما عزم عليه من غزو الريّ، ويأمرهما بالتجهّز لذلك ليسيرا مع عسكره، ثم إنه جهّز العساكر وسيّرها مع صاحب جيوش خراسان ـ وهو، أبو الحسن محمد بن إبراهيم بن سيمجور الدواتي ـ وأمره بطاعة وشمكير والانقياد له والتصرّف حسب أمره، وجعله مقدم الجيوش جميعها.

فلما وصل الخبر إلى ركن الدولة أتاه ما لم يكن في حسابه، وعلم أن الأمر قد بلغ الغاية فسيّر أولاده، وأهله إلى أصبهان، وكاتب ولده عضدّ الدولة يستمدّه، وأرسل إلى ابن أخيه عزّ الدولة بختيار

يستنجده أيضاً، فأما عضد الدولة فإنه جهّز العساكر وسيّرهم إلى طريق خراسان وأظهر أنه يريد خراسان لخلوها من العسكر، فبلغ الخبر أهل خراسان فأحجموا قليلاً، ثم ساروا.

وانطلق ركن الدولة في عساكره من الري نحوهم، وصادف أن مات[1] «وشمكير» قائد الجيوش الخراسانية، وقام من بعده بالقيادة ابنه «بيستون» فراسل ركن الدولة وصالحه فأمده ركن الدولة بالمال وبما يحتاج إليه سياسةً، وبالأصل فلا خلاف بين الطرفين.

وذُكر سنة ٣٥٩هـ للأمير منصور بن نوح أن أهل كرمان يبغون الدخول في طاعته، فطمع في كرمان لكثرة ما ذكر له سليمان بن أبي علي بن الياس الذي كان

---

(١) كان سبب موت «وشمكير» أنه قد وصل إليه من صاحب خراسان الأمير منصور بن نوح هدايا كان من جملتها خيل فاختار أحدها وركبه للصيد فاعترضه خنزير قد رُمي بحربةٍ وهي ثابتة بجسمه، فحمل الخنزير على «وشمكير» ـ وهو غافل ـ فضرب الفرس فشبّ فألقى وشمكير إلى الأرض، وخرج الدم من أنفه وأذنيه فحمل ميتاً، وذلك في شهر المحرم سنة ٣٥٧هـ، فانتقض جميع ما كان معه.

والده صاحب كرمان، فسيّر الأمير منصور عسكراً إليها مع سليمان فانطلق نحو كرمان وانضمّ إليه الجماعات المفارقة لطاعة عضد الدولة، فعظم جمع سليمان واستفحل أمره فالتقى به «كوركير بن جِستان» خليفة عضد الدولة بكرمان، وحمي القتال، وقُتل سليمان قائد جيش خراسان، وقتل ابنا أخي سليمان، وهما: بكر والحسين، وعدد كبير من قادة الخراسانيين، وحُمل بعضهم إلى عضد الدولة بشيراز، فبعث بهم إلى أبيه ركن الدولة. كما وقع عدد كبير من الخراسانيين بالأسر.

وتم الصلح بين الأمير منصور بن نوح الساماني صاحب خراسان وما وراء النهر وبين ركن الدولة وابنه عضد الدولة على أن يحمل ركن الدولة وعضد الدولة إليه كل سنةٍ مائةً وخمسين ألف دينارٍ، وتزوج نوح بن منصور بابنة عضد الدولة وحمل إليه من التحف والهدايا ما لم يحمل مثله. وكُتب بينهم كتاب صلحٍ شهد فيه أعيان خراسان وفارس والعراق، وكان الذي سعى في هذا الصلح وقرره محمد بن إبراهيم بن سيمجور صاحب جيوش خراسان من جهة الأمير منصور.

بخارى
أبيورد
نسا
مرو
بحر قزوين
جرجان
طبرستان
نيسابور
سرخس
الموصل
قزوين
شهرزور
الري
ساوه
الدينور
همذان
قم
قرميسين
شرمشاه
نهاوند
بغداد
طبس
أصبهان
جنديسابور
الأهواز
سجستان
كرمان
شيراز
كازرون
الخليج العربي

رابعاً ـ العبيديون (الفاطميون):

وينتسبون إلى عبيد الله بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح بن ديصان اليهودي، وهذا الغالب، وإن كانت هناك أقوال وآراء في هذا الموضوع.

لما بعث الله سيّد الأولين والآخرين محمداً ﷺ، عظم ذلك على اليهود والنصارى والروم (نصارى) والفرس (مجوس) وقريش وسائر العرب (جاهلية) لأنه سفّه أحلامهم، وعاب أديانهم وآلهتهم، وفرّق جمعهم فاجتمعوا يداً واحدةً عليه فكفاه الله كيدهم ونصره عليهم فأسلم منهم من هداه الله تعالى، فلما قُبض ﷺ نَجَمَ النفاق، وارتدت العرب، وظنّوا أن الصحابة يضعفون بعده، فجاهد أبو بكر ﷺ، في سبيل الله فقتل مسيلمة الكذاب، وردّ الرِّدَّة، وأذلّ الكفر، ووطّأ جزيرة العرب، وغزا فارس والروم، فلما حضرته الوفاة ظنّوا أن بوفاته ينتقص الإسلام فاستخلف عمر بن الخطاب ﷺ، فأذلّ فارس والروم، وغلب على ممالكها فدسّ عليه المنافقون أبا لؤلؤة المجوسي فقتله غدراً ظنّاً منهم أن بقتله ينطفئ نور الإسلام، فولي عثمان بن عفان، ﷺ فزاد في الفتوح واتسعت مملكة الإسلام، فلما قُتل

وولي بعده علي بن أبي طالب، ﷺ، قام بالأمر أحسن قيام، فلما يئس أعداء الإسلام من استئصاله بالقوة أخذوا في وضع الأحاديث الكاذبة وتشكيك ضعفاء العقول في دينهم بأمورٍ قد ضبطها المحدّثون، وأفسدوا الصحيح بالتأويل والطعن عليه، فكان أول من فعل ذلك محمد بن أبي زينب مولى بني أسد[1] أبو الخطاب،

---

(١) محمد بن أبي زينب، ومحمد بن زكريا، ومحمد بن أبي الحسن، ومحمد بن حسان، والكل اسم لواحدٍ وهو محمد بن سعيد الذي صُلب لزندقته، وقد وصل إلينا من تدليس بعضهم تسعة عشر وجهاً لاسمه.

الأول: محمد بن سعيد بن حسان، هكذا كان يروي عنه يحيى بن سعيد الأموي.

الثاني: محمد بن سعيد الأسدي، هكذا كان يروي عنه سعيد بن أبي هلال.

الثالث: محمد بن سعيد بن حسان بن قيس، هكذا كان يروي عنه محمد بن عجلان.

الرابع: أبو عبد الرحمن الشامي، هكذا كان يروي عنه بكر بن خنيس.

الخامس: محمد بن حسان، هكذا كان يروي عنه مروان بن معاوية.

السادس: محمد بن أبي قيس، هكذا كان يروي عنه مروان بن معاوية أيضاً.

السابع: محمد بن غانم، كذلك روى عنه عبد الرحيم بن سليمان في بعض الروايات. =

= الثامن: محمد الطبري، كذلك روى عنه عبد الرحمن بن امرئ القيس.
التاسع: محمد بن الطبري، كذلك ذكره يحيى بن معين.
العاشر: أبو قيس الشامي، كذلك روى عنه أبو معاوية الضرير.
الحادي عشر: أبو قيس محمد بن عبد الرحمن، كذلك روى عنه أبو معاوية في بعض الروايات.
الثاني عشر: محمد بن زينب.
الثالث عشر: محمد بن أبي زكريا.
الرابع عشر: محمد بن أبي الحسن.
الخامس عشر: محمد بن حسان الطبري. ذكر هذه الأقوال العقيلي.
السادس عشر: أبو عبد الله الشامي، حكاه أبو العباس بن عقدة.
السابع عشر: أبو عبد الرحمن الأزدي حكاه أبو حاتم بن حبان.
الثامن عشر: محمد بن عبد الرحمن.
والتاسع عشر: الربضي ذكرهما الخطيب أبو بكر.
وقد قال العقيلي: ربما قالوا عبد الله، وعبد الرحمن، وعبد الكريم، وغير ذلك على معنى التعبيد لله، وينسبونه إلى جدّه، ويكنّون الجدّ.
قال أبو حاتم بن حبان: كان هذا الرجل يقول: إني لأسمع الكلمة الحسنة فلا أرى بأساً أن أنشئ لها إسناداً، فلا يحلّ ذكره في الكتب إلا على وجه القدح فيه. =

= قال المصنّف: فهذا الرجل هو الذي وضع هذا الإسناد ليوقع في قلوب الناس الشكّ، فإن ظهر فبحقٌ وجد طريقاً.

وقد صحّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أنا خاتم النبيين لا نبيّ بعدي» (لسان الميزان).

وجاء في تهذيب الكمال في أسماء الرجال للحافظ جمال الدين أبي الحجاج يوسف المِزّيّ: محمد بن سعيد بن حسّان بن قيس القرشيّ الأسديّ المصلوب. ويقال: محمد بن سعيد بن عبد العزيز. ويقال ابن أبي عتبة. ويقال: ابن أبي قيس. ويقال: ابن أبي حسان. ويقال: ابن الطبري. ويقال غير ذلك في نسبه، أبو عبد الرحمن. ويقال: أبو عبد الله. ويقال: أبو قيس الشامي الدمشقي. ويقال: الأردني.

روى عن إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر، وأوس بن أبي أوس الثقفي مرسل، وربيعة بن يزيد، وسليمان بن موسى، وصالح بن جبير الشامي، وعبادة بن نُسَيّ، وعبد الرحمن بن غنم من وجهٍ ضعيفٍ، وعروة بن رُوَيْم اللخميّ، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري، ومكحول الشامي، ونافع مولى ابن عمر.

روى عنه الأبيض بن الأعزّ، وبكر بن خنيس، وجنيد بن العلاء بن أبي دهرة، والحسن بن صالح بن حَيّ، وحفص بن عمر بن ميمون، وخالد بن يزيد الأزرق، وسعيد بن أبي هلال، وسفيان الثوري، وعبد الرحمن بن محمد المحاربي، وعبد الرحيم بن سليمان، ومحمد بن عجلان، ومروان بن معاوية الفزاريّ، ويحيى بن سعيد الأموي، وأبو بكر بن عياش، وأبو معاوية الضرير. =

= قال عبد الله بن أحمد بن حنبل، عن أبيه: قتله أبو جعفر في الزندقة، حديثه حديث موضوع.

وقال أبو داود عن أحمد بن حنبل: عمداً كان يضع.

وقال عباس الدوري عن يحيى بن معين: منكر الحديث، وليس هو كما قالوا صُلب في الزندقة ولكنه منكر الحديث.

وقال البخاريّ: تُرك حديثه.

وقال النسائي: الكذّابون المعروفون بوضع الحديث أربعة: إبراهيم بن أبي يحيى بالمدينة، والواقدي ببغداد، ومقاتل بن سليمان بخراسان، ومحمد بن سعيد بالشام.

وقال عبد الرحمن بن إبراهيم دحيم: سمعت خالد بن يزيد الأزرق يقول: سمعت محمد بن سعيد الأردني يقول: إذا كان الكلام حسناً لم أبال أن أجعل له إسناداً.

وقال أبو جعفر العقيلي: وهم يغيّرون اسمه إذا حدثوا عنه، مروان الفزاريّ يقول: محمد بن حسان، ومحمد بن أبي قيس، ومحمد بن أبي زينب، ومحمد بن زكريا، ومحمد بن أبي الحسن.

وقال ابن عجلان، وعبد الرحيم بن سليمان: محمد بن سعيد بن حسان بن قيس. وبعضهم يقول: عن أبي عبد الرحمن الشامي فلا يُسمّيه. ويقولون: محمد بن حسّان الطبري، وربما قالوا: عبد الله، وعبد الرحمن، وعبد الكريم، وغير ذلك، على معنى التعبيد لله، وينسبونه إلى جدّه، ويكنّون فيه الجد حتى يتسع الأمر جداً في هذا؟ وبلغني عن بعض أصحاب الحديث أنه قال: يقلب اسمه على نحو مائة اسم وما أبعد أن يكون كما قال، وهو محمد بن سعيد المصلوب. =

= وقال عبد الغني بن سعيد المصري الحافظ: محمد بن سعيد الشامي المصلوب في الزندقة، وهو محمد الذي نسبه المحاربي إلى ولاء بني هاشم، وهو محمد بن أبي قيس، وهو محمد الطبري، وهو محمد بن حسّان الذي يروي عنه مروان الفزاريّ، وهو أبو عبد الرحمن الشامي، وهو محمد الأردني، وهو الذي روى عنه محمد بن عجلان، فقال محمد بن سعيد بن حسّان، وهو محمد بن سعيد الأسدي الذي روى عنه سعيد بن أبي هلال، ولو قال قائل أنه أبو عبد الله محمد الأسدي الذي يروي عنه وابصة بن معبد، وحدّث عنه محمد بن صالح لما دفعت ذلك.

قال: وقال أبو جعفر العقيلي: إن عبد الرحمن بن أبي شُمَيْلة هو محمد بن سعيد المصلوب، وأن قولهم: عبد الرحمن بن أبي شُمَيْلة أحد الأسماء التي غُيّر بها اسم محمد بن سعيد وما صنع شيئاً، وإنما ذكرت قوله هاهنا وحكيته عنه لئلا يظنّ ظانّ أني تركت قولاً قاله قائل من أهل الحديث.

وأنا أقول: إن عبد الرحمن بن أبي شُمَيْلة هذا غير محمد بن سعيد، وأنه رجل من الأنصار من أهل قُباء، حدّث عنه مروان بن معاوية، وحماد بن زيد، وأحد الحجج في ردّ قول العقيلي لو لم يعرف نسب عبد الرحمن رواية حماد بن زيد عنه، لأن حماد بن زيد لا يدلّس ولا ينقل اسماً إلى اسم.

انتهى قول عبد الغني بن سعيد.

وقال إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني: (مكشوف الأمر هالك ـ أحوال الرجال: الترجمة ٢٨٣).

وقال مسلم بن الحجاج: متروك الحديث (الكنى: الورقة ٦٩). =

= وقال الترمذي: قد تُرك حديثه (الجامع: ٣٥٤٩).
وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: سمعت أبي يقول: محمد بن سعيد الشامي متروك الحديث.
وقال أبو بكر بن أبي خيثمة: سمعت يحيى بن معين يقول: أبو قيس الدمشقي الذي روى عنه أبو معاوية الضرير: ليس حديثه بشيء.
وقال عمرو بن علي: محمد بن سعيد الأزدي يُحدّث بأحاديث موضوعة.
وقال أبو زرعة الرازي: صُلب في الزندقة، وهو متروك الحديث. (الجرح والتعديل: ٧/الترجمة ١٢٣٦).
وقال: كان محمد بن سعيد يضع الحديث على الثقات، ويروي عن الأثبات ما لا أصل له، لا يحلّ ذكره في الكتب إلا على سبيل القدح فيه، ولا الرواية عنه بحال من الأحوال (٢٤٨/٢).
وذكره الدارقطني في الضعفاء والمتروكين (الترجمة ٤٦١)، وقال في موضع آخر: متروك الحديث (السنن ١/٢٢٣)، وقال أيضاً: ضعيف (السنن ١/٢٢٩).
وذكره ابن الجوزي في «الضعفاء»، وقال: وهذا الرجل كان كذّاباً يضع الحديث ويفسد أحاديث الناس (الورقة ١٤٠).
وقال الذهبي في «الميزان»: هالك اتُّهم بالزندقة، فصُلب (٣/ الترجمة ٧٥٩٢).
وقال ابن حجر في «التهذيب» قال ابن نمير ـ وذكرت له رواية الكوفيين عنه ـ فقال: لم يعرفوه وإنما العيب على الشاميين الذين عرفوه ثم رووا عن هذا العدو لله، كذّاب يضع الحديث. =

وأبو شاكر ميمون القداح بن ديصان[1] صاحب كتاب

= وقال ابن عقدة: سمعت أبا طالب بن سوادة يقول: قلب أهل الشام اسمه على مائة كذا وكذا أسماء قد جمعتها في كتاب.

وقال أبو مسهر: هذا من كذّابي الأردن.

وقال أحمد بن صالح المصري: زنديق ضُربت عنقه، وضع أربعة آلاف حديث عند هؤلاء الحمقى فاحذروها.

وقال النسائي: متروك الحديث.

وقال الحاكم أبو أحمد: كان يضع الحديث.

وقال الحاكم: هو ساقط لا خلاف بين أهل النقل فيه (٩/ ١٨٦).

وقال ابن حجر في «التقريب»: كذبوه.

قال بشار: لا ينتهي عجبي من رواية الترمذي وابن ماجه له. نسأل الله العافية.

(١) ميمون بن ديصان، القداح، أبو شاكر: رأس الفرقة الميمونية من الإسماعيلية، في نسبه وسيرته اضطراب، اسم ديصان، وقيل: غيلان، وفي الإسماعيلية من ينسبه إلى سلمان الفارسي ﷺ كان يظهر التشيّع، ويبطن اليهودية والزندقة. ولد بمكة سنة ١٠٠هـ، وانتقل إلى الأهواز، واتصل بمحمد الباقر، وابنه جعفر الصادق رحمهما الله مظهراً التلمذة والرغبة بالعلم، فروى عنهما حسب هواه، ويقال: إنه أدرك محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وأدّبه، ولقّنه مذهب الباطنية، وتوجّه به إلى طبرستان فالشام، واستقرّ في «سلمية» من جهات حمص، وتوفي بها، ويرى الإسماعيلية أنه كان بصيراً بالفلسفة اليونانية، وعمل على إدخالها في المذهب. والفاطميون من نسله، وتوفي حوالي سنة ١٧٠هـ.

الميزان في نصرة الزندقة، وغيرهما فألقوا إلى من وثقوا به أن لكل شيء من العبادات باطناً، وأن الله تعالى لم يوجب على أوليائه ومن عرف من الأئمة والأبواب صلاةً ولا زكاةً ولا غير ذلك ولا حرّم عليهم شيئاً، وأباحوا لهم نكاح الأمهات والأخوات وإنما هذه قيود للعامة ساقطة عن الخاصة، وكانوا يظهرون التشيّع لآل النبيّ ﷺ، ليستروا أمرهم ويستميلوا العامة، وتفرّق أصحابهم في البلاد، وأظهروا الزهد والعبادة يغرون الناس بذلك، وهم على خلافه، فقتل أبو الخطاب وجماعة من أصحابه بالكوفة، وكان أصحابه قد قالوا له: إنا نخاف الجند، فقال لهم: إن أسلحتهم لا تعمل فيكم، فلما ابتدؤوا في ضرب أعناقهم قال له أصحابه: ألم تقل إن سيوفهم لا تعمل فينا؟ فقال: إذا كان قد أراد الله فما حيلتي؟ وتفرّقت هذه الطائفة في البلاد وتعلموا الشعوذة، فهم يحتالون على كل قومٍ بما يتفق معهم، وعلى العامة بإظهار الزهد.

ونشأ لميمون القداح بن ديصان ولد يقال له: عبد الله القداح، علّمه الحيل، وأطلعه على أسرار هذه النِّحلة فحذق وتقدّم، وكان بنواحي «الكرخ» و«أصبهان» رجل يعرف بمحمد بن الحسين ويُلقّب بـ«دندان» يتولّى

تلك المواضع وله نيابة عظيمة، وكان يبغض العرب، ويجمع مساوئهم، فسار إليه القداح وعرفه من ذلك ما زاد به محله، وأشار عليه أن لا يظهر ما في نفسه إنما يكتمه ويظهر التشيّع لآل بيت رسول الله ﷺ، والطعن بالصحابة فإن الطعن فيهم طعن في الشريعة فإنها بطريقهم وصلت إلى من بعدهم، فاستحسن قوله وأعطاه مالاً عظيماً ينفقه على مروّجي مذهبه، فسيّره إلى كور الأهواز والبصرة والكوفة وطالقان وخراسان، وسلمية من أرض حمص، وفرّق مروّجي المذهب.

كان ميمون القداح قد سمّى ولده عبد الله على اسم عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وطلب ميمون من ولده عبد الله أن يُسمّي أبناءه باسم أبناء عبد الله بن محمد بن إسماعيل، كما عليه أن يوصي أبناءه وأحفاده بذلك حتى تختلط الأسماء بين أسرتي محمد بن إسماعيل وميمون القداح.

وتوفي عبد الله بن ميمون القداح وقام ابنه أحمد من بعده ـ ولعبد الله بن محمد بن إسماعيل ولد يُسمّى أحمد أيضاً حسب وصية ميمون القداح ـ وصحب أحمد بن عبد الله القداحي إنسان يقال له: رستم بن الحسين بن حوشب بن دادان النجار من أهل الكوفة

فكانا يقصدان المشاهد (القبور ـ قبور الذين يظهرون التشيّع لهم ـ).

وكان باليمن رجل اسمه محمد بن الفضل كثير المال والعشيرة من أهل إقليم «جَنَد» يُظهر التشيّع فجاء إلى قبر الحسين بن عليّ، عليهما السلام، ليزوره فرآه أحمد، وهو يبكي كثيراً، فلما خرج اجتمع به أحمد وطمع فيه لما رأى من بكائه، وألقى إليه مذهبه فقبله، وسيّر معه رستم بن الحسين بن حوشب النجار إلى اليمن وأمره بلزوم العبادة والزهد ودعاء الناس إلى المهدي، وأنه خارج في هذا الزمان باليمن، فسار ابن حوشب إلى اليمن ونزل بـ«عدن» قرب قومٍ متشيعين من بني موسى، وأخذ في بيع ما معه، وأتاه بنو موسى وقالوا له: فيمَ جئت؟ فقال: للتجارة، قالوا: لست بتاجرٍ، وإنما أنت رسول المهدي، وقد بلغنا خبرك، ونحن بنو موسى ولعلك قد سمعت بنا فانبسط ولا تحتشم فإننا إخوانك، فأظهر أمره وقوّى عزائمهم. وأرسلوا إلى المغرب رجلين أحدهما يعرف بالحلواني والآخر يعرف بأبي سفيان، وتأثّرت بهما رجال قبيلة كتامة، وأقاما سنين كثيرةً وماتا وكان أحدهما قريب الوفاة من الآخر[1].

---

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

العبيديون (٢٩٦ ـ ٥٦٧هـ):

(١) عبيد الله (المهدي) ٢٩٦ ـ ٣٢٢هـ.

(٢) نزار (القائم) ٣٢٢ ـ ٣٣٤هـ.

(٣) إسماعيل (المنصور) ٣٣٤ ـ ٣٤١هـ.

(٤) معد (المعزّ) ٣٤١ ـ ٣٦٥هـ.

(٥) نزار (العزيز) ٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ.

(٦) منصور (الحاكم) ٣٨٦ ـ ٤١١هـ.

(٧) عليّ (الظاهر) ٤١١ ـ ٤٢٨هـ.

(٨) محمد (المستنصر) ٤٢٨ ـ ٤٨٧هـ.

(٩) أحمد (المستعلي) ٤٨٧ ـ ٤٩٥هـ.

محمد (١٠) منصور (الآمر) ٤٩٥ ـ ٥٢٤هـ نزار

(١١) عبد المجيد (الحافظ) ٥٢٤ ـ ٥٤٤هـ.

(١٢) إسماعيل (الظافر) ٥٤٤ ـ ٥٤٩ هـ. يوسف

(١٣) عيسى (الفائز) ٥٤٩ ـ ٥٥٥هـ. (١٤) عبد الله (العاضد) ٥٥٥ ـ ٥٦٧هـ.

قضى صلاح الدين الأيوبي رَحِمَهُ اللَّهُ على العبيديين

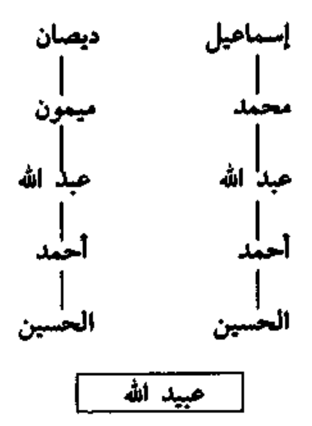
وكان أبو عبد الله الحسين بن محمد بن زكريا من أهل صنعاء، وهو المعروف بأبي عبد الله الشيعي، وقد سار إلى رستم بن الحسين بن حوشب النجار وصحبه بعدن، وصار من كبار أصحابه وكان له علم وفهم ودهاء ومكر. فلما أتى خبر وفاة الحلواني وأبي سفيان إلى ابن حوشب قال لأبي عبد الله الشيعي: إن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان وقد ماتا وليس لها غيرك فبادر فإنها موطأة ممهدة لك. فخرج أبو عبد الله الشيعي إلى مكة وأعطاه ابن حوشب مالاً وسيّر معه رجالاً، فلما قدم أبو عبد الله الشيعي مكة سأل عن حجاج كتامة، فأُرشد إليهم فاجتمع بهم ولم يُعرّفهم قصده، فلما أراد القيام سألوه أن يأذن لهم بزيارته والانبساط معه فأذن لهم في ذلك، فسألوه أين مقصدك؟ فقال: أريد مصر ففرحوا بصحبته، وكان من رؤساء الكتاميين بمكة رجل اسمه حريث الجميلي وآخر اسمه موسى بن مكاد فرحلوا وهو لا يُخبرهم بغرضه وأظهر لهم العبادة والزهد فازدادوا فيه رغبةً وخدموه، وكان يسألهم عن بلادهم وأحوالهم وقبائلهم وعن طاعتهم لسلطان إفريقية، فقالوا: ما علينا طاعة، بيننا وبينه عشرة أيامٍ، قال: أفتحملون السلاح؟ قالوا: هو شغلنا، ولم يزل يتعرّف أحوالهم حتى وصلوا إلى

مصر، فلما أراد وداعهم قالوا له: أي شيءٍ تطلب بمصر؟ قال: أطلب التعليم بها، قالوا: إذا كنت تقصد هذا فبلادنا أنفع لك ونحن أعرف بحقك، ولم يزالوا به حتى أجابهم، إلى المسير معهم. واستطاع أن يسيطر على إفريقية ـ كما مرّ ـ.

أما في المشرق في بغداد فإنه لما مات عبد الله بن القداح بن ديصان خلفه ابنه أحمد وادّعى أنهم من ولد عقيل بن أبي طالب، وهم مع هذا يسترون ويسرّون أمرهم ويخفون أشخاصهم.

وتوفي أحمد وخلفه ابنه الحسين، فسار إلى السلمية من أرض حمص، وله بها ودائع وأموال من ودائع جده عبد الله القداح ووكلاء وغلمان. وبقي ببغداد من أولاد القداح أبو الشلغلغ، وكان الحسين يدّعي أنه الوصي وصاحب الأمر، والدعاة بالمغرب واليمن يكاتبونه ويراسلونه، وكان لمحمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق أبناء وأحفاد يحملون الأسماء نفسها التي يحملها أبناء وأحفاد ميمون القداح بن ديصان، وكان عبيد الله بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح بن ديصان اليهودي يدّعي النسب الذي يوصل إلى محمد بن إسماعيل، ومن هنا جاء الخلط بين

النسبين، فأيهما الصحيح؟ ما ذُكر هو الصحيح ـ والله أعلم ـ.



عبيد الله

وهناك روايات أخرى تعطي الأصل نفسه والمرمى ذاته ومنها:

أولاً: واتفق أنه جرى بحضرة الحسين بن أحمد حديث النساء بسلمية، فوصفوا له امرأة رجلٍ يهوديٍّ حدادٍ مات عنها زوجها ـ وهي في غاية الحُسن ـ فتزوجها ولها ولد من الحداد يماثلها في الجمال فأحبّها، وحسن موقعها معه، وأحبّ ولدها وأدّبه وعلّمه، فتعلّم العلم، وصارت له نفس عظيمة وهمة كبيرة، فمن العلماء من أهل هذه الدعوة من يقول: إن الإمام الذي كان بسلمية ـ وهو الحسين ـ مات ولم يكن له ولد فعهد إلى ابن اليهودي الحداد ـ وهو عبيد الله ـ

وعلمه أسرار الدعوة من قولٍ وفعلٍ، وأين الدعاة، وأعطاه الأموال والعلامات، وتقدّم إلى أصحابه بطاعته وخدمته، وأنه الإمام الوصي، وزوّجه ابنة عمه أبي الشلغلغ. وجعل لنفسه نسباً وهو: عبيد الله بن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

فلما عهد الحسين إلى عبيد الله، قال له: إنك ستهاجر بعدي هجرةً بعيدةً وتلقى محناً شديدةً. فتوفي الحسين، وقام بعده عبيد الله، وانتشرت دعوته، وأرسل إليه أبو عبد الله الشيعي رجالاً من كتامة من المغرب ليخبروه بما فتح الله عليه، وأنهم ينتظرونه وشاع خبره عند الناس أيام الخليفة المكتفي بالله (٢٨٩ ـ ٢٩٥هـ) فطُلب فهرب هو وولده أبو القاسم نزار الذي ولي بعده وتلقّب بالقائم ـ وهو يومئذٍ غلام ـ وخرج معه خاصته ومواليه يريد المغرب، وذلك أيام زيادة الله من بني الأغلب، فلما انتهى إلى مصر أقام مستتراً بزيّ التجار، وكان عامل مصر حينئذٍ عيسى النوشري فأتته الكتب من الخليفة بصفته وحليته وأُمر بالقبض عليه وعلى كل من يشبهه، وكان بعض خاصة عيسى النوشري متشيعاً ـ لا يعرف أبعاد الأدعاءات والأكاذيب في الأنساب، بل

صاحب عاطفةٍ ـ فأخبر عبيد الله (المهدي) وأشار عليه بالانصراف فخرج من مصر مع أصحابه ومعه أموال كثيرة فأوسع النفقة على من صحبه، فلما وصل الكتاب إلى النوشري فرّق الرسل في طلب عبيد الله (المهدي)، وخرج بنفسه فلحقه فلما رآه لم يشكّ فيه فقبض عليه، ونزل ببستان ووكلّ به، فلما حضر الطعام دعاه ليأكل فأعلمه أنه صائم فرقّ له، وقال له: أعلمني بحقيقة حالك حتى أُطلقك، فخوّفه بالله تعالى، وأنكر حاله، ولم يزل يخوّفه ويتلطّفه فأطلقه وخلّى سبيله، وأراد أن يرسل معه من يوصله إلى رفقته، فقال: لا حاجة في ذلك ودعا له.

وجدّ عبيد الله (المهدي) بالهرب حتى وصل إلى طرابلس، وتفرّق من صحبه من التجار، وكان في صحبته أبو العباس أخو أبي عبد الله الشيعي، فقدّمه عبيد الله أمامه إلى القيروان فقبض زيادة الله الأغلبي على أبي العباس، وسمع عبيد الله بالخبر فسار نحو سجلماسة فوصل إليها وأقام بها، وكان صاحبها اليسع بن مدرار من الخوارج الصفرية، فأهدى له عبيد الله وواصله فقرّبه اليسع وأحبه، فأتاه كتاب زيادة الله الأغلبي يعرفه أنه الرجل الذي يدعو إليه أبو عبد الله الشيعي فقبض عليه عندئذٍ وسجنه.

وسيطر أبو عبد الله الشيعي على إفريقية سنة٢٩٦هـ وهرب زيادة الله بن الأغلب، فاستخلف أبو عبد الله الشيعي أخاه أبا العباس على إفريقية وسار في جيوشه نحو المغرب وذلك في شهر رمضان سنة ٢٩٦هـ، وخافته قبيلة زناتة، وزالت القبائل عن طريقه وجاءته رسلهم ودخلوا في طاعته، فلما اقترب من سجلماسة وانتهى خبره إلى اليسع بن مدرار أمير سجلماسة أرسل إلى عبيد الله (المهدي) ـ وهو في سجنه ـ يسأله عن نسبه وحاله وهل إليه قصد أبو عبد الله فحلف له عبيد الله أنه ما رأى أبا عبد الله ولا عرفه، وإنما أنا رجل تاجر، فاعتقله في دارٍ وحده، وكذلك فعل بولده أبي القاسم، وجعل عليهما الحرس، وسأل ولده أيضاً فما حاد عن كلام أبيه، وسأل رجالاً كانوا معه وضربهم فلم يعترفوا بشيء. وسمع أبو عبد الله الشيعي بذلك فشقّ عليه، فأرسل إلى الأمير اليسع بن مدرار يتلطّفه، وأنه لم يقصد الحرب وإنما له حاجة مهمة عنده ووعده الجميل فرمى الكتاب وقتل الرسل، فعاوده بالملاطفة خوفاً على عبيد الله (المهدي) ولم يذكره له فقتل الرسل أيضاً، فأسرع أبو عبد الله في السير ونزل عليه فخرج إليه اليسع وقاتله يومه ذلك وافترقوا، فلما جنّهم الليل هرب اليسع وأصحابه من أهله وبني عمه، وبات أبو عبد الله ومن

معه في غمٍّ عظيم لا يعلمون ما صنع بمهديهم وولده، فلما أصبح خرج إليه أهل البلاد وأعلموه، بهرب اليسع، فدخل هو وأصحابه البلد، وأتوا المكان الذي فيه مهديهم فأخرجه وأخرج ولده فأركبهما ومشى هو ورؤساء القبائل بين أيديهما، وأبو عبد الله يقول للناس: هذا مولاكم وهو يبكي من شدة الفرح حتى وصل إلى فسطاطٍ قد ضُرب له فنزل فيه، وأمر بطلب اليسع فطُلب فأُدرك فأُخذ وضُرب بالسياط ثم قُتل. فلما ظهر عبيد الله (المهدي) أقام بسجلماسة أربعين يوماً وسار بعدها إلى إفريقية ووصل إلى رقادة قاعدة بني الأغلب في العشر الأخير من شهر ربيع الثاني سنة ٢٩٧هـ وقد زال ملك بني الأغلب، وملك الخوارج الصفرية بني مدرار في سجلماسة، وملك الخوارج الأباضية بني رستم في تاهرت وملك عبيد الله بلاد المغرب كلها، ونزل بقصرٍ من قصور رَقادة، وأمر يوم الجمعة بذكر اسمه في الخطبة في البلاد، وتلقّب بالمهدي أمير المؤمنين لسبعٍ بقين من ربيع الثاني سنة ٢٩٧هـ[1].

ثانياً: يقال: إن أبا عبد الله الشيعي لما دخل

---

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

السجن الذي حُبس فيه عبيد الله (المهدي) وجد صاحب سجلماسة قد قتله، ووجد في السجن رجلاً مجهولاً محبوساً، فأخرجه إلى الناس، لأنه كان قد أخبر الناس أنه عبيد الله (المهدي) كان محبوساً في سجلماسة، وأنه إنما يقاتل عليه، فقال للناس: هذا هو المهدي ـ وكان قد أوصاه أن لا يتكلم إلا بما يأمره به وإلا قتله ـ فراج أمره[1].

ثالثاً: قد كتب غير واحدٍ من الأئمة، منهم الشيخ أبو حامد الإسفراييني، والقاضي الباقلاني، والقدوري ـ أن هؤلاء أدعياء ليس لهم نسب صحيح فيما يزعمونه، وأن والد عبيد الله (المهدي) هذا ـ كان يهودياً صبّاغاً بسلمية. وقيل: كان اسمه سعيد، وإنما لُقّب بعبيد الله، وزوج أمه الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح، وسُمّي القداح، لأنه كان كحّالاً يقدح العيون إذا نزل فيها الماء.

وكان الذي وطّأ له الأمر بتلك البلاد أبو عبد الله الشيعي، ثم استدعاه، فلما قدم عليه من بلاد المشرق وقع في يد صاحب سجلماسة فسجنه، فلم يزل الشيعي

(١) البداية والنهاية: ابن كثير.

يحتال له حتى استنقذه من يده، وسلّم إليه الأمر، ثم ندم الشيعي على تسليمه الأمر وأراد قتله، ففطن عبيد الله لما أراد به، فأرسل إلى الشيعي من قتله، وقتل أخاه معه[1].

والخلاصة فإن عبيد الله (المهدي) الذي ينتمي إليه الخلفاء العبيديون (الفاطميون) سواء أكان من أحفاد ميمون القداح بن ديصان أم يرجع إلى الحداد اليهوديّ أم الصبّاغ اليهودي الذي تزّوج الحسين بن أحمد بن عبد الله زوجته بعد وفاته أم يعود إلى ذاك الذي وُضع في سجن سجلماسة مكان عبيد الله الذي قتله الأمير اليسع بن مدرار فالأمر كله واحد يعود إلى أصلٍ يهوديٍّ، وقد عمل على إخفاء نسبه والتعمية على أصله بادعاء نسبٍ يرجع إلى إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وقد روّج هذا أعوانه وأشاع ذلك المغرضون حتى انتشر وساعد على ذلك استلام أبنائه السطة في إفريقية ثم في مصر فكان يتقرّب إليهم المتزلّفون ويتحبّب إليهم أصحاب المصالح حتى كأن القلم بيد صاحب السلطان

(١) البداية والنهاية: ابن كثير.

يدّعي النسب الذي يريد، ويدوّن الوقائع التي يرغب، ويسجّل الأعمال التي يحبّ، وينتشر ذلك، وينقل العامة ذلك، ويأخذ المؤرخون بعد زمنٍ ما كُتب في الماضي دون معرفةٍ ومن غير تحقيقٍ حتى يصبح كأنه حقيقة وخاصةً إذا لعبت عصبية البلد أو عملت تبعية الانتماء.

وتوفي عبيد الله (المهدي) في مدينة (المهدية) في النصف من شهر ربيع الأول سنة ٣٢٢هـ، فلما مات قام بالأمر من بعده ولده أبو القاسم نزار الملقب بالخليفة القائم بأمر الله. وحين توفي أبوه كتم موته سنةً حتى دبّر ما أراده من الأمور، ثم أظهر ذلك، وعزّاه الناس.

٢" ـ القائم بأمر الله:

تولّى أبو القاسم نزار بن عبيد الله (المهدي) إمامة العبيديين (الفاطميين) بعد وفاة أبيه عبيد الله. ولا بدّ لمن يريد النجاح في الدور السريّ العازم على تأديته لا بدّ له من أن يقوم ببعض المهمات المناطة بالأمة التي يعيش بين ظهرانيها تغطيةً لنفسه وتعميةً للدور الذي يقوم به، ولما كان يعيش وسط أمة الإسلام وتوصل إلى السيطرة على بعض أمصارها فلا بدّ له من أن يقوم ببعض مهماتها ليظهر أنه من أبنائها، ولما كانت أهم مهمةٍ للأمة الإسلامية هي الجهاد في سبيل الله لذا كان

عليه أن يقوم بإرسال بعض الجيوش تحت هذا الشعار، وفي هذا العمل يُوجّه أنظار مجتمعه إلى ميادين القتال ويُبعدها عن أحداث الداخل، وإذا أراد الله النصر لهذه الجيوش ارتفعت مكانة الأمير، وثبت موقعه، ورسخت أقدامه في الأمصار التي يتولّى شأنها.

جهّز القائم بأمر الله العبيدي (الفاطمي) جيشاً من إفريقية في البحر إلى ناحية الفرنجة وأعطى قيادته إلى رجل يسمى يعقوب بن إسحاق فوصل إلى مدينة (جنوه) في جنوبي بلاد الفرنجة (إيطالية) على ساحل البحر المتوسط، فنزل هذا الجيش في (جنوه) فسبى وغنم غنائم كثيرةً، ورجع الجند سالمين.

سيّر القائم بأمر الله العبيدي (الفاطمي) جيشاً إلى مصر بقيادة خادمه (زيدان)، وبالغ في النفقة على هذا الجيش وتجهيزه، وليس هناك من يقف إلى جانب الحكم الإخشيذي في مصر ويدعمه ما دام بعيداً عن الأثر المجوسي القائم في المشرق، وعن الأثر اليهودي القائم في المغرب. ونزل الخادم زيدان مع الجيش الفاطمي بمدينة الاسكندرية فأخرج إليهم محمد الإخشيد عسكراً كثيفاً نقاتلهم وهزمهم بعد أن قتل منهم كثيراً وأسر منهم أعداداً فرجعوا مقهورين خائبين.

وخرج على القائم العبيدي رجل في ناحية طرابلس يقال له: ابن طالوت القرشي، وزعم أنه ولد المهدي فقاموا معه وزحف إلى مدينة طرابلس فقاتله أهلها، ثم تبيّن للبربر كذبه فقتلوه وبعثوا برأسه إلى القائم.

وبعث القائم العبيدي جيشاً كثيفاً مع الفتى ميسور إلى المغرب فانتهى إلى فاس وإلى بلاد التكرور (في السنغال اليوم)، وهزم خارجياً هناك وأخذ ولده أسيراً.

استعمل القائم العبيدي (الفاطمي) على مدينة (جرجنت) من بلاد جزيرة صقلية سالم بن راشد، وكان سيء السيرة في الناس، فخرج السكان عليه وخلعوا طاعته، فأرسل إليهم جيشاً من أهل صقلية وإفريقية فاقتتلوا أشد قتال فهزمهم أهل (جرجنت) وتبعوهم، فخرج إليهم سالم ولقيهم، واشتدّ القتال بينهم، وعظم الخطب، فانهزم أهل جرجنت في شهر شعبان سنة ٣٢٥هـ، فلما رأى أهل المنطقة خلاف أهل جرجنت خرجوا أيضاً على سالم وخالفوه وعظم شغبهم عليه فقاتلوه في شهر ذي القعدة سنة ٣٢٥هـ فهزمهم وحصرهم بالمدينة، وأرسل إلى القائم العبيدي (الفاطمي) بالمهدية يُعرّفه أن أهل صقلية قد خرجوا عن

طاعته، وخالفوا عليه، ويستمدّه، فأمرّه القائم بجيشٍ، استعمل عليه خليل بن إسحاق، فسار حتى وصل إلى صقلية فرأى من طاعة أهلها ما سرّه، وشكوا إليه ظلم سالم وجوره، وخرج إليه النساء والصبيان يبكون ويشكون فرقّ الناس وبكوا لبكائهم، وجاء أعيان البلاد إلى خليل وأهل جرجنت فلما وصلوا إليه اجتمع بهم سالم، وأعلمهم أن القائم قد أرسل إليهم خليلاً لينتقم منهم بما قتلوا من عسكره، فعاودوا الخلاف، فشرع خليل في بناء مدينة على مرساها وحصنها، ونقض كثيراً من المدينة، وأخذ أبوابها، وسمّاها الخالصة، ونال الناس شدّة في بناء المدينة فبلغ ذلك أهل جرجنت فخافوا، وتحقّق عندهم ما قال لهم سالم، فحصّنوا مدينتهم واستعدّوا للحرب، فسار إليهم خليل في شهر جمادى الأولى سنة ٣٢٦هـ، وحصرهم فخرجوا إليه والتحم القتال، واشتدّ الأمر، وبقي محاصراً لهم مدة ثمانية أشهرٍ لا يخلو يوم من قتالٍ، وجاء الشتاء فرحل عنهم في شهر ذي الحجة سنة ٣٢٦هـ إلى الخالصة فنزلها. ولما دخلت سنة ٣٢٧هـ خالف على خليل القلاع جميعها وأهل مازر كل ذلك بسعي أهل جرجنت، وبثّوا سراياهم، واستفحل أمرهم، وكاتبوا ملك القسطنطينية يستنجدونه فأمدّهم بالمراكب فيها

الرجال والطعام، فكتب خليل إلى القائم يستنجده فبعث إليه جيشاً ضخماً فخرج خليل بمن معه من أهل صقلية فحاصروا قلعة أبي ثور فملكوها، وكذلك أيضاً البلوط ملكوها، وحاصروا قلعة «أبلاطنو» وأقاموا عليها حتى انقضت سنة ٣٢٧هـ، فلما دخلت سنة ٣٢٨هـ رحل خليل عن «أبلاطنو» وحاصر «جرجنت»، وأطال الحصار، ثم رحل عنها وترك عليها عسكراً يحاصرونها وعليهم أبو خلف بن هارون فدام الحصار إلى سنة ٣٢٩هـ، فسار كثير من أهلها إلى بلاد الروم، وطلب الباقون الأمان فأمنهم على أن ينزلوا من القلعة فلما نزلوا غدر بهم ونقلهم إلى المدينة، فلما رأى أهل سائر القلاع ذلك أطاعوا، فلما عادت البلدان إلى طاعته رحل إلى إفريقية في شهر ذي الحجة سنة ٣٢٩هـ، وأخذ معه وجوه أهل جرجنت وجعلهم في مركب، وأمر بنقبه وهو في لُجّة البحر فغرقوا.

وكانت ثورة أبي يزيد الخارجي[١] حيث خرج

---

(١) أبو يزيد الخارجي: مخلد بن كيداد بن سعد الله بن مغيث الزناتي النكاري، كان أبوه كيداد من مدينة «توزر» (في منطقة شط الجريد ـ في بلاد تونس اليوم قرب الحدود الجزائرية ـ) وكان يختلف إلى بلاد السودان للتجارة، فولد له بها أبو يزيد=

بناحية جبال أوراس، وتلقّب بـ «شيخ المؤمنين». ثم إن الحاكم العبيدي (الفاطمي) القائم بأمر الله قد أخرج الجيوش لضبط البلاد، فأخرج جيشاً إلى «رَقادة» وجيشاً إلى «القيروان»، وجمع العساكر فخاف أبو يزيد وعوّل على أخذ بلاد إفريقية (تونس) وتخريبها وقتل أهلها، وسيّر القائم الجيش الذي اجتمع له مع فتاه ميسور، وسيّر بعضه مع فتاه بشرى إلى «باجة» فلما بلغ أبا يزيد خبر «بشرى» ترك أثقاله، وسار بفرقةٍ إليه، فالتقوا بـ «باجة» فانهزم عسكر أبي يزيد وبقي في نحو أربعمائة مقاتل، فقال لهم: ميلوا بنا نُخالفهم إلى خيامهم

= من جاريةٍ هوّاريةٍ ـ نسبةً إلى قبيلة هوارة ـ فأتى به إلى توزر فنشأ بها وتعلّم القرآن، وخالط جماعةً من الخوارج النكّارية، وهم من الصفرية، فمالت نفسه إلى مذهبهم، ثم سافر إلى «تاهرت» قاعدة الخوارج الأباضية فأقام بها يعلم الصبيان إلى أن خرج أبو عبد الله الشيعي إلى سجلماسة في طلب المهدي فرجع أبو يزيد إلى «تقيوس» قرب «توزر» فاشترى هناك ضيعةً وأقام بها، وأخذ نفسه بالحسبة على الناس وتغيير المنكر فصار له جماعة يحترمونه ويعظمونه وذلك سنة ٣١٦هـ، وما زال كذلك حتى كثر أتباعه، وكان مذهبه تكفير أهل الملّة واستباحة الأموال والدماء والخروج على السلطان، فلما مات عبيد الله المهدي (الفاطمي) سنة ٣٢٢هـ بدأ أبو يزيد حركته التي استمرت حتى قُتل سنة ٣٣٦هـ.

ففعلوا ذلك فانهزم «بُشرى» إلى تونس، وقُتل من عسكره كثير من وجوه قبيلة كتامة وغيرهم، ودخل أبو يزيد «باجة» فأحرقها ونهبها، وقتل أصحابه الأطفال وأخذوا النساء، وكتب أبو يزيد إلى القبائل يدعوهم إلى نفسه، وعمل الأخبية والبنود وآلات الحرب، ولما وصل «بشرى» إلى تونس جمع الناس وأعطاهم الأموال فاجتمع إليه خلق كثير فجهّزهم وسيّرهم إلى أبي يزيد، وسيّر إليهم أبو يزيد جيشاً فالتقوا واقتتلوا فانهزم أصحاب أبي يزيد، ورجع أصحاب «بشرى» إلى تونس غانمين، ووقعت فتنة في تونس، ونهب أهلها دار عاملها فهرب، وكاتبوا أبا يزيد فأعطاهم الأمان وولّى عليهم رجلاً منهم، يُقال له: رحمون، وانتقل إلى موضع «أبي صالح»، وخافه الناس فانتقلوا إلى القيروان، وأتاه كثير منهم خوفاً ورعباً، وأمر القائم العبيدي فتاه «بشرى» أن يتجسّس أخبار أبي يزيد فمضى نحوه، وبلغ الخبر إلى أبي يزيد فسيّر إليهم فرقةً من عسكره، وأمر مقدمهم أن يقتل ويمثّل وينهب ليرعب قلوب الناس ففعل ذلك، فالتقى هو و«بشرى» فاقتتلوا، وانهزم عسكر أبي يزيد وقُتل منهم أربعة آلافٍ، وأُسر خمسمائةٍ فسيّرهم «بشرى» إلى المهدية مكبّلين بالسلاسل فقتلهم العامة.

لما انهزم أصحاب أبي يزيد غاظه ذلك فجمع الجموع وسار إلى قتال الكتاميين، وتلاقت الطلائع وجرى بينهم قتال فانهزمت طلائع الكتاميين وتبعهم البربر إلى «رَقادة»، ونزل أبو يزيد بالقرب من «القيروان» في مائة ألف مقاتلٍ، ونزل من الغد شرق رَقادة وعاملها خليل لا يلتفت إلى أبي يزيد ولا يبالي به، والناس يأتونه ويخبرونه بقربهم فأمر أن لا يخرج أحد لقتالٍ، وكان ينتظر وصول «ميسور» فتى القائم العبيدي بالجيش الذي معه، فلما علم أبو يزيد ذلك زحف إلى البلد بعض عسكره فأنشبوا القتال فقُتل من أهل القيروان خلق كثير فانهزموا وخليل لم يخرج معهم فصاح الناس به فخرج متكارهاً من باب تونس، وأقبل أبو يزيد فانهزم خليل دون قتالٍ ودخل القيروان ونزل بداره وأغلق بابها ينتظر وصول ميسور، وفعل كذلك أصحابه ودخل البربر المدينة فقتلوا وأفسدوا، وقاتل بعض الناس في أطراف البلد، وبعث أبو يزيد رجلاً من أصحابه اسمه «أيوب الزويلي» بعسكرٍ إلى القيروان فدخلها في أواخر شهر صفر سنة ٣٣٣هـ فنهب البلد وقتل وعمل أعمالاً عظيمة، وحصر خليلاً في داره، فنزل هو ومن معه بالأمان، فحُمل خليل إلى أبي يزيد فقتله، وخرج شيوخ أهل القيروان إلى أبي يزيد وهو بـ«رَقادة» فسلّموا عليه،

وطلبوا الأمان فماطلهم، وأصحابه يقتلون وينهبون، فعاودوا الشكوى وقالوا: خربت المدينة، فقال: وما يكون؟ خربت مكة والبيت المقدس، ثم أمر بالأمان، وبقي طائفة من البربر ينهبون فأتاهم الخبر بوصول ميسور في عساكر عظيمةٍ فخرج عند ذلك البربر من المدينة خوفاً منه وقارب ميسور مدينة القيروان، واتصل الخبر بالقائم العبيدي (الفاطمي) أن بني «كملان» قد كاتب بعضهم أبا يزيد على أن يمكّنوه من ميسور، فكتب إلى ميسور يُعرّفه ويحذّره ويأمره بطردهم فرجعوا إلى أبي يزيد، وقالوا له: إن عجّلت ظفرت به، فسار من يومه فالتقوا واشتدّ القتال بينهم وانهزمت ميسرة أبي يزيد، فلما رأى أبي يزيد ذلك حمل على ميسور، فانهزم أصحاب ميسور، فعطف ميسور فرسه فكبا به فسقط عنه وقاتل أصحابه عليه ليمنعوه فقصده بنو كملان الذين طردهم فاشتدّ القتال حينئذٍ فقُتل ميسور وحُمل رأسه إلى أبي يزيد، وانهزم عامة عسكره، وسيّرت الكتب إلى البلاد عامةً بخبر هذا الظفر، وطيف برأس ميسور بالقيروان، واتصل خبر الهزيمة بالقائم العبيدي فخاف هو ومن معه بالمهدية وانتقل أهلها من أرباضها إلى البلد فاجتمعوا واحتموا بسوره فمنعهم العبيدي ووعدهم الظفر فعادوا إلى زويلة

واستعدّوا للحصار، وأقام أبو يزيد شهرين وثمانية أيامٍ في خيام ميسور، وهو يبعث السرايا إلى كل ناحيةٍ، فيغنمون ويعودون، وأرسل سريةً إلى مدينة «سوسة» فدخلتها بالسيف، وقتل رجال السرية الرجال وسبوا النساء وأحرقوا المدينة، ومضى جميع من بقي إلى القيروان حفاةً عراةً ومن تخلّص من السبي مات جوعاً وعطشاً.

وفي أواخر شهر ربيع الثاني من سنة ٣٣٣هـ أمر القائم العبيدي بحفر الخنادق حول أرباض المهدية، وكتب إلى زيري بن مناد سيّد صنهاجة وإلى سادات كتامة والقبائل يحثّهم على الاجتماع بالمهدية وقتال النُّكار، فتأهّبوا للمسير إلى المهدية. فلما سمع أبو يزيد بتأهّب صنهاجة وكتامة وغيرهم لنصرة القائم العبيدي رحل من ساعته نحو المهدية فنزل على خمسة عشر ميلاً منها وبثّ سراياه نحو المهدية فانتهبت ما وجدت وقتلت من أصابت فاجتمع الناس إلى المهدية، واتفقت كتامة وأصحاب القائم العبيدي على أن يخرجوا إلى أبي يزيد ليضربوه في معسكره وذلك عندما سمعوا أن عسكره قد تفرّق في الغارة، فخرجوا يوم الخميس لثمانٍ بقين من جمادى الأولى من سنة

٣٣٣هـ، ويبلغ ذلك أبا يزيد، وقد أتاه ولده «فضل» بعسكرٍ من القيروان، فوجّههم إلى قتال قبيلة «كتامة» وقدّم عليهم ابنه فالتقوا على ستة أميالٍ من «المهدية» واقتتلوا، ويلغ الخبر أبا يزيد فركب مع جميع من بقي معه فلقي أصحابه منهزمين، وقد قتل كثير منهم، فلما رآه الكتاميون انهزموا من غير قتالٍ وأبو يزيد في أثرهم إلى باب الفتح، واقتحم قوم من البربر فدخلوا باب الفتح فأشرف أبو يزيد على المهدية ثم رجع إلى منزله، ثم تقدم إلى المهدية في جمادى الآخرة فأتى باب الفتح، ووجّه الزويلي إلى باب بكر، ثم وقف هو على الخندق وبه جماعة من العبيد فناشبهم أبو يزيد القتال على الخندق، ونزل أبو يزيد ومن معه البحر حتى بلغ الماء صدور الخيل فتجاوزوا السور فانهزم العبيد، وأبو يزيد في طلبهم، ووصل أبو يزيد إلى باب المهدية عند مصلى العيد، وبينه وبين المهدية رمية سهمٍ، وتفرّق أصحابه في إحدى الضواحي ينهبون، وأهلها يطلبون الأمان، والقتال عند باب الفتح بين كتامة والبربر، وهم لا يعلمون ما صنع أبو يزيد في ذلك الجانب، فحمل الكتاميون على البربر فهزموهم وأثخنوهم قتلاً.

سمع أبو يزيد بما حدث، وسمع بوصول زيري بن مناد في صنهاجة فخاف المقام وقصد باب الفتح فإذا به يرى وكتامة وراءه بطبوله وبنوده، ولما رأى أهل الأرباض ذلك ظنّوا أن القائم العبيدي قد خرج بنفسه من المهدية فكبّروا وقويت نفوسهم، واشتدّ قتالهم فتحيّر أبو يزيد وعرفه أهل تلك الناحية فمالوا عليه ليقتلوه فاشتدّ القتال عند ذلك فهدم بعض أصحابه حائطاً وخرج منه فتخلّص ووصل إلى منزله بعد المغرب وهم يقاتلون العبيد، فلما رأوه أصحابه قويت قلوبهم وانهزم العبيد وافترقوا، ثم رحل أبو يزيد إلى موقعٍ قريبٍ، وخندق على عسكره، واجتمع إليه خلق كثير من إفريقية، والبربر، ومن قبيلة نفوسة، ومن منطقة الزاب، وأقاصي المغرب فحاصر المهدية حصاراً شديداً، ومنع الناس من الدخول إليها والخروج منها، ثم زحف عليها لسبعٍ بقين من شهر جمادى الآخرة سنة ٣٣٣هـ فجرى قتال شديد قتل فيه جماعة من وجوه عسكر القائم العبيدي، واقتحم أبو يزيد بنفسه حتى وصل إلى قرب الباب فعرفه بعض العبيد فقبض على لجامه وصاح هذا أبو يزيد فاقتلوه، فأتاه رجل من أصحاب أبي يزيد فقطع يد العبد وخلّص أبا يزيد.

ولما رأى أبو يزيد شدّة قتال العبيديين كتب القائم العبيدي إلى عامل القيروان يأمره بإرسال مقاتلة أهلها، ففعل ذلك، فوصلوا إليه فزحف بهم في آخر شهر رجب سنة ٣٣٣هـ فجرى قتال شديد انهزم فيه أبو يزيد هزيمةً منكرةً وقُتل فيها جماعة من أصحابه وأكثر أهل القيروان. ثم زحف الزحفة الرابعة في أواخر شهر شوال سنة ٣٣٣هـ فجرى قتال شديد، وانصرف إلى منزله، وكثر خروج الناس من الجوع والغلاء ففتح عند ذلك القائم العبيدي الأماكن التي عملها أبوه عبيد الله وملأها طعاماً، وفرّق ما فيها على رجاله. وعظم البلاء على الرعية حتى أكلوا الدواب والميتة. وخرج من مدينة المهدية أكثر أهل السوق والتجار ولم يبق بها سوى الجند، فكان البربر يأخذون من خرج ويقتلونهم ويشقّون بطونهم طلباً للذهب.

وصلت كتامة فنزلت بـ«قسنطينة» فخاف أبو يزيد فسيّر رجلاً من عسكره في جمعٍ كبيرٍ إلى كتامة فقاتلهم فهزمهم فتفرّقوا، وكان البربر يأتون إلى أبي يزيد من كل ناحيةٍ وينهبون ويقتلون ويرجعون إلى منازلهم حتى أفنوا ما كان في إفريقية (بلاد تونس اليوم)، فلما لم يبق ما

يُنهب توقّفوا عن المجيء إليه فلم يبق معه سوى أهل أوراس، وبني كملان، فلما علم القائم العبيدي تفرّق عساكره أخرج عسكره إليه، وكان بينهم قتال لستٍّ خلون من شهر ذي القعدة سنة ٣٣٣هـ، ثم صبّحوهم من الغد فلم يخرج إليهم أحد، وكان أبو يزيد قد بعث في طلب الرجال من أوراس، ثم زحفت عساكر القائم العبيدي إليه فخرج من خندقه واقتتلوا واشتدّ بينهم القتال فقُتل من أصحاب أبي يزيد جماعة منهم رجل من وجوه أصحابه فعظم قتله عليه. ودخل خندقه ثم عاود القتال فهبّت ريح شديدة مظلمة فكان الرجل لا يبصر صاحبه فانهزم عسكر القائم العبيدي، وقُتل منهم جماعة، وعاد الحصار على ما كان عليه، وهرب كثير من أهل مدينة المهدية إلى جزيرة صقلية وإلى طرابلس وإلى مصر وإلى بلاد الروم. وفي آخر ذي القعدة من عام ٣٣٣هـ اجتمعت جموع كثيرة عند أبي يزيد، وتقدّم إلى المهدية مُغيراً عليها، فاختار الكتاميون منهم مائتي فارسٍ فحملوا حملة رجلٍ واحدٍ فقتلوا من أصحاب أبي يزيد كثيراً، وأسروا مثلهم، وكادوا يصلون إليه فقاتل أصحابه دونه وخلّصوه، وفرح أهل مدينة المهدية، وأخذوا الأسرى مقيدين إلى المهدية.

ودخلت سنة ٣٣٤هـ وأبو يزيد مقيم على مدينة المهدية. وفي شهر المحرم منها ظهر بإفريقية (منطقة تونس اليوم) رجل يدعو الناس إلى نفسه فأجابه خلق كثير وأطاعوه، وادّعى أنه عباسيّ ورد من بغداد، ومعه أعلام سود فظفر به بعض أصحاب أبي يزيد، وقبض عليه وسيّره إلى أبي يزيد فقتله. ثم إن بعض أصحاب أبي يزيد قد هرب إلى مدينة المهدية بسبب عداوة كانت بينهم وبين أقوامٍ سعوا بهم إليه، فخرجوا من مدينة المهدية مع أصحاب القائم العبيدي فقاتلوا أصحاب أبي يزيد فظفروا، فتفرّق عند ذلك أصحاب أبي يزيد ولم يبق معه إلا قبيلة هوارة، ورجال منطقة أوراس، وبني كملان وكان اعتماده عليهم.

ولما تفرّق أصحاب أبي يزيد عنه اجتمع رؤساء من بقي معه وتشاوروا فيما بينهم، وقالوا: نمضي إلى القيروان ونجمع البربر من كل ناحيةٍ ونرجع إلى أبي يزيد فإنا لا نأمن أن يعرف القائم العبيدي خبرنا فيقصدنا، فركبوا ومضوا ولم يشاوروا أبا يزيد، ومعهم أكثر العسكر، فبعث إليهم أبو يزيد ليردّهم فلم يقبلوا منه، فرحل مسرعاً في ثلاثين رجلاً، وترك

جميع أثقاله فوصل إلى القيروان في السادس من شهر صفر سنة ٣٣٤هـ. فنزل المصلى ولم يخرج إليه أحد من أهل القيروان سوى عامله وخرج الصبيان يلعبون حوله ويضحكون منه، وبلغ القائم العبيدي رجوعه فخرج الناس إلى أثقاله فوجدوا الطعام والخيام وغير ذلك على حاله فأخذوه، وحسنت أحوالهم واستراحوا من شدّة الحصار ورخصت الأسعار، وأنفذ القائم العبيدي إلى البلاد عمالاً يطردون عمال أبي يزيد عنها، فلما رأى أهل القيروان قلّة عسكر أبي يزيد خافوا القائم العبيدي فأرادوا أن يقبضوا على أبي يزيد ثم هابوه فكاتبوا القائم يسألونه الأمان فلم يجبهم.

وبلغ أبا يزيد الخبر فأنكر على عامله بالقيروان اشتغاله بالأكل والشرب وغير ذلك، وأمره أن يخرج العساكر من القيروان للجهاد ففعل ذلك، وألان لهم القول وخوّفهم القائم فخرجوا إليه، وتسامع الناس في البلاد بذلك فأتاه العساكر من كل ناحيةٍ، وكان أهل المدن والقرى لما سمعوا تفرّق عساكره عنه أخذوا عماله فمنهم من قُتل ومنهم من أرسل إلى مدينة المهدية.

وثار أهل سوسة فقبضوا على جماعةٍ من أصحاب أبي يزيد فأرسلوهم إلى القائم فشكر لهم ذلك وأرسل إليهم سبعة مراكب من الطعام. فلما اجتمعت عساكر أبي يزيد أرسل الجيوش إلى البلاد وأمرهم بالقتل والسبي والنهب والخراب وإحراق المنازل، فوصل عسكره إلى تونس فدخلوها بالسيف في العشرين من شهر صفر سنة ٣٣٤هـ. فنهبوا جميع ما فيها وسبوا النساء والأطفال وقتلوا الرجال وهدموا المساجد، ولجأ كثير من الناس إلى البحر فغرق، فسيّر إليهم القائم العبيدي عسكراً إلى تونس فخرج إليهم أصحاب أبي يزيد واقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم عسكر القائم هزيمة قبيحةً وحال بينهم الليل والتجؤوا إلى جبل الرصاص فتبعهم عسكر أبي يزيد فلحقوهم واقتتلوا وصبر عسكر القائم فانهزم عسكر أبي يزيد وقُتل منهم خلق كثير، وتبعوهم حتى دخلوا تونس في الخامس من شهر ربيع الأول سنة ٣٣٤هـ، وأخرجوا من فيها من أصحاب أبي يزيد بعد أن قتلوا أكثرهم.

وكان لأبي يزيد ولد اسمه أيوب فلما بلغه الخبر أخرج معه عسكراً فاجتمع معه من سلم من ذلك

الجيش ورجعوا إلى تونس فقتلوا من عاد إليها، وأحرقوا ما بقي فيها، وتوجّه إلى «باجة» فقتل من بها من أصحاب القائم، ودخلها بالسيف وأحرقها، وكان في هذه المدة من القتل والسبي والتخريب ما لا يوصف، واتفق جماعة على قتل أبي يزيد، وأرسلوا إلى القائم فرغّبهم ووعدهم فاتصل الخبر بأبي يزيد فقتلهم، وهجم رجال من البربر في الليل على رجلٍ من القيروان وأخذوا ماله وثلاث بناتٍ أبكاراً، فلما أصبح واجتمع الناس لصلاة الصبح قام الرجل في الجامع وصاح وذكر ما حلّ به فقام الناس معه وصاحوا فاجتمع ناس عظيم، ووصلوا إلى أبي يزيد فأسمعوه كلاماً غليظاً فاعتذر إليهم ولطف بهم وأمر بردّ البنات، فلما انصرفوا وجدوا في طريقهم رجلاً مقتولاً، فسألوا عنه، فقيل: إن فضل بن أبي يزيد قتله وأخذ امرأته وكانت جميلةً، فحمل الناس المقتول إلى الجامع، وقالوا: لا طاعة إلا للقائم، وأرادوا الوثوب بأبي يزيد فاجتمع أصحاب أبي يزيد عنده ولاموه وقالوا: فتحت على نفسك ما لا طاقة لك به لا سيما والقائم قريب منا، فجمع أهل القيروان واعتذر إليهم وأعطاهم العهود أنه لا يقتل ولا ينهب ولا يأخذ الحريم، فأتاه سبي أهل تونس ـ وهم عنده ـ فوثبوا إليهم وخلّصوهم.

وكان القائم العبيدي قد أرسل إلى مقدم من أصحابه ـ يُسمّى علي بن حمدون ـ يأمره بجمع العساكر ومن قدر عليه من مدينة «المسيلة» فجمع منها ومن مدينة «سطيف» وغيرها فاجتمع له عدد كبير، وتبعه بعض بني هراس فقصد المهدية، فسمع به أيوب بن أبي يزيد ـ وهو بمدينة «باجة» ـ ولم يعلم به علي بن حمدون فسار إليه أيوب وكبسه واستباح عسكره وأعمل فيهم القتل وغنم أثقالهم، وهرب علي بن حمدون، ثم سيّر أيوب فرقة خيلٍ إلى جماعةٍ من عسكر العبيدي خرجوا إلى تونس فساروا والتقى بعضهم مع بعضٍ فكان بين الفريقين قتال شديد قُتل فيه جمع كثير، وانهزم عسكر القائم العبيدي، ثم عادوا ثانيةً وثالثةً، وعزموا على الموت وحملوا حملة رجلٍ واحدٍ فانهزم أصحاب أبي يزيد وقُتل منهم عدد كبير، وأُخذت أثقالهم وعِددهم، وانهزم أيوب وأصحابه إلى القيروان في شهر ربيع الأول سنة ٣٣٤هـ، فعظم ذلك على أبي يزيد وأراد أن يهرب إلى القيروان فأشار عليه أصحابه بالتوقّف وترك العجلة، ثم جمع عسكراً كثيراً وأخرج ابنه أيوب ثانيةً لقتال علي بن حمدون بمكانٍ يقال له: «بلطة»، وكانوا يقتتلون فمرةً يظفر أيوب ومرةً يظفر عليّ، وكان عليّ قد وكّل بحراسة المدينة من يثق به وكان يحرس باباً

منها رجل اسمه أحمد فراسل أيوب في التسليم إليه مقابل مالٍ يأخذه فأجابه أيوب إلى ما طلب وقاتل على ذلك الباب ففتحه أحمد ودخله أصحاب أبي يزيد فقتلوا من كان بها وهرب علي بن حمدون إلى بلاد كتامة في ثلاثمائة فارسٍ وأربعمائة راجلٍ، وكتب إلى قبائل كتامة، ونفزة، ومزاته وغيرهم فاجتمعوا وعسكروا على مدينة «قسنطينة»، ووجّه عسكراً إلى قبيلة «هوارة» فقاتلوا هوارة وغنموا أموالهم، وكان اعتماد أبي يزيد عليهم، فاتصل الخبر بأبي يزيد فسيّر إليهم عساكر عظيمةً يتبع بعضها بعضاً، وكان بينهم حروب كثيرة وكان الفتح والظفر فيها كلها لعليّ بن حمدون وعسكر القائم العبيدي، ودخل بعض المدن ومنها «باحة» وأخذها من أبي يزيد.

لما رأى أبو يزيد ما جرى على عسكره من الهزيمة جدّ في أمره فجمع العساكر وسار إلى مدينة «سوسة» في السادس من شهر جمادى الآخرة سنة ٣٣٤هـ، وبها جيش كثير للقائم العبيدي فحاصرها حصاراً شديداً وكان يقاتل أهلها كل يومٍ فمرةً له ومرةً عليه. وعمل المنجنيقات وقُتل من أهل سوسة أعداد كثيرة.

"٣" ـ المنصور:

في شهر رمضان عهد القائم بأمر الله العبيدي إلى ولده إسماعيل من بعده في شهر رمضان سنه ٣٣٤هـ، وتوفي القائم لثلاث عشرة مضت من شهر شوال سنة ٣٣٤هـ، فقام بالأمر من بعده ولده إسماعيل وتلقّب بالمنصور بالله، وكتم موت أبيه خوفاً من أن يعلم بذلك أبو يزيد الخارجي ـ وهو بالقرب منه محاصر مدينة سوسة ـ وأبقى الأمور على حالها ولم يتسمّ بالخليفة، ولم يُغيّر السكّة، ولا الخطبة ولا البنود، وبقي على ذلك حتى انتهى من أمر أبي يزيد.

لما ولي المنصور الأمر عمل المراكب وشحنها بالرجال وسيّرها إلى مدينة سوسة واستعمل عليها «رشيق الكاتب» و«يعقوب بن إسحاق» ووصّاهما أن لا يقاتلا حتى يأمرهما، ثم سار من الغد يريد سوسة ولم يعلم أصحابه ذلك فلما انتصف الطريق علموا فرجوه وسألوه أن يعود ولا يخاطر بنفسه فعاد.

أرسل المنصور العبيدي إلى رشيق ويعقوب بالجدّ في القتال فوصلوا إلى سوسة وقد أعدّ أبو يزيد الحطب لإحراق السور. وصل أسطول العبيدي إلى سوسة واجتمع عسكره بمن فيها وخرجوا لقتال أبي يزيد فركب

بنفسه واقتتلوا وانهزم بعض أصحاب العبيدي حتى دخلوا المدينة فألقى رشيق الكاتب النار في الحطب الذي جمعه أبو يزيد فأظلم الجو بالدخان واشتعلت النار، فلما رأى ذلك أبو يزيد وأصحابه خافوا وظنّوا أن أصحابه في تلك الناحية قد هلكوا لذلك تمكّن أصحاب العبيدي من إحراق الحطب إذ لم ير بعضهم بعضاً، فانهزم أبو يزيد وأصحابه وخرجت عساكر العبيدي فوضعوا السيف فيمن تخلّف من البربر، وأحرقوا خيام أبي يزيد، وجدّ أبو يزيد هارباً حتى دخل القيروان من يومه، وهرب البربر على وجوههم فمن سلم من السيف مات جوعاً وعطشاً، ولما وصل أبو يزيد إلى القيروان أراد الدخول إليها فمنعه أهلها، ورجعوا إلى دار عامله فحاصروه وأرادوا كسر الباب فنثر الدنانير على رؤوس الناس فاشتغلوا عنه فخرج إلى أبي يزيد، وأخذ أبو يزيد امرأته أم أيوب وتبعه أصحابه بعائلاتهم ورحلوا إلى ناحية «سبيبة» وهي على مسافة يومين من القيروان ـ بينها وبين تبسة ـ فنزلوها.

لما بلغ المنصور العبيدي الخبر سار إلى مدينة سوسة لسبع بقين من شهر شوال سنة ٣٣٤هـ فنزل خارجها وسرّه ما فعله أهل القيروان فكتب إليهم كتاباً

يُؤمّنهم فيه لأنه كان واجداً عليهم لطاعتهم أبا يزيد، وأرسل من ينادي في الناس بالأمان وطابت نفوسهم، ورحل إليهم فوصل إلى مدينتهم يوم الخميس لستٍّ بقين من شوال ٣٣٤هـ، وخرج إليه أهلها فأمنهم ووعدهم خيراً، ووجد في القيروان من حرم أبي يزيد وأولاده جماعةً فحملهم إلى المهدية، وأجرى عليهم الأرزاق. ثم إن أبا يزيد جمع عساكره وأرسل سريةً إلى القيروان يجمعون له الأخبار فوصل خبرهم إلى المنصور العبيدي فسيّر لهم سرية فالتقوا واقتتلوا، وكان أصحاب أبي يزيد قد جعلوا كميناً فانهزموا وتبعهم أصحاب العبيدي فخرج الكمين عليهم فأكثروا فيهم القتل والجراح.

فلما سمع الناس ذلك سارعوا إلى أبي يزيد فكثر جمعه فعاد ونازل القيروان، وكان العبيدي قد جعل خندقاً على عسكره، ففرّق أبو يزيد عسكره ثلاث فرقٍ وقصد هو بشجعان أصحابه خندق العبيدي فاقتتلوا وعظم الأمر، وكان الظفر للعبيدي، ثم عاودوا القتال فباشر العبيدي القتال بنفسه وجعل يحمل يميناً وشمالاً والمظلّة على رأسه كالعلم ومعه خمسمائة فارسٍ وأبو يزيد في نحو ثلاثين ألفاً فانهزم أصحاب العبيدي هزيمةً عظيمةً حتى دخلوا الخندق، وبقي العبيدي في عشرين

فارساً، وأقبل أبو يزيد قاصداً العبيدي، فلما رآهم شهر سيفه وثبت مكانه وحمل بنفسه على أبي يزيد حتى كاد يقتله فولّى أبو يزيد هارباً، وقتل المنصور العبيدي من أدرك منهم، وأرسل من يردّ عسكره فعادوا وكانوا قد سلكوا طريق المهدية وسوسة، واستمرّ القتال إلى الظهر فقُتل منهم خلق كثير، وكان يوماً من الأيام المشهورة لم يكن في ماضي الأيام مثله، ورأى الناس من شجاعة المنصور العبيدي ما لم يظنّوه فزادت هيبته في قلوبهم، ورحل أبو يزيد عن القيروان في أواخر شهر ذي القعدة سنة ٣٣٤هـ، ثم عاد إليها فلم يخرج إليه أحد فعل ذلك غير مرةٍ، ونادى العبيدي: من أتى برأس أبي يزيد فله عشرة آلاف دينارٍ، وأذن الناس في القتال فجرى قتال شديد فانهزم أصحاب العبيدي حتى نزلوا الخندق ثم حلّت الهزيمة بأبي يزيد فافترقوا وقد انتصف بعضهم من بعضٍ، وقتل بينهم جمع كبير، وعادت الحرب مرةً لهذا ومرةً لهذا. وصار أبو يزيد يرسل السرايا فيقطع الطريق بين المهدية والقيروان وسوسة، ثم إنه أرسل إلى المنصور العبيدي يسأله أن يسلّم إليه حرمه وعياله الذين خلفهم في القيروان وأخذهم المنصور فإن فعل ذلك دخل في طاعته على أن يؤمنه وأصحابه وحلف له بأغلظ الأيمان على ذلك فأجابه العبيدي إلى ما طلب وأحضر

عياله وسيّرهم إليه مكرمين بعد أن وصلهم وأحسن كسوتهم وأكرمهم، فلما وصلوا إليه نكث جميع ما عقده، وقال: إنما وجّههم خوفاً مني. فانقضت سنة ٣٣٤هـ، ودخلت سنة ٣٣٥هـ وهم على حالهم في القتال، ففي الخامس من شهر المحرم سنة ٣٣٥هـ زحف أبو يزيد وركب العبيدي وكان بين الفريقين قتال ما سمع مثله، وحملت البربر على العبيدي وحمل عليها وجعل يضرب فيهم فانهزموا منه بعد أن قُتل خلق كثير، فلما انتصف شهر المحرم ٣٣٥هـ عبّأ المنصور العبيدي عسكره فجعل في الميمنة أهل إفريقية «منطقة تونس اليوم» وفي الميسرة رجال قبيلة كتامة وهو في عبيده وخاصته في القلب فوقع بينهم قتال شديد، فحمل أبو يزيد على الميمنة فهزمها، ثم حمل على القلب فبادر إليه المنصور العبيدي وقال: هذا يوم الفتح إن شاء الله تعالى وحمل هو ومن معه حملة رجلٍ واحدٍ فانهزم أبو يزيد وأخذت السيوف أصحابه فولّوا منهزمين وأسلموا أثقالهم وهرب أبو يزيد على وجهه فقُتل من أصحابه ما لا يحصى، وسار أبو يزيد إلى «تامدلت» وهي مدينة في مضيق بين جبلين في موقع وعر إلى الغرب من القيروان.

ولما تمّت الهزيمة على أبي يزيد أقام المنصور العبيدي يتجهّز للسير في أثره، ثم انطلق في أواخر شهر ربيع الأول سنة ٣٣٥هـ، واستخلف على البلد «مذاما الصقلي» فأدرك العبيدي أبا يزيد ـ وهو محاصر مدينة باجة ـ لأنه أراد دخولها فمُنع من ذلك فحاصرها، أدركه المنصور العبيدي ـ وقد كاد يفتحها ـ فلما قرب منه هرب أبو يزيد، وجعل كلما قصد موضعاً يتحصّن فيه سبقه العبيدي حتى وصل إلى مدينة «طُبنة»[1] فوصلت إليه رسل محمد بن خزر الزناتي وهو من أعيان أصحاب أبي يزيد ـ يطلب الأمان ـ فأمنه العبيدي، وأمره أن يرصد أبا يزيد، واستمر أبو يزيد في الهرب حتى وصل إلى جبل البربر، ويُسمّى «برزال» وأهله على مذهبه، وسلك الرمال ليختفي أثره، فاجتمع معه عدد كبير، فعاد إلى نواحي مقبرةٍ والمنصور العبيدي بها، فكمن أبو يزيد وأصحابه، فلما وصل عسكر العبيدي رأوهم فحذروا منهم، فعبّأ حينئذٍ أبو يزيد أصحابه واقتتلوا فانهزمت ميمنة العبيدي وحمل هو بنفسه ومن

---

(١) طبنة: في بلاد الجزائر اليوم على ضفة وادي الزاب، فتحها موسى بن نصير، وليس بين القيروان وسجلماسة مدينة أكبر منها.

معه فانهزم أبو يزيد إلى جبل «سالات»، وانطلق العبيدي في أثره فدخل مدينة «المسيلة» وتبعه في الأثر في جبالٍ وعرةٍ وأوديةٍ عميقةٍ خشنة الأرض فأراد الدخول وراءه فعرّفه الأدلّاء أن هذه الأرض لم يسكلها جيش قط، واشتدّ الأمر على العسكر، فبلغ عليق كل دابةٍ ديناراً ونصف الدينار، وبلغت قربة الماء ديناراً، وأن ما وراء ذلك رمال وقفار بلاد السودان ليس فيها عمارة، وأن أبا يزيد اختار الموت جوعاً وعطشاً على القتل بالسيف، فلما سمع بذلك رجع إلى بلاد صنهاجة فوصل إلى موضع يُسمّى «قرية دمره» فاتصل به الأمير زيري بن مناد الصنهاجي الحميري بعساكر صنهاجة - وهذا زيري هو جد بني باديس ملوك إفريقية فأكرمه المنصور العبيدي وأحسن إليه.

ووصل كتاب محمد بن خزر يذكر الموضع الذي فيه أبو يزيد من الرمال. ومرض المنصور العبيدي مرضاً شديداً شفي منه، فلما صحا من مرضه رحل إلى «المسيلة» في الثاني من شهر رجب سنة ٣٣٥هـ، وكان أبو يزيد قد سبقه إليها لما بلغه مرض العبيدي وحاصرها فلما قصده العبيدي هرب منه يريد بلاد السودان فأبى ذلك بنو كملان ورجال قبيلة هوارة وخدعوه وصعد إلى

جبال قبيلة كتامة وقبيلة عجيسة وغيرها فتحصّن بها، واجتمع إليه أهلها، وصاروا ينزلون من الجبال يتخطّفون الناس، فسار العبيدي إليهم في العاشر من شهر شعبان سنة ٣٣٥هـ، فلم ينزل أبو يزيد من الجبال فلما رجع العبيدي نزل أبو يزيد وضرب مؤخّرة عسكر العبيدي، فرجع العبيدي ووقع القتال فانهزم أبو يزيد واستسلم أولاده وأصحابه، ولحقه فارسان فعقرا فرسه فسقط عنه فأركبه بعض أصحابه، ولحقه زيري بن مناد فطعنه فألقاه وكثر القتال عليه فخلصه أصحابه وخلصوا معه، وتبعهم أصحاب العبيدي فقتلوا منهم ما يزيد على عشرة آلافٍ، ثم سار المنصور العبيدي في أثره في أول شهر رمضان فاقتتلوا أيضاً أشدّ قتالٍ ولم يقدر أحد الفريقين على الانهزام لضيق المكان وخشونته، ثم انهزم أبو يزيد أيضاً واحترقت أثقاله وما فيها، وطلع أصحابه على رؤوس الجبال يرمون بالصخر، وأحاط القتال بالمنصور العبيدي، وتواخذوا بالأيدي وكثر القتل حتى ظنّوا أنه الفناء وافترقوا على السواء، والتجأ أبو يزيد إلى قلعة كتامة ـ وهي منيعة ـ فاحتمى بها، وفي ذلك اليوم جاء إلى المنصور العبيدي جند له من كتامة برجل ظهر في أرضهم ادعى الربوبية فأمر العبيدي بقتله، وأقبلت قبيلة هوارة وأكثر من مع أبي يزيد يطلبون الأمان فأمنهم

المنصور العبيدي، وسار إلى قلعة كتامة فحاصر أبا يزيد فيها، وفرّق جنده حولها فناشبه أصحاب أبي يزيد القتال وزحف العبيدي إليها غير مرةٍ، وفي آخر مرةٍ ملك أصحابه بعض القلعة وأشعلوا فيها النيران وانهزم أصحاب أبي يزيد وقُتل منهم عدد كبير، ودخل أبو يزيد وأولاده وأعيان أصحابه إلى قصر القلعة فاجتمعوا فيه فاحترقت أبوابه وأدركهم القتل، فأمر العبيدي بإشعال النار في شعاب الجبل لئلا يهرب أبو يزيد فصار الليل كالنهار، فلما كان آخر الليل خرج أصحابه ـ وهم يحملونه على أيديهم ـ وحملوا على الناس حملةً منكرةً فأفرجوا لهم فنجوا به، ونزل من القلعة عدد كبير فأُخذوا، فأخبروا بخروج أبي يزيد، فأمر المنصور العبيدي بطلبه، وقال: ما أظنّه إلا قريباً منا فبينما هم كذلك إذ أُتي بأبي يزيد، وذلك أن ثلاثةً من أصحابه حملوه من المعركة ثم ولّوا عنه لقبح عرجه فذهب لينزل من الوعر فسقط في مكانٍ صعب فأُدرك فأُخذ وحُمل إلى المنصور العبيدي فسجد شكراً لله تعالى والناس يكبّرون حوله، وبقي عنده إلى نهاية شهر المحرم سنة ٣٣٦هـ فمات من الجراح التي به، فأمر بإدخاله في قفصٍ عُمل له وجعل معه قردين يلعبان عليه، وأمر بسلخ جلده وحشاه تبناً، وأمر بالكتابة إلى سائر البلاد بالبشارة.

ثم خرج على المنصور العبيدي عدة خوارج منهم: محمد بن خزر فظفر به العبيدي سنة ٣٣٦هـ وكان يريد نصرة أبي يزيد، وخرج أيضاً فضل بن أبي يزيد وأفسد وقطع الطريق فغدر به بعض أصحابه وقتله وحمل رأسه إلى العبيدي سنة ٣٣٦هـ أيضاً. وعاد العبيدي إلى المهدية فدخلها في شهر رمضان سنة ٣٣٦هـ[١].

صقلية:

استضعف الكفار في صقلية المسلمين وذلك لضعف الوالي «عطاف» وامتنعوا عن إعطاء مال الهدنة، وكان بصقلية بنو الطبري من أعيان الجماعة ولهم أتباع كثيرون فوثبوا على عطاف أيضاً يوم عيد الفطر سنة ٣٣٥هـ، وأعانهم غير المسلمين عليه، وقتلوا جماعةً من رجاله، وأُفلت عطاف هارباً بنفسه إلى الحصن فأخذوا أعلامه وبنوده وانصرفوا إلى ديارهم فأرسل عطاف إلى المنصور العبيدي يعلمه الحال ويطلب منه المدد، فلما علم العبيدي ذلك استعمل على الولاية الحسن بن علي بن أبي الحسن الكلبي[٢]، وكان له مكانة كبيرة

---

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

(٢) الحسن بن علي بن أبي الحسن الكلبي: أول الأمراء الكلبيين في صقلية، كان في مبدأ أمره قائداً في جيش المنصور=

عند العبيدي وأثر كبير في قتال أبي يزيد الخارجي، وأمره بالمسير، فسار في المراكب فأرسى بمدينة «مازر» فلم يلتفت إليه أحد فبقي يومه، فأتاه في الليل جماعة من أهل إفريقية وكتامة وغيرهم وذكروا أنهم خافوا الحضور عنده من ابن الطبري ومن اتفق معه من أهل البلاد، وأن علي بن الطبري ومحمد بن

= العبيدي، ورأى منه العبيدي نشاطاً وإقداماً فاستعمله على صقلية سنة ٣٣٦هـ فحاول بعض أهل الجزيرة الشغب عليه فقمع فتنتهم بالشدّة فهابه الناس. وفي أيامه وجّه ملك الروم قسطنطين أسطولاً عظيماً للاستيلاء على الجزيرة فاستعدّ الحسن لقتاله، وأمدّه المنصور العبيدي بأسطولٍ فيه سبعة آلاف فارسٍ وثلاثة آلافٍ وخمسمائة راجلٍ فزحف إلى مدينة مسينا في إيطالية، وهاجم جيشه «ريو» وانبثّت سراياه في «كالابريا» في جنوبي إيطالية فانهزمت الروم، وامتلك «ريو» وبنى بها مسجداً، وعاد، ولم يزل في صقلية إلى أن بلغته وفاة المنصور العبيدي سنة ٣٤١هـ، وقيام المعزّ بعده، فأقام قليلاً، ثم عهد بإمارة الجزيرة إلى ابنه أحمد، ورحل إلى المهدية بإفريقية فكان من خواص المعزّ مدةً، ثم عاد إلى صقلية وخرج بأسطولٍ عظيمٍ سنة ٣٤٥هـ، وتتابعت وقائعه مع الروم إلى أن كانت معركة «رمطة» وهي قلعة بجزيرة صقلية فانتصر على الروم نصراً مؤزراً وذلك في شهر شوال سنة ٣٥٢هـ، فقتل من الروم ما يقرب من عشرة آلاف رجلٍ مع أنه في جماعةٍ قليلةٍ، وتوفي بعد المعركة بنحو شهرٍ في جزيرة صقلية.

عبدون وغيرهما قد ساروا إلى إفريقية (منطقة تونس اليوم) وأوصوا بنيهم ليمنعوه من دخول البلد ومفارقة مراكبه إلى أن تصل كتبهم بما يلقون من المنصور العبيدي، وقد مضوا يطلبون من المنصور أن يولّي غيره، وقد أتاه نفر من أصحاب ابن الطبري ومن معه ليشاهدوا من معه فرأوه في قلّةٍ فطمعوا فيه وخادعوه وخادعهم، ثم عادوا إلى المدينة وقد وعدهم أن يقيم في مكانه إلى أن يعودوا إليه. فلما فارقوه جدّ السير إلى المدينة قبل أن يجمعوا أصحابهم ويمنعوه. فلما انتهى إلى البيضاء أتاه حاكم البلد وأصحاب الدواوين وكل من يريد العافية فلقيهم وأكرمهم وسألهم عن أحوالهم. فلما سمع إسماعيل بن الطبري بخروج هذا الجمع إليه اضطر إلى الخروج إليه فلقيه الحسن وأكرمه، وعاد إلى داره. ودخل الحسن البلد ومال إليه كل منحرفٍ عن بني الطبري ومن معه. فلما رأى ابن الطبري ذلك أمر رجلاً صقلياً فدعا بعض عبيد الحسن وكان موصوفاً بالشجاعة فلما دخل بيته خرج الرجل بيستغيث ويصيح ويقول: دخل هذا الرجل بيتي وأخذ امرأتي بحضرتي غصباً، فاجتمع أهل البلد لذلك وحرّكهم ابن الطبري وخوّفهم، وقال: هذا فعلهم ولم يتمكّنوا من البلد بعد، وأمر الناس

بالحضور عند الحسن ظنّاً منه أنه لا يعاقب مملوكه فيثور الناس به فيخرجونه من البلد. فلما اجتمع الناس وذلك الرجل يصيح ويستغيث أحضره الحسن عنده وسأله عن حاله فحلّفه بالله على ما يقول فحلف فأمر بقتل الغلام فقُتل فسُرّ أهل البلد، وقالوا: الآن طابت نفوسنا وعلمنا أن بلدنا يتعمّر ويظهر فيه العدل فانعكس الأمر على ابن الطبري، وأقام الحسن وهو خائف منهم.

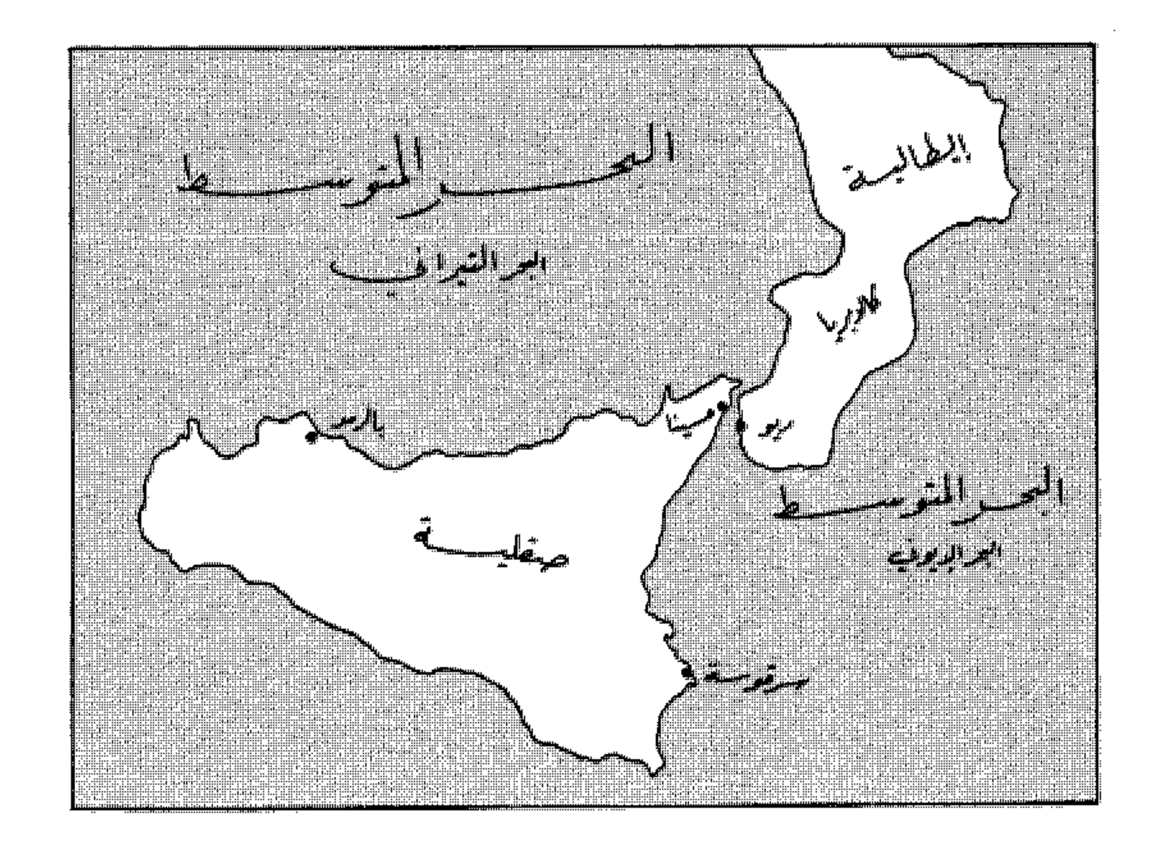
ثم إن المنصور العبيدي أرسل من المهدية إلى الحسن يُعرّفه أنه قد قبض على علي بن الطبري، وعلى محمد بن عبدون ومحمد بن جنا ومن معهم، ويأمره بالقبض على إسماعيل بن الطبري، ورجا بن جنا، ومحمد ومخلفي الجماعة المقبوضين فاستعظم الأمر. ثم أرسل إلى ابن الطبري يقول له: كنت قد وعدتني أن نتفرّج في البستان الذي لك فتحضر لنمضي إليه، وأرسل إلى الجماعة على لسان ابن الطبري، يقول: تحضرون لنمضي مع الأمير إلى البستان فحضروا عنده، وجعل يحادثهم ويطيل إلى أن أمسوا، فقال: قد فات الليل وتكونون أضيافنا، فأرسل إلى أصحابهم، يقول: إنهم الليلة في ضيافة الأمير فتعودون إلى بيوتهم في الغد،

فمضى أصحابهم فقبض عليهم، وأخذ جميع أموالهم، وكثر جمعه، واتفق الناس عليه وقويت نفوسهم، فلما رأى الروم في الجزيرة ذلك أحضر الراهب مال الهدنة لثلاث سنين.

ثم إن ملك الروم أرسل بطريقاً في البحر في جيشٍ كثيرٍ إلى صقلية واجتمع هو ودوغوس. فأرسل الحسن بن علي إلى المنصور العبيدي يُعرّفه الحال فأرسل إليه أسطولاً فيه سبعة آلاف فارسٍ وثلاثة آلافٍ وخمسمائة راجلٍ سوى البحرية، وجمع الحسن إليهم جمعاً كثيراً، وسار في البر والبحر فوصل إلى «مسّينا» وعدت العساكر الإسلامية إلى «ريو» وبثّ الحسن السرايا في أرض «كلابريا» ونزل الحسن على «جراجة» وحاصرها أشدّ حصار وأشرف أهلها على الهلاك من شدة العطش، فوصل إليه الخبر أن الروم قد زحفوا إليه فصالح أهل «جراجة» على ما أخذه منهم، وسار إلى لقاء الروم ففروا من غير حرب إلى مدينة «بارة»، ونزل الحسن على قلعة «قسانة» وبث سراياه إلى «كلابريا»، وأقام عليها شهراً فسألوه الصلح فصالحهم على مالٍ أخذه منهم، ودخل الشتاء فرجع الجيش إلى «مسّينا» وشتّى الأسطول بها، فأرسل

المنصور العبيدي يأمره بالرجوع إلى «كلابريا» فسار الحسن وعدى المجاز إلى «جراجة» فالتقى المسلمون و«دوغوس» ومعه الروم يوم عرفة سنة ٣٤٠هـ فاقتتلوا أشدّ قتالٍ عرفوه، وانهزمت الروم وركب المسلمون أكتافهم إلى الليل، وأكثروا القتل فيهم، وغنموا أثقالهم وسلاحهم ودوابهم.

ثم قصد الحسن مدينة «جراجة» في أوائل سنة ٣٤١هـ فحاصرها فأرسل إليه قسطنطين ملك الروم يطلب منه الهدنة فهادنه، وعاد الحسن إلى «ريو» وبنى بها مسجداً كبيراً في وسط المدينة، وبنى في أحد أركانه مئذنة وشرط على الروم أنهم لا يمنعون المسلمين من عمارته وإقامة الصلاة فيه والأذان، وأن لا يدخله نصراني، ومن دخله من الأسارى المسلمين فهو آمن سواء أكان مرتداً أم مقيماً على دينه، وإن أخرجوا حجراً منه هُدّمت كنائسهم كلها بصقلية وإفريقية فوفّى الروم بهذه الشروط كلها ذِلّةً وصَغاراً، وبقي الحسن بصقلية إلى أن توفي المنصور العبيدي وملك المعزّ فسار إليه، واستخلف على صقلية ابنه أبا الحسين أحمد.


البحر المتوسط
البحر التيراني
ايطاليا
بالرم
مسينا
صقلية
البحر المتوسط
البحر الأيوني
سرقوسة

٤" ـ المعز:

توفي المنصور بالله أبو طاهر إسماعيل بن القائم أبي القاسم نزار بن عبيد الله (المهدي) في آخر شوال سنة ٣٤١هـ، وكان حكمه سبع سنين وستة عشر يوماً، وكان عمره تسعاً وثلاثين سنةً.

وكان قد خرج إلى مدينة قابس وأرسل إلى أهل جزيرة جربة يدعوهم إلى طاعته فأجابوه إلى ذلك، وأخذ منهم رجالاً وعاد فعهد إلى ابنه معد بولاية العهد، ثم خرج في شهر رمضان متنزهاً إلى مدينة «جلولاء»[١]، وعاد يحمل معه بعض أغصان الأشجار بقطوفها وثمارها فأعجب ذلك جاريةً له فسألته أن ترى ذلك على شجرة فأجابها إلى ذلك، ورحل إلى ذلك الموضع في خاصته، وأقام بها أياماً، ثم عاد فأصابه في الطريق برد شديد وألمّ به المرض، ومات ودفن في قصره.

ولي أمر العبيديين بعد المنصور ولده معد وهو

---

(١) تقع جلولاء إلى الشمال الغربي من مدينة القيروان وعلى بعد أربعين كيلاً منها، وهي ذات بساتين ومياه وفواكه كثيرة، وهي غير جلولاء التي في المشرق المشهورة والمعروفة، والتي تقع في العراق على نهرديالي قرب خانقين شمال شرقي بغداد.

المعزّ لدين الله، وأقام في تدبير الأمور إلى السابع من شهر ذي الحجة سنة ٣٤١هـ، أي مدة شهرٍ وسبعة أيامٍ، وأذن بعدها للناس فدخلوا عليه وجلس لهم فسلّموا عليه بالخلافة، وكان عمره أربعاً وعشرين سنة[١].

وفي سنة ٣٤٤هـ بنى عبد الرحمٰن الأموي صاحب الأندلس مركباً كبيراً، وملأه أمتعةً وبعث بها إلى بلاد المشرق فلقي في البحر مركباً فيه رسول من صقلية إلى المعزّ فقطع عليه أهل المركب الأندلسي وأخذوا ما فيه وأخذوا الكتب التي إلى المعز، فبلغ ذلك المعز فبنى أسطولاً وجعل عليه الحسن بن علي صاحب صقلية وسيّره إلى الأندلس فوصل إلى «المرية» ودخل المرسى وأحرق ما فيه من المراكب، وأخذ رجاله مركباً كان قد عاد من الإسكندرية وفيه أمتعة لعبد الرحمٰن الأموي، وصعد رجال من الأسطول العبيدي إلى البر الأندلسي فقتلوا ونهبوا ورجعوا سالمين إلى مدينة «المهدية». ولما سمع عبد الرحمٰن الأموي سيّر أسطولاً إلى سواحل إفريقية فنزلوا ونهبوا فجاءتهم عساكر المعزّ فعادوا إلى

---

(١) ولد معد بن إسماعيل سنة ٣١٧هـ بالمهدية، وبويع بالمنصورية ـ بلدة قرب مدينة القيروان بناها أبوه إسماعيل (المنصور). وتوفي معد (المعز) سنة ٣٦٥هـ.

مراكبهم ورجعوا إلى الأندلس بعد قتالٍ بين الطرفين قُتل فيه عدد كبير من الجانبين.

وفي سنة ٣٤٦هـ سار جيش المعز نحو المغرب فجال في جبال «أوراس» وكانت ملجأ الخارجين، وفيها بنو كملان وبعض بطون هوارة لم تدخل في طاعة العبيديين فأطاعت المعز ودخلت تلك البطون مع جيشه البلدان وأمر المعز أمراءه بالإحسان إلى البربر فدانوا له، وقد سار الجيش إلى فاس ودخلها، وإلى سجلماسة فملكها، وانقادت له بلاد المغرب كلها عدا مدينة «سبتة» فإنها بقيت لبني أمية أصحاب الأندلس. ورجع جوهر أبو الحسن قائد الجيش العبيدي إلى المهدية بعد أن دخل فاس في رمضان سنة ٣٤٨هـ، وحمل معه صاحبها «أحمد بن بكر» وصاحب سجلماسة «محمد بن واسول» الملقّب بالشاكر لله في قفصين إلى المعز العبيدي بالمهدية كما حمل له معه سمكاً صيد له من المحيط الأطلسي.

وفي سنة ٣٥١هـ سارت جيوش المسلمين بصقلية وأميرهم يومذاك أحمد بن الحسن بن عليّ بن أبي الحسن[1] إلى قلعة «طبرمين» من صقلية أيضاً ـ وهي بيد

(١) أحمد بن الحسن بن علي بن أبي الحسن الكلبي: أمير=

الروم ـ ومن أمنع الحصون وأشدّها على المسلمين ـ فامتنع أهلها ودام الحصار عليهم، فلما رأى المسلمون ذلك عمدوا إلى الماء الذي يجري إلى داخلها فقطعوه عنها وأجروه إلى مكانٍ آخر فعظم الأمر على الذين بداخلها وطلبوا الأمان فلم يُجابوا إليه، فعادوا وطلبوا أن يؤمّنوا على دمائهم ويكونوا رقيقاً للمسلمين وأموالهم فيئاً فأجيبوا إلى ذلك، وأخرجوا من البلد وملكه المسلمون في شهر ذي القعدة سنة ٣٥١هـ. وكانت مدة الحصار سبعة أشهرٍ ونصف الشهر، وأسكن قائد المسلمين في القلعة نفراً من المسلمين، وسمّيت المعزّية نسبةً إلى المعزّ العبيدي صاحب إفريقية. ثم سار جيش مع الحسن بن عمار[1] إلى «رمطة» فحاصروها، وضيّقوا على أهلها. فلما رأى الروم ذلك خافوا وأرسلوا إلى

= صقلية، كان أبوه يستخلفه عليها ويشاركه معه في تدبير أمورها والحكم والحروب، ثم وليها بعد وفاة أبيه سنة ٣٥٢هـ. واجتاز البحر إلى كلابريا في جنوبي إيطاليا فأحرق أسطول الروم في «ريو»، واستدعاه المعزّحين بعث جيوشه لاحتلال مصر والشام فقدّمه على جيوش البحر فغادر صقلية سنة ٣٥٩هـ، وعاجلته الوفاة فمات بساحل طرابلس سنة ٣٦٠هـ.

(١) الحسن بن عمار بن علي الكتامي، أبو محمد، من وزراء الحاكم بأمر الله العبيدي قُتل غيلةً في القاهرة سنة ٣٩٠هـ.

ملك القسطنطينية يعلمونه الحال ويطلبون منه أن يُنجدهم بالعساكر فجهّز لهم جيشاً كثيفاً يزيد على أربعين ألف مقاتل، وسيّرهم في البحر، فوصلت الأخبار إلى الأمير أحمد أمير صقلية فأرسل إلى المعزّ العبيدي يُعرّفه ذلك ويستمدّه ويسأله إرسال العساكر إليه سريعاً، وشرع هو في إصلاح الأسطول والزيادة فيه وجمع الرجال المقاتلة في البر والبحر، وأما المعزّ فإنه جمع الرجال وحشد وفرّق فيهم الأموال وسيّرهم مع الحسن بن علي والد الأمير أحمد فوصلوا إلى صقلية في شهر رمضان سنة ٣٥٣هـ، وسار بعضهم إلى الذين يحاصرون «رمطة» فكانوا معهم على حصارها، فأما الروم فإنهم وصلوا أيضاً إلى صقلية ونزلوا عند مدينة «مسينا» في شهر شوال سنة ٣٥٣هـ، وزحفوا بجموعهم الكثيفة إلى «رمطة»، فلما سمع الحسن بن عمار مقدم الجيش الذي يحاصر «رمطة» جعل عليها طائفةً من عسكره يمنعون من يخرج منها وبرز بالعساكر للقاء الروم وقد عزموا على الموت.

وصل الروم وأحاطوا بالمسلمين، ونزل أهل «رمطة» إلى من يليهم ليأتوا المسلمين من ظهورهم فقاتلهم الذين جُعلوا هناك وصدّوهم عما أرادوا، وتقدّم

الروم إلى القتال وقد اغترّوا بكثرتهم وبما معهم من العُدد وغيرها، والتحم القتال وعظُم الأمر على المسلمين ولحقهم العدو بخيامهم، وأيقن الروم بالظفر، فلما رأى المسلمون عظم ما نزل بهم اختاروا الموت، ورأوا أنه أسلم لهم، فحمل بهم الحسن بن عمار أميرهم وحمي الوطيس حينئذٍ وحرّضهم على قتال الكفار، وكذلك فعل بطارقة الروم حملوا وحرّضوا عساكرهم، وحمل «منويل» مقدّم الروم فقتل في المسلمين فطعنه المسلمون فلم يُؤثّر فيه لكثرة ما عليه من السلاح، فرمى بعضهم فرسه فقتله واشتدّ القتال عليه، فقُتلَ هو وجماعة من بطارقته، فلما قُتل انهزم الروم شرّ هزيمةٍ، وأكثر المسلمون فيهم القتل، ووصل المنهزمون إلى جرف خندقٍ عظيمٍ كالحفرة فسقطوا فيها خوفاً من السيف فقتل بعضهم بعضاً حتى امتلأت، وكان القتال من الصباح حتى العصر، وبات المسلمون يقاتلونهم في كل ناحيةٍ، وغنموا من السلاح والخيل والأموال الكثير، وكان في جملة الغنيمة سيف هندي، مكتوب عليه ـ هذا سيف هندي وزنه مائة وسبعون مثقالاً طالما ضُرب به بين يدي رسول الله ﷺ ـ فأُرسل إلى المعزّ العبيدي مع الأسرى، وسار من سلم من الروم إلى «ريو»، وأما أهل «رمطة» فإنهم ضعفت

نفوسهم، وكانت الأقوات قد قلّت عندهم فأخرجوا من فيها من الضعفاء وبقي المقاتلة، فزحف عليهم المسلمون وقاتلوهم إلى الليل، ولزموا القتال في الليل ثم تمكّنوا منها فملكوها عنوةً وقتلوا من فيها، وسبوا النساء والصغار، وغنموا ما فيها وكان شيئاً كثيراً، ورتّبوا فيها من المسلمين من يعمرها ويقيم فيها، ثم إن الروم تجمّع من سلم منهم وأخذوا منهم من في صقلية و«ريو»، وركبوا مراكبهم يحفظون نفوسهم، وركب الأمير أحمد في عساكره وأصحابه أيضاً وزحف إليهم في الماء وقاتلهم واشتدّ القتال بينهم، وألقى جماعة من المسلمين نفوسهم في الماء وخرقوا كثيراً من مراكب الروم فغرقت، وكثر القتل في الروم فانهزموا لا يلوي أحد على أحدٍ، وسارت سرايا المسلمين في مدائن الروم فغنموا منها، فبذل أهلها لهم من الأموال وهادنوهم، وقد عُرفت هذه الوقعة الأخيرة بوقعة «المجاز» وكانت سنة ٣٥٤هـ[١].

وتوفي كافور الإخشيدي في مصر فاختلفت القلوب فيها، ووقع فيها غلاء شديد، فلما بلغت هذه

---

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

الأخبار المعزّ العبيدي سيّر غلام والده القائد أبا الحسن جوهر الصقلي سنة ٣٥٨هـ في جيشٍ كثيفٍ إلى مصر فاستولى عليها وذلك لأن العساكر الإخشيدية ما أن بلغها مسير الجيش العبيدي إليها حتى هربت جميعها قبل وصول الجيش وذلك في السابع عشر من شهر شعبان سنة ٣٥٨هـ، وأقيمت الدعوة للمعز بمصر في الجامع العتيق في شهر شوال. وسار جوهر الصقلي في جمادى الأولى سنة ٣٥٩هـ إلى جامع ابن طولون وأمر المؤذّن أن يقول في الأذان ـ حيّ على خير العمل ـ وهو أول ما أُذّن بمصر، ثم أُذّن بعده في الجامع العتيق. ولما استقرّ جوهر بمصر شرع في بناء القاهرة.

لما استقرّ جوهر الصقلّي بمصر وثبتت أقدامه بها سيّر جعفر بن فلاح الكتامي إلى الشام في جمعٍ كبيرٍ فبلغ «الرملة» وبها أبو محمد الحسن بن عبد الله بن طغج فقاتله في شهر ذي الحجة من سنة ٣٥٨هـ، وكانت بينهما حروب كان الظفر فيها لجعفر بن فلاح، وأُسر ابن طغج وغيره من القواد فسيّرهم إلى جوهر وسيّرهم جوهر إلى المعز العبيدي بإفريقية، ودخل جعفر بن فلاح البلد عنوةً فقتل كثيراً من أهله ثم أمّن من بقي وجبى الخراج، وسار إلى مدينة «طبرية» فرأى ابن ملهم قد

أقام الدعوة فيها للمعز العبيدي فسار عنها إلى دمشق فقاتله أهلها فظفر بهم وملك البلد ونهب بعضه وكفّ عن الباقي وأقام الخطبة للعبيدي يوم الجمعة لأيام خلت من شهر المحرم سنة ٣٥٩هـ وقطعت الخطبة العباسية، وكان بدمشق الشريف أبو القاسم بن أبي يعلى الهاشمي، وكان جليل القدر، نافذ الحكم في أهلها، فجمع أحداثها ورجالها فثار بهم في الجمعة الثانية وأبطل الخطبة للمعزّ العبيدي، وأعاد الخطبة للخليفة المطيع لله العباسي، كما أعاد لبس السواد، وعاد إلى داره فقاتله جعفر بن فلاح ومن معه قتالاً شديداً، وصبر أهل دمشق، ثم افترقوا آخر النهار، فلما كان الغد تزاحف الفريقان واقتتلوا ونشبت الحرب بينهما وكثر القتلى من الجانبين واستمرّ القتال فعاد أهل دمشق منهزمين والشريف ابن أبي يعلى مقيم على باب البلد يحرّض الناس على القتال، ويأمرهم بالصبر وواصل المغاربة الحملات على أهل دمشق حتى ألجؤوهم إلى باب البلد، ووصل المغاربة إلى قصر حجاج ونهبوا ما وجدوا فلما رأى ابن أبي يعلى الهاشمي الأحداث وما لقي الناس من المغاربة، وخرج المغاربة من البلد ليلاً فأصبح الناس حيارى، فدخل الشريف ابن أبي يعلى وكان خرج من البلد إلى جعفر بن فلاح في الصلح

فأعاده وأمره بتهدئة الناس وتطييب قلوبهم ووعدهم بالجميل ففعل ما أمره، وتقدّم إلى الجند والعامة بلزوم منازلهم وأن لا يخرجوا منها حتى يدخل جعفر بن فلاح البلد ويطوف فيه ويعود إلى عسكره، ففعلوا ذلك، فلما دخل المغاربة البلد عاثوا فيه ونهبوا جزءاً منه فثار الناس وحملوا عليهم ووضعوا السيف فيهم فقتلوا منهم جماعةً وشرعوا في تحصين البلد وحفر الخنادق وعزموا على إشعال نار الحرب وبذل النفوس في الحفظ، وأحجمت المغاربة عنهم، ومشى الناس إلى الشريف أبي القاسم بن أبي يعلى فطلبوا منه أن يسعى فيما يعود بصلاح الحال ففعل، ودبّر الحال إلى أن يقرر الصلح يوم الخميس لست عشرة خلت من شهر ذي الحجة سنة ٣٥٩هـ. وكان الحريق قد أتى على عددٍ كثيرٍ من الدور وقت الحرب، ودخل صاحب الشرطة جعفر بن فلاح البلد يوم الجمعة فصلّى مع الناس وطيّب قلوبهم، وقبض على جماعةٍ من الأحداث في شهر المحرم سنة ٣٦٠هـ وقبض على الشريف أبي القاسم بن أبي يعلى الهاشمي المذكور، وسيّره إلى مصر.

وفي إفريقية خرج أبو خزر الزناتي واجتمع إليه جموع كثيرة من البربر وذلك سنة ٣٥٨هـ فخرج المعزّ

إليه بنفسه يريد قتاله حتى بلغ مدينة «بجاية» وكان أبو خزر قريباً منها وهو يقاتل نائب المعزّ عليها فلما سمع أبو خزر بقرب المعزّ تفرّقت عنه جموعه، وسلك المعزّ في طلبه الوعر، فعاد المعزّ وأمر أبا الفتوح يوسف بلكين بن زيري بالمسير في طلبه أين سلك فسار في أثره حتى خفي عليه خبره، ووصل المعز إلى مستقره بالمنصورية، فلما كان شهر ربيع الثاني من سنة ٣٥٩هـ، وصل أبو خزر الخارجي إلى المعزّ مستأمناً يطلب الدخول في طاعته فقبل المعزّ منه ذلك، وفرح به، وأجرى عليه رزقاً كثيراً، ووصل إلى المعزّ عقيب هذه الحال كُتب جوهر الصقلي بإقامة الدعوة في مصر والشام ويدعوه إلى المسير إليه، ففرح المعزّ فرحاً شديداً أظهره للناس كافةً.

واستعمل المعزّ العبيدي سنة ٣٥٩هـ، على جزيرة صقلية «يعيش» مولى الحسن بن علي بن أبي الحسن فجمع القبائل في دار الصناعة فوقع الشر بين موالي قبيلة كتامة والقبائل الأخرى فاقتتلوا فقُتل كثير من موالي كتامة وقُتل من الموالي بناحية «سرقوسة» جماعة، وازداد الشرّ بينهم، وتمكّنت العدواة، وسعى «يعيش» في الصلح فلم يوافقوه وتطاول الشرّ من كل ناحيةٍ،

ونهبوا وأفسدوا واستطالوا على أهل المراعي، واستطالوا على أهل القلاع المستأمنة فبلغ الخبر إلى المعزّ فعزل «يعيش» واستعمل أبا القاسم بن الحسن بن علي بن أبي الحسن نيابةً عن أخيه أحمد، فسار إليها فلما وصل إليها فرح الناس به وزال الشرّ من بينهم واتفقوا على طاعته.

وفي إفريقية قتل يوسف بلكين بن زيزي سنة ٣٦٠هـ محمد بن الحسين بن خزر الزناتي وجماعةً من أهله وبني عمّه وكان قد عصى المعزّ العبيدي بإفريقية وكثر جمعه من زناتة والبربر، وأهمّ المعزّ أمره لأنه أراد الخروج إلى مصر فخاف أن يخرج ويترك هذا الزناتي في البلاد عاصياً، وكان جباراً عاتياً طاغياً، وسُرّ المعزّ كثيراً بقتله.

وسار المعزّ العبيدي من المنصورية مرتحلاً إلى مصر في أواخر شهر شوال سنة ٣٦١هـ واستعمل على بلاد إفريقية يوسف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي الحميري إلا أن حكمه لم يشمل جزيرة صقلية ولا مدينة طرابلس ولا مدينة «سرت»[١] ولا مدينة

---

(١) سرت: مدينة على الساحل بين طرابلس وبنغازي، ويعرف الخليج بينهما بها.

«أجدابية»[1] حيث جعل على جزيرة صقلية الحسن بن علي بن أبي الحسن، وجعل على طرابلس «عبد الله بن يخلف الكتامي» وكان أثيراً عنده، وجعل على جباية أموال إفريقية زيادة الله بن القديم وعلى الخراج عبد الجبار الخراساني، وحسين بن خلف الموصدي وأمرهم بالانقياد ليوسف بن زيري.

أقام المعزّ العبيدي ببلدة قرب القيروان أربعة أشهرٍ حتى فرغ من جميع ما يريد، ثم رحل عنها ومعه يوسف بلكين وهو يوصيه بما يفعله، وردّ يوسف إلى أعماله وسار هو إلى طرابلس ومعه جيوشه وحواشيه فهرب منه بها جمع من عسكره إلى جبال نفوسه فطلبهم فلم يقدر عليهم، ثم سار إلى مصر فلما وصل إلى برقة ومعه محمد بن هانئ[2] الشاعر الأندلسي قُتل غيلةً،

---

(١) أجدابية: مدينة قريبة من الساحل تبعد خمسة وعشرين كيلاً عنه، وتقع جنوب بنغازي وتبعد عنها مائة وسبعين كيلاً.

(٢) محمد بن هانئ بن محمد بن سعدون الأزدي الأندلسي، أبو القاسم، وأبو الحسن: ولد في إشبيلية بالأندلس سنة ٣٢٦هـ. قيل: إنه من ولد يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة، قيل: بل هو من ولد أخيه روح بن حاتم. كان أبوه هانئ من قريةٍ من قرى مدينة المهدية بإفريقية وكان شاعراً أديباً ماهراً في الأدب حافظاً لأشعار العرب وأخبارهم، واتصل ابنه=

فرؤي ملقىً على جانب البحر لا يُدري من قتله، وكان قتله في أواخر شهر رجب سنة ٣٦٢هـ.

ثم سار المعزّ العبيدي حتى وصل إلى الإسكندرية في أواخر شعبان سنة ٣٦٢هـ، وأتاه أهل مصر وأعيانها فلقيهم وأكرمهم وأحسن إليهم، وسار فدخل القاهرة في

= محمد بصاحب إشبيلية وكانت له مكانة عنده، نقم عليه أهل إشبيلية إذ اتُّهم بمذهب الفلاسفة واتّهم لذلك صاحب إشبيلية بذلك، فأشار عليه بالغيبة عن البلد مدةً ـ ينسى فيها خبره ـ فانفصل عنه وعمره سبع وعشرون سنة فخرج إلى العدوة المغربية، ولقي جوهر الصقلي، ثم رحل إلى جعفر بن علي بن أحمد بن حمدان الأندلسي، أبو علي، ابن غلبون، أمير مدينة المسيلة ـ قاعدة الزاب ـ (في بلاد الجزائر اليوم) فأكرمه كثيراً، ولمحمد بن هانئ مدائح له، ويجمعهما مذهب الباطنية، وجعفر بن علي هو باني مدينة المسيلة، وقد وقعت فتنة بينه وبين زيري بن مناد الصنهاجي، فقتل زيري فقام ابنه يوسف بلكين، فانقلب جعفر إلى الأندلس فقتل بها سنة ٣٦٤هـ.

وبلغ المعزّ العبيدي خبر محمد بن هانئ فطلبه، فسار إليه فأكرمه المعزّ غاية الإكرام، وغالى ابن هانئ في مدح المعزّ حتى كفّره العلماء حيث يقول في المعزّ.

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وتوجّه المعز العبيدي إلى مصر فشيّعه ابن هانئ، ورجع هو إلى المغرب لأخذ عياله والالتحاق به، فتجهّز وتبعه فلما كان في برقة قُتل غيلةً على ساحل البحر سنة ٣٦٢هـ.

الخامس من شهر رمضان سنة ٣٦٢هـ، وأنزل عساكره مصر والقاهرة في الديار، وبقي كثير منهم في الخيام.

وأما يوسف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي فإنه لما عاد من وداع المعزّ أقام بالمنصورية يعقد الولايات للعمال على البلاد ثم سار في البلاد وباشر الأعمال وطيّب قلوب الناس فوثب أهل «بجاية» على عامله فقاتلوه فهزموه فسيّر إليهم يوسف جيشاً فقاتلهم فلم يقدر عليهم، فأرسل إلى يوسف يُعرّفه الحال، فتأهّب يوسف وجمع العساكر ليسير إليهم، فبينما هو في الاستعداد إذ أتاه خبر أن أهل «تاهرت» قد عصوا وخالفوا وأخرجوا عامله، فرحل إلى «تاهرت» فقاتل أهلها وانتصر عليهم، وخرّب فيها، وأتاه الخبر بها أن زناتة قد نزلوا على «تلمسان» فرحل إليهم، فهربوا منه، وأقام على «تلمسان» فحاصرها مدةً حتى نزل أهلها على حكمه فعفا عنهم إلا أنه نقلهم إلى مدينة «أشير» فبنوا عندها مدينة سمّوها «تلمسان». ثم إن عامل الخراج زيادة الله بن القديم جرى بينه وبين عاملٍ آخر كان معه اسمه عبد الله بن محمد الكاتب منافسة انتهت إلى الحرب واجتمع مع كل واحدٍ منهما جماعة وكان بينهما قتال، وكان يوسف بلكين مائلاً مع عبد الله لصحبةٍ

قديمةٍ بينهما، ثم إن عبد الله قبض على ابن القديم وسجنه واستبدّ بالأمور بعده وبقي ابن القديم محبوساً حتى توفي المعزّ العبيدي في مصر سنة ٣٦٥هـ، وقوي أمر يوسف بلكين.

وخرج خلف بن حسين سنة ٣٦٤هـ وهو من أصحاب زيادة الله بن القديم المساعدين له، وتحصّن في قلعةٍ منيعةٍ واجتمع إليه خلق كثير فلما وصل الخبر إلى يوسف بلكين(١) سار إليه ونازله على القلعة وقاتله

---

(١) يوسف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي اجتمعت صنهاجة ومن والاها بالمغرب على طاعته قبل أن يقدّمه المنصور العبيدي، كان جدّه مناد كبيراً في قومه، كثير المال والولد، حسن الضيافة لمن يمرّ به، وتقدّم ابنه زيري في أيامه، وقاد كثيراً من صنهاجة وكان يُغير بهم، وينهب ويسبي، فحسدته زناته وجمعت له لتقاتله، فسار إليهم مسرعاً وكبسهم ليلاً فقتل منهم كثيراً وغنم ما معهم، فكثر أتباعه، وضاقت بهم أرضهم، فقالوا له: لو اتخذت لنا بلداً غير هذا، فسار بهم إلى موضع مدينة «آشير» فرأى ما فيه من العيون فاستحسنه وبني فيه مدينة «آشير» وسكنها هو وأصحابه. وكانت زناتة تفسد في البلاد، فإذا طُلبوا احتموا في البراري والجبال، فلما بنيت «أشير» صارت صنهاجة بين البلاد وبين زناتة والبربر.
سمع زيري بن مناد بقبيلة «غمارة» وفسادهم في البلاد واستحلالهم المحرمات وأنه قد ظهر فيهم رجل ادّعى النبوة، فسار إليهم زيري وغزاهم وظفر بهم، وأخذ الدعيّ أسيراً، =

= وأحضر الفقهاء وقتله، ثم كان له أثر حسن في قتال أبي يزيد الخارجي، وحمل زيري المال إلى العبيدي بـ«المهدية» فحسن موقعه عنده.

حاصرت قبيلة زناتة مدينة «آشير» فجمع لهم زيري جموعاً كثيرةً وجرت بينهم وقائع قتل فيها كثير من الفريقين، ثم ظفر بهم واستباحهم. ثم ظهر في جبل أوراس رجل يُدعى سعيد بن يوسف وقد أعلن خلافه للمنصور العبيدي فسيّر إليه زيري ولده يوسف بلكين في جيشٍ كثيفٍ فلقيه عند «بجاية» واقتتلوا فقتل الخارجي ومن معه من هوارة وغيرهم، فزادت مكانته عند المنصور العبيدي. وكان ليوسف بلكين أثر في دخول مدينة فاس من قبل جند العبيديين.

وأمر زيري بن مناد الصنهاجي ابنه يوسف بلكين ببناء «مليانة» و«الجزائر» و«المدية» فبنى المدن الثلاثة. وخرج محمد بن الحسين بن خزر الزناتي عن طاعة المعزّ العبيدي وكثر جمعه وعظم شأنه فسار إليه يوسف بلكين وظفر به. وكان بين جعفر بن علي صاحب «المسيلة» وبين زيري بن مناد حسد فلما ارتفعت مكانة زيري عند المعز العبيدي ساء ذلك جعفراً ففارق بلاده ولحق بقبيلة زناتة فقبلوه قبولاً عظيماً وملكوه عليهم عداوةً لزيري، وعصى جعفر على المعزّ العبيدي فسار إليه زيري في جمعٍ كثيرٍ من صنهاجة وغيرهم، فالتقوا في شهر رمضان سنة ٣٦٠هـ، واشتدّ القتال بينهم، فكبا بزيري فرسه فوقع على الأرض فقتل.

رأى جعفر بن علي من قبيلة زناتة تغيّراً عن طاعته وندماً على قتل زيري، فقال لهم: إن يوسف بلكين بن زيري لا يترك ثأر=

فوقع عدد من القتلى ودخل يوسف القلعة، وهرب خلف بن حسين، وقُتل بها عدد كثير، ثم قُبض على خلف، فأخذه يوسف وأمر به فطيف به على جملٍ، ثم صُلب. فلما سمع أهل «بجاية» بذلك خافوا فصالحوا يوسف ونزلوا على حكمه فأخرجهم من مدينتهم، وخرّب سورها.

خامساً: الإخشيديون:

يعود الإخشيديون إلى محمد بن طغج بن جفّ،

= أبيه ولا يرضى بمن قتل منكم والرأي أن نتحصّن بالجبال المنيعة والمناطق الوعرة فأجابوه إلى ذلك، فجعل أهله وماله في مراكب وبقي هومع الزناتيين، وأمر عبيده في المراكب أن يُثيروا ضجّة ففعلوا ـ وهو يشاهدهم من البر ـ وقال لزناتة: أريد أن أنظر ماذا يجري في المراكب، فنزل إلى المركب ونجامعهم، وسار إلى الأندلس إلى الحاكم الأموي فأكرمه وأحسن إليه. وندمت زناتة كيف لم يقتلوه ويغنموا ما معه. ثم قُتل في الأندلس سنة ٣٦٤هـ.
وأما بلكين بن زيري فإن المعزّ العبيدي هو الذي سمّاه يوسف وكنّاه أبا الفتوح ولقّبه سيف الدولة أو سيف العزيز بالله، واستخلفه على إفريقية، فأكثر القتل في زناتة. وثار أهل المغرب على العبيديين وخلعوا طاعتهم، وخطبوا لبني أمية في الأندلس فسار إليهم وأعادهم للطاعة. وتوفي سنة ٣٧٣هـ بين سجلماسة وتلسمان.

ويعود أصلهم إلى أتراك فرغانة، والإخشيد كلمة يُلقّب بها ملوك فرغانة، وقد جاء «جفّ» جدّ الإخشيد إلى الخليفة المعتصم فأكرمه، ثم اتصل بالخليفتين الواثق والمتوكل، وتوفي في العام الذي توفي فيه المتوكل أي عام ٢٤٧هـ، بل وفي الليلة التي قُتل فيها المتوكل وهي ليلة الأربعاء لأربعٍ خلون من شهر شوال سنة ٢٤٧هـ.

وبرز طغج بن جفّ في أيام الطولونيين، وفي قتال الروم، ولما دخل الجيش العباسي مصر استقبل طغج بن جفّ قائد الجيش العباسي محمد بن سليمان الكاتب الحنيفي بالعباسة ومعه كبار القادة، ثم سار بمن بقي من الطولونيين وقادتهم إلى بغداد ولما لم يترجّل للوزير العباسي فقد أوغر صدر الخليفة عليه فسجنه هو وابنيه محمد وعبيد الله وذلك سنة ٢٩٢هـ، والخليفة هو المكتفي بالله (علي بن أحمد المعتضد ٢٨٩ ـ ٢٩٥هـ). وتوفي طغج بن جفّ في السجن سنة ٢٩٤هـ، وأطلق الخليفة ابنيه فدخلا في خدمة الخلافة، ولما حانت لهما فرصة الثأر من الوزير العباس بن الحسن لم يتركاها وذلك عندما ضربه الحسين بن حمدان بالسيف فوقع عن جواده فأسرعا وأجهزا عليه، وهرب بعدئذٍ محمد بن طغج إلى ديار ربيعة، وفرّ عبيد الله إلى شيراز، ثم رجع

إلى بغداد بعد انتهاء خلافة المكتفي وقيام الخليفة المقتدر بالله (جعفر بن أحمد المعتضد ٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ)، واتصل عبيد الله بن طغج بالخليفة المقتدر وعلا شأنه.

اتصل محمد بن طغج بعامل الشام أبي العباس بن بسطام، وتوفي عامل مصر عيسى النوشري[(١)] سنة ٢٩٧هـ، فأُعطي أبو العباس بن بسطام ولاية مصر فسار إليها وسار معه محمد بن طغج غير أن ابن بسطام لم يلبث أن توفي في بيت المقدس بعد وفاة عيسى النوشري بعشرة أيامٍ، فاستعمل الخليفة المقتدر بالله مكانه «تكينَ» الخادم، واتصل محمد بن طغج بأبي القاسم علي بن بسطام، وحارب تحت إمرة «تكين» الذي التقى بالعبيديين الذين كانوا بإمرة حباسة بن يوسف الكتامي، وقد أبلى ابن طغج يومها بلاءً حسناً، وتولّى إمرة الأردن نيابةً عن «تكين» عام ٣٠٦هـ، ثم تولّى الإسكندرية ٣٠٧ ـ ٣٠٩هـ.

---

(١) عيسى بن محمد النوشري، أبو موسى: من الولاة العباسيين، استعمله المنتصر على دمشق سنة ٢٤٧هـ، فبقي زمناً، وولي أصبهان فانتقل إليها، ثم ولّاه المعتضد سنة ٢٨٧هـ بلاد فارس فأحسن السياسة، ثم ولاه المكتفي مصر سنة ٢٩٢هـ بعد انتهاء الدولة الطولونية فسار إليها وبقي فيها حتى توفي سنة ٢٩٧هـ، وحُمل إلى القدس ودفُن فيها، وفي أوائل عهده بمصر اندلعت ثورة فأزيل النوشري عن الولاية ما يقرب من ثمانية أشهرٍ.

وتوفي «تكين» أمير مصر سنة ٣٢١هـ، وخلفه ابنه محمد في الإمارة، وثار الجند بمصر فقاتلهم محمد وظفر بهم، واستقرّت له الأوضاع.

وسيّر القائم العبيدي من إفريقية جيشاً إلى مصر مع خادمه زيدان وبالغ في النفقة عليهم فدخلوا الإسكندرية فأخرج إليهم محمد بن طغج عسكراً كثيفاً فقاتلهم، وانتصر عليهم، وقتل منهم وأسر وعاد المغاربة مهزومين، وذلك سنة ٣٢٢هـ.

وبعدما أحرز محمد بن طغج عدة انتصاراتٍ ولّاه الخليفة العباسي (الراضي بالله محمد بن جعفر المقتدر ٣٢٢ ـ ٣٢٩هـ) إمرة الشام سنة ٣٢٢هـ، وأضاف إليه لقب الإخشيد، فساد النظام والأمن في ولايته.

وقلّد الخليفة الراضي إمرة مصر إلى محمد بن طغج إضافةً إلى ما بيده من الشام وعزل أحمد بن كيغلغ[1] عن مصر وذلك سنة ٣٢٣هـ.

---

(١) أحمد بن إبراهيم بن كيغلغ، أبو العباس: تركي الأصل ولد في بغدادسنة ٢٥٨هـ ونشأ فيها، وارتقى إلى مرتبة القادة فكان مع محمد بن سليمان في قتال القرامطة بالشام سنة ٢٨٣هـ، وقدم مصر سنة ٢٩٢هـ في بعض الجيوش لقمع ثورات نشبت هناك، وكان أميراً على دمشق والأردن سنة ٣٠٠هـ، واستقرّ=

وغضب الخليفة على الإخشيد سنة ٣٢٨هـ، وأرسل محمد بن رائق[1] والياً على مصر مكان

= في بغداد سنة ٣٠٣هـ، وولّاه الخليفة المقتدر بالله إمرة مصر سنة ٣١١هـ، فأقام بها حوالي سبعة أشهرٍ واضطربت عليه فصُرف عنها، وولي أصبهان سنة ٣١٩هـ، وأعاده الخليفة القاهر بالله إلى مصر سنة ٣٢١هـ، فدخلها سنة ٣٢٢هـ، واستمرت إمارته نحو واحدٍ وعشرين شهراً، وخالفه محمد بن طغج فسلّم إليه الأمر دون قتالٍ، وعُزل سنة ٣٢٣هـ.

(١) محمد بن رائق، أبو بكر: أمير من الدهاة الشجعان، له شعر وأدب، كان أبوه من مماليك المعتضد العباسي، وولي محمد بن رائق شرطة بغداد للمقتدر سنة ٣١٧هـ، ثم إمرة واسط والبصرة، وولّاه الراضي إمرة الأمراء والخراج ببغداد سنة ٣٢٤هـ، وأمر أن يخطب له على المنابر، ثم قلّده طريق الفرات وديار مضر وهي حران والرها وما جاورهما وجند قنسرين والعواصم سنة ٣٢٦هـ، وردّت أمور الخلافة إليه. وظهر له تغيرّ من الخليفة، فتوجّه إلى الشام وأظهر أن الخليفة ولّاه عليها سنة ٣٢٨هـ، فدخل دمشق وطرد عنها بدراً الإخشيدي، وزحف ليأخذ مصر، فقاتله محمد بن طغج الإخشيد في العريش فانهزم ابن رائق وعاد إلى دمشق، وتمّ الصلح بينهما على أن تكون الشام له ومصر للإخشيد، والحدود بينهما مدينة الرملة. وأقام سنةً ثم رضي عنه الخليفة المتقي فعاد إلى بغداد، وخلع عليه، وأعطاه إمرة الأمراء، ولم يكد يستقرّ حتى زحف البريدي من واسط إلى بغداد فقاتله المتقي وابن رائق، واستنجد المتقي بناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان فبعث إليه أخاه سيف الدولة، ولقيه المتقي=

الإخشيد، فسار ابن رائق إلى حمص فدخلها، وانطلق إلى دمشق وبها بدر بن عبد الله الإخشيدي المعروف بـ «بدير» والياً عليها للإخشيد، فأخرجه ابن رائق منها ودخلها، وسار منها إلى الرملة فملكها، ثم اتجه إلى عريش مصر فلقيه الإخشيد محمد بن طغج، فهُزم الإخشيد، وشُغل أصحاب ابن رائق بالسلب والنهب، ودخلوا في خيام أصحاب الإخشيد فخرج عليهم كمين للإخشيد فأوقع بهم وهزمهم وفرّقهم، ونجا ابن رائق في سبعين رجلاً ووصل إلى دمشق بحالةٍ مزريةٍ. فسيّر إليه الإخشيد أخاه عبيد الله أبا نصر بن طغج في جيشٍ كثيفٍ، فلما سمع بهم ابن رائق سار إليهم من دمشق فالتقى بهم بـ «اللجون» في الرابع من ذي الحجة سنة ٣٢٨هـ، فانتصر ابن رائق وهُزم جيش أبي نصر، وقُتل أبو نصر عبيد الله بن طغج أخو الإخشيد، فأخذه ابن رائق وكفّنه، وأرسله إلى أخيه الإخشيد بمصر، وأرسل

= وابن رائق بـ «تكريت» وأخلص سيف الدولة للمتقي، ثم اجتمع ابن رائق بناصر الدولة في الجانب الشرقي من دجلة، ولما أراد الانصراف شبّ به فرسه فسقط فصاح ناصر الدولة بغلمانه: اقتلوه، فقتلوه. ولم يتمكّن أحد من الراضي كما تمكّن من ابن رائق، وهو الذي قطع يد ابن مقلة ولسانه.

معه ابنه مزاحم بن محمد بن رائق، وكتب إلى الإخشيد كتاباً يُعزّيه بأخيه، ويعتذر بما جرى، ويحلف له أنه ما أراد قتله، وأنه قد أنفذ ابنه ليفديه به إن أحبّ ذلك، فتلقّى الإخشيد مزاحماً بالجميل، وخلع عليه وردّه إلى أبيه فكانت النتيجة أن اصطلحا على أن تكون الرملة وما وراءها إلى مصر للإخشيد، وباقي الشام لمحمد بن رائق، ويحمل إليه الإخشيد عن الرملة كل سنةٍ مائة وأربعين ألف دينارٍ.

رجع محمد بن رائق إلى بغداد عام ٣٢٩هـ، وأصبح أمير الأمراء، ولكنه قُتل سنة ٣٣٠هـ، فأصبحت بلاد الشام كلها للإخشيد وقد دخلها دون حربٍ، إذ سار إلى دمشق وكان بها محمد بن يزداد نائباً عن ابن رائق فاستأمن إلى الإخشيد وسلّم إليه دمشق فأقره عليها، ثم نقله عنها إلى مصر وجعله على شرطتها. وكذلك تبعته الحجاز.

كتب الخليفة المتقي لله (إبراهيم بن جعفر المقتدر ٣٢٩ ـ ٣٣٣هـ) إلى الإخشيد محمد بن طغج يشكو حاله ويستقدمه إليه، فأتاه من مصر فلما وصل إلى حلب سار عنها أبو عبد الله بن سعيد بن حمدان أخو أبي فراس، وكان ابن مقاتل بها معه فلما علم برحيله عنها اختفى،

فلما قدم الإخشيد إليها ظهر إليه ابن مقاتل فأكرمه الإخشيد واستعمله على خراج مصر، وانكسر عليه ما بقي من المصادرة التي صادره بها ناصر الدولة بن حمدان ومبلغه خمسون ألف دينار، وسار الإخشيد من حلب إلى المتقي وهو بالرقة وذلك في منتصف المحرم سنة ٣٣٣هـ، فأكرمه المتقي واحترمه، ووقف الإخشيد وقوف الغلمان ومشى بين يديه، فأمره المتقي بالركوب فلم يفعل إلى أن نزل المتقي، وحمل إلى المتقي هدايا عظيمةً وإلى الوزير أبي الحسين بن مقلة وسائر الأصحاب، واجتهد بالمتقي ليسير معه إلى مصر والشام، ويكون بين يديه فلم يقبل، وأشار عليه بالمقام مكانه وألا يرجع إلى بغداد وخوّفه من «توزون» فلم يفعل، وأشار علي ابن مقلة أن يسير معه إلى مصر ليُحكّمه في بلاده جميعها فلم يجبه إلى ذلك فخوّفه أيضاً من «توزون»، وكان أن سُملت عينا الخليفة المتقي، وسُجن وبقي في السجن مدة خمس وعشرين سنة حتى توفي سنة ٣٥٧هـ.

وفي سنة ٣٣٢هـ استولى الحمدانيون على قنسرين فولّاها ناصر الدولة إلى ابن عمه الحسين بن سعيد بن حمدان (أخي أبي فراس)، كما استولى سيف الدولة

الحمداني على حلب سنة ٣٣٣هـ، إذ بعد أن رجع الخليفة المتقي إلى بغداد وكان بالرقة وعاد الإخشيد إلى الشام وكان مع الخليفة بالرقة، سار سيف الدولة إلى حلب وكان بالرقة أيضاً، وكان بحلب «يأنس المؤنسي» نائباً عن الإخشيد فقصده سيف الدولة فلما نزل حلب فارقها يأنس وسار إلى الإخشيد وملكها سيف الدولة، ثم سار منها إلى حمص فلقيه بها عسكر الإخشيد محمد بن طغج صاحب الشام ومصر مع مولاه كافور واقتتلوا فانهزم عسكر الإخشيد مع كافور، وملك سيف الدولة حمص، وسار إلى دمشق فحاصرها فلم يفتحها أهلها له لما يعرفون من عقيدته فرجع. وكان الإخشيد قد خرج من مصر إلى الشام، وسار خلف سيف الدولة فالتقيا بقنسرين فلم يظفر أحد العسكرين بالآخر، ورجع سيف الدولة إلى الجزيرة، فلما عاد الإخشيد إلى دمشق رجع سيف الدولة إلى حلب.

توفي محمد بن طغج (الإخشيد) بدمشق سنة ٣٣٤هـ، ودُفن ببيت المقدس وولي الأمر بعده ابنه أبو القاسم (أنوجور) وكان صغير السن إذ لا يزيد عمره على أربع عشرة سنةً فاستولى على الأمر كافور[1] فسار

(١) كافور الإخشيدي، أبو المسك: كان عبداً حبشياً اشتراه=

إلى مصر فقصد سيف الدولة دمشق وملكها وأقام بها، وكاتب أهل دمشق كافوراً بعد أن علموا أن سيف الدولة يريد أخذ الغوطة باسم القوانين السلطانية ويتملكها، فجاءهم كافور فأخرجوا سيف الدولة عنهم سنة ٣٣٦هـ، وكان أبو القاسم أنوجور مع كافور فتبعا سيف الدولة بمن معهما من الجند إلى حلب فخافهم سيف الدولة فهرب إلى الجزيرة. وأقام أنوجور على حلب ثم استقرّ

= الإخشيد فنُسب له، وأعتقه، وترقّى عنده، وما زالت همّته تصعد حتى ملك مصر سنة ٣٥٥هـ، وكان فطناً ذكياً حسن السياسة، وكان عجباً في العقل والشجاعة، قام بتدبير شؤون المملكة في ولاية أبي القاسم ثم ولاية أبي الحسين ابني الإخشيد، وتولّاها مستقلاً مدة سنتين وأربعة أشهر، وكان يُدعى له على المنابر بالحجاز ومصر والشام إلى أن توفي بالقاهرة سنة ٣٥٧هـ، ونُقل إلى القدس فدُفن فيها، وعاش خمساً وستين سنةً حيث وُلد سنة ٢٩٢هـ.
وقد سافر المتنبي إلى مصر قاصداً كافوراً ومدحه ولما لم ينل ما كان يحلم به هجاه، وكانت مادة الهجاء متوفّرة بصفته عبداً خصياً لذا كان هجاءً مركّزاً فأعجب الأدباء فكرّروه وأطنبوا بالحديث عنه والكتابة به فرسخ في نفوس الناس، وألصق هذا بشخصية كافور، ونُسيت شجاعته الفائقة وعقله الثاقب ورأيه السديد وكانت هذه الصفات عجيبةً عنده. وكان يداوم الجلوس غدوةً وعشيةً لقضاء حوائج الناس. وكان يتهجّد ويمرّغ وجهه ساجداً ويقول: اللهم لا تُسلّط عليّ مخلوقاً.

الأمر بينهما، وعاد أنوجور إلى مصر ورجع سيف الدولة إلى حلب، وأقام كافور بدمشق قليلاً، وولّى عليها بدر الإخشيدي، وعاد هو إلى مصر، وبقي بدر على دمشق سنةً ثم وليها أبو المظفر بن طغج، وقبض على بدر الإخشيدي.

اضطرب أمر الشام، وأخذ سيف الدولة الحمداني دمشق من أصحاب الإخشيد، فسار إليه كافور فأجلى سيف الدولة عن دمشق، وتبعه إلى حلب بعد أن انتصر عليه انتصاراً حاسماً في مرج عذراء شمال شرقي دمشق وعلى بعد خمسةٍ وعشرين كيلاً منها، وأخرجه من حلب أيضاً. ولما رجع كافور إلى مصر عاد سيف الدولة إلى حلب، وعُقد بعد ذلك صلح بين الطرفين.

وحصل كافور على موافقة الخليفة العباسي على توليته الأمير الصغير على مصر والشام وعلى المدينتين المقدستين مكة والمدينة، كما ضمّ إلى حكم مصر فيما بعد بلاد سورية كلها حتى مدينتي حلب وطرسوس، وبذلك عظم شأن كافور وزادت شهرته، واستطاع أن يقبض على زمام الأمور من غير أن تكون له سلطة شرعية. وكان كافور يقدّم لأنوجور سنوياً أربعمائة ألف دينارٍ، ولما كبُر أنوجور حدثت وحشة بينه وبين كافور

بسبب استبداد الثاني بالأمر رغم أن السلطة باسم الأول.

وتوفي: «أنوجور» بن الإخشيد سنة ٣٤٩هـ عن ثلاثين سنةً، وأقام كافور في الإمارة بعده أخاه أبا الحسن علي بن الإخشيد، وبقي كافور صاحب السلطة الفعلية بل منع الناس من الاجتماع بأبي الحسن، وبقي رهن قصره يأخذ راتبه إلى أن مات في بدايةِ عام ٣٥٥هـ، وله إحدى وثلاثون سنةً، وخلفه اسماً ابنه أحمد غير أن كافور حال دون تعيين هذا الأمير خلفاً لأبيه، وبقيت مصر ما يقرب من شهرٍ دون والٍ بصورةٍ رسميةٍ، وتمكّن كافور أن يستصدر كتاباً من الخليفة العباسي بتقليده إمرة مصر، واستوزر أبا الفضل جعفر بن خنزابة بن الفرات، وبقي في منصبه حتى توفي سنة ٣٥٧هـ، وفي هذه المدة من ولاية كافور والتي تزيد على السنتين تعرّضت مصر والشام لغارات القرامطة من الشرق، وتعرّضت أيضاً لغارات العبيديين من جهة الغرب، كما أغار ملك النوبة على مصر من جهة الجنوب.

وبعد أن توفي كافور اختار أمراء الجيش أحمد بن الحسن علي بن الإخشيد والياً على مصر والشام، ولما

كان صغيراً فقد عيّن وصيّاً عليه والي الشام الحسن بن عبيد الله[1] فاستبدّ بالأمر، ثم اضطر أن يعود إلى الشام. وجاء جوهر الصقلي قائد المعز العبيدي فدخل مصر في ١٧ شعبان ٣٥٨هـ.

لما استقرّ جوهر الصقلي بمصر وثبتت أقدامه سيّر جعفر بن فلاح الكتامي إلى الشام في جمعٍ كبيرٍ فبلغ مدينة الرملة، وبها أبو محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج فقاتله في شهر ذي الحجة سنة ٣٥٨هـ، وجرت بينهما حروب كان الظفر فيها لجعفر بن فلاح، وأسر الحسن بن عبيد الله وغيره من القواد فسيّرهم إلى جوهر، وسيّرهم جوهر إلى المعزّ العبيدي بإفريقية. ودخل جعفر بن فلاح البلد عنوةً فقتل كثيراً من أهلها، وسار بعدها إلى طبرية فدخلها، واتجه بعدها إلى دمشق فسيطر عليها بعد أحداثٍ، وتولّى أمرها عن المعز

---

(١) الحسن بن عبيد الله بن طغج، أبو محمد، ابن أخي الإخشيد محمد بن طغج: أمير تركي الأصل، كانت له إمارة في دولة عمّه الإخشيد محمد بن طغج، وفي أيام كافور، وكان أمير الرملة، أغار عليه القرامطة، ودخلوا الرملة فانتقل إلى مصر، وتمكّن ثم رجع إلى الشام، فهُزم بالرملة بعد أن عاد إليها، وأسر فنقل إل مصر ثم إلى المهدية فبايع للمعز العبيدي، فأُعيد إلى مصر فأقام بها إلى أن توفي سنة ٣٧١هـ.

العبيدي سنة ٣٦٠هـ، وانتهى أمر الإخشيديين، وانتقل المعزّ العبيدي إلى مصر في شهر رمضان سنة ٣٦٢هـ.

سادسا: القرامطة:

تُنسب القرامطة إلى «قرمط» وهو حمدان بن الأشعث، فأصبحت كل حركةٍ تحمل فكرته تُنسب إليه، وتعتمد فكرته على استحلال الفروج والأموال، وقد نشأ عدد من الأفراد حملوا أفكار قرمط وقادوا حركات، ولكنها حملت جميعاً، اسم القرامطة، وإن كان بينها خلاف حركي أو تباعد في المكان والبيئة، ومنهم الحسن بن بهرام الذي حمل اسم «أبا سعيد الجنابي»، ويعود في أصله إلى بلدة «جنّابا» قرب مدينة «سيراف» في فارس. وكان قد استجاب لهذه الفكرة القرمطية التي انتشرت في البحرين، ثم تزعّم فرقةً منها، واستطاع أن يسيطر على هجر، والقطيف وسائر بلاد البحرين، وقد أبلغ في الفواحش وأفحش في المساوئ، وأخيراً قتله أحد خدمه داخل الحمام سنة ٣٠١هـ. وكان أبو سعيد قد عهد لابنه سعيد، وهو الأكبر، فعجز عن الأمر فغلبه أخوه الأصغر سليمان أبو طاهر وقد عاث في الأرض الفساد إذ غزا البصرة سنة ٣١١هـ ودخلها فنهب وسلب وسبى، وارتكب أبشع الفواحش، وكان يتعرّض

للحجاج فيأخذ أمتعتهم وزادهم ونساءهم، ويقتل من يستطيع قتله. وكان يُغير على المدن والأرياف فيفعل أعماله التي عُرف بها. ووافى الحجاج بمكة سنة ٣١٧هـ يوم التروية (الثامن من ذي الحجة) فقتل الحجاج في المسجد الحرام، وفي البيت نفسه، وطرح القتلى في بئر زمزم، وبقي في مكة أحد عشر يوماً يبالغ في فساده، ثم ارتحل إلى هجر وأخذ معه الحجر الأسود.

هلك رئيس القرامطة أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنّابي في شهر رمضان سنة ٣٣٢هـ، وقام بأمر القرامطة من بعده إخوته الثلاثة: أبو القاسم سعيد، وأبو العباس الفضل، وأبو يعقوب يوسف، وعملوا ثلاثتهم دون خلافٍ في شيءٍ، وكانت كلمتهم واحدةً، كما كانت كلمة وزرائهم أيضاً متفقةً.

وردّ أخو أبي طاهر القرمطي الحجر الأسود إلى مكانه في البيت سنة ٣٣٩هـ، وكان الأمير «بجكم» التركي قد بذل لهم خمسين ألف دينارٍ على أن يردّوه إلى موضعه فلم يفعلوا، وقالوا: نحن أخذناه بأمرٍ فلا نردّه إلا بأمر من أخذناه بأمره، فلما كان سنة ٣٣٩هـ حملوه إلى الكوفة وعلّقوه على الإسطوانة السابعة من جامعها ليراه الناس، وكتب أخو أبي طاهر كتاباً فيه:

إنا أخذنا هذا الحجر بأمرٍ، وقد رددناه بأمر من أمرنا بأخذه، ليتمّ حج الناس ومناسكهم. ثم أرسلوه إلى مكة بغير شيء على قعودٍ، فوصل في ذي القعدة من هذه السنة، ولله الحمد والمنّة. وكان مدة غيابه عندهم ثنتين وعشرين سنةً، ففرح المسلمون لذلك فرحاً شديداً. وقد ذكر غير واحدٍ أن القرامطة لما أخذوه حملوه على عدة جمالٍ[1] فعطبت تحته واعترى أسنمتها القرح، ولما ردّوه حمله قعود[2] واحد ولم يصبه أذًى[3].

وقصدت القرامطة مدينة طبرية سنة ٣٥٣هـ ليأخذوها من يد الإخشيد صاحب مصر والشام، وطلب القرامطة من سيف الدولة الحمداني أن يمدّهم بحديدٍ يتخذون منه سلاحاً، فقلع لهم أبواب مدينة الرقة ـ وكانت من حديدٍ صلدٍ ـ وأخذ لهم من حديد الناس حتى أخذ أواقي الباعة والأسواق (القطع الحديدية التي يوزن بها الباعة)، وأرسل بذلك كله إليهم، فأرسلوا إليه يقولون اكتفينا.

وثار سنة ٣٥٤هـ رجل من القرامطة اسمه مروان،

---

(١) بعضها إثر بعض.
(٢) قعود: جمل صغير.
(٣) البداية والنهاية: ابن كثير.

كان يحفظ الطرقات لسيف الدولة، ثار بحمص فملكها وما حولها، فقصده جيش من حلب مع الأمير بدر، فاقتتلوا معه فرماه بدر بسهمٍ مسمومٍ فأصابه، واتفق أن أسر أصحاب مروان بدراً فقتله مروان بين يديه صبراً، ومات مروان بعد أيامٍ وتفرّق أصحابه.

وامتدّ نفوذ قرامطة البحرين باتجاه الغرب وكانت الدولة الأخيضرية في اليمامة تحت إشرافهم، كما أخضعوا الحجاز لهم.

ووصل القرامطة إلى بلاد الشام سنة ٣٥٧هـ، وكان كبيرهم يومذاك الحسن الأعصم[١] وقد دخل مدينة دمشق، وولّى عليها «وشاح السلمي» ولكن لم يلبثوا أن خرجوا منها، ثم عادوا إليها سنة ٣٦٠هـ، وسار القرمطي إلى الرملة، ومنها اتجه إلى مصر إلا أن جوهر الصقلي[٢] قد ردّهم وأخذ منهم دمشق، وكانوا من قبل

(١) الحسن الأعصم: الحسن بن أحمد بن أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنّابي القرمطي، ولد بالإحساء سنة ٢٧٨هـ وهو فارسي الأصل، دخل دمشق سنة ٣٥٧هـ، ووجّه إليه المعزّ العبيدي جيشاً بإمرة جعفر بن فلاح فهزمه القرمطي وذبح جعفراً، وزحف إلى مصر سنة ٣٦١هـ، فحاصرها عدة أشهرٍ، وترك عليها أحد قواده، وعاد يريد الشام فمات بالرملة سنة ٣٦٦هـ.

(٢) جوهر بن عبد الله الرومي، أبو الحسن: قائد المعز العبيدي=

يمالئون العبيديين، وهم الذين أمروهم بردّ الحجر الأسود إلى مكانه بعد أن ساءت سمعتهم كثيراً في ديار الخلافة وعند المسلمين عامةً، ولحق العبيديين في المغرب شيء من سوء تصرّفهم. وقد قال لهم العبيديون: إن التصرّفات التي تمسّ مشاعر المسلمين تجعلهم يرتبطون بعضهم مع بعض، ويتماسكون بشكل، قوي فيكونون قوةً يصعب اختراقها، كما يصعب قتالها إذا أعلن أهلها الجهاد حيث يندفعون يبغون الموت في سبيل عقيدتهم (الشهادة في سبيل الله) وعندها تفشل مخططاتنا التي أظهرنا الإسلام نحن وإياكم في سبيل تحقيقها، فعليكم أن تعيدوا الحجر إلى مكانه لتكسبوا مكانةً عند المسلمين، وتختلف نظرتهم إليكم وربما يتبعكم بعضهم من أصحاب المصالح، وبعدها تستطيعون تحقيق بعض أهدافكم وفي الوقت نفسه تكونون عوناً لنا بالوصول إلى بعض ما نصبو إليه،

= وأحد مواليه، سيّره المعز من القيروان إلى مصر فدخلها سنة ٣٥٨هـ، بعد موت كافور الإخشيدي، وبني القاهرة والجامع الأزهر، وأرسل الجيوش للسيطرة على بلاد الشام، وضمها لسلطانه، ومكث بها حاكماً حتى قدم سيّده المعز العبيدي مصر سنة ٣٦٢هـ، فحلّ المعز محله، وكان من كبار قادة العبيديين إلى أن توفي بالقاهرة ٣٨١هـ.

فأعيدوا الحجر وعليكم بالتعمية عما تريدون وعدم إظهار معاداة الإسلام.

ومات الحسن الأصمّ عام ٣٦٦هـ، وقام على أمر القرامطة من بعده ابن عمه جعفر، وبدأ وضع القرامطة يضعف تدريجياً ولولا تسلّط الأدعياء على ديار الخلافة لانتهى أمرهم منذ منتصف القرن الرابع الهجري غير أن البويهيين لم يكونوا ليدافعوا عن الخلافة الإسلامية كما أن هناك صلات بينهم وبين القرامطة، وكذا كان السامانيون، وللعبيديين أصلهم اليهودي، والحمدانيون أتباع لما يدّعيه أولئك ويظهرونه بألسنتهم، وهذا ما أبقى القرامطة على الساحة فلما قضى السلاجقة على البويهيين سنة ٤٤٧هـ، انتهى الدعم المعنوي الذي يحصل عليه القرامطة، وهذا ما شجّع عبد الله بن علي العيوني على الحركة والعمل ضد القرامطة فاستعان بالخليفة العباسي القائم بأمر الله (عبد الله بن أحمد القادر بالله ٤٢٢ ـ ٤٦٧هـ) وقد وجد تجاوباً في نفسه لما يعلمه من أعمال القرامطة وتاريخهم الحافل بالفساد ولما يعرفه عن عقيدتهم، كما استعان بالسلطان السلجوقي «ملكشاه» الذي وجد عنده التجاوب نفسه ـ بل كان هذا ضمن مخططه ـ وجاءت القوات العباسية وساعدت عبد الله بن علي العيوني وقضت على القرامطة نهائياً سنة ٤٦٧هـ، وزالوا ـ والله الحمد ـ.

الأندلس

توفي الأمير الأموي السابع بالأندلس عبد الله بن محمد سنة ٣٠٠هـ وخلفه حفيده عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الله[1]، وتمكّن الأمير عبد الرحمٰن أن يقضي على عمر بن حفصون[2] المرتد وذلك سنة ٣٠٥هـ، وأخضع الأندلس كلها لحكمه.

---

(١) عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الله، أبو المطرف المرواني الأموي: أول من تلقب بالخلافة من رجال الدولة الأموية في الأندلس.

ولد في قرطبة سنة ٢٧٧هـ، وقُتل أبوه وعمره واحد وعشرون يوماً، قتله أخوه المطرّف بن عبد الله حسداً، فربّاه جده عبد الله وأولاه عنايةً خاصةً، وعندما شبّ جعله جده أميناً على بعض أعماله.

وكان يسند إليه بعض المهام التي تؤهّله ليحكم الأندلس من بعده، وفعلاً تولى أمر الأندلس بعد وفاة جده سنة ٣٠٠هـ.

(٢) عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن شتيم بن دميان بن فرغلوش بن إذفونش: نشأ على الإسلام، وكان أول من أسلم من جدوده جعفر بن شتيم.

ثار عمر بن حفصون سنة ٢٧٠هـ، على الأمير محمد بن عبد الرحمٰن الثاني وقوي أمره، وأظهر النصرانية سنة ٢٨٦هـ، وكان من قبل يكتمها، ويظهر الطاعة إذا ظهر له ضعف في قوته، ثم لا يلبث أن يتمرّد حتى هلك سنة ٣٠٥هـ، وأراح المسلمين من شرّه.

(١) عبد الرحمٰن ١٣٨ ـ ١٧٢هـ.

(٢) هشام الأول «الرضى» ١٧٢ ـ ١٨٠هـ.

(٣) الحكم الأول «الربضي» ١٨٠ ـ ٢٠٦هـ.

(٤) عبد الرحمٰن «الثاني» ٢٠٦ ـ ٢٣٨هـ.

(٥) محمد «الأول» ٢٣٨ ـ ٢٧٣هـ.

(٦) المنذر ٢٧٣ ـ ٢٧٥هـ.

(٧) عبد الله ٢٧٥ ـ ٣٠٠هـ.

محمد توفي ٢٧٧هـ.

(٨) عبد الرحمٰن «الثالث» الناصر لدين الله
٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ.

(٩) الحكم «الثاني» المستنصر بالله
٣٥٠ ـ ٣٦٦هـ.

(١٠) هشام «الثاني» المؤيد بالله
٣٦٦ ـ ٣٩٩هـ.
٤٠٠ ـ ٤٠٣هـ.

ومن المعلوم أنه لا يصحّ قيام سوى خليفةٍ واحدٍ في ديار الإسلام، ولكن رأى عبد الرحمٰن الثالث الأموي تحكّم القادة العسكريين من الترك بالخلفاء العباسيين، واستبدادهم بالأمر دونهم، وقتلهم أحياناً. كما أن عبيد الله (المهدي) العبيدي قد أعلن نفسه خليفةً مع أنه جسم غريب عن المسلمين، وهذا ما شجّع عبد الرحمٰن الأموي في قرطبة أن يُعلن نفسه خليفةً وتلقّب بـ«الناصر لدين الله»، وهكذا أصبح ثلاثة خلفاء في ديار الإسلام: الخليفة العباسي في بغداد، والخليفة الأموي في قرطبة، والخليفة العبيدي في المهدية التي بناها سنة ٣٠٣هـ ببلاد تونس اليوم، وهو دعيّ.

وقد قاتل عبد الرحمٰن الناصر الإمارات النصرانية في شمالي الأندلس، وانتصر عليها في كثيرٍ من المعارك، كما تعرّض للخطر العبيدي الجاثم في بلاد المغرب من جهة الجنوب. وقد ازدهرت الخلافة الأموية بالأندلس في عهده ازدهاراً كبيراً، وبقي بالحكم حتى توفي سنة ٣٥٠هـ، أي أن حكمه قد دام خمسين سنةً. وكان قد بنى مدينة «سالم» عام ٣٣٥هـ، وتقع شمال شرقي مدينة مدريد وعلى بُعد مائةٍ وخمسةٍ وثلاثين كيلاً منها، كما بنى مدينة «المرية» على ساحل البحر المتوسط لتكون قاعدةً للأسطول الأندلسي وذلك سنة ٣٤٤هـ.

وتولّى أمر الأندلس بعد عبد الرحمٰن الناصر ولده الحَكَم الثاني الذي تلقّب باسم «المستنصر بالله» واستمرّ حكمه حتى سنة ٣٦٦هـ، وكانت أيامه هادئةً، والبلاد مستقرةً على أسسٍ ثابتةٍ ازدهرت فيها العلوم، ونعمت بالعمران. وكان المستنصر بالله ميّالاً للسلم فاستغلّ النصارى في الشمال هذه النقطة، وظنّوا فيه ضعفاً فأخذوا بالهجوم على أطراف البلاد فجهّز جيشاً قوياً قاده بنفسه لتأديب النصارى المعتدين فردّهم على أعقابهم خاسرين، وأمن حدود بلاده.

وفي عهد المستنصر بالله الحكم بن عبد الرحمٰن الناصر هاجم النورمان الأندلس، وهم من شمالي أوربا ولا يزالون على الوثنية، وأُطلق عليهم اسم «المجوس» وقد أغاروا على عدة مناطق. وقد استقرّ بعضهم في شمال غربي فرنسا بعد الغارة على تلك الجهات، وأخذت تلك المنطقة اسمهم «نورماندي»، وتشير المصادر إلى أن أصلهم من جهات الدانمارك، وأقام بعضهم في جنوبي إيطالية، واستعملتهم الكنيسة للهجوم على المسلمين فدخلوا جزيرة صقلية فيما بعد.

وتعرّضت سواحل المحيط الأطلسي لغارات هؤلاء النورمان، وتركّزت غاراتهم على منطقة «لشبونة» وذلك سنة ٣٥٥هـ وسنة ٣٦١هـ، كما تعرّضت سواحل

الأندلس الشرقية المشرفة على البحر المتوسط لهجمات المغيرين النورمان أنفسهم سنة ٣٥٤هـ وسنة ٣٦٠هـ، وتركّزت غاراتهم على ميناء «المرية».

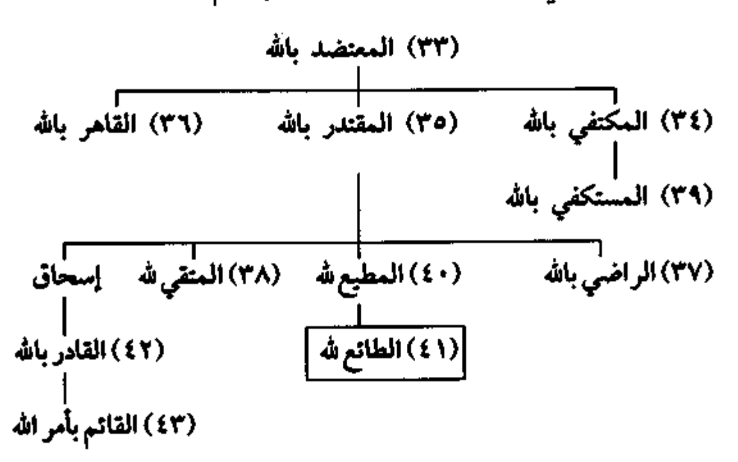
ويمكن أن نضيف أن المسلمين قد أسسوا لهم دولةً شمال مدينة «مرسيليا» الفرنسية في منطقة البروفانس امتدت من ساحل البحر إلى سويسرة وشملت: جنوب شرقي فرنسا، وشمالي إيطالية، وجزءاً من سويسرة، وعرفت باسم دولة «القِلال»، ودامت أيامها من سنة ٢٧٧ ـ ٣٦٥هـ، وظنّ الأوربيون أن هذه الدولة ذات صلةٍ بالمسلمين في الأندلس لذا فقد انطلقت سفاراتهم إلى قرطبة لبحث شأن هذه الدولة، ولم يكن لأهل الأندلس علاقة بها سوى الأخوة بالإسلام.

الفصل الثاني

٤١ - الطائع لله

٣٦٣ - ٣٨١هـ

الطائع لله هو أبو بكر عبد الكريم بن الفضل المطيع بن جعفر المقتدر بن أحمد المعتضد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس عمّ رسول الله ﷺ.



الطائع لله قبل الخلافة:

ولد عبد الكريم الطائع لله سنة ٣١٥هـ في أيام خلافة جده جعفر المقتدر، وأم عبد الكريم أم ولد تدعى «غيث» وقيل: «هزار». ونشأ عبد الكريم في بيت الخلافة كابنٍ للخليفة دون أن يكون له ذكر، ذاك أن أباه الخليفة المطيع نفسه لم يكن له شأن حيث كان صورةً فقط، وشؤون الخلافة كلها بيد بني بويه.

خلافة الطائع لله:

أُصيب الخليفة المطيع لله بفالجٍ في لسانه سنة ٣٦٣هـ فثقُل لسانه وصعُب عليه الكلام. ووقعت فتنة بالأهواز بين الديلم والأتراك ثم عمّت العراق كله، وكان سبب ذلك أن عزّ الدولة بختيار البويهي قلّت عنده الأموال وكثر دلال جنده عليه، واطراحهم لجانبه، وشغبهم عليه فتعذّر عليه القرار، ولم يجد ديوانه ولا وزيره جهةً يحتال منها بشيءٍ وتوجّهوا إلى الموصل لهذا السبب، ودخل بختيار الموصل ولكن لم يحصل على ما يرغب من الأموال وذلك لأن أبا تغلب بن ناصر الدولة الحمداني كان قد سار عن الموصل لما قرب منه بختيار وأخلاها من كل مالٍ بل وأخذ معه كاتب الديوان، لذا لم يظفر بختيار بحاجته، فرأى أن يتوجّه إلى الأهواز

ويتعرّض لـ «يختكين أزاذرويه» متولّي الأهواز ويعمل له حجةً يأخذ منه مالاً ومن غيره، فسار بختيار وعسكره وتخلّف عنه حاجبه سبكتكين التركي، فلما وصلوا إلى الأهواز خدم متوليها «يختكين أزاذرويه» عزّ الدولة بختيار وحمل له أموالاً جليلة المقدار، وبذل له من نفسه الطاعة وبختيار يُفكّر في طريق يأخذه بها، فاتفق أن جرت فتنة بين الأتراك والديلم، وكان سببها أن بعض الديلم نزل داراً بالأهواز ونزل قريباً منه بعض الأتراك، وكان هناك لَبِن موضوع فأراد غلام الديلمي أن يبني منه معلفاً للدواب فمنعه غلام التركي فتضاربا وخرج كل واحدٍ من التركي والديلمي إلى نصرة غلامه، فضعف التركي عنه فركب واستنصر بالأتراك فركبوا وركب الديلم فأخذوا السلاح فقتل بينهم أحد القادة الأتراك، فطلب الأتراك بثأر صاحبهم، وقتلوا به من الديلم قائداً أيضاً، وخرجوا إلى ظاهر البلد، واجتهد عز الدولة بختيار في تسكين الفتنة فلم يمكنه ذلك لعدم الصدق في النية والعزيمة، إذ هو يرغب بذلك، وقويت الديلم على الترك بسبب أن الملك فيهم حيث يُعدّ بنو بويه منهم لأنهم عاشوا بينهم مدةً ـ وهم من الفرس ـ وهم يريدون أن يُنسبوا إليهم حسب المخطط المرسوم، لذا يعدّون أنفسهم منهم، ويظهرون فخراً بذلك.

استشار عزّ الدولة بختيار الديلم فيما يفعل ـ وقد سنحت الفرصة ـ وكان أُذناً يتبع كل قائلٍ، فأشاروا عليه بالقبض على رؤساء الأتراك لتصفو له البلاد، فأحضروا «يختكين آزاذرويه» وكاتبه «سهل بن بشر» و«سباشي الخوارزمي بكتنجور» ـ وكان حما سبكتكين ـ فحضروا فاعتقلهم وقيّدهم، وأطلق الديلم في الأتراك، فنهبوا أموالهم ودوابهم، وقُتل بينهم قتلى وهرب الأتراك، واستولى بختيار على إقطاع سبكتكين فأخذه، وأمر فنودي بالبصرة بإباحة دم الأتراك.

تألم عزّ الدولة بختيار البويهي من هذا كثيراً، وعدّه تطاولاً من الترك على أهله وهو سيّد ديار الخلافة كلها، ورأى أن الترك إنما يتطاولون باسم حاجبه سبكتكين إذ هو من الترك فأراد الإيقاع به فهو ذو مكانةٍ وقوةٍ وأعوانه ذوو بأسٍ فلا بدّ من الحيلة.

تواطأ عز الدولة بختيار مع والدته وإخوانه أنه إذا كتب إليهم بالقبض على الأتراك يظهرون أن بختيار قد مات ويجلسون للعزاء فإذا حضر سبكتكين عندهم قبضوا عليه فإنه ركن الأتراك ورأسهم. فلما قبض بختيار على الأتراك في الأهواز والبصرة كتب إلى أهله يعرفهم ذلك، فلما وصلت الكتب إلى أهله وقع الصراخ في

داره، وأشاعوا موته ظنّاً منهم أن سبكتكين يحضر عندهم ساعة يبلغه الخبر، فلما سمع الصراخ أرسل يسأل عن الخبر فأعلموه فأرسل يسأل عن الذي أخبرهم وكيف أتاهم الخبر؟ فلم يجد نقلاً يثق القلب به، فارتاب بذلك، ثم أوصل إليه رسله الأتراك بما جرى، فعلم أن ذلك كان مكيدةً عليه، ودعاه الأتراك إلى أن يكون أميراً عليهم، فتوقّف، وأرسل إلى أبي إسحاق بن معزّ الدولة يعلمه أن الحال قد فسدت بينه وبين أخيه فلا يرجى صلاحها، وأنه لا يرى العدول عن طاعة مواليه وإن أساؤوا إليه، ويدعوه إلى أن يعقد الأمر له، فعرض الأمر على والدته فمنعته، فلما رأى سبكتكين ذلك ركب في الأتراك وحصر دار بختيار يومين ثم دخلها وأخذ أبا إسحاق وأبا طاهر ابني معز الدولة ووالدتهما ومن كان معهم، فسألوه أن يُمكّنهم من الانحدار إلى واسط ففعل، وكان قد عزم على إرسال الخليفة المطيع لله معهم، فتوسّل إليه الخليفة فعفا عنه وأقرّه بداره وذلك في التاسع من شهر ذي القعدة سنة ٣٦٣هـ.

استولى سبكتكين على جميع ما كان لعز الدولة بختيار في بغداد، ونزل الأتراك في دور الديلم وتتبّعوا أموالهم وأخذوها، وثارت العامة ينصرون سبكتكين لأنه

من أهل السنّة، وثاروا على أعوان بختيار وأحرقوا حيّ «الكرخ».

وفي الثالث عشر من شهر ذي القعدة سنة ٣٦٣هـ دعا سبكتكين الخليفة المطيع لله أن يخلع نفسه من الخلافة ويسلّمها لولده الطائع لله عبد الكريم، فأجاب إلى ذلك، فعقدت البيعة للطائع بدار الخلافة على يد الحاجب سبكتكين، وخُلع أبوه المطيع بعد تسعٍ وعشرين سنةً وخمسة أشهرٍ غير تسعة أيامٍ، وبقي بعد عزله مدة شهرين ونصف، ويُعرف بالشيخ الفاضل إذ توفي في شهر المحرم سنة ٣٦٤هـ.

وتولّى الخلافة الطائع لله عبد الكريم، ولم يلِ الخلافة من اسمه عبد الكريم سواه، ولا من كنيته أبو بكر سواه، وسوى أبي بكر الصديق، ﷺ، ولم يلِ الخلافة وأبوه حيّ سواه، ولم يلِ الخلافة من بني العباس أسنّ منه، لما كان عمره لما تولّى الخلافة ثماني وأربعين سنةً، وكانت أمه تعيش يوم ولي الخلافة، ولما ولي ركب وعليه البُردة، وبين يديه سبكتكين والجيش، ثم خلع من الغد على سبكتكين خلع الملوك، ولقبّه ناصر الدولة، وعقد له الإمارة. ولما كان يوم عيد الأضحى ركب الطائع لله وعليه السواد، فخطب الناس بعد الصلاة خطبةً خفيفةً حسنةً.

الإمارات

بقيت الإمارات التي كانت في أواخر عهد المطيع لله كما هي في أيام ولده الطائع لله، وهي:

أولاً: البويهيون:

لما فعل عز الدولة بختيار البويهي بالأهواز من القبض على رؤوس الأتراك ظفر بذخيرة متولي الأهواز «بختكين آزاذرويه» بمدينة جند يسابور فأخذها، ثم رأى ما فعله الأتراك مع سبكتكين في بغداد بالسيطرة عليها، وإبعاد أهل بختيار إلى واسط، كما أن بعضهم بسواد الأهواز قد عصوا عليه، كما اضطرب عليه غلمانه الذين في داره. وأتاه رؤوس الأتراك في البصرة فعاتبوه على ما فعل بهم، وقال له عقلاء الديلم: لا بدّ لنا في الحرب من الأتراك يدفعون عنا النشّاب فاضطرب رأي بختيار، وهو مقيم بالأهواز لا يستطيع دخول بغداد.

ظنّ عز الدولة بختيار أن الأتراك يأنسون به إن أحسن إليهم، ويعدلون عن سبكتكين إليه، فأطلق «يختكين آزاذرويه» متولّي الأهواز سابقاً، وجعله صاحب الجيش مكان سبكتكين، وأطلق المعتقلين من رؤوس الأتراك، وسار إلى والدته وإخوانه بواسط،

وكتب إلى عمه ركن الدولة الحسن بن بويه[1] وإلى ابن عمه عضد الدولة يسألهما أن ينجداه ويكشفا ما نزل به، وطلب إلى أبي تغلب الحمداني أن يساعده بنفسه وأنه إذا فعل ذلك أسقط عنه المال الذي عليه، وأرسل إلى عمران بن شاهين[2] بالبطيحة[3] خلعاً وأسقط عنه باقي

---

(١) ركن الدولة الحسن بن بويه: ولد سنة ٢٨٤هـ، صاحب الريّ وأصبهان وهمدان، استوزر أبا الفضل بن العميد ثم ابنه أبا الفتح، استمرّ في ملكه ٤٤سنة وشهراً، وتسعة أيام، وهو والد: عضد الدولة (فناخسرو)، ومؤيد الدولة (بويه)، وفخر الدولة (عليّ)، وتوفي ركن الدولة سنة ٣٦٦هـ بمدينة الريّ.

(٢) عمران بن شاهين: أصله من بلدة «جامدة» من أعمال واسط، مجهول النسب، نشأ في منطقة سواد العراق، وينتسب إلى بني سُليم. كان عليه دم فهرب إلى البطائح، فاحتمى بالآجام يتصيّد السمك والطير، ورافقه الصيادون، والتفّ حوله اللصوص، فكثر جمعه، واستفحل أمره، فأنشأ معاقل وتمكّن وعجزت عنه إمارة واسط، واستولى على الجامدة وامتدّ سلطانه إلى البطائح، فجهّز له معز الدولة جيشاً سنة ٣٣٨هـ فهزمه عمران، وجرت بينه وبين معز الدولة معارك انتهت بالصلح على أن تكون إمارة البطيحة لعمران، وحاول معز الدولة وابنه بعده أن يُخضعاه، فضعفا، واستمّر أميراً منيع الجانب مدة أربعين سنةً من بدء خروجه، ومات على فراشه سنة ٣٦٩هـ، وتوارث بنوه الإمارة من بعده، ولم تطل مدتها.

(٣) البطيحة: وجمعها البطائح، والبطيحة والبطحاء واحد. وتبطّح السيل إذا اتسع في الأرض وسالت مياهه، والبطيحة هنا أرض=

المال الذي اصطلحا عليه، وخطب إليه إحدى بناته، وطلب منه أن يُسيّر إليه عسكراً. فأما عمه ركن الدولة فإنه جهّز عسكراً مع وزيره أبي الفتح بن العميد[1] وكتب إلى ابنه عضد الدولة يأمره بالمسير إلى ابن عمه والاجتماع مع ابن العميد، وأما عضد الدولة فإنه وعد بالمسير وانتظر بـ «بختيار» الدوائر طمعاً في ملك العراق، وأما عمران بن شاهين فإنه قال: أما إسقاط المال فنحن نعلم أنه لا أصل له وقد قبلته، وأما الوصله فإني لا أتزوج أحداً إلا أن تكون التسمية والتعيين من عندي، وقد خطب إليّ العلويون، وهم موالينا فما أجبتهم إلى ذلك، وأما الخلع والفرس فإني لست ممن يلبس ملبوسكم وقد قبلها ابني، وأما إنفاذ عسكر فإن

= واسعة بين البصرة وواسط.

(١) أبو الفتح بن العميد: علي بن محمد بن الحسين: وزير، من الكتاب الشعراء الأذكياء، ولد سنة ٣٣٧هـ، وهو ابن أبي الفضل بن العميد الوزير العالي الشهرة المتوفىٰ سنة ٣٦٠هـ. خلف أبو الفتح أباه في وزارة ركن الدولة البويهي بالريّ ونواحيها سنة ٣٦٠هـ ولقّبه الخليفة الطائع لله بـ (ذي الكفاتين) السيف والقلم، واستمرّ إلى أيام مؤيد الدولة بن ركن الدولة، وأحبته القواد وعساكر الديلم لكرمه وطيب أخلاقه، فخاف آل بويه العاقبة فقبض عليه مؤيد الدولة وعذّبه ثم قتله سنة ٣٦٦هـ.

رجالي لا يسكنون إليكم لكثرة ما قتلوا منكم، ثم ذكر ما عامله به هو وأبوه مرةً بعد أخرى، وقال: ومع هذا فلا بد أن يحتاج إلى أن يدخل بيتي مستجيراً بي والله لأعاملنّه بضدّ ما عاملني به هو وأبوه فكان كذلك، وأما أبو تغلب بن ناصر الدولة الحمداني فإنه أجاب إلى المسارعة وأنفذ أخاه أبا عبد الله الحسين بن ناصر الدولة بن حمدان إلى تكريت في عسكرٍ وانتظر خروج الأتراك عن بغداد نحو بختيار فإن ظفروا به دخل بغداد مالكاً لها.

فلما غادر الأتراك بغداد باتجاه بختيار في واسط سار أبو تغلب إلى بغداد ليوجب على بختيار الحجة في إسقاط المال الذي عليه، ووصل إلى بغداد والناس في بلاءٍ عظيمٍ مع أهل الفوضى واللصوص فحمى البلد وكفّ أهل الفساد. وأما الأتراك فإنهم عندما اتجهوا إلى واسط مع سبكتكين قد أخذوا معهم الخليفة الطائع لله، والمطيع أيضاً، وهو مخلوع، فلما وصلوا إلى دار العاقول توفي بها المطيع لله، ومرض سبكتكين فمات بها أيضاً فحملا إلى بغداد. وأمّر الأتراك عليهم «ألفتكين» وهو من أكابر قوادهم وموالي معز الدولة البويهي. وفرح بختيار بموت

سبكتكين[1] وظنّ أن أمر الأتراك ينحلّ وسيتفرّقون، فلما رأى انتظام أمورهم ساءه ذلك.

سار الأتراك إلى بختيار في واسط، ونزلوا قريباً منها، وصاروا يقاتلونه، وينتصرون عليه، وحاصروه واشتدّ عليه الحصار وأحدقوا به، وصار خائفاً يترقّب، وتابع إنفاذ الرسل إلى ابن عمه عضد الدولة يحثّه على الإسراع بنجدته. فلما رأى عضد الدولة ذلك وأن الأمر قد بلغ ببختيار ما كان يرجوه سار نحو العراق نجدةً له في الظاهر وباطنه عكس ذلك إذ يريد مُلك بغداد.

سار عضد الدولة إلى بختيار عز الدولة في عساكر

---

(١) سبكتكين: هو الحاجب التركي، مولى معز الدولة البويهي وحاجبه. وقد ترقّى في المراتب حتى آل به الأمر إلى أن قلّده الخليفة الطائع لله الإمارة، وخلع عليه، وأعطاه اللواء، ولقّبه «نور الدولة» وكانت مدته في هذا المقام شهرين وثلاثة عشر يوماً. وتوفي لسبعةٍ بقين من شهر المحرم سنة ٣٦٤هـ. ودُفن ببغداد. وسبق له أن سقط مرةً عن فرسه فانكسر صُلبه، فداواه الطبيب حتى استقام ظهره وقدر على الصلاة لكنه لا يستطيع الركوع فأعطاه كثيراً من الأموال، وكان يقول للطبيب: إذا ذكرت وجعي ومداواتك لي لا أقدر على مكافأتك، ولكن إذا تذكرت وضع قدميك على ظهري اشتدّ غضبي منك. وقد خلّف أموالاً ضخمةً، وثلاثة آلاف فرسٍ، وألف جملٍ، وثلاثمائة غلامٍ، وأربعين خادماً.

فارس واجتمع به أبو الفتح بن العميد وزير أبيه ركن الدولة في عساكر الريّ بالأهواز، وساروا إلى واسط، فلما سمع ألفتكين بخبر وصولهم رجع إلى بغداد وعزم على أن يجعلها وراء ظهره ويقاتل على «ديالي»، ووصل عضد الدولة واجتمع به عز الدولة بختيار، وسار عضد الدولة إلى بغداد في الجانب الشرقي وأمر عز الدولة بختيار أن يسير في الجانب الغربي.

ولما بلغ الخبر إلى أبي تغلب الحمداني بقرب «ألفتكين» منه عاد عن بغداد إلى الموصل لأن أصحابه شغبوا عليه فلم يمكنه المقام. ووصل ألفتكين إلى بغداد فوجد نفسه محصوراً من الجهات جميعها، وذلك لأن عز الدولة بختيار كتب إلى ضبة بن محمد الأسدي وهو من أهل عين التمر فأمره بالإغارة على أطراف بغداد وبقطع التموين عنها، وكتب بمثل ذلك إلى بني شيبان، وكان أبو تغلب بن ناصر الدولة الحمداني من ناحية الموصل يمنع التموين وينفذ سراياه، فارتفعت الأسعار ببغداد، وظهر المفسدون فنهبوا الناس ببغداد، وامتنع الناس عن التزوّد خوفاً من الفتنة و. . . وكبس ألفتكين المنازل في طلب الطعام.

استيلاء عضد الدولة على بغداد:

سار عضد الدولة نحو بغداد فلقيه ألفتكين والأتراك بين ديالي والمدائن فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم الأتراك وقُتل منهم خلق كثير، ووصلوا إلى ديالي فعبروا على جسورٍ كانوا قد عملوها عليه فغرق كثير منهم من الازدحام، كما غرق من المفسدين الذين ساعدوهم من بغداد، واستباحوا عسكرهم، وكانت الوقعة في الرابع عشر من شهر جمادى الأولى سنة ٣٦٤هـ. وسار الأتراك إلى تكريت، وسار عضد الدولة فنزل بظاهر بغداد، فلما علم بوصول الأتراك إلى تكريت دخل بغداد ونزل بدار المملكة. وكان الأتراك قد أخذوا الخليفة الطائع لله معهم كارهاً. فسعى عضد الدولة وعمل على ردّه إلى بغداد فدخلها في الثامن من رجب سنة ٣٦٤هـ في زورقٍ نهريٍ، وخرج عضد الدولة فلقيه بالنهر أيضاً، وامتلأ نهر دجلة بالزوارق وكادت بغداد تخلو من الناس.

سار عضد الدولة مع الخليفة وأنزله بدار الخلافة. وكان عضد الدولة قد طمع بالعراق، واستضعف ابن عمه عزّ الدولة بختيار، وإنما خاف أباه ركن الدول فحرّض جند بختيار على أن يثوروا به ويشغبوا عليه

ويطالبوه بأموالهم والإحسان إليهم لأجل صبرهم، فقابل الأتراك ففعلوا ذلك وبالغوا، وكان بختيار لا يملك قليلاً ولا كثيراً، وقد نُهب بعض ذلك وأخرج هو الباقي والبلاد خراب فلا تصل يده إلى أخذ شيءٍ منها، وأشار عضد الدولة على بختيار بترك الالتفات إليهم والغلظة لهم وعليهم، وأن لا يعدهم بما لا يقدر عليه، ويُعرّفهم أنه لا يريد الإمارة والرياسة عليهم، ووعده أنه إذا فعل ذلك توسّط الحال بينهم على ما يريده، فظنّ بختيار أنه ناصح له مشفق عليه، ففعل ذلك واستعفى من الإمارة، وأغلق باب داره وصرف كُتّابه وحُجّابه، فراسله عضد الدولة ظاهراً بمحضر من مقدمي الجند يشير عليه بمقاربتهم وتطييب قلوبهم، وكان أوصاه سراً أن لا يقبل منه ذلك، فعمل بختيار بما أوصاه، وقال: لست أميراً لهم ولا بيني وبينهم معاملة، وقد برئت منهم، فترددت الرسل بينهم ثلاثة أيامٍ، وعضد الدولة يُغريهم به، ويزيد الشغب.

أرسل بختيار إلى عضد الدولة يطلب منه إنجاز ما وعده به ففرّق الجند على عدة جهاتٍ، واستدعى بختيار وإخوته إليه فقبض عليهم، ووكّل بهم، وجمع الناس وأعلمهم استعفاء بختيار عن الإمارة عجزاً عنها، ووعدهم الإحسان والنظر في أمورهم، فسكنوا إلى

قوله، وكان قبضه على بختيار في السادس والعشرين من جمادى الآخرة، وكان الخليفة الطائع لله نافراً عن بختيار لأنه كان مع الأتراك في حروبهم، فلما بلغه القبض عليه سرّه ذلك، وعاد إلى عضد الدولة، فأظهر عضد الدولة من تعظيم الخلافة ما كان قد نُسي وتُرك، وأمر بعمارة الدار، وعمارة ما يتعلق بالخليفة وحماية إقطاعه، ولما دخل الخليفة إلى بغداد ودخل دار الخلافة أنفذ إليه عضد الدولة مالاً كثيراً وغيره من الأمتعة والفرش.

عودة عز الدولة:

لما قُبض على عزّ الدولة بختيار كان ولده المرزبان بالبصرة متولّياً لها، فلما قُبض على والده امتنع فيها على عضد الدولة، وكتب إلى ركن الدولة يشكو ما جرى على والده وعميه من عضد الدولة ومن أبي الفتح بن العميد، ويذكر له الحيلة التي تمت عليه، فلما سمع ركن الدولة ذلك ألقى نفسه عن سريره إلى الأرض وتمّرغ عليها، وامتنع عن الأكل والشرب عدة أيامٍ، ومرض مرضاً لم يستقل منه باقي حياته ذلك أن ابنه قد أعماه الطمع وأغواه الملك عن مستقبل شعبٍ وعقيدته وتخاطر جماعة من أجل ذلك.

كان محمد بن بقية بعد عز الدولة بختيار قد خدم عضد الدولة وضمن منه مدينة واسط وأعمالها فلما وصل إليها خلع طاعة عضد الدولة وخالفه وأظهر الامتعاض للقبض على بختيار، وكاتب عمران بن شاهين، وطلب مساعدته، وحذّره مكر عضد الدولة فأجابه عمران إلى ما التمس، وكان عضد الدولة قد ضمّن سهل بن بشر وزير «ألفتكين» بلد الأهواز وأخرجه من سجن بختيار، فكاتبه محمد بن بقية واستماله فأجابه. فلما عصى محمد بن بقية أنفذ إليه عضد الدولة جيشاً قوياً فخرج إليهم ابن بقية في الماء ومعه عسكر قد سيّره إليه عمران بن شاهين فانهزم أصحاب عضد الدولة أقبح هزيمةٍ، وكاتب ركن الدولة بحاله وحال بختيار، فكتب ركن الدولة إليه وإلى المرزبان ولد بختيار وإلى غيرهما ممن احتمى لبختيار يأمرهم بالثبات والصبر ويعرّفهم أنه على المسير إلى العراق لإخراج عضد الدولة وإعادة بختيار عز الدولة فاضطربت النواحي على عضد الدولة وتجاسر عليه الأعداء حيث علموا إنكار أبيه عليه، وانقطعت عنه الوسائل والسبل ولم يبق بيده إلا قصبة بغداد، وطمع فيه العامة، وأشرف على ما يكره، فرأى إنفاذ أبي الفتح بن العميد برسالة إلى أبيه يُعرّفه ما جرى له، وما فرّق من الأموال، وضعف

بختيار عن حفظ البلاد، وأنه إن أعيد إلى حاله خرجت المملكة والخلافة عنهم وكان بوارهم، ويسأله ترك نصرة بختيار، وقال لأبي الفتح: فإن أجاب إلى ما تريد منه وإلا فقل له إنني أضمن منك أعمال العراق وأحمل إليك منها كل سنةٍ ثلاثين ألف ألف درهمٍ، وأبعث إليك بختيار وأخويه لتجعلهم بالخيار فإن اختاروا أقاموا عندك وإن اختاروا بعض بلاد فارس سلّمته إليهم ووسعت عليهم، وإن أحببت أنت أن تحضر إلى العراق لتلي تدبير الخلافة وتنفذ بختيار إلى الريّ وأعود أنا إلى فارس فالأمر إليك، وقال لابن العميد: فإن أجاب إلى ما ذكرت له وإلا فقل له: أيها السيد الوالد أنت مقبول الحكم والقول ولكن لا سبيل إلى إطلاق هؤلاء القوم بعد مكاشفتهم وإظهار العداوة وسيقاتلونني بغاية ما يقدرون عليه، فتتفرّق الكلمة ويختلف أهل هذا البيت أبداً، فإن قبلت ما ذكرت فأنا العبد الطائع، وإن أبيت وحكمت بانصرافي فإني سأقتل بختيار وأخويه وأقبض على كل من أتهمه بالميل إليهم وأخرج عن العراق وأترك البلاد سائبةً ليدبّرها من اتفقت له، فخاف ابن العميد أن يسير بهذه الرسالة، وأشار أن يسير بها غيره، ويسير هو بعد ذلك ويكون كالمشير على ركن الدولة بإجابته إلى ما طلب، فأرسل عضد الدولة رسولاً بهذه

الرسالة وسيّر بعده ابن العميد، فلما حضر الرسول عند ركن الدولة وذكر بعض الرسالة وثب إليه ليقتله فهرب من بين يديه، ثم ردّه بعد أن سكن غضبه، وقال: قل لفلان ـ يعني عضد الله وسمّاه بغير اسمه وشتمه ـ خرجت لنصرة ابن أخي للطمع في مملكته، أما عرفت أني نصرت الحسن بن الفيرزان ـ وهو غريب عني ـ مراراً كثيرةً أخاطر فيها بملكي ونفسي فإذا ظفرت أعدت له بلاده ولم أقبل منه ما قيمته درهم واحد، ثم نصرت إبراهيم بن المرزبان، وأعدته إلى أذربيجان، وبعثت وزيري وعساكري في نصرته ولم آخذ منه درهماً واحداً كل ذلك طلباً لحسن الذكر ومحافظةً على الفتوة و تريد أن تُمنّ أنت عليّ بدرهمين أنفقتهما أنت عليّ وعلى أولاد أخي ثم تطمع في ممالكهم وتُهدّدني بقتلهم، فعاد الرسول ووصل ابن العميد فحجبه عنه ولم يسمع حديثه، وتهدّده بالهلاك، وأنفذ إليه يقول له: لأتركنّك وذلك الفاعل ـ يعني عضد الدولة ـ تجهدان جهدكم ثم لأقاتلنّكما بأقرب الناس إليكما، وكان ركن الدولة يقول: إنني أرى أخي معزّ الدولة كل ليلةٍ في المنام يعضّ على أنامله، ويقول: يا أخي هكذا ضمنت لي أن تخلفني في أهلي وولدي.

وكان ركن الدولة يحبّ أخاه معز الدولة محبةً شديدةً لأنه ربّاه فكان عنده بمنزلة الولد، ثم إن الناس سعوا لابن العميد، وتوسّطوا بينه وبين ركن الدولة، وقالوا: إنما تحمّل ابن العميد هذه الرسالة ليجعلها طريقاً للخلاص من عضد الدولة والوصول إليك لتأمر بما تراه، فأذن له بالحضور عنده فاجتمع به وضمن له إعادة عضد الدولة إلى فارس، وإقرار بختيار بالعراق فردّه إلى عضد الدولة وعرّفه جلية الأمر، فلما رأى عضد الدولة انحراف الأمور عليه من كل ناحيةٍ أجاب إلى المسير إلى فارس وإعادة بختيار، فأخرجه من محبسه، وخلع عليه وشرط عليه أن يكون نائباً عنه بالعراق ويخطب له ويجعل أخاه أبا إسحاق أمير الجيش لضعف بختيار، وردّ عليهم عضد الدولة جميع ما كان لهم، وسار إلى فارس في شهر شوال سنة ٣٦٤هـ، وأمر أبا الفتح بن العميد وزير أبيه أن يلحقه بعد ثلاثة أيامٍ، فلما سار عضد الدولة أقام ابن العميد عند بختيار يلهوان معاً واتفقا سراً على أنه إذا مات ركن الدولة سار إليه ووزر له، ووصل خبر ذلك إلى عضد الدولة فكان سبب هلاك ابن العميد. واستقرّ عز الدولة بختيار في بغداد ولم يفِ لعضد الدولة بما وعده. وثارت الفتنة بعد مسير عضد الدولة إذ استمال محمد بن بقية

الأجناد وجبى كثيراً من الأموال إلى خزائنه، وكان إذا طالبه عز الدولة بختيار بالمال وضع الجند على مطالبته فثقُل على بختيار، فاستشار في مكروهٍ يُوقعه به، فبلغ ذلك ابن بقية فعاتب عز الدولة بختيار عليه فأنكره وحلف له فاحترز ابن بقية منه.

مخالفة كرمان:

كان طاهر بن الصمة قد ضمن من عضد الدولة عدة ضمانات فاجتمع عليه أموال كثيرة فطمع فيها، وكان عضد الدولة قد سار إلى العراق وسيّر وزيره المطهر بن عبد الله إلى عُمان ليستولي عليها فخلت كرمان من العساكر، فجمع طاهر بن الصمة رجاله وغيرهم، كما أن بعض القادة الأتراك مع السامانيين واسمه يوزتمر قد وقعت جفوة بينه وبين قائد جيش السامانيين أبي الحسن محمد بن إبراهيم بن سيمجور، فكاتب طاهر بن الصمة القائد يوزتمر وأطمعه في أعمال كرمان فسار إليه واتفقا، وكان يوزتمر هو الأمير.

شغب رجال طاهر بن الصمة على يوزتمر فظنّ يوزتمر أن طاهراً وراء ذلك فاختلفا واقتتلا فظفر يوزتمر، بطاهر وأسره وظفر بأصحابه، ووصل الخبر إلى الحسين بن أبي علي بن الياس ـ وهو بخراسان ـ

فطمع في البلاد فجمع جمعاً وسار إليها فاجتمع عليه بها جموع كثيرة، ثم إن المطهر بن عبد الله استولى على عُمان وجبالها وأوقع بالخوارج فيها وعاد فوصل إليه كتاب عضد الدولة من بغداد يأمره بالمسير إلى كرمان، فسار إليها مُجدّاً، وأوقع في طريقه بأهل الفساد، ووصل إلى يوزتمر على حين غفلةٍ منه فاقتتلوا بنواحي مدينة «بام» فانهزم «يوزتمر» ودخل المدينة وحاصره المطهر في حصنٍ في وسط المدينة فطلب الأمان فأمنه فخرج إليه ومعه طاهر، فأمر المطهر بطاهر فشُهّر به ثم ضرب عنقه، وأما يوزتمر فإنه حبسه في بعض القلاع وكان آخر العهد به، وسار المطهر إلى الحسين بن الياس فرأى كثرة من معه فخاف جانبهم ولكن لم يجد من اللقاء بُدّاً فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم الحسين على أبواب إحدى المدن وانهزم عسكره فمنعهم سور المدينة من الهرب فكثُر فيهم القتل، وأُخذ الحسين أسيراً، وأُحضر عند المطهر، وانتهى خبره، وصلحت كرمان لعضد الدولة.

هلاك ركن الدولة:

بدأ مرض ركن الدولة أبي علي الحسن بن بويه حين سمع بإلقاء القبض على ابن أخيه بختيار عزّ الدولة

من قبل ابنه عضد الدولة. وكان عضد الدولة قد عاد من بغداد بعد أن أطلق ابن عمه بختيار وظهر لدى الخاص والعام غضب ركن الدولة على ابنه عضد الدولة، فخاف عضد الدولة أن يموت أبوه وهو على حال غضبه فيختلّ ملكه وتزول طاعته فأرسل إلى أبي الفتح بن العميد وزير والده يطلب منه أن يتوصل مع والده إلى الرضا، وإحضاره عنده، وأن يعهد إليه بالملك بعده، فسعى أبو الفتح في ذلك فأجابه إليه ركن الدولة، وكان قد وجد في نفسه راحةً فسار من الريّ إلى أصبهان فوصل إليها في شهر جمادى الأولى سنة ٣٦٥هـ، وأحضر ولده عضد الدولة من فارس، وجمع عنده أيضاً سائر أولاده بأصبهان فعمل أبو الفتح بن العميد دعوةً خاصةً حضرها ركن الدولة وأولاده والقواد والأجناد، فلما فرغوا من الطعام عهد ركن الدولة إلى ولده عضد الدولة بالملك بعده، وجعل لولده فخر الدولة علي أبي الحسن الإمرة على همدان وأعمال الجبل، ولولده مؤيد الدولة «بويه» أصبهان وأعمالها، وجعلهما في هذه البلاد بحكم أخيهما عضد الدولة. وخلع عضد الدولة على سائر الناس ذلك اليوم الأقبية والأكسية على زيّ الديلم، وحيّاه القواد وإخوته بالريحان على عادتهم مع ملوكهم. وأوصى ركن الدولة أولاده بالاتفاق وترك الاختلاف،

وخلع عليهم، ثم سار عن أصبهان في شهر رجب سنة ٣٦٦هـ نحو الريّ، واشتدّ مرضه إلى أن توفي، وكان عمره قد زاد على السبعين سنةً، وكانت إمارته أربعاً وأربعين سنةً.

وقبض عضد الدولة على أبي الفتح بن العميد وزير أبيه وسمل عينه الواحدة وقطع أنفه وذلك أن أبا الفتح لما كان ببغداد مع عضد الدولة وسار عضد الدولة نحو فارس وطلب من أبي الفتح بسرعة الخروج من بغداد إلى الريّ فخالفه وأقام ببغداد، واقتنى فيها دوراً وأملاكاً على نية العودة إليها إذا مات ركن الدولة، وكان يلهو مع بختيار، ثم صار يكاتب بختيار بأمورٍ يكرهها عضد الدولة، وكانت تصل إليه الأخبار بالتتابع.

فلما مات ركن الدولة، وملك عضد الدولة بعد أبيه كتب إلى أخيه فخر الدولة بالريّ يأمره بالقبض عليه وعلى أهله وأصحابه ففعل ذلك، وانتهى بيت العميد على يده.

مسير عضد الدولة إلى العراق:

كانت الأخبار تصل إلى عضد الدولة أن ابن عمه بختيار عزّ الدولة ومحمد بن بقية يستميلان أصحاب الأطراف نحوهما مثل: حسنويه الكردي، وفخر الدولة بن

ركن الدولة، وعمران بن شاهين، وأبي تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة وغيرهم، ويعملان الاتفاقات على معاداته، كما كان يصل إلى عضد الدولة ما يقولانه من الشتم القبيح له، وحسُنت العراق في نظره وعظمت مملكتها في عينه.

اتجه عز الدولة بختيار إلى واسط وقد عزم على محاربة عضد الدولة، وكان حسنويه الكردي قد وعده أن يحضر بنفسه لنصرته، وكذلك أبو تغلب الحمداني ولم يفِ له واحد منهما، ثم سار بختيار إلى الأهواز برأي محمد بن بقية. وسار عضد الدولة من فارس نحوهم فالتقوا في شهر ذي القعدة ٣٦٦هـ واقتتلوا وغدر بعض عسكر بختيار به فتركوه وانتقلوا إلى عضد الدولة فانهزم بختيار وأُخذ ماله ومال ابن بقية، ونُهبت الأثقال وغيرها، ولما وصل بختيار إلى واسط حمل إليه عمران بن شاهين صاحب البطيحة مالاً وسلاحاً وغير ذلك من الهدايا النفيسة، ودخل بختيار إليه فأكرمه وحمل إليه مالاً وأعلافاً، ثم تابع بختيار إلى واسط. وأما عضد الدولة فقد سيّر جيشاً إلى البصرة فملكها، وكان أهلها قد اختلفوا فمضر هواها مع عضد الدولة على حين أن هوى ربيعة مع بختيار، فلما هُزم بختيار

قويت مضر وضعُفت ربيعة، فكاتب رجال مضر عضد الدولة وطلبوا منه إنفاذ جيشٍ إليهم فسيّر جيشاً تسلّم البلد وأقام عندهم. وأقام بختيار بواسط وأحضر ما كان له ببغداد والبصرة من مالٍ وغيره وفرّق منه في أصحابه، ثم قبض على محمد بن بقية لأنه أطرحه واستبدّ بالأمور دونه وجبى الأموال إلى نفسه ولم يوصل إلى بختيار منها شيئاً، وأراد أيضاً التقرّب إلى عضد الدولة بقبضه لأنه هو الذي كان يفسد الأحوال بينهم، ولما قبض عليه أخذ أمواله ففرّقها، وراسل عضد الدولة بالصلح وتردّدت الرسل بذلك، وكان أصحاب بختيار يختلفون عليه فبعضهم يشير به وبعضهم ينهى عنه، ثم إنه أتاه عبد الرزاق وبدر ابنا حسنويه الكردي في نحو ألف فارسٍ معونةً له، فلما وصلا إليه أظهر المقام بواسط ومحاربة عضد الدولة، فاتصل بعضد الدولة أنه نقض الشرط، ثم بدا لبختيار المسير إلى بغداد فعاد عنه ابنا حسنويه إلى أبيهما، وأقام بختيار ببغداد. وتزوج الخليفة الطائع لله ابنة عز الدولة بختيار وانتقلت إليه في شهر جمادى الأولى سنة ٣٦٦هـ.

وسار عضد الدولة إلى واسط ثم سار منها إلى البصرة فأصلح بين مضر وربيعة وكانوا في اختلافٍ وقتال منذ مدةٍ طويلةٍ.

ثم سار عضد الدولة إلى بغداد وأرسل إلى بختيار يدعوه إلى طاعته، وأن يسير عن العراق إلى أي جهةٍ أراد وضمن مساعدته بما يحتاج إليه من مالٍ وسلاحٍ وغير ذلك فاختلف أصحاب بختيار عليه في الإجابة إلى ذلك إلا أنه أجاب إليه لضعف نفسه فأنفذ إليه عضد الدولة خلعة فلبسها، وأرسل إليه يطلب منه ابن بقية فسمل عينيه ليلة الجمعة لثلاثٍ خلون من شهر ربيع الأول سنة ٣٦٧هـ وأنفذه إليه. وتجهّز بختيار بما أنفذه إليه عضد الدولة وخرج عن بغداد عازماً على قصد الشام، وسار عضد الدولة فدخل بغداد وخُطب له بها ولم يكن قبل ذلك يُخطب لأحدٍ ببغداد، وضرب على بابه ثلاث نوباتٍ للحراسة ولم تجر بذلك عادة من تقدّمه. وأمر بأن يُلقى ابن بقية بين قوائم الفيلة لتقتله ففُعِل به ذلك وخبطته الفيلة حتى قتلته وصُلب على رأس الجسر في شهر شوال سنة ٣٦٧هـ.

مقتل عز الدولة بختيار:

لما عزم بختيار المسير إلى الشام وخرج من بغداد كان معه حمدان بن ناصر الدولة بن عبد الله بن حمدان فلما وصلا إلى «عكبرا» زيّن له حمدان قصد الموصل وكثرة أموالها وأطمعه فيها، وقال له: إنها خير من

الشام وأسهل، فسار بختيار نحو الموصل، وكان عضد الدولة قد استحلفه أنه لا يقصد ولاية أبي تغلب بن ناصر الدولة بن عبد الله بن حمدان لمودةٍ ومكاتبةٍ كانت بينهما فنكث وقصدها، فلما صار إلى «تكريت» أتته رسل أبي تغلب تسأله أن يقبض على أخيه حمدان ويُسلّمه إليه، وإذا فعل سار بنفسه وعساكره إليه وقاتل معه عضد الدولة وأعاده إلى ملكه في بغداد، فقبض بختيار على حمدان وسلّمه إلى نواب أبي تغلبٍ فحبسه في قلعةٍ له، وسار بختيار إلى «الحديثة» واجتمع مع أبي تغلب وسارا جميعاً نحو العراق، وكان مع أبي تغلب نحو من عشرين ألف مقاتلٍ، وبلغ ذلك عضد الدولة فسار من بغداد نحوهما فالتقوا بقصر الجص بنواحي تكريت في الثامن عشر من شهر شوال سنة ٣٦٧هـ فهزمهما، وأسر بختيار[1] وأحضر عند عضد الدولة فلم

---

(١) بختيار عز الدولة بن أحمد معز الدولة بن بويه، أبو منصور: ولد بالأهواز سنة ٣٣٢هـ، وتسلّم السلطان بعد أبيه سنة ٣٥٦هـ، يقال أنه كان شديد البأس يمسك الثور من قرنيه ويصرعه، وكان يلهو وله عناية بالأدب والشعر، وقُتل سنة ٣٦٧هـ، وعمره ست وثلاثون سنةً، وملك إحدى عشرة سنةً وشهوراً.

يأذن بإدخاله إليه، وأمر بقتله فقُتل وذلك بمشورة أبي الوفاء طاهر بن إبراهيم، وقُتل من أصحابه عدد كبير، واستقرّ ملك عضد الدولة بعد ذلك.

وهكذا صاحب السلطان إذا نُزع منه ملكه يطيش صوابه فلا يعرف التصرّف وينطلق وراء كل ناعقٍ يُغريه بعودة سلطانه ويُؤمله بالرجوع إلى الصدارةِ.

استيلاء عضد الدولة على ملك بني حمدان:

كان بنو بويه يرون التعاون مع كل من يُظهر عاطفةً نحو الطالبيين لأنه بالأصل كل الفرق التي تريد الهدم وكل الجماعات التي تريد الهيمنة وكل الأفراد الذين يريدون السلطان إنما يدّعون أنهم يمتّون إلى الطالبيين بصلةٍ ويجعلون لأنفسهم نسباً بذلك أو يدّعون أنهم يعملون للطالبيين، وهذا ما عُرف خلال ما مضى من التاريخ، وكان آل بويه يرون ذلك أيضاً لتقوية الفريق الذي يعادي سلطان الخلافة في إحياء ما اندثر من سلطان أرومتهم وإعادة عقيدتهم التي زالت، وهذا يدلّ على عدم محبتهم للطالبيين بل إفادة منهم لإيقاع الفتن بين المسلمين وإيجاد الخلاف وإحداث الصراع لإضعاف المسلمين وإمكانية التمكنّ منهم لتنفيذ المخطط الذي يحلمون به، ولهذا دعم البويهيون بني حمدان

وتعاونوا معهم مرحلياً، أما السامانيون والقرامطة فإنهم يلتقون معهم بالأرومة الواحدة، وأما العبيديون فإنهم يختلفون معهم إذ يعود هؤلاء إلى اليهود ويمكن القضاء عليهم بسهولةٍ عند كشف حقيقتهم ولكن تركوهم وشأنهم الآن في سبيل إضعاف الأمة الإسلامية. إذن لا يوجد سوى الحمدانيين، وهم أصحاب أهواءٍ ورغبةٍ في التسلّط، ولكن استفادوا منهم لتقوية فريقهم وتفرقة المسلمين.

فلما آل أمر بني بويه إلى عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة الحسن بن بويه ظنّ أن أمره قوياً وأن سلطانه قد غدا راسخاً ولم يعد بحاجةٍ إلى آخرين يمتطي عليهم لتحقيق بعض المراحل من المخطط بل يمكن المتابعة في تنفيذ مراميه، وكفاه صبراً على هؤلاء الأقلية الذين يظهرون الصدارة ورفعة المكانة، ما ذاك في الحقيقة إلا لسكوت البويهيين عنهم، ويضاف إلى ذلك بالنسبة إلى عضد الدولة أن أبا تغلب بن ناصر الدولة الحمداني وهو أبرز رجال بني حمدان في تلك المرحلة كان أقرب إلى عزّ الدولة بختيار ويقف إلى جانبه ضد ابن عمه عضد الدولة فهو إذن معادٍ لعضد الدولة، وقد انتصر عضد الدولة على عز الدولة

بختيار، ثم آل الملك إلى عضد الدولة فلا بدّ من تأديب أبا تغلبٍ ثم القضاء على ملك بني حمدان والانتهاء منهم فقد كفاهم ما أخذوا وما بُثّت لهم من دعايةٍ، وما قدّمه لهم بنو بويه.

لما انهزم أبو تغلب الحمداني وبختيار البويهي أمام عضد الدولة البويهي في معركة قصر الجصّ من نواحي تكريت في الثامن عشر من شهر شوال سنة ٣٦٧هـ وأُسر بختيار وفرّ أبو تغلب تابع عضد الدولة سيره نحو الموصل فملكها في الثاني عشر من شهر ذي القعدة سنة ٣٦٧هـ، كما ملك ما يتبعها، وظنّ أبو تغلب أن عضد الدولة سيفعل كما كان يفعل غيره من البويهيين قبله يقيم يسيراً ثم يضطر إلى المصالحة ويعود ولكن كان ذلك عندما كان البويهيون حريصين على بقاء الحمدانيين إلى جانبهم، وعندما كانت خلافاتهم تعميةً للمخطط الذي يريدون تنفيذه غير أن عضد الدولة الآن يريد الاعتماد على أبناء أرومته فقط كما يبغي تأديب أبي تغلب لموقفه منه إلى جانب بختيار، والحمدانيون وأمثالهم بعيدون عن المخطط.

لما قصد عضد الدولة الموصل حمل معه التموين والعلف ومن يعرف ولاية الموصل وأعمالها، وأقام

بالموصل مطمئناً وبثّ السرايا في طلب أبي تغلب، فأرسل إليه أبو تغلب يطلب أن يضمن البلاد فلم يجبه عضد الدولة إلى ذلك، وقال: هذه البلاد أحبّ إليّ من العراق، وكان مع أبي تغلب المرزبان بن بختيار، وأبو طاهر، وأبو إسحاق ابنا معز الدولة ووالدتهما وهي أم بختيار، فسار أبو تغلب إلى نصيبين فسيّر عضد الدولة سريةً عليها حاجبه أبو حرب طغان إلى جزيرة ابن عمرو، وسيّر سريةً أخرى في طلب أبي تغلب واستعمل عليها أبو الوفاء طاهر بن محمد على طريق سنجار، فسار أبو تغلب مجداً فبلغ ميافارقين فأقام بها ومعه أهله فلما بلغه مسير أبي الوفاء إليه سار نحو «بدليس» ومعه النساء وغيرهن من أهله، ووصل أبو الوفاء إلى ميافارقين فأغلقت أبوابها دونه ـ وهي حصينة منيعة من حصون الروم القديمة ـ فتركها وطلب أبا تغلب، وكان أبو تغلب قد عدل من «أرزن الروم» إلى «الحسنية» من أعمال الجزيرة، وصعد إلى قلعة «كواشي» وغيرها من قلاعه وأخذ ما له فيها من الأموال، وعاد أبو الوفاء إلى ميافارقين وحاصرها.

ولما وصل إلى عضد الدولة مجيء أبي تغلب إلى قلاعه سار إليه بنفسه فلم يدركه ولكن استأمن إليه أكثر

أصحابه، وعاد عضد الدولة إلى الموصل وسيّر في أثر أبي تغلب عسكراً مع قائدٍ من أصحابه أبو حرب طغان وسار أبو تغلب إلى بدليس وظنّ أنه لا يتبعه أحد فتبعه أبو حرب فهرب أبو تغلب من بدليس وقصد بلاد الروم ليتصل بملكهم المعروف بـ «ورد الرومي» وهو ليس من بيت المُلك وإنما تملّك عليهم قهراً، واختلف الروم عليه، ونصّبوا غيره من أولاد ملوكهم فطالت الحرب بينهم، فصاهر ورد هذا أبا تغلب ليتقوى به، فقدّر أن يحتاج أبو تغلب إلى الاحتماء به.

ولما سار أبو تغلب من «بدليس» أدركه عسكر عضد الدولة، وهم حريصون على أخذ ما معه من المال فإنهم كانوا قد سمعوا بكثرته، فلما وقعوا عليه نادى أميرهم لا تتعرضوا لهذا المال فهو لعضد الدولة ففتروا عن القتال، فلما رأى أبو تغلب فتورهم حمل عليهم فانهزموا فقتل منهم عدداً كبيراً، ومن نجا منهم نزل بحصن «زياد». وأرسل «ورد الرومي» فعرّفه ما هو بصدده من اجتماع الروم عليه واستمدّه، فقال له: إذا فرغت عدت إليك، فسيّر إليه أبو تغلب طائفةً من عسكره، فاتفق أن ورد الرومي قد انهزم أمام خصومه من الروم، فلما علم أبو تغلب بذلك يئس من نصره

وعاد إلى بلاد الإسلام فنزل بـ «آمد» وأقام بها شهرين إلى أن دخل عضد الدولة مدينة «ميافارقين».

دخول عضد الدولة ميافارقين وآمد:

لما عاد أبو الوفاء طاهر بن محمد من طلب أبي تغلب حاصر «ميافارقين» وكان الوالي عليها «هزار مرد» فضبط البلد وجدّ في قتال أبي الوفاء ثلاثة أشهرٍ، ثم مات «هزار مرد» فكُتب إلى أبي تغلب بذلك فأمر أن يقام مقامه غلام من الحمدانية اسمه «مؤنس» فولي أمر المدينة، ولم يكن لأبي الوفاء حيلة معه فعدل عنه، وراسل رجلاً من أعيان البلد اسمه أحمد بن عبيد الله واستماله فأجابه، وشرع في استمالة الرعية إلى أبي الوفاء فأجابوه إلى ذلك، وعظم أمره، وأرسل إلى مؤنس يطلب منه مفاتيح البلدة فلم يمكنه منعه لكثرة أتباعه فأنفذها إليه، وسأله أن يطلب له الأمان فأرسل أحمد بن عبيد الله إلى أبي الوفاء في ذلك فأمنه وأمن سائر أهل البلد ففتح له البلد وسلّمه إليه، وكان أبو الوفاء مدة مقامه على ميافارقين قد بثّ سراياه في تلك الحصون المجاورة فدخلها جميعها، فلما سمع أبو تغلب بذلك سار عن آمد نحو الرحبة هو وأخته جميلة، وأمر بعض أهله بطلب الأمان من أبي الوفاء ففعلوا، ثم إن أبا الوفاء قد سار إلى آمد فحاصرها فلما

رأى أهلها ذلك سلكوا مسلك أهل ميافارقين فسلّموا البلد بالأمان فاستولى أبو الوفاء على سائر ديار بكر، وقصده أصحاب أبي تغلب وأهله مستأمنين إليه فأمنهم وأحسن إليهم وعاد إلى الموصل.

وأما أبو تغلب فإنه لما قصد الرحبة أنفذ رسولاً إلى عضد الدولة يستعطفه ويسأله الصفح فأحسن جواب الرسول وبذل له إقطاعاً يرضيه على أن يطأ بساطه فلم يجبه أبو تغلب إلى ذلك وسار إلى الشام إلى العزيز بالله العبيدي صاحب مصر.

دخول عضد الدولة ديار مُضر:

تشمل ديار مُضر الرقة وحرّان وما يتبعهما، وكان يتولّى أمرها لأبي تغلب الحمداني «سلامة البرقعيدي»، فأرسل إليه سعد الدولة بن سيف الدولة جيشاً من حلب فجرت بينهما حروب، وكان سعد الدولة قد كاتب عضد الدولة وعرض نفسه عليه فأنفذ عضد الدولة النقيب أبا أحمد الموسوي والد الشريف الرضي بجيشٍ إلى البلاد التي بيد سلامة البرقعيدي فأخذها منه بعد حربٍ شديدةٍ ودخل أهلها في طاعة عضد الدولة، فأخذ عضد الدولة لنفسه الرقة، وردّ باقيها إلى سعد الدولة. ثم استولى عضد الدولة على الرحبة،

وتفرّغ بعدها لقلاع أبي تغلب وحصونه فاستولى عليها جميعها، فاستخلف بعدها أبا الوفاء على الموصل وعاد هو إلى بغداد في نهاية شهر ذي العقدة سنة ٣٦٨هـ.

قتال عضد الدولة للحسن بن عمران بن شاهين:

توفي عمران بن شاهين أمير البطيحة في شهر المحرم سنة ٣٦٩هـ بعد حكمٍ دام أربعين سنةً جهد فيه الحكام الآخرون وأعملوا الحيل لأخذ ما يملك فعجزوا وأخيراً مات حتف أنفه وتسلّم مكانه ابنه الحسن، وكان عضد الدولة قد فرغ من أبي تغلب الحمداني فالتفت إليه فإنه ليس مما نحن عليه فجهّز العساكر مع وزيره المطهر بن عبد الله وأمدّهم بالمال والسلاح، وسار المطهر في شهر صفر سنة ٣٦٩هـ، فلما وصل إلى البطائح أخذ بسدّ أفواه الأنهار الداخلة في البطائح فضاع في ذلك العمل الزمان والمال، وجاء مدّ وارتفاع منسوب المياه كما أن الحسن بن عمران كان يعمل على ثقب ما سدّه المطهر، فلم يُجدِ عمل المطهر شيئاً، فرجع يبذل جهده ثانيةً وكان كلما سدّ جانباً انفتحت عدة جوانب، ثم جرت وقعة بين الطرفين في الماء رجحت فيها كفة الحسن بن عمران، وكان المطهر عجولاً قد ألف المناجزة ولم يألف المصابرة، وكان

معه في عسكره أبو الحسن محمد بن عمر الطالبي الكوفي فاتهمه بمراسلة الحسن بن عمران واطلاعه على أسراره، وخاف المطهر أن تنقص منزلته عند عضد الدولة ويشمت به أعداؤه كأبي الوفاء وغيره فعزم على قتل نفسه، فأخذ سكيناً وقطع شرايين ذراعه وصاح فدخل الناس إليه وقال: إن محمد بن عمر قد أحوجني إلى هذا، ثم مات. وأرسل عضد الدولة من حفظ العسكر وصالح الحسن بن عمران على مالٍ يؤدّيه وأخذ رهائنه. وانفرد نصر بن هارون بوزارة عضد الدولة.

قتال عضد الدولة لبني شيبان:

كان بنو شيبان على أطراف نهر الفرات من جهات البادية، وكانوا يتألّمون من الفتن التي تقع سنوياً بين الفرق يُثيرها بنو بويه ويزيدون أوارها لذا أخذوا يُغيرون على البلدان، وقد عجز الولاة عن طلبهم، كما عقد بنو شيبان مصاهراتٍ مع أكراد شهرزور، وكانت شهرزور حصينةً ممتنعةً على الولاة، فأمر عضد الدولة عسكره بالتوجّه إلى شهرزور وضربها وإخضاع أهلها لينقطع طمع بني شيبان عن التحصّن بها، فاستولى عسكر عضد الدولة على شهرزور وملكوها فهرب بنو شيبان، وسار العسكر في طلبهم وأوقعوا بهم وقعةً عظيمةً قُتل

فيها عدد كبير من بني شيبان ونُهبت أموالهم، وسُبيت نساؤهم، وأُسر منهم ثمانمائة أسيرٍ وحملوا إلى بغداد.

استجارة ورد الرومي بعضد الدولة:

لما توفي ملك الروم أرمانوس خلّف ولدين صغيرين فسُلّما المُلك اسماً بعد أبيهما، وكان نقفور ـ وهو حينئذٍ الدمستق أي ملك أرمينية ـ قد أغار على بلاد المسلمين وعمل فتكاً بأهلها وعاد، فلما قارب القسطنطينية بلغه موت أرمانوس فاجتمع إليه الجند وقالوا له: لا يصلح للنيابة عن الملكين غيرك فإنهما صغيران فتمنّع فألحوا عليه فأجابهم، فرعى الملكين، وتزوّج أمهما، ولبس التاج، ثم وقعت جفوة بينه وبين زوجته أمهما، فراسلت ابن الشمشقيق في قتل نقفور وإقامته مقامه، فأجابها إلى ذلك، وسار إليها سرّاً ومعه عشرة رجال واغتالوا الدمستق نقفور، واستولى ابن الشمشقيق على الأمر، وقبض على «لاون» أخي الدمستق نقفور، وعلى «ورديس بن لاون» وسجنهما في إحدى القلاع.

أغار ابن الشمشقيق على بلاد الشام وتوغّل فيها، ونال من المسلمين ما أراد، وبلغ طرابلس فامتنع عليه أهلها فألقى الحصار عليهم. وكان معه أخ لأم الملكين الصغيرين ـ وهو حينئذٍ الوزير ـ فدسّ لابن الشمشقيق

من سقاه سُمّاً، فلما أحسّ أسرع بالعودة إلى القسطنطينية فمات بالطريق.

كان ورد الرومي أحد القادة ومن كبار البطارقة فطمع بالملك، وكاتب أبا تغلب الحمداني وصاهره، والتقى بالمسلمين بالثغور فطمعوا به واجتمعوا عليه فقصد بهم الروم، فأخرج له الملكان الصغيران الجيش إثر الجيش فكان يهزم ما يبعثان إليه فعظم شأنه وغرّته نفسه وقصد القسطنطينية فخافه الملكان الصغيران فأطلقا «ورديس بن لاون» من السجن وقدّماه على الجيوش وسيّراه لقتال «ورد الرومي» فاقتتلوا قتالاً شديداً وطال الأمر بينهما، ثم انهزم ورد الرومي إلى بلاد الإسلام وقصد ديار بكر، ونزل بظاهر مدينة «ميافارقين» وراسل عضد الدولة وبعث إليه أخاه يبذل الطاعة والاستنصار به فأجابه إلى ذلك ووعده به، ثم إن ملكي الروم راسلا عضد الدولة واستمالاه، فقوي في نفسه ترجيح جانب الملكين وعاد عن نصرة ورد الرومي، إذ رأى أن الروم أقرب إليه من أحدهم يرجى إسلامه.

كاتب عضد الدولة نائبه على ديار بكر أبا علي التميمي يأمره بالقبض على ورد الرومي وأصحابه فأخذ أبو علي يُدبّر الحيلة ويرسم الخطة للقبض عليه.

واجتمع إلى ورد الرومي أصحابه وقالوا له: إن ملوك الروم قد كاتبوا عضد الدولة وراسلوه في أمرنا ولا شك أنهم يغرونه بالمال وغيره فيسلّمنا إليهم، والرأي أن نرجع إلى بلاد الروم على صلحٍ إن أمكننا أو على حربٍ نبذل فيها أنفسنا فإما ظفرنا أو متنا كراماً، فقال: ما هذا برأي ولا رأينا من عضد الدولة إلا الجميل، ولا يجوز أن ننصرف عنه قبل أن نعلم ما عنده، ففارقه كثير من أصحابه فطمع به أبو علي التميمي وراسله بالاجتماع فأجابه إلى ذلك، فلما اجتمع به قبض عليه وعلى ولده وأخيه وجماعةٍ من أصحابه واعتقلهم في «ميافارقين» ثم حملهم إلى بغداد، فأودعوا السجن.

سيطرة عضد الدولة على بلدان الجبال:

كان حسنويه الكردي صاحب النفوذ على نواحي الدينور، وهمدان، ونهاوند، والصامغان وبعض أطراف أذربيجان مدة خمسين سنةً، وكان حسن السياسة والسيرة ضابطاً لأمره، وقد منع أصحابه من اللصوصية، وكان محباً للعمران كثير الصدقة بالحرمين، وكان عضد الدولة البويهي يريد أن يقضي على كل صاحب نفوذٍ وإمارةٍ لا يرجع إلى أرومته ولا يعمل ما يعمل هو وأهله من إحياء مجد أرومته وما كان يعتقد أمجاده،

وإن كان يواليهم ويتبع لهم ويعطف على ما يظهرونه ويرفعون أنفسهم به، وما كان حسنويه الكردي من هؤلاء وإن كان يتعامل معهم ويتبع لسلطانهم.

توفي حسنويه الكردي سنة ٣٦٩هـ وافترق أولاده من بعده فانحاز بعضهم إلى فخر الدولة علي بن ركن الدولة وانحاز بعضهم إلى عضد الدولة وهم: أبو العلاء، وعبد الرزاق، وعاصم، وأبو النجم بدر، وعبد الملك، وأبو عدنان، وبختيار، وهذا يدل على أنهم بعيدون عن معرفة ما يُخطط وإنما يسعون وراء مصالحهم ولكن أصحاب المخططات وأهل التدبير بالخفاء يعدّون كل من لم يكن منهم هو عليهم.

كان بختيار بن حسنويه بقلعة «سرماج» ومعه الأموال والذخائر، فكاتب عضد الدولة ورغب في طاعته، ثم تغيّر عنه، فسيّر عضد الدولة إليه جيشاً فحاصره وأخذ قلعته وما فيها، وانطلق إلى قلاع بقية إخوته فحاز عليها، واصطنع من بين الإخوة أبا النجم بدر بن حسنويه، وقوّاه بالرجال فضبط تلك النواحي، وكفّ عادية من بها من الأكراد لمصلحة عضد الدولة.

احتواء عضد الدولة لأملاك أخيه فخر الدولة:

كان بختيار بن معز الدولة يكاتب ابن عمه

فخر الدولة بعد وفاة ركن الدولة ويدعوه إلى الاتفاق معه ضد عضد الدولة، فأجابه إلى ذلك واتفقا، وعلم عضد الدولة ذلك فكتم الأمر في نفسه حتى يقضي على أعدائه من أصحاب النفوذ الذين من غير أرومته فلما انتهى منهم ظنّ أن الأمر يستقيم بينه وبين إخوته فراسل أخويه فخر الدولة علي ومؤيد الدولة بويه، وكذلك راسل قابوس بن وشمكير، فأما رسالته إلى أخيه مؤيد الدولة فيشكر له على طاعته وموافقته فإنه كان مطيعاً له غير مخالف، وأما إلى فخر الدولة فيعاتبه ويستميله ويذكر له ما يلزمه به الحجة، وأما إلى قابوس بن وشمكير فيشير إليه بحفظ العهود التي بينهما.
أجاب فخر الدولة جواب المناظر المناوئ دون النظر إلى كبر السن، وسعة الملك وعهد أبيه. وأجاب قابوس جواب المراقب. وكان رسول عضد الدولة إلى أخيه فخر الدولة هو «خواشاده» وهو من أكابر أصحاب عضد الدولة، وقد استطاع أن يستميل أصحاب فخر الدولة فضمن لهم الإقطاعات وأخذ عليهم العهود، ولما عاد الرسول خرج عضد الدولة من بغداد على عزم المسير إلى الجبل وإصلاح تلك النواحي، وابتدأ فقدم العساكر بين يديه يتلو بعضها بعضاً منهم: أبو الوفاء على عسكر، وخواشاده على عسكر، وأبو الفتح

المظفر بن محمد على عسكر، فسارت هذه العساكر وأقام هو بظاهر بغداد، ثم سار عضد الدولة فلقيته البشائر بدخول جيوشه همذان، واستئمان العدد الكثير من قواد فخر الدولة ورجال حسنويه. ووصل إليه أبو الحسن عبيد الله بن محمد بن حمدويه وزير فخر الدولة ومعه جماهير أصحابه، وانحل أمر فخر الدولة وكان بهمذان فخاف من أخيه عضد الدولة وتذكر قتل ابن عمه بختيار عز الدولة فخرج هارباً وقصد بلاد الديلم، ثم خرج منها إلى جرجان فنزل على شمس المعالي قابوس بن وشمكير فالتجأ إليه فأمنه وآواه وحمل إليه فوق ما حدّثته به نفسه وشاركه فيما تحت يده من الملك. وملك عضد الدولة ما كان بيد أخيه فخر الدولة همدان والري وما بينهما من البلاد وسلّمه إلى أخيه الآخر مؤيّد الدولة بويه، وجعله خليفته ونائبه في تلك البلاد، ونزل الريّ واستولى على تلك النواحي، ثم عرج عضد الدولة إلى ولاية حسنويه الكردي فقصد نهاوند، والدينور، وقلعة سرماج وأخذ ما فيها من ذخائر حسنويه، وكانت جليلة المقدار، وملك معها عدةً من قلاع حسنويه. ولحقه في هذه الرحلة الصرع، وكان قد أصابه بالموصل فكتمه، وصار كثير النسيان لا يذكر الشيء إلا بعد جهدٍ، وكتم ذلك أيضاً، وهذا دأب

الدنيا لا تصفو لأحدٍ ولا يدوم على حالٍ لها شأن. وأتاه أولاد حسنويه الكردي فقبض على عبد الرزاق، وأبي العلاء، وأبي عدنان، وأحسن إلى بدر بن حسنويه وخلع عليه وولّاه رعاية الأكراد.

ثم سيّر عضد الدولة جيشاً إلى الأكراد في جهات الموصل فأوقع بهم وحاصر قلاعهم، وطال الحصار، وكان الأكراد ينتظرون نزول الثلج لترحل العساكر عنهم، ولكن قدّر الله تأخير نزول الثلج في تلك السنة، فأرسلوا يطلبون الأمان فأجيبوا إلى ذلك وسلّموا قلاعهم ونزلوا مع العساكر إلى الموصل، وبعد يوم من رحيلهم تساقط الثلج بكثرةٍ، ثم إن مقدّم جيش عضد الدولة قد غدر بهم وقتل منهم من قتل، وصلب رؤساءهم على جانبي الطريق ليرهب الناس بذلك.

إعادة الصلة مع الخليفة الطائع لله:

بعد أن قتل عضد الدولة من قتل وفعل ما فعل خشي أن يُلفت ذلك نظر الخليفة الطائع لله فيُدرك أبعاد هذه الأعمال ويُقدّر ما يرمي إليه البويهيون من التركيز على قتل المسلمين، ورمي الفتن بينهم فيقتل بعضهم بعضاً باسم هذه الجماعة وتلك وتحت عنوان السنة والشيعة فيثير الخليفة المسلمين ويوضّح لهم ما يجري

حرصاً على الأمة وخوفاً على الخلافة وانتقاماً من إهماله والتسلّط على أمور الأمة دونه بل وإبعاده عن الساحة عامةً. وزاد من حذر عضد الدولة في ذلك إبلاغ الخليفة بوصول رسائل من العزيز العبيدي إلى عضد الدولة تحملها رسل العبيدي وقد نزلوا على عضد الدولة وأكرمهم، لذا أراد عضد الدولة إشغال الخليفة الطائع لله بالنساء فزوّجه ابنته الكبرى يوم الثلاثاء لسبعٍ بقين من شهر ذي القعدة سنة ٣٦٩هـ وكان غرض عضد الدولة أيضاً أن تلد ابنته ولداً ذكراً فيجعله ولي عهده فتكون الخلافة في ولدٍ لهم فيه نسب، وكان الصداق مائة ألف دينارٍ. وكان قد تزوّج الطائع لله أيضاً «شهناز» بنت عز الدولة بختيار سنة ٣٦٤هـ على الصداق نفسه[١].

وعلت كلمة المجوس فقاموا بحركةٍ في مدينة شيراز فنهض المسلمون لهم وكانت فتنة عظيمة نُهبت فيها دور المجوس وضُربوا وقُتل منهم جماعة فسمع عضد الدولة بالخبر فسيّر إليهم قوةً جمعت كل من كان له أثر في ذلك وضربهم وبالغ في تأديبهم وزجرهم[٢].

---

(١) سير أعلام النبلاء.

(٢) الكامل في التاريخ.

وقبض عضد الدولة على نقيب الطالبيين أبي أحمد الحسين بن موسى الحسيني الطالبي[1] والد الشريف الرضي، وعلى أخيه أبي عبد الله، وعلى قاضي القضاة أبي محمد.

طاعة مؤيد الدولة لأخيه عضد الدولة:

بعث مؤيد الدولة الصاحب أبا القاسم إسماعيل بن عباد[2] رسولاً إلى أخيه عضد الدولة بهمدان يبذل له الطاعة والموافقة فالتقاه عضد الدولة بنفسه وأكرمه وأقطع أخاه مؤيد الدولة همدان وغيرها، وأقام أبو

---

(١) الحسين بن موسى الحسيني الطالبي، أبو أحمد: نقيب الطالبيين في بغداد، ولد سنة ٣٠٤هـ، والد الشريفين الرضي والمرتضى، ولي نقابة الطالبيين في بغداد سنة ٣٥٤هـ وكذا إمارة الحج، قبض عليه عضد الدولة سنة ٣٦٩هـ، وأطلقه شرف الدولة بن عضد الدولة سنة ٣٧٢هـ، وعُزل عن نقابة الطالبيين سنة ٣٨٤هـ، وأعيد إليها سنة ٣٩٤هـ، وأضيف إليه الحج والمظالم، وتوفي ضريراً سنة ٤٠٠هـ.

(٢) إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم: ولد سنة ٣٢٦هـ في الطالقان من أعمال بلْخ، غلب عليه الأدب، عمل وزيراً لمؤيد الدولة البويهي، ثم لأخيه فخر الدولة، وعُرف بالصاحب لصحبته مؤيد الدولة من صباه، فكان يدعوه بذلك، وتوفي بالريّ سنة ٣٨٥هـ، ونقل إلى أصبهان فدفن فيها، وله تصانيف كثيرة.

القاسم عند عضد الدولة بهمدان حتى عاد إلى بغداد، فردّه إلى أخيه مؤيد الدولة فأقطعه إقطاعاتٍ كثيرةً، وسيّر معه عسكراً يكون عند مؤيد الدولة في خدمته.

مقتل أولاد حسنويه الكردي:

كان عضد الدولة قد خلع على بدر بن حسنويه الكردي وولّاه الأكراد، ولم يعامل عضد الدولة إخوة بدر كما عامل بدراً، وهذا ما جعل عاصماً وعبد الملك ابني حسنويه يحسدان أخاهما بدراً، كما شقّا عصا الطاعة وخرجا على عضد الدولة، حيث استمال عاصم جماعةً من الأكراد المخالفين فاجتمعوا عليه، فسيّر إليه عضد الدولة عسكراً فأوقعوا بعاصم ومن معه فانهزموا، وأُسر عاصم، وأدخل همدان على جملٍ، ولم يعرف له خبر بعد ذلك اليوم، وقُتل أولاد حسنويه سوى بدر فإنه تُرك على حاله، وأُقرّ على عمله.

استيلاء عضد الدولة على جرجان:

كان فخر الدولة قد هُزم أمام أخيه عضد الدولة فالتجأ فخر الدولة إلى قابوس بن وشمكير إذ كان عضد الدولة قد استولى على بلاد أخيه فخر الدولة.

أرسل عضد الدولة إلى قابوس يبذل له الرغائب من البلاد والأموال والعهود ليسلّمه أخاه فخر الدولة

فامتنع قابوس من ذلك ولم يجبه، فجهّز عضد الدولة أخاه مؤيد الدولة وسيّره ومعه العساكر وعدّة القتال والأموال إلى جرجان، ووصل الخبر إلى قابوس فسار إليه والتقى به بنواحي «استراباذ» فاقتتلوا من الصباح حتى الظهيرة فانهزم قابوس وأصحابه وذلك في شهر جمادى الأولى سنة ٣٧١هـ، وتراجع قابوس إلى بعض قلاعه التي فيها أمواله وذخائره فأخذ منها ما أراد وسار إلى نيسابور، فلما وصل إليها لحق به فخر الدولة وانضمّ إليه، ثم لحق بهما من تفّرق من أصحابه، وكان وصولهم إليها عند ولاية حسام الدين أبي العباس تاش على خراسان فكتب حسام الدين إلى الأمير أبي القاسم نوح بن منصور يُعرّفه خبر وصولهما، وكتبا أيضاً إلى نوح يعرفانه حالهما ويستنصرانه على مؤيد الدولة، فجاءت كتب الأمير نوح إلى حسام الدين يأمره بإجلال محلهما وإكرامهما وجمع العساكر والمسير معهما وإعادتهما إلى ملكهما.

فلما وردت كتب الأمير نوح على حسام الدين بالمسير بعساكر خراسان جميعها مع فخر الدولة وقابوس جمع حسام الدين العساكر وحشدها بنيسابور فاجتمعت عساكر كثيرة جداً وساروا إلى جرجان

فحاصروها وبها مؤيد الدولة ومعه من عساكره وعساكر أخيه عضد الدولة جمع كثير إلا أنهم لا يقاربون عساكر خراسان، فحاصرهم حسام الدين شهرين يغاديهم القتال ويراوحهم، وقلّت التموينات على أهل جرجان، فلما اشتدّ عليهم الأمر خرجوا من جرجان في شهر رمضان سنة ٣٧١هـ على عزم صدق القتال إما لهم وإما عليهم، فلما رآهم أهل خراسان ظنّوا أنه خروج ككل يومٍ قتال ثم تحاجُز، فالتقوا فاقتتلوا قتالاً شديداً فرأى أهل خراسان خلاف ما ظنّوا. وكان مؤيد الدولة قد كاتب أحد قادة خراسان ويُدعى «فائق الخاصة» وأطمعه ورغّبه فأجابه إلى الانهزام عند اللقاء، فلما خرج مؤيد الدولة في هذا اللقاء حمل عسكره على «فائق» وأصحابه فانهزم هو ومن معه وتبعه الناس، وثبت فخر الدولة وحسام الدين في القلب واشتد القتال إلى آخر النهار، فلما رأوا تلاحق الناس في الهزيمة لحقوا بهم وغنم أصحاب مؤيد الدولة منهم الكثير، وأخذوا من الأقوات شيئاً كثيراً، وعاد حسام الدين وفخر الدولة وقابوس إلى نيسابور، وكتبوا إلى بخارى بالخبر فأتاهم الجواب يُمنّيهم ويعدهم بإنفاذ العسكر إلى جرجان والريّ، وأمر الأمير نوح سائر العساكر بالمسير إلى نيسابور فأتوها من كل جهةٍ، فاجتمع بظاهر نيسابور أكثر من المرة الأولى

وحسام الدين ينتظر تتابع الإمدادات ليسير بهم فأتاهم الخبر بمقتل وزير السامانيين أبي الحسين العتبي فتفرّق الحشد بعد اجتماعٍ، وكان قد قتله مماليك أبي الحسن بن سيمجور، فلما قُتل كتب الأمير نوح بن منصور إلى حسام الدين يستدعيه إلى بخارى ليُدبّر شؤون الدولة ويجمع ما تناثر منها، فسار عن نيسابور ورجع إلى بخارى وقتل من ظفر به من قتلة الوزير أبي الحسين، وكان ذلك سنة ٣٧٢هـ.

وفاة عضد الدولة:

اشتدّ على عضد الدولة ما يعاني من الصرع فضعفت قوته ثم مات في بغداد في الثامن من شهر شوال سنة ٣٧٢هـ، وكانت إمارته بالعراق خمس سنواتٍ ونصف السنة، وكان عمره سبعاً وأربعين سنةً، وجلس ابنه صمصامة الدولة للعزاء وأتاه الخليفة الطائع لله معزّياً. وكان عضد الدولة قبل أن يموت قد سيّر ولده شرف الدولة أبا الفوارس إلى كرمان مالكاً لها.

لما توفي عضد الدولة اجتمع القواد والأمراء على ولده المرزبان أبي كاليجار فبايعوه وولّوه الإمارة ولقّبوه صمصامة الدولة، فلما ولي خلع على أخويه أحمد أبي

الحسين، وفيروز شاه أبي طاهر وأقطعهما بلاد فارس وأمرهما بالجد في السير ليسبقا أخاهما «شيرزيل» أبا الفوارس شرف الدولة إلى شيراز، فلما وصلا إلى «أرجان» أتاهما خبر وصول شرف الدولة إلى شيراز فعادا إلى الأهواز، وكان شرف الدولة بـ «كرمان» فلما بلغه خبر وفاة أبيه سار مجدّاً إلى فارس فملكها، وقبض على نصر بن هارون النصراني وزير أبيه وقتله لأنه كان يُسيء صحبته أيام أبيه، وأظهر مخالفة أخيه صمصامة الدولة وقطع الخطبة له وخطب لنفسه، وأرسل له أخوه صمصامة الدولة جيشاً فانتصر عليه وملك الأهواز، وبقي ثلاث سنوات.

وقتل أبو الفرج محمد بن عمران بن شاهين أخاه الحسن واستولى على البطيحة وأظهر الطاعة إلى بغداد، ولكن قُتل أبو الفرج بعد مدةٍ وحكم أبو المعالي ابن أخيه الحسن غير أن القائد المظفر قد استأثر بالسلطة ثم تسلّمها رسمياً.

وتوفي مؤيد الدولة في جرجان سنة ٣٧٣هـ، وجلس صمصامة الدولة للعزاء وجاء الخليفة الطائع لله معزّياً، وتشاور أركان إمارة مؤيد الدولة فيمن يقوم مقامه فأشار الصاحب إسماعيل بن عباد بإعادة

فخر الدولة إلى مملكته إذ هو كبير البيت البويهي، وكان يملك المنطقة قبل مؤيد الدولة، فكتب إليه واستدعاه ـ وهو في نيسابور ـ وأرسل الصاحب إليه واستخلفه لنفسه. وجاء فخر الدولة إلى جرجان فلقيه العسكر بالطاعة وتسلّم الأمر في شهر رمضان سنة ٣٧٣هـ، واستوزر الصاحب إسماعيل بن عباد. ولكن خلع الطاعة محمد بن غانم البرزيكاني في «كوردر» من أعمال «قم» فأرسل إليه فخر الدولة العساكر لقتاله فهزمها في شهر شوال سنة ٣٧٣هـ، وعادت إليه مرةً أخرى من مدينة الريّ فهزمها ثانيةً، فأرسل فخر الدولة إلى أبي النجم بدر بن حسنويه الكردي يُنكر عليه ذلك، ويأمره بإصلاح الحال معه، ففعل وراسله واصطلحوا وبعد سنةٍ من الصلح أرسل له فخر الدولة جيشاً فقاتله فأُصيب محمد بن غانم بطعنةٍ وأُخذ أسيراً، ومات من طعنته التي أُصيب بها.

خروج الحسين بن دوستك الكردي:

خرج الحسين بن دوستك الكردي في ديار بكر سنة ٣٧٣هـ، ويعرف باسم «باذ الكردي» ويكنى أبا عبد الله. وقد كان يغزو في هذه المنطقة، ولما ملك عضد الدولة الموصل حضر إليه ثم هرب منه، ولاحقه

ثم كفّ عن طلبه، وهو كبير الجسم شديد البأس، وقد أقام بثغور ديار بكر حتى قوي أمره، وملك «ميافارقين» وكثيراً من نواحي ديار بكر بعد موت عضد الدولة، ثم استولى على نصيبين فجهّز له صمصامة الدولة العساكر مع أبي سعد بهرام بن أردشير فانهزم بهرام وأُسر جماعة من أصحابه وقوي أمر باذ الكردي فأرسل إليه صمصامة الدولة عسكراً كثيراً بقيادة أبي القاسم سعد بن محمد الحاجب فالتقوا على نهر خابور دجلة (خابور الحسنية) واقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم سعد وأصحابه وقتل باذ الكردي[1] وأسر كثيراً من الديلم ثم قتل الأسرى صبراً، وتراجع سعد إلى الموصل فدخلها وباذ الكردي في أثره فثار العامة بسعد لسوء سيرة الديلم فيهم، فنجا سعد منهم بنفسه، ودخل باذ الكردي الموصل، واستولى عليها، وقويت شوكته، وحدّث نفسه بدخول بغداد وإزالة البويهيين عنها فخافه صمصامة الدولة وأهمّه أمره وشغله عن غيره وحشد العسكر ليسيرهم إليه، وتشاور صمصامة الدولة ووزيره أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان فيمن يقود الحملة ضد باذ

---

(١) قيل: إن كنية باذ الكردي هي أبو شجاع، وأن اسمه هو باذ، أما أبو عبد الله الحسين بن دوستك فهو أخو باذ الكردي.

الكردي فوقع الاختيار على «زيار بن شهراكويه» ـ وهو أكبر قادتهم ـ فأمره بالمسير إلى قتاله، وجهّزه وبالغ في أمره وأكثر معه الرجال والأموال والعتاد، وسار إلى باذ فلقيهم في شهر صفر سنة ٣٧٤هـ فانتهت الوقعة بهزيمة باذ وأصحابه، وأُسر كثير من عسكره وأهله وحملوا إلى بغداد وشُهّر بهم، وملك الديلم الموصل، وأرسل «زيار» عسكراً مع سعد الحاجب في طلب «باذ الكردي» فسلكوا طريق «جزيرة ابن عمر»، وأرسل عسكراً آخر إلى نصيبين فاختلفوا مع قادتهم ولم يطاوعوهم على المسير إليه، وكان «باذ» بديار بكر قد جمع حشداً كثيراً فكتب صمصامة الدولة إلى سعد الدولة بن سيف الدولة الحمداني وبذل له تقديم ديار بكر إليه، فسيّر إليها جيشاً فلم يكن له قوة بأصحاب باذ فعادوا إلى حلب، وكانوا قد حاصروا «ميافارقين».

ولما رأى سعد الحاجب ذلك من عسكره عمل الحيلة في قتل «باذ الكردي» فكلّف رجلاً باغتياله، فدخل الرجل خيمة «باذا الكردي» ليلاً وضربه بالسيف ـ وهو يظنّ أنه يضرب رأسه ـ فوقعت الضربة على ساقه فصاح، وهرب ذلك الرجل، فمرض باذ من تلك الضربة وأشرف على الموت، وراسل زياراً وسعد

الحاجب يطلب الصلح، فاستقر الحال بينهم واصطلحوا على أن تكون ديار بكر لباذ الكردي، وانحدر زيار إلى بغداد، وأقام سعد الحاجب بالموصل.

خطب أبو الحسين بن عضد الدولة بالأهواز لعمه فخر الدولة، وخطب له أبو طاهر شمس الدولة بالبصرة ونقشا اسمه على السكة. وخطب لصمصامة الدولة بعمان وكانت لشرف الدولة أبي الفوارس بن عضد الدولة ونائبه بها «أستاذ هرمز» فصار مع صمصامة الدولة، فلما بلغ الخبر إلى شرف الدولة أرسل إليه جيشاً فانهزم «أستاذ هرمز» وأُخذ أسيراً وسُجن في بعض القلاع وطولب بمالٍ كثيرٍ، وعادت عُمان إلى شرف الدولة.

فتنة في بغداد:

كان أحد كبار القواد ويُدعى «أسفار بن كردويه» قد نفر من صمصامة الدولة واستمال كثيراً من العسكر إلى طاعة شرف الدولة أخي صمصامة الدولة واتفق رأيهم على أن يولّوا الأمير فيروز أبا نصر بهاء الدولة ابن عضد الدولة العراق نيابةً عن أخيه شرف الدولة، وكان صمصامة الدولة مريضاً فتمكن أسفار بن كردويه من الذي عزم عليه، وأظهر ذلك، وراسله صمصامة الدولة يستميله ويُسكّنه فما زاده إلا تمادياً،

فلما رأى ذلك حاله راسل الخليفة الطائع لله يطلب منه الركوب معه، وكان صمصامة الدولة قد عوفي من مرضه فامتنع الطائع لله من ذلك، فشرع صمصامة الدولة بالعمل ضد خصمه واستمال «فولاذ بن زماندار» وكان موافقاً لأسفاره إلا أنه كان يأنف من متابعته لعلو شأنه، فلما راسله صمصامة الدولة أجابه واستحلفه على ما أراد وخرج من عنده وقاتل أسفار فهزمه فولاذ وأُخذ الأمير أبو نصر فيروز بهاء الدولة أسيراً، وأُحضر عند أخيه صمصامة فرقّ له وعلم أنه لا ذنب له فاعتقله مكرّماً وكان عمره حينئذٍ خمس عشرة سنةً، وثبت أمر صمصامة الدولة، وسعى إليه بـ «ابن سعدان» الذي كان وزيره فعزله، ومضى أسفار إلى الأهواز واتصل بالأمير أبي الحسين بن عضد الدولة وخدمه، وسار باقي العسكر إلى شرف الدولة وذلك سنة ٣٧٥هـ.

استيلاء شرف الدولة على الأهواز:

سار شرف الدولة أبو الفوارس بن عضد الدولة سنة ٣٧٥هـ من فارس يطلب الأهواز، وأرسل إلى أخيه أبي الحسين ـ وهو بها ـ يُطيّب نفسه ويعده الإحسان، وأن يقرّه على ما بيده من الأعمال، وأعلمه أن مقصده العراق وتخليص أخيه الأمير أبي نصر فيروز بهاء الدولة

من سجنه فلم يُصْغِ أخوه أبو الحسين إلى قوله وعزم على منعه، وتجهّز لذلك فأتاه الخبر بوصول شرف الدولة إلى «أرجان» ثم إلى «رامهرمز» فتسلّل أجناده إلى شرف الدولة ونادوا بشعاره فهرب أبو الحسين جهة الريّ إلى عمّه فخر الدولة فبلغ أصبهان وأقام بها، واستنصر عمّه فأطلق له مالاً ووعده بنصره، فلما طال عليه الأمر عزم على التغلب على أصبهان، ونادى بشعار أخيه شرف الدولة فثار به جندها وأخذوه أسيراً وسيّروه إلى الريّ فحبسه عمه فخر الدولة، وبقي محبوساً إلى أن مرض فخر الدولة، فلما اشتدّ مرضه أرسل إليه من قتله.

وسار شرف الدولة إلى الأهواز وملكها، وأرسل إلى البصرة فملكها وقبض على أخيه أبي طاهر جلال الدولة، وبلغ الخبر صمصامة الدولة فراسله بالصلح فاستقرّ الأمر على أن يخطب بالعراق لشرف الدولة قبل صمصامة الدولة، ويكون صمصامة الدولة نائباً عنه، ويطلق أخاه الأمير أبا نصر فيروز بهاء الدولة ويُسيّره إليه، وصلح الحال واستقام، وكان قواد شرف الدولة يريدون الصلح من أجل الرجوع إلى أوطانهم، وخطب لشرف الدولة بالعراق، وبُعثت

إليه الخلع والألقاب من الخليفة الطائع لله إلى أن عادت الرسل إلى شرف الدولة ليحلفوه ولكن لم يحلف لأخيه وعاد عن الصلح إذ كانت البلدان قد ألقت إليه مقاليدها كواسط وغيرها، وكاتبه القواد بالطاعة. وكان معه الشريف أبو الحسن محمد بن عمر يشير إليه بالمسير إلى العراق ويحثّه عليه ويُطمعه فيه فوافقه على ذلك.

سار شرف الدولة أبو الفوارس بن عضد الدولة من الأهواز إلى واسط فملكها، فأرسل إليه صمصامة الدولة أخاه أبا نصر يستعطفه بإطلاقه ـ وكان محبوساً عنده ـ فلم يتعطّف له، واتسع الخرق على صمصامة الدولة إذ شغب عليه جنده يطلبون المال، فاستشار أصحابه في السير إلى أخيه والدخول في طاعته فأبوا ونهوه عنه ذلك، وقال بعضهم: الرأي أن نسير إلى «عكبرا» لنعلم بذلك من هو لنا ممن هو علينا، فإن رأينا عدتنا كثيرةً قاتلناهم، وأخرجنا الأموال، وإن عجزنا سرنا إلى الموصل فهي وسائر بلاد الجبل لنا فيقوى أمرنا، ولا بد أن الديلم والأتراك تجري بينهم منافسة ومحاسدة ويحدث اختلال فنبلغ الغرض. وقال بعضهم: الرأي أن نسير إلى «قرميسين» وتكاتب عمك فخر الدولة وتستنجده وتسير على طريق خراسان

وأصبهان إلى فارس فتتغلب عليها وتأخذ خزائن شرف الدولة وذخائره فما هناك ممانع ولا مدافع فإذا فعلنا ذلك لا يستطيع شرف الدولة على المقام بالعراق فيعود حينئذٍ فيقع الصلح فأعرض صمصامة الدولة عن هذا كله، وسار إلى أخيه شرف الدولة في خواصه فوصل إلى أخيه شرف الدولة فلقيه وطيّب قلبه، فلما خرج من عنده قبض عليه، وأرسل إلى بغداد من يحافظ على دار المملكة، وسار فوصل إلى بغداد في شهر رمضان سنة ٣٧٦هـ وأخوه صمصامة الدولة معه في قيد الاعتقال، وكانت إمارته بالعراق ثلاث سنوات وأحد عشر شهراً.

فتنة بين الديلم والأتراك:

كان مع شرف الدولة في بغداد ما يقرب من خمسة عشر ألفاً من الديلم، ومن الأتراك ما يقرب من ثلاثة آلالف، فتطاول الديلم على الأتراك فجرت منازعة بين الجانبين تغلّبت فيها الأكثرية وأراد الديلم إخراج صمصامة الدولة من معتقله وإعادته إلى ملكه، وبلغ شرف الدولة خبر ذلك فوكّل بصمصامة الدولة من يقتله إن همّ الديلم بإخراجه، ثم تخلخلت صفوف الديلم فقاتلهم الأتراك وانتصروا عليهم، وتفرّق الديلم،

واحتمى بعضهم بشرف الدولة، ثم أصلح شرف الدولة بين الفريقين.

قتال بدر بن حسنويه الكردي:

انحرف بدر بن حسنويه عن شرف الدولة ومال إلى عمه فخر الدولة، فلما استقرّ ملك شرف الدولة ببغداد وأطاعه الناس شرع في أمر بدر بن حسنويه فجهّز له عسكراً كثيفاً مع «قراتكين الجهشياري» وهو مقدّم عسكره وكبيرهم، وأمرهم بالمسير إلى بدر بن حسنويه وقتاله. وكان شرف الدولة يرى أن انتصار أحدهما يريحه من الآخر حيث كان قراتكين يُغيظ شرف الدولة بمداخلاته بأمور الرعية.

سار قراتكين بعسكره نحو بدر، وتجهّز بدر وجمع الجند حوله، والتقيا على الوادي بـ «قرميسين» واقتتلوا وانهزم بدر وتراجع وتوارى عن خصومه حتى ظنّوا أنه قد مضى مع أصحابه على وجهه فنزلوا عن خيولهم، وتفرّقوا في خيامهم فلم يلبثوا غير ساعةٍ حتى كرّ بدر راجعاً إليهم وداهمهم وقتل منهم مقتلةً عظيمةً واحتوى على ما في معسكرهم، ونجا قراتكين مع نفرٍ من غلمانه، ووصل إلى جسر النهروان وأقام به حتى اجتمع إليه المنهزمون ودخل بغداد، واستولى بدر بعد ذلك

على أعمال الجبل وما والاها وقويت شوكته. وأما قراتكين فقد عاد إلى مداخلاته، وشرع شرف الدولة في أعمال الحيلة حتى قبض على قراتكين وعلى جماعةٍ من أصحابه وكتّابه وأخذ أموالهم، وشغب الجند من أجله فقتله شرف الدولة وسكن الجند، وقدّم عليهم «طغان الحاجب» فصلحت طاعته، وذلك سنة ٣٧٧هـ.

عودة باذ الكردي للقتال:

طمع باذ الكردي في بلاد الموصل بعد أن مات سعد الحاجب سنة ٣٧٧هـ في الموصل، فسيّر شرف الدولة إلى الموصل «أبا نصر خواشاذه» مكان سعد الحاجب الذي توفي، وجهّز شرف الدولة العساكر إلى أبي نصر، ولكن أبا نصر كتب يستمّد من شرف الدولة العساكر والأموال، فتأخّرت الأموال عنه، فأحضر العرب من بني عقيل وأقطعهم البلاد ليمنعوا عنها، وتقدّم باذ الكردي فاستولى على الجبل المشرف على مدينة نصيبين، ويُعرف باسم «طور عبدين» ولم يستطع النزول إلى السهول والبراري لأن بني عقيل أخفّ حركةً وأسرع خيلاً، وأرسل أخاه في عسكرٍ لقتالهم فقُتل أخوه وانهزم عسكره، وأقام بعضهم في مواجهة بعض، فبينما هم كذلك أتاهم خبر بموت

شرف الدولة فرجع خواشاذه إلى الموصل وأظهر موت شرف الدولة، وأقامت العرب بالفيافي تمنع باذ من النزول إليها، وباذ مقيم بالجبل، وكان خواشاذه، يستعدّ لمعاودة قتال باذ. وحدثت فتنة بالموصل في شهر رمضان سنة ٣٧٧هـ بين الديلم وبين العامة لتطاول الديلم وإلقاء كلامٍ مثيرٍ يمسّ صحابة رسول الله ﷺ، وكان نتيجة هذه الفتنة مقتلة عظيمة ثم أُصلح الأمر بين الفريقين.

إلقاء القبض على «شكر» الخادم:

كان «شكر» أخصّ الناس عند عضد الدولة والد شرف الدولة وأقربهم إليه يرجع إلى قوله ويعوّل عليه، ولكن كان يُؤذي شرف الدولة أيام والده، وقد تولّى «شكر» إخراج شرف الدولة من بغداد وإبعاده إلى منطقة كرمان. فلما تملّك شرف الدولة العراق اختفى «شكر» فطلبه شرف الدولة أشدّ طلبٍ فلم يعثر له على أثرٍ، ثم دلّت عليه جارية له اختلفت معه فأخذه شرف الدولة وأراد قتله فشفع له أحدهم، فسار إلى مكة بإذن شرف الدولة، ومنها انتقل إلى مصر، وعاش هناك.

وفاة شرف الدولة وسمل صمصامة الدولة:

كان «نحرير» الخادم يُشير دائماً على شرف الدولة

بقتل أخيه صمصامة الدولة، ولكن شرف الدولة كان يعرض عن كلامه. فلما مرض شرف الدولة ألحّ عليه «نحرير»، وقال له: إن الدولة معه على خطر فإن لم تقتله فاسمل عينيه، فأرسل إليه شرف الدولة لذلك محمد الشيرازي الفراش وسمل عيني صمصامة الدولة قبل أن يموت شرف الدولة.

توفي شرف الدولة أبو الفوارس شيرزيل بن عضد الدولة في شهر جمادى الآخرة سنة ٣٧٨هـ ودُفن في النجف في مشهد علي بن أبي طالب، ﷺ، وكانت إمارته بالعراق سنتين وثمانية أشهرٍ، وكان عمره ثمانية وعشرين عاماً وخمسة أشهرٍ.

وكان شرف الدولة قد أرسل ابنه أبا علي إلى بلاد فارس وبعث معه الخزائن والعتاد وجماعةً كثيرةً من الأتراك وذلك عندما أحسّ بشدّة المرض. ولما أيس أصحابه منه اجتمع إليه أعيانهم وسألوه أن يملّك أحداً، فقال: أنا في شغلٍ عما تدعونني إليه، فقالوا له: ليأمر أخاه بهاء الدولة أبا نصر فيروز أن ينوب عنه إلى أن يُعافى ليحفظ الناس خوفاً من أن تثور فتنة ففعل ذلك، وتوقّف بهاء الدولة ثم أجاب، فلما مات جلس بهاء الدولة في المملكة وقعد للعزاء. وركب الخليفة

الطائع لله وذهب للعزاء وتلقّاه بهاء الدولة، وعاد الخليفة إلى داره وخلع على بهاء الدولة خلع السلطنة.

لما سار أبو علي بن شرف الدولة إلى فارس ومعه والدته وجواريه وأمواله وجواهره وأكثر السلاح وذلك بأمرٍ من أبيه قبل أن يموت، فلما بلغ البصرة أتاهم خبر موت أبيه شرف الدولة فأسرع حتى وصل إلى «أرجان»، ومنها تابع السير إلى «شيراز» واجتمع معه في أرجان من بها من الأتراك.

وكان المراقبون في القلعة التي بها صمصامة الدولة وأخوه أبو طاهر قد أطلقوهما ومعهما القائد فولاذ فساروا إلى «سيراف»، فاجتمع على صمصامة الدولة كثير من الديلم، ووقعت في شيراز الفتنة بين الأتراك والديلم، وخرج الأمير أبو علي من داره إلى معسكر الأتراك فنزل معهم. واجتمع الديلم وقصدوه ليأخذوه ويسلّموه إلى صمصامة الدولة فرأوه قد انتقل إلى الأتراك فكشفوا القناع ونابذوا الأتراك العداوة وجرى بينهم القتال عدة أيامٍ، ثم سار الأمير والأتراك إلى مدينة «فسا» فاستولوا عليها، وأخذوا ما بها من مالٍ، وقتلوا من بها من الديلم وأخذوا أموالهم وسلاحهم فتقووا بذلك. وسار أبو علي إلى أرجان،

وعاد الأتراك إلى شيراز وقاتلوا صمصامة الدولة ومن معه من الديلم، ونهبوا البلد، وعادوا إلى أبي علي بأرجان وأقاموا معه مدةً.

وصل رسول من بهاء الدولة إلى أبي عليٍّ وأدّى الرسالة وطيّب قلبه ووعده، ثم إنه راسل الأتراك سرّاً واستمالهم إليه وأطمعهم فحسّنوا إلى أبي علي المسير إلى بهاء الدولة فسار إليه فلقيه بواسط في منتصف شهر جمادى الآخرة سنة ٣٨٠هـ فأنزله وأكرمه وتركه عدة أيامٍ، ثم قبض عليه وبعد وقتٍ يسيرٍ قتله، وتجهّز بهاء الدولة للسير إلى الأهواز ومنها ينطلق إلى بلاد فارس.

ووقعت فتنة في بغداد بين الأتراك والديلم واشتدّ الأمر واستمرّ القتال بينهم خمسة أيامٍ وبهاء الدولة في داره يراسلهم بالصلح فلم يرعووا ولم يستمعوا إلى قوله وقُتل بعض رسله، ثم إنه خرج إلى الأتراك وحضر القتال معهم فاشتدّ حينئذٍ الأمر وعظم الشرّ ثم إنه شرع في الصلح ورفق بالترك وراسل الديلم فهدأ الوضع وحلف بعضهم لبعضٍ، وكانت مدة القتال بين الفريقين اثني عشر يوماً، ثم إن الديلم تفرّقوا فمضى فريق بعد فريقٍ، فأخرج بعضهم، وقبض على بعضهم الآخر فضعف أمرهم وقويت شوكة الأتراك واشتدّت حالهم.

مسير فخر الدولة إلى العراق:

كان الصاحب بن عباد يرغب بالعراق ويؤثر التقدّم إليها وينتظر الفرصة المناسبة، فلما توفي شرف الدولة وجد أن الفرصة قد جاءت فوجّه إلى فخر الدولة من يُعظّم عنده ملك العراق ويُسهّل أمرها عليه، فمال فخر الدولة إلى ذلك وتجهّز وسار من الريّ إلى همدان على قصد العراق والاستيلاء عليها، وأتاه إلى همدان بدر بن حسنويه الكردي وقصده دبيس بن عفيف الأسدي، واستقر الأمر أن يسير الصاحب بن عباد وبدر بن حسنويه إلى العراق، وأن يسير فخر الدولة إلى الأهواز، فلما سار الصاحب بن عباد حذر فخر الدولة من ناحيته، وقيل له: ربما استماله أبناء عضد الدولة فاستعاده إليه وأخذه معه إلى الأهواز فملكها وأساء السيرة مع جندها، وضيّق عليهم، ولم يبذل المال فخابت ظنون الناس فيه، واستشعر منه أيضاً عسكره، وقالوا: هكذا يفعل بنا إذا تمكّن وحقّق رغبته فتخاذلوا، وكان الصاحب قد أمسك نفسه متأثراً بما قيل عنه من اتهامه، فالأمور بسكوته غير مستقيمة. فلما سمع بهاء الدولة بوصولهم إلى الأهواز سيّر إليهم العساكر والتقوا هم وعساكر فخر الدولة، واتفق أن فاضت الأنهار وتخرّبت السدود فظنّ عسكر فخر الدولة أنها مكيدة

فانهزموا فأصاب القلق فخر الدولة من ذلك، وكان قد استبدّ برأيه فعاد حينئذٍ إلى رأي الصاحب بن عباد فأشار ببذل المال وإرضاء الجند وقال له: إن الرأي في مثل هذه الأوقات إخراج المال وترك مضايقة الجند فإن أطلقت المال ضمنت لك حصول أضعافه بعد سنةٍ فلم يفعل ذلك، وتفرّق عنه كثير من عساكر الأهواز، واتسع الخرق عليه، وضاقت الأمور به فعاد إلى الريّ، وملك أصحاب بهاء الدولة الأهواز.

هرب القادر بالله إلى البطيحة:

لما توفي إسحاق بن المقتدر بالله والد القادر بالله وعمّ الخليفة الطائع لله جرى بين القادر بالله وبين أختٍ له منازعة في ضيعةٍ، وطال الأمر بينهما، ثم إن الخليفة الطائع لله مرض مرضاً شُفي منه، فسعت إليه بأخيها القادر وقالت له: إنه شرع في طلب الخلافة عند مرضك فتغيّر رأيه فيه، فأنفذ إليه من يقبض عليه، ووصلوا إليه واستدعوه فأراد لبس ثيابه فلم يمكّنوه من مفارقتهم فأخذه النساء منهم قهراً، وخرج من داره واستتر ثم سار إلى البطيحة فنزل على مهذب الدولة فأكرم نزله ووسّع عليه وحفظه وبالغ في خدمته، ولم يزل عنده حتى أتته الخلافة.

مقتل باذ الكردي:

كان باذ صاحب ديار بكر فلما تولّى أبو طاهر إبراهيم وأخوه أبو عبد الله الحسين ابنا ناصر الدولة الحمداني بلاد الموصل طمع باذ الكردي فيها وجمع الأكراد فكثر جمعه، وكاتب أهل الموصل فاستمالهم وأجابه بعضهم، وسار إلى الموصل ونزل بالجانب الشرقي منها، فضعف ابنا حمدان عنه وراسلا أبا الذواد محمد بن المسيب أمير بني عقيل واستنصراه فطلب منهما مدينة «جزيرة ابن عمر» ونصيبين، فأجاباه إلى ما طلب واتفقوا وسار إليه أبو عبد الله الحسين بن ناصر الدولة الحمداني، وأقام أخوه أبو طاهر إبراهيم بن ناصر الدولة الحمداني بالموصل يحارب باذ الكردي. فلما اجتمع أبو عبد الله وأبو الذواد سارا وعبرا دجلة وصارا مع باذ على أرضٍ واحدةٍ ـ وهو لا يعلم ـ فأتاه الخبر بعبورهما، وقد قارباه، فأراد الانتقال إلى الجبل لئلا يأتيه هؤلاء من خلفه وأبو طاهر من أمامه فاختلط أصحابه وأدركه عسكر بني حمدان فناوشوهم القتال، وأراد باذ الانتقال عن فرسٍ إلى آخر فسقط واندقت ترقوته، فأتاه ابن أخته أبو علي بن مروان وأراده على الركوب فلم يقدر، فتركوه وانصرفوا واحتموا بالجبل، ووقع باذ بين القتلى فعرفه بعض بني عقيل فقتله، ونقلت

جثته إلى الموصل فصُلبت على دار الإمارة، وثارت العامة، وقالوا: رجل غازٍ لا يصحّ فعل هذا به، فأنزلوه وكفّنوه وصلّوا عليه ودفنوه.

لما قُتل باذا الكردي سار ابن أخته أبو علي بن مروان في طائفةٍ من الجيش إلى حصن كيفا ـ وهو على دجلة ومن أحسن المعاقل ـ وكان به امرأة باذ الكردي، فلما بلغ الحصن قال لزوجة خاله: قد بعثني خالي إليك في أمرٍ مهمٍّ، فظنّته حقاً، فلما صعد أعلمها بهلاكه، وأطمعها بالزواج بها فوافقته على ملك الحصن وغيره، ونزل وقصد حصناً حصناً حتى ملك ما كان لخاله، وسار إلى ميافارقين، وسار إليه أبو طاهر وأبو عبد الله ابنا حمدان طمعاً فيه فوجدا أبا علي قد أحكم أمره، فتصافّوا واقتتلوا، وظفر أبو علي وأسر أبا عبد الله الحسين بن ناصر الدولة الحمداني فأكرمه وأحسن إليه ثم أطلقه فسار إلى أخيه أبي طاهر ـ وهو يحاصر آمد ـ فأشار عليه بمصالحة أبي علي بن مروان فلم يفعل، واضطر أبو عبد الله إلى موافقته وسار إلى ابن مروان فواقعاه فهزمهما وأسر أبا عبد الله أيضاً فأساء إليه وضيّق عليه إلى أن كاتبه صاحب مصر العبيدي وشفع إليه فأطلقه، ومضى إلى مصر وقلّده العبيدي ولاية حلب

وأقام بتلك الديار إلى أن توفي، وأما أبو طاهر فإنه لما وصل إلى نصيبين قصده أبو الذواد محمد بن المسيب أمير بني عقيل فأسره وعلياً ابنه والمزعفر أمير بني نمير وقتلهم صبراً. وأقام ابن مروان بديار بكر وضبطها وأحسن إلى أهلها وألان جانبه لهم فطمع فيه أهل ميافارقين واستطالوا على أصحابه فأمسك عنهم إلى يوم العيد وقد خرجوا إلى المصلى فلما تكاملوا بالعراء وافى البلد، وأخذ أبا الصقر شيخ البلد فألقاه عن السور، وقبض على من كان معه وأخذ الأكراد ثياب الناس خارج البلد، وأغلق أبواب البلد وأمر أهلها أن ينصرفوا حيث شاءوا ولم يمكّنهم من الدخول فذهبوا كل مذهبٍ، وكان قد تزوّج ست الناس بنت سعد الدولة بن سيف الدولة الحمداني فأتته من حلب فعزم على زفافها بآمد فخاف شيخ البلد عبد البر أن يفعل بهم مثل فعله بأهل ميافارقين فأحضر ثقاته وحلّفهم على كتمان سره، وقال لهم: قد صحّ عندي أن الأمير عزم على أن يفعل بكم مثل فعله بأهل ميافارقين وهو يدخل من باب الماء ويخرج من باب الجهاد فقفوا في الدار وانثروا عليه هذه الدراهم ثم اعتمدوا بها وجهه فإنه سيُغطّيه بكُمّه فاضربوه بالسكاكين في مقتله ففعلوا، وتولّى قتله رجل يقال له: ابن دمنة كان فيه إقدام وجُرأة

فاختبط الناس وماجوا فرمى برأسه إليهم فأسرعوا السير إلى ميافارقين، وحدّثت جماعة من الأكراد نفوسهم بملك البلد فارتاب مستحفظ ميافارقين لإسراعهم، وقال: إن كان الأمير حيّاً فادخلوا معه، وإن كان قُتل فأخوه مستحق لموضعه، فما كان أسرع من أن وصل مُمهّد الدولة أبو منصور بن مروان أخو أبو علي إلى ميافارقين ففتح له باب البلد فدخله وملكه، ولم يكن له فيه إلا السكّة والخطبة، وأما عبد البر فاستولى على آمد وزوّج الذي قتل أبا علي ابنته، فعمل له ابن دمنة دعوةً وقتله، وملك آمد، وعمّر البلد، وبنى لنفسه قصراً عند السور، وأصلح أمره مع مُمهّد الدولة، وهادى ملك الروم وصاحب مصر وغيرهما من الملوك وانتشر ذكره.
وأما مُمهّد الدولة فإنه كان معه إنسان من أصحابه يسمى «شروة» حاكماً في مملكته، وكان لشروة غلام ولّاه الشرطة، وكان مُمهّد الدولة يبغضه ويريد قتله، ويتركه احتراماً لصاحبه، ففطن الغلام لذلك فأفسد ما بينهما، فعمل «شروة» طعاماً بقلعة «الهتّاخ» - وهي إقطاعه - ودعا إليها مُمهّد الدولة فلما حضر عنده قتله وذلك سنة ٤٠٢هـ، وخرج من الدار إلى بني عمّ مُمهّد الدولة فقبض عليهم وقيّدهم، وأظهر أن مُمهّد الدولة أمره بذلك، ومضى إلى ميافارقين وبين يديه المشاعل ففتحوا

له ظنّاً منهم أنه مُمهّد الدولة فملكها، وكتب إلى أصحاب القلاع يستدعيهم، وأنفذ إنساناً إلى «أرزن» ليحضر متوليها، ويُعرف بـ «خواجة أبي القاسم»، وخرج خواجه إلى ميافارقين، ولم يسلم القلعة إلى القاصد إليه، فلما توسّط الطريق سمع بقتل مُمهّد الدولة فعاد إلى «أرزن»، وأرسل إلى «أسعرد» فأحضر أبا نصر بن مروان أخا مُمهّد الدولة، وكان أخوه قد أبعده عنه، وكان يبغضه لمنامٍ رآه، وهو أنه رأى كالشمس سقط في حجره فنازعها أبو نصر عليها وأخذها فأبعده لهذا، وتركه بـ «أسعرد» مضيّقاً عليه فلما استدعاه «خواجه» قيل له: تفلح، قال: نعم، وكان «شروة» قد أنفذ إلى أبي نصر فوجده قد سار إلى «أرزن» فعلم حينئذٍ انتقاض أمره، وكان مروان والد مُمهّد الدولة قد أضرّ وهو بـ «بأرزن» عند قبر ابنه أبي عليٍّ هو وزوجته فأحضر «خواجه» أبا نصر عندهما وحلّفه على القبول منه والعدل وأحضر القاضي الشهود على اليمين وملّكه «أرزن» ثم ملك سائر ديار بكر فدامت أيامه، وأحسن السيرة، وكان مقصداً للعلماء من سائر الآفاق، وكثروا في بلاده. فلما مات سنة ٤٥٣هـ ملك بلاده ولده.

زوال ملك بني حمدان في الموصل:

لما انهزم أبو طاهر إبراهيم بن ناصر الدولة الحمداني من أبي علي بن مروان، سار أبو طاهر إلى نصيبين في قلّةٍ من أصحابه، وكانوا قد تفرّقوا فطمع فيه أبو الذواد محمد بن المسيب أمير بني عقيل ـ وكان صاحب نصيبين حينئذٍ ـ فثار بأبي طاهر فأسره وأسر ولده وعدداً من قوادهم وقتلهم، وسار إلى الموصل فملكها وأعمالها، وكاتب بهاء الدولة أن يرسل إليه من يقيم عنده من أصحابه يتولّى الأمور، فسيّر إليه قائداً من قادته، وأقام نائباً عن بهاء الدولة وليس له من الأمر شيء ولا يحكم إلا بما يريده أبو الذواد محمد بن المسيب أمير بني عقيل.

وسار بهاء الدولة عن بغداد إلى الأهواز على قصد بلاد فارس، واستخلف على بغداد أبا نصر خواشاذه، ووصل بهاء الدولة إلى البصرة وانطلق منها إلى الأهواز فأتاه نعي أخيه أبي طاهر فجلس للعزاء به، ودخل «أرجان» فاستولى عليها وأخذ ما فيها من الأموال والجواهر والثياب، فلما علم الجند بذلك شغبوا عليه فأطلق لهم أكثر الأموال ولم يبق معه إلا القليل منها. ثم سارت مقدمته بقيادة أبي العلاء بن

الفضل نحو الداخل فالتقت بعساكر صمصامة الدولة فهزمتها وبثّ أصحابه في نواحي فارس فسيّر إليهم صمصامة الدولة عسكراً بقيادة فولاذ بن زماندار فاقتتلوا فانهزم أبو العلاء ورجع إلى أرجان، وجرى الصلح بين الطرفين على أن يكون لصمصامة الدولة بلاد فارس وأرجان ولبهاء الدولة العراق والأهواز. ومنذ أن خرج بهاء الدولة عن بغداد إلى أن عاد إليها والفتن والقتال بين السنة والشيعة ودام ذلك عدة شهورٍ.

وقبل أن يخرج بهاء الدولة إلى الأهواز استوزر أبا نصر سابور بن أزدشير.

القبض على الخليفة الطائع لله:

قلّت الأموال عند بهاء الدولة للهوه وسرفه وإعطائه الجند ما يرغبون لتحقيق مراميه، فشغب الجند عليه لقلة المال فقبض على وزيره سابور بن أزدشير فلم يغن عنه ذلك شيئاً، وكان أبو الحسن بن المعلم قد غلب على بهاء الدولة وحكم في مملكته فحسّن له القبض على الخليفة الطائع لله، وأطمعه في ماله، وهوّن عليه ذلك وسهّله، فأقدم عليه بهاء الدولة، وأرسل إلى الطائع لله وسأله الإذن في الحضور في خدمته ليُجدّد العهد به فأذن له في ذلك وجلس له كما جرت العادة

فدخل بهاء الدولة ومعه جمع كثير فقبل الأرض، وأُجلس على كرسيٍ فدخل بعض الديلم كأنه يريد أن يُقبّل يد الخليفة فجذبه وأنزله عن سريره، والخليفة يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، وهو يستغيث ولا يلتفت إليه. وأخذ ما في دار الخليفة من الذخائر، فمشوا في الحال ونهب الناس بعضهم بعضاً. وحُمل الخليفة إلى دار بهاء الدولة وأشهد عليه بالخلع.

ولما ولي القادر بالله الخلافة حُمل إليه الطائع وبقي عنده إلى أنه توفي سنة ثلاثٍ وتسعين وثلاثمائةٍ ليلة عيد الفطر، وصلى عليه القادر بالله.

ثانياً: الحمدانيون:

بعد أن مات سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان صاحب حلب وحمص وما بينهما وذلك سنة ٣٥٦هـ خلفه ابنه شريف أبو المعالي سعد الدولة. وكان سعد الدولة في ميافارقين لما مات أبوه بحلب، فقصدها وجلس على سرير أبيه سنة ٣٥٦هـ، وقامت وحشة بين سعد الدولة أبي المعالي وبني خاله أبي فراس الحمداني الحارث بن سعيد بن حمدان وكان ينافسه وهو نائبه على حمص، فطلبه أبو المعالي فانحاز أبو فراس إلى بلدة صدد جنوب حمص، فجمع أبو المعالي الأعراب

من بني كلاب وسيّرهم في طلبه مع قرعويه حاجب أبيه سيف الدولة فأدركوه بصدد فكبسوه فاستأمن أصحابه فاختلط هو بمن استأمن منهم، فقال قرعويه لغلام له: اقتله فقتله. ورجع قرعويه إلى حلب.

جاءت قوة من الروم باتجاه حلب فخاف أبو المعالي أن يحاصره الروم في حلب فغادرها إلى ميافارقين حيث تقيم أمه هناك، واستقل قرعوية بحلب سنة ٣٥٨هـ وعقد مع الروم معاهدةً. ثم انتقل أبو المعالي من ميافارقين إلى معرة النعمان فأقام بها ثلاث سنين، ثم انتقل إلى حمص.

استناب قرعويه على حلب مولاه «نكجور» فقوي أمر نكجور فقبض على مولاه قرعويه وحبسه في قلعة حلب، وأقام بها نحواً من ست سنواتٍ. وكتب أصحاب قرعويه في حلب إلى أبي المعالي ليقصد حلب ويملكها، فسار إليها وحاصرها مدة أربعة أشهرٍ ثم دخلها، وبقيت القلعة بيد نكجور فترددت الرسل بينهما فأجاب إلى التسليم على أن يؤمّنه على نفسه، وأهله وماله وأن يوليه حمص، وطلب نكجور أن يحضر هذا الأمان والعهد وجوه بني كلاب فأجابه ووفّى بذلك إذ أحضرهم الأمان والعهد، وسلّم نكجور قلعة حلب إلى

أبي المعالي، وسار هو إلى حمص فوليها لأبي المعالي وصرف همته إلى عمرانها.

وفي سنة ٣٦٧هـ كتب أبو المعالي إلى عضد الدولة البويهي في بغداد يعرض عليه الطاعة فجاءته خلعة من الخليفة الطائع لله مع لقب سعد الدولة، وكان قبل ذلك يقال له: أبو المعالي. وكانت ديار مضر (حران والرقة) لأبي تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة الحمداني، وكان يتولّى أمرها سلامة البرقعيدي فأرسل سعد الدولة جيشاً من حلب فجرت بينهما حروب، كما أن عضد الدولة قد أرسل النقيب أبا أحمد الموسوي والد الشريف الرضي والشريف المرتضى إلى البلاد التي بيد سلامة البرقعيدي فتسلّمها بعد حربٍ شديدةٍ ودخل أهلها في الطاعة، فأخذ عضد الدولة لنفسه الرقة وردّ الباقي إلى سعد الدولة فصارت له. ثم تفرغ عضد الدولة واستولى على باقي أعمال أبي تغلب الحمداني واستخلف عضد الدولة على الموصل أبا الوفاء وعاد هو إلى بغداد في نهاية شهر ذي القعدة سنة ٣٦٨هـ.

وفي سنة ٣٧١هـ طالب الدمستق بردس قائد جيش الروم طالب سعد الدولة بمال الهدنة فاتفق معه على ٤٠٠ ألف درهم فضة يُؤدّيها سعد الدولة كل سنةٍ

للروم. ولكن عاد الدمستق سنة ٣٧٣هـ يريد دخول حلب فصمد له سعد الدولة وانهزم الدمستق.

وحدث غلاء وقحط بدمشق فكان والي حمص نكجور التركي يمّد أهل دمشق بما يحتاجون فأحبه الناس، وصار نكجور يتودّد إلى صاحب مصر العبيدي ويتقرّب إليه فوعده بولاية دمشق، وحدثت وحشة بين أبي المعالي الحمداني وبين نائبه على حمص نكجور التركي، فكتب أبو المعالي إلى نكجور يأمره أن يفارق حمص، فسار نكجور إلى مصر يطلب من العزيز العبيدي إنجاز ما وعده بإعطائه مدينة دمشق، وكان العزيز قد اضطر بعد شغب المغاربة بمصر ووثوبهم على الوزير ابن كلس وقتله فأمر نائبه على دمشق «بلتكين» أن يتّجه إلى مصر وأن يسلّم دمشق إلى «نكجور» فقال له: إن نكجور إذا ولي دمشق عصي فيها، فلم يصغ إلى قوله، وأرسل إلى بلتكين يأمره بقصد مصر وتسليم دمشق إلى نكجور فدخلها في شهر رجب سنة ٣٧٢هـ والياً عليها، وأساء المعاملة إلى أصحاب الوزير ابن كلس، وظلم، وبقي ذلك حتى سنة ٣٧٨هـ. وعمل أبو المعالي على تأديب نائبه السابق على حمص وهو نكجور وسيّر له جيشاً فطلب نكجور المساعدة من

العبيديين فأنجدوه، وطلب أبو المعالي دعم الروم ووقعت الحرب بين الطرفين، وانتصر أبو المعالي سعد الدولة.

عزل العزيز العبيدي صاحب مصر عن دمشق نكجور وأرسل له قوةً بإمرة منير الخادم فساروا إلى الشام، وجمع نكجور ما استطاع حشده وخرج من دمشق للقاء العسكر المصري فالتقى به عند بلدة داريا جنوب غربي دمشق وعلى بُعد عشرين كيلومتراً منها وقاتلهم واشتدّ القتال، وانهزم نكجور وعسكره وخشي من وصول نزّال والي طرابلس وكان قد كتب له العزيز العبيدي بدعم منير الخادم، فلما انهزم نكجور خاف أن يجيء نزال ويأخذه فأرسل يطلب الأمان ليسلّم البلد إليهم فأجابوه إلى ذلك، فجمع ماله، وسار وأخفى أثره لئلا يغدر به المصريون، وتوجّه إلى الرقة فاستولى عليها، وتسلّم منير الخادم دمشق ففرح أهلها وسرّتهم ولايته.

استولى نكجور على الرحبة وما يجاور الرقة، وراسل بهاء الدولة بن بويه بالانضمام إليه، وكاتب باذ الكردي الذي تغلب على ديار بكر والموصل بالمسير إليه، وراسل أبا المعالي سعد الدولة بن سيف الدولة

بأن يعود إلى طاعته على قاعدته الأولى ويقطعه منه مدينة حمص كما كانت له فليس فيهم من أجابه إلى شيءٍ مما طلب فبقي بالرقة يراسل جماعةً من رفاقه من مماليك سعد الدولة ويستميلهم فأجابوه إلى الموافقة على قصد بلد سعد الدولة وأخبروه أنه مشغول بلذاته وشهواته عن تدبير الملك، فأرسل حينئذٍ نكجور إلى العزيز العبيدي صاحب مصر يطمعه في حلب ويقول له إنها دهليز العراق ومتى أُخذت كان ما بعدها أسهل منها، ويطلب الاتجاه بالعساكر، فأجابه العزيز العبيدي إلى ذلك، وأرسل إلى نزال والي طرابلس وإلى غيره من ولاة البلاد الشامية يأمرهم بتجهيز العساكر مع نزال إلى نكجور والتصرّف على ما يأمرهم به من قتال سعد الدولة وقصد بلاده.

ولما وصل أمر العزيز العبيدي إلى نزال بنجدة نكجور، كتب نزال إلى نكجور يعرفه ما أُمر به من نجدته بنفسه وبالعساكر معه، وقال له: مسيرك عن الرقة يوم كذا ومسيري أنا عن طرابلس يوم كذا ويكون اجتماعنا على حلب يوم كذا، وتابع رسله إليه بذلك فسار مغترّاً بقوله إلى بالس[1] فامتنعت عليه فحاصرها

---

(١) بالس: بلدة بين حلب والرقة، سُمّيت بهذا الاسم فيما ذكر=

خمسة أيامٍ فلم يظفر بها، وبلغ خبر مسير نكجور إلى سعد الدولة فسار عن حلب ومعه لؤلؤ الكبير مولى أبيه سيف الدولة، وكتب إلى نكجور يستميله ويدعوه إلى الموافقة ورعاية حق الرق والعبودية، ويبذل له أن يقطعه من الرقة إلى حمص فلم يقبل منه ذلك، وكان سعد الدولة قد كاتب الوالي بإنطاكية لملك الروم يستنجده فسيّر إليه جيشاً كثيراً من الروم، وكاتب أيضاً من كان مع نكجور من العرب يرغبهم في الإقطاع والعطاء الكثير والعفو عن مساعدتهم نكجور فمالوا إليه ووعدوه

= باسم: بالس بن الروم بن اليقن بن سام بن نوح ﷺ. وهي على ضفة نهر الفرات الغربية، فلم يزل نهر الفرات يشرق عنها قليلاً قليلاً حتى صار بينهما أربعة أميال: فلما سار مسلمة بن عبد الملك لغزو الروم من جهة الثغور الجزرية عسكر ببالس فأتاه أهلها وأهل بوَيلس وقاصرين وعابدين وصفين، وهي قرى منسوبة إليها، فسألوه جميعاً أن يحفر لهم نهراً من الفرات يسقي أرضهم على أن يجعلوا له الثلث من غلّاتهم بعد عُشر السلطان الذي كان يأخذه، فحفر النهر المعروف بنهر مسلمة، وأوفوا له بالشرط، ورمّم سور المدينة وأحكمه. فلما مات مسلمة صارت بالس وقراها لورثته حتى جاءت الدولة العباسية وقبض عبد الله بن عليّ أموال بني أمية فدخلت فيها، فأقطعها أبو العباس إلى محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس، فلما مات صارت للرشيد فأقطعها لابنه المأمون، فصارت لولده من بعده.

الهزيمة بين يديه، فلما التقى الجمعان اقتتلوا أشدّ القتال، فلما اختلط الناس في الحرب وشغل بعضهم ببعضٍ عطف العرب على معسكر نكجور ونهبوه، واستأمنوا إلى سعد الدولة، فلما رأى نكجور ذلك اختار من شجعان أصحابه أربعمائة رجلٍ وعزم على أن يقصد موقف سعد الدولة ويلقي نفسه عليه فإما له وإما عليه، فهرب واحد ممن حضر الاختيار وذهب إلى لؤلؤ وعرّفه ذلك، فطلب لؤلؤ من سعد الدولة أن يتحرّك من موقفه ويقف مكانه فأجابه إلى ذلك بعد تمنّعٍ، فحمل نكجور ومن معه فوصلوا إلى مكان لؤلؤ بعد قتالٍ شديدٍ عجب منه الناس واستعظموه كلهم، فلما رأى لؤلؤاً ألقى نفسه عليه ـ وهو يظنّه سعد الدولة ـ وضربه على رأسه فسقط على الأرض فظهر حينئذٍ سعد الدولة وعاد إلى موقعه ففرح به أصحابه وقويت نفوسهم، وأحاطوا بنكجور وصدقوا القتال فمضى منهزماً هو وعامة أصحابه وتفرّقوا وبقي منهم معه سبعة رجالٍ، وكثر القتل والأسر في الباقين، ولما طال الطريق بنكجور ألقى سلاحه وتابع السير فوقف فرسه فنزل عنه وسار راجلاً فلحقه نفر من العرب فأخذوا ما عليه، وقصد بعض العرب فنزل عليه وعرّفه بنفسه وضمن له حمل بعيرٍ ذهباً ليرسله إلى الرقة فلم يصدقه لبخله المشهور عنه، فتركه

في بيته وتوجه إلى سعد الدولة فأعلم أن نجكور عنده، فحكّمه سعد الدولة في مطالبه فطلب مائتي فدان ملكاً، ومائة ألف درهمٍ، ومائة جملٍ تحمل له حنطةً، وخمسين قطعةً من الثياب فأعطاه ذلك أجمع وزيادةً وسيّر معه سريةً فتسلّموا نكجور وأحضروه عند سعد الدولة، فلما رآه أمر بقتله فقُتل.

سار سعد الدولة إلى الرقة فنازلها وبها سلامة الرشيقي وأولاد نكجور وأبو الحسن علي بن الحسين المغربي وزير نكجور فسلّموا البلد إليه بأمانٍ وعهودٍ أكّدوها وأخذوها عليه لأولاد نكجور وأموالهم وللوزير المغربي ولسلامة الرشيقي ولأموالهم. فلما خرج أولاد نكجور بأموالهم رأى سعد الدولة ما معهم فاستعظمه واستكثره، وكان عنده القاضي ابن أبي الحصين فقال سعد الدولة: ما كنت أظنّ أن نجكور يملك هذا جميعه، فقال له القاضي: لِمَ لا تأخذه فهو لك لأنه مملوك لا يملك شيئاً ولا حرج عليك ولا حنث. فلما سمع سعد الدولة هذا أخذ المال جميعه وقبض عليهم، وهرب الوزير المغربي. وكتب أولاد نكجور إلى العزيز العبيدي بمصر يسألونه الشفاعة فيهم فأرسل إليه يشفع فيهم ويأمره أن يسيّرهم إلى مصر، ويتهدّده إن لم يفعل،

فأهان حامل الكتاب، وقال له: قل لصاحبك أنا سائر إليه، وسيّر مقدّمته إلى حمص وأخذ يستعدّ ليلحق بهم.

لما استعدّ سعد الدولة للسير إلى دمشق أصابه الفالج، وعدّ نكثه بعهد لأولاد نكجور هو سبب مرضه، وعاش بعدها ثلاثة أيامٍ ومات وذلك سنة ٣٨١هـ، وكانت وفاته بحلب، وحمل إلى الرقة فدفن بها.

كان سعد الدولة قد عهد إلى ولده أبي الفضائل من بعده، ووصى إلى لؤلؤ بولده وسائر أهله، فلما مات قام أبو الفضائل وأخذ لؤلؤ له العهد على الأجناد، وتراجعت العساكر إلى حلب. وكان الوزير أبو الحسن علي بن الحسين المغربي قد سار إلى العزيز العبيدي بمصر وأطمعه في حلب فسيّر جيشاً بقيادة أحد أمرائه وهو «منجوتكين» ووجّهه إلى حلب فانطلق إليها في جيشٍ كثيفٍ وحاصرها وبها أبو الفضائل ولؤلؤ، فكتبا إلى «بسيل» ملك الروم يستنجدانه ـ وهو يقاتل البلغار ـ فأرسل بسيل إلى نائبه، بإنطاكية يأمره بإنجاد أبي الفضائل فسار إليه في خمسين ألف مقاتلٍ حتى نزل على الجسر الجديد بالعاصي، فلما سمع منجوتكين الخبر سار إلى الروم ليلقاهم قبل اجتماعهم بأبي الفضائل وعبر إليهم العاصي وأوقع عسكره بالروم

فهزموهم وولّوا الأدبار إلى إنطاكية وكثر القتل فيهم.

وسار منجوتكين إلى إنطاكية فنهبها ونهب قراها وأحرقها، وأسرع أبو الفضائل إلى مدينة حلب فنقل ما فيها من الغلال وأحرق الباقي إضراراً بعساكر مصر، وانطلق منجوتكين إلى حلب فحاصرها فأرسل لؤلؤ إلى أبي الحسن علي بن الحسين المغربي وغيره وبذل لهم مالاً ليردّوا منجوتكين عنهم بعلّة تعذّر الأقوات ففعلوا ذلك، وكان منجوتكين قد ضجر الحرب فأجابهم إليه وسار إلى دمشق، ولما بلغ الخبر العزيز العبيدي غضب وكتب بعودة العسكر إلى حلب وإبعاد المغربي، وأنفذ الأقوات من مصر في البحر إلى طرابلس ومنها إلى العسكر، فنازل العسكر حلب وأقاموا عليها ثلاثة عشر شهراً فقلّت الأقوات بحلب وعاد أبو الفضائل ولؤلؤ فراسلا ملك الروم والاعتضاد به، وقالا له: متى أُخذت حلب أُخذت إنطاكية وعظم عليك الخطب، وكان قد وصل إلى داخل بلاد البلغار فعاد وجدّ في السير ـ وكان الزمان ربيعاً ـ، وأرسلت عساكر مصر إلى منجوتكين تُعلمه ذلك، وأتته عيونه بمثل ذلك فأخرب ما كان بناه من سوقٍ وحمامٍ وغير ذلك، وسار كالمنهزم عن حلب، ووصل ملك الروم فنزل على باب حلب، وخرج

إليه أبو الفضائل ولؤلؤ، ثم عادا إلى حلب ورحل ملك الروم بسيل إلى الشام فدخل شيزر وحمص ونهبها، وسار إلى طرابلس فنازلها فامتنعت عليه، وأقام عليها نيفاً وأربعين يوماً، فلما أيس منها عاد إلى بلاد الروم.

ولما وصل الخبر إلى العزيز العبيدي صاحب مصر عظم عليه الأمر وأعلن بالناس النفير لغزو الروم، وبرز من القاهرة وأصابته أمراض منعته، وأدركه الموت.

وأما في الموصل فقد اختلف أبناء ناصر الدولة الحسن بن عبد الله أبي الهيجاء بن حمدان بن حمدون وسبب اختلافهم أن أباهم ناصر الدولة كان قد أقطع ولده حمدان مدينة الرحبة وماردين وغيرهما، وكان أبو تغلب، وأبو البركات ابنا ناصر الدولة وأختهما جميلة وهم من زوجته فاطمة بنت أحمد الكردية وكانت مالكة أمر ناصر الدولة فاتفقت مع ابنها أبي تغلب وقبضوا على ناصر الدولة وحبسوه في القلعة ليلة السبت لستٍّ بقين من شهر جمادى الأولى سنة ٣٥٦هـ، وكان ناصر الدولة قد ضيّق في أواخر أيامه على أولاده وخالفهم في أغراضهم فضجروا منه، وكان فيما خالفهم فيه أنه لما مات معز الدولة عزم أولاد ناصر الدولة على قصد

العراق وأخذها من بختيار بن معز الدولة فنهاهم أبوهم، وقال لهم: إنه معز الدولة قد خلّف مالاً يستظهر به ابنه بختيار عليكم فاصبروا حتى يتفرّق ما عنده من المال ثم اقصدوه وفرّقوا الأموال فإنكم تظفرون به لا محالة.

وثب أبو تغلب بن ناصر الدولة على أبيه وقبض عليه ورفعه إلى القلعة ووكّل به من يخدمه ويقوم بحاجاته وما يحتاج إليه، فلما فعل ذلك خالفه بعض إخوته وتفرّق أمرهم الذي كان يجمعهم، وصار همّهم حفظ ما في أيديهم، واحتاج أبو تغلب إلى مداراة عزّ الدولة بختيار وتجديد عقد الضمان ليحتجّ بذلك على إخوته ومن خالفه منهم، فضمّنه عز الدولة البلاد بألف ألفٍ ومائتي ألف درهمٍ كل سنةٍ.

وابتدأ ناصر الدولة في سجنه يُدبّر أمر القبض على أبنائه الذين قبضوا عليه وخاصةً أبا تغلب وأبا البركات وأختهما جميلة وأمهم فاطمة فكاتب ابنه حمدان يستدعيه ليتقوّى به عليهم فظفر أبناؤه بالكتاب فلم ينفذوه، وخافوا أباهم وحذروه، وحملهم خوفهم على نقله إلى قلعة «كواشي»، واتصل ذلك بحمدان فعظم عليه، وصار عدوّاً مبايناً لهم، وكان أشجعهم، وكان قد

سار عند وفاة سيف الدولة من الرحبة إلى الرقة فملكها، وسار إلى نصيبين وجمع من أطاعه وطالب إخوته بالإفراج عن والده وإعادته إلى منزله وأمره، فسار أبو تغلب ليحاربه فانهزم حمدان قبل اللقاء إلى الرقة، فنازله أبو تغلب وحاصره ثم اصطلحا على دخنٍ وعاد كل واحدٍ منهما إلى موضعه، وعاش ناصر الدولة عدة شهورٍ ثم مات في شهر ربيع الأول سنة ٣٥٨هـ، ودُفن بـ «تل توبة» شرق الموصل.

قبض أبو تغلب أملاك أخيه حمدان، وسيّر أخاه أبا البركات إلى أخيه حمدان في الرحبة، فلما اقترب أبو البركات من الرحبة استأمن إليه كثير من أصحاب أخيه حمدان فانهزم حينئذٍ وقصد العراق مستأمناً عز الدولة بختيار، فوصل إلى بغداد في شهر رمضان سنة ٣٥٨هـ فأكرمه بختيار وحمل إليه الهدايا، وبعث إلى أبي تغلب بالموصل أبا أحمد الموسوي نقيب الطالبيين في الصلح مع أخيه فاصطلحا وعاد حمدان إلى الرحبة وكان مسيره من بغداد في شهر جمادى الأولى سنة ٣٥٩هـ، فلما سمع أبو البركات بمسير أخيه حمدان فارق الرحبة، ودخلها حمدان، وراسله أخوه أبو تغلب في الاجتماع به فامتنع من ذلك فعاد أبو تغلب وسيّر

إليه أخاه أبا البركات فلما علم حمدان بذلك فارقها فاستولى أبو البركات عليها، واستناب بها من يحفظها في طائفةٍ من الجيش وعاد إلى الرقة، ومنها إلى عَرَبان[1]. فلما سمع حمدان بعودة أخيه أبي البركات عنها، وكان هو في جهات تدمر عاد إليها مسرعاً في شهر شعبان فوافاها ليلاً فأصعد جماعةً من غلمانه السور وفتحوا له باب البلد فدخلها ولا يعلم الجند الذين فيها بذلك، فلما صار بداخلها أمر بضرب البوق فأسرع بعض الجند دون سلاح يظنون أن صوت البوق من خارج البلد فأسر حمدان الجند الذين بادروا نحوه جميعاً فقتل بعضهم واستبقى بعضاً، فلما سمع أبو البركات بذلك عاد إلى قرقيسيا[2] فاجتمع هو وأخوه حمدان منفردين فلما يتفقا على قاعدةٍ، فقال أبو البركات لحمدان، أنا أعود إلى عَرَبان، وأرسل إلى أبي تغلب لعله يجيب إلى ما تلتمسه منه، فسار عائداً إلى عَرَبان، وعبر حمدان نهر الفرات من مخاضةٍ به وسار في أثر أخيه أبي البركات فأدركه وهو بعربان ـ وهو آمن ـ فلقيهم أبو البركات بغير مجنٍّ ولا سلاحٍ فقاتلهم

(١) عربان: بلدة على الخابور من أرض الجزيرة الفراتية.

(٢) قرقيسيا: بلدة على الفرات عند التقاء نهر الخابور به.

واشتدّ القتال بينهم، وحمل أبو البركات بنفسه في وسطهم فضربه أخوه حمدان فألقاه وأخذه أسيراً فمات من يومه وهو الثالث من شهر رمضان سنة ٣٥٨هـ فحُمل في تابوت إلى الموصل ودُفن في تل توبةٍ عند أبيه.

تجهّز أبو تغلب ليسير إلى أخيه حمدان وقدّم بين يديه أخاه محمداً أبا الفوارس إلى نصيبين فلما وصل إليها كاتب أخاه حمدان ومال على أبي تغلب. فبلغ الخبر أبا تغلب فأرسل إليه يستدعيه ليزيد في إقطاعه فلما حضر عنده قبض عليه وسيّره إلى قلعة «كواشي» من منطقة الموصل وأخذ أمواله وكانت قيمتها خمسمائة ألف دينارٍ، وأبقاه في القلعة سجيناً.

لما قبض أبو تغلب على أخيه أبي الفوارس سار أخواهما إبراهيم أبو طاهر والحسين أبو عبد الله إلى أخيهما حمدان خوفاً من أبي تغلب فاجتمعا معه وساروا إلى سنجار، فسار أبو تغلب إليهم من الموصل في شهر رمضان سنة ٣٦٠هـ، ولم يكن لهم بلقائه طاقة فراسله أخواه إبراهيم والحسين يطلبان العودة إليه خديعةً منهما ليأمنهما ويفتكا به فأجابهما إلى ذلك فهربا إليه وتبعهما كثير من أصحاب حمدان، فعاد حينئذٍ حمدان من سنجار إلى عربان، واستأمن إلى أبي تغلب صاحب حمدان وأطلعه على حيلة أخويه عليه وهما: إبراهيم

والحسين فأراد القبض عليهما فحذرا وهربا، ثم إن «نما» غلام حمدان ونائبه بالرحبة أخذ جميع ماله بها وهرب إلى أصحاب أبي تغلب بـ «حران» وكانوا مع صاحبه سلامة البرقعيدي فاضطر حمدان إلى العودة إلى الرحبة، وسار أبو تغلب إلى قرقيسيا وأرسل سريةً عبروا الفرات وكبسوا حمدان بالرحبة، فهرب حمدان، واستولى أبو تغلب على الرحبة، وعمّر سورها، وعاد إلى الموصل فدخلها في شهر ذي الحجة سنة ٣٦٠هـ، وسار حمدان إلى بغداد فدخلها ملتجئاً إلى عزّ الدولة بختيار في آخر شهر ذي الحجة سنة ٣٦٠هـ، هو وأخوه إبراهيم، وكان أخوهما الحسين قد عاد إلى أخيه أبي تغلب مستأمناً، فحمل بختيار إلى حمدان وأخيه إبراهيم هدايا جليلةً وأكرمهما واحترمهما.

وأرسل أبو تغلب بن ناصر الدولة إلى القرامطة بهجر هدايا جميلةً قيمتها خمسون ألف درهم سنة ٣٥٨هـ. ودخل أبو تغلب مدينة حران في الثالث عشر من جمادى الأولى سنة ٣٥٩هـ فأناب عليها سلامة البرقعيدي وكان له عمل الرقة أيضاً وعاد أبو تغلب إلى الموصل.

وأغار ملك الروم سنة ٣٦١هـ على مدينة الرها،

وتقدّم في أرض الجزيرة حتى وصل إلى نصيبين فغنم الروم وسبوا وقتلوا وأحرقوا وخربوا الديار وفعلوا مثل ذلك بديار بكر، ولم يكن من أبي تغلب الحمداني في ذلك حركة ولا سعي في دفعه بل حمل إلى ملك الروم مالاً كفّه به عن نفسه، فسار جماعة من أهل تلك البلاد إلى بغداد مستنفرين، ووقفوا بالجوامع واستنفروا الناس وذكروا ما فعله الروم من النهب والقتل والأسر والسبي فاستعظمه الناس وخوّفهم أهل الجزيرة من انفتاح الطريق نحو بغداد، وطمع الروم وأنهم لا مانع عندهم من التوجّه إلى مقرّ الخلافة. فاجتمع معهم أهل بغداد وقصدوا دار الخليفة المطيع لله، فلم يستطيعوا مقابلته، وكان عز الدولة بختيار البويهي يتصيّد بنواحي الكوفة فخرج إليه وجوه أهل بغداد مستغيثين ومنكرين عليه اشتغاله بالصيد، وترك الجهاد ومنع الروم عن بلاد الإسلام حتى توغّلوا فيها، فوعدهم التجهّز للغزو، وأرسل إلى الحاجب سبكتكين يأمره بالتجهّز للغزو وأن يستنفر العامة، ففعل سبكتكين ذلك، واجتمع من العامة عدد كبير لا يحصون كثرةً، وكتب بختيار إلى أبي تغلب الحمداني صاحب الموصل يأمره بإعداد التموين والعلف، ويعرّفه عزمه على الغزو.

وطمع الروم فيما حصلوا عليه ورأى ملكهم أن يستولي على مدينة آمد فسار إليها وفيها «هزار مرد» غلام عبد الله أبي الهيجاء بن حمدان فكتب إلى أبي تغلب يستصرخه ويستنجده ويعلمه الوضع فسيرّ إليه أخاه أبا القاسم هبة الله فالتقى الطرفان في أواخر شهر رمضان سنة ٣٦١هـ بناحية ميافارقين فانهزم الروم ووقع الدمستق أسيراً، ووضع في السجن وأصابه المرض وبالغ أبو تغلب في علاجه وجمع الأطباء له فلم ينفعه وجاءه الموت الذي لا مفرّ منه وذلك سنة ٣٦٣هـ.

وأخذ أبو تغلب الحمداني قلعة ماردين وقد سلّمها إليه نائب أخيه حمدان، فأخذ أبو تغلب كل ما كان لأخيه فيها من أهلٍ ومالٍ وأثاثٍ وسلاحٍ وحمل جميع ذلك إلى الموصل.

أرسل عز الدولة بختيار من بغداد النقيب أبا أحمد الموسوي برسالة إلى أبي تغلب الحمداني بالموصل فعاد في مطلع سنة ٣٦٣هـ، ولم تؤدّ الرسالة غرضها فسار عز الدولة بختيار إلى الموصل ليستولي عليها وعلى أعمالها وعلى كل ما كان بيد أبي تغلب وذلك نتيجة التجاء حمدان بن ناصر الدولة وأخيه إبراهيم إلى عز الدولة بختيار واستجارتهما وشكواهما إليه من أخيهما أبي

تغلب فوعدهما أن ينصرهما ويخلص لهما أعمالهما وأموالهما منه وينتقم لهما، وشُغل عن ذلك بما كان من قتالٍ في البطيحة وغيرها، فلما فرغ من أشغاله جميعها عاود حمدان وإبراهيم الحديث معه، وبذل حمدان له مالاً جزيلاً، وصغّر عنده أمر أخيه أبي تغلب، وطلب منه أن يضمنه بلاده ليكون في طاعته ويحمل إليه الأموال ويُقيم له الخطبة، ثم إن الوزير أبا الفضل حسّن ذلك وأشار به ظنّاً منه أن الأموال تكثر عليه فتمشي الأمور بين يديه. ثم إن إبراهيم بن ناصر الدولة هرب من عند عز الدولة بختيار وعاد إلى أخيه أبي تغلب فقوي عزم بختيار على قصد الموصل أيضاً، ثم إن بختيار عزل أبا الفضل الوزير واستوزر ابن بقية فكاتبه أبو تغلب فقصّر في خطابه فأغرى به بختيار وحمله على قصده.

سار عز الدولة بختيار عن بغداد، ووصل إلى الموصل في التاسع عشر من شهر ربيع الثاني سنة ٣٦٢هـ، ونزل بالدير الأعلى، وكان أبو تغلب بن ناصر الدولة الحمداني قد غادر الموصل لما اقترب منها بختيار وقصد سنجار، وأخلى الموصل من التموينات، ثم سار من سنجار يطلب بغداد، فلما سمع بختيار

بذلك أعاد وزيره ابن بقية والحاجب سبكتكين إلى بغداد، فأما الوزير فقد دخل بغداد وأما الحاجب فأقام بـ «حربي»[1]. وكان أبو تغلب قد اقترب من بغداد وكانت قد ثارت فتنة في بغداد أشعلها المتلوّنون وسار فيها أهل السوق والعيارون وهي كالتي يثيرها دائماً المتلوّنون بين السنة والشيعة. ولما بلغ أبا تغلب خبر نزول سبكتكين الحاجب في «حربي» عاد عن بغداد ونزل بالقرب منه، وجرت بينهما مطاردة يسيرة، ثم اتفقا في السر على أن يُظهرا الاختلاف إلى أن يتمكّنا من القبض على الخليفة والوزير ووالدة عز الدولة بختيار وأهله فإذا فعلوا ذلك انتقل سبكتكين إلى بغداد وسيطر عليها، وعاد أبو تغلب إلى الموصل ليبلغ من عز الدولة بختيار ما أراد ويملك دولته. ثم إن سبكتكين خاف سوء الأحدوثة فتوقّف وسار الوزير ابن بقية إلى سبكتكين فاجتمع به وانفسخ ما كان بينهما وتراسلوا في الصلح على أن يضمن أبو تغلب البلاد على ما كانت معه وعلى أن يطلق لعز الدولة بختيار ثلاثة آلاف مكيالٍ من الغلّة عوضاً عن مؤونة سفره، وعلى أن يردّ لأخيه حمدان أملاكه وأقطاعه عدا ماردين. ولما اصطلحوا أرسلوا

---

(١) حربى: بليدة بين بغداد وتكريت على نهر دجلة.

إلى بختيار بذلك ليرحل عن الموصل، وعاد أبو تغلب إليها، ودخل سبكتكين بغداد، ووافق بختيار.

ولما سمع بختيار باقتراب أبي تغلب خافه لأن عسكره قد عاد أكثرها مع سبكتكين، وطلب الوزير ابن بقية من سبكتكين أن يسير نحو عز الدولة بختيار فتثاقل ثم فكّر في العواقب فسار على مضضٍ، وكان أظهر للناس ما كانوا هم به، وأما بختيار فقد جمع أصحابه وهو بالدير الأعلى، ونزل أبو تغلب بالحصباء تحت الموصل، وبينهما عرض البلد، وتعصّب أهل الموصل لأبي تغلب وأظهروا محبته لما نالهم من بختيار من المصادرات وأخذ الأموال. ودخل الناس بينهما في الصلح فطلب أبو تغلب من بختيار أن يُلقَّب لقباً سلطانياً، وأن يُسلّم إليه زوجته ابنة بختيار، وأن يحطّ عليه من ذلك القرار فأجابه بختيار خوفاً منه وتحالفا، وسار بختيار عن الموصل عائداً إلى بغداد فأظهر أهل الموصل السرور برحيله لأنه كان قد أساء معهم السيرة وظلمهم، فلما وصل إلى «الكحيل»[1] بلغه أن أبا تغلب قد قتل قوماً كانوا من أصحابه وقد استأمنوا إلى بختيار

---

(١) الكحيل: مدينة على نهر دجلة بين الزابين فوق تكريت من الجانب الغربي. ولا أثر لها اليوم.

فعادوا إلى الموصل ليأخذوا ما لهم بها من أهلٍ ومالٍ فقتلهم، فلما بلغه ذلك اشتدّ عليه وأقام بمكانه وأرسل إلى الوزير طاهر بن بقية والحاجب سبكتكين يأمرهما بالإصعاد إليه، وكان قد أرسل إليهما يأمرهما بالتوقّف ويقول لهما: إن الصلح قد استقرّ، فلما أرسل إليهما يطلبهما أصعدا إليه في العساكر فعادوا جميعهم إلى الموصل ونزلوا بالدير الأعلى في أواخر شهر جمادى الآخرة، وفارقها أبو تغلب إلى تل يعفر[1] وعزم عزّ الدولة بختيار على قصده وطلبه أين سلك، فأرسل أبو تغلب إلى عز الدولة رسلاً فاعتقلهم، ومازالت المراسلات بينهما وحلف أبو تغلب أنه لم يعلم بقتل أولئك فعاد الصلح واستقر، وحمل إليه ما استقر من المال، فأرسل عز الدولة أبا أحمد الموسوي والد الشريف الرضي والقاضي محمد بن عبد الرحمن فحلّفا أبا تغلب وتجدّد الصلح، وغادر عزّ الدولة الموصل في السابع عشر من شهر رجب سنة ٣٦٣هـ، وعاد إليها أبو تغلب. ثم جهّز عز الدولة ابنته وأرسلها إلى أبي تغلب.

وكان ملك الروم بسيلس بن أرمانوس قد أعاد

---

(١) تل يعفر: اسم قلعة بين الموصل وسنجار، وهي على جبل منفرد حصينة محكمة.

سقلاروس إلى مكانته وجعله دمستقاً أي حاكم أرمينية، فلما استقر في الولاية استوحش من الملك فعصى عليه واستظهر بأبي تغلب الحمداني، ولبس التاج وطلب المُلك.

وفي سنة ٣٦٧هـ استولى عضد الدولة بن ركن الدولة البويهي على العراق إذ سار إلى بغداد ودعا ابن عمه عز الدولة بختيار بن معز الدولة البويهي إلى طاعته والسير عن العراق إلى أية جهةً يريدها وضمن مساعدته بما يحتاج إليه من مالٍ وسلاحٍ وغير ذلك، فاختلف أصحاب بختيار عليه في الإجابة إلى ذلك إلا أنه أجاب إليه لضعفٍ شعر به، فأرسل إليه عضد الدولة خلعةً فلبسها، وتجهّز لمغادرة بغداد قاصداً الشام، ودخل عضد الدولة بغداد وخطب له بها.

كان حمدان بن ناصر الدولة الحمداني مع عز الدولة بختيار البويهي عندما عزم على قصد الشام، فلما وصل إلى عكبرا حسّن له حمدان قصد الموصل وأطمعه فيها وبكثرة أموالها، وأنها خير من الشام فسار بختيار نحو الموصل، وكان عضد الدولة قد حلّف عز الدولة بختيار أن لا يقصد ولاية أبي تغلب لمودةٍ ومكاتبةٍ كانت بينهما، فنكث بختيار وقصدها، فلما صار إلى تكريت

أتته رسل أبي تغلب تسأله أن يقبض على أخيه حمدان ويُسلّمه إليه، وإذا فعل، سار بنفسه وعساكره إليه وقاتل معه عضد الدولة وأعاده إلى ملكه في بغداد، فقبض بختيار على حمدان وسلّمه إلى نواب أبي تغلب فحبسه في قلعةٍ له، وسار بختيار إلى الحديثة واجتمع مع أبي تغلب وسارا مع عساكرهما نحو العراق، وكان مع أبي تغلب نحو من عشرين ألف مقاتلٍ، وبلغ ذلك عضد الدولة فسار عن بغداد نحوهما فالتقوا بقصر الجص[1] بنواحي تكريت في الثامن عشر من شهر شوال سنة ٣٦٧هـ فهزمها، وأسر بختيار وأُحضر عند عضد الدولة فلم يأذن بإدخاله إليه، وأمر بقتله فقتل[2] وذلك بمشورة أبي الوفاء طاهر بن إبراهيم، وقُتل من أصحابه عدد كبير.

بعد هزيمة بختيار وأبي تغلب سار عضد الدولة نحو الموصل فدخلها وملكها في الثاني عشر من شهر ذي القعدة سنة ٣٦٧هـ كما ملك كل ما يتصل بها وظنّ

---

(١) قصر الجص: قصر قرب سامراء فوق الهاروني، بناه المعتصم للنزهة.

(٢) كان عمر عز الدولة بختيار يوم قُتل ستاً وثلاثين سنة، وملك إحدى عشرة سنةً وشهوراً.

أبو تغلب أن عضد الدولة سيفعل كما كان غيره يفعل، يقيم يسيراً ثم يضطر إلى المصالحة غير أن مخطط عضد الدولة كان أبعد من ذلك إذ يريد إقصاء كل من كان من غير أرومته عن الساحة، فإنه لما قصد الموصل حمل معه التموين والعلف والخبراء بولاية الموصل وأعمالها، وأقام بالموصل مطمئناً يبثّ السرايا في طلب أبي تغلب، فأرسل أبو تغلب يطلب أن يضمن البلاد فلم يُجبه عضد الدولة إلى ذلك، وقال: هذه البلاد أحب إليّ من بغداد، وكان مع أبي تغلب أبو طاهر وأبو إسحاق ابنا معز الدولة أخوا بختيار وأمهما أم بختيار والمرزبان بن بختيار. وسار أبو تغلب إلى نصيبين فسيّر عضد الدولة سريةً عليها حاجبه أبو حرب طغان إلى مدينة جزيرة ابن عمر، وسيّر في طلب أبي تغلب سريةً واستعمل عليها أبا الوفاء طاهر بن محمد عن طريق سنجار، وسار أبو تغلب مجدّاً فبلغ مدينة ميافارقين وأقام بها ومعه أهله، فلما بلغه مسير أبي الوفاء إليه سار نحو بدليس[1] ومعه النساء وغيرهن من أهله، ووصل أبو الوفاء إلى ميافارقين، فأُغلقت دونه، وهي

---

(١) بدليس: بلدة من نواحي أرمينية قرب مدينة خِلاط، ذات بساتين كثيرة.

حصينة منيعة من حصون الروم القديمة، وتركها وطلب أبا تغلب، وكان أبو تغلب قد عدل من أرزن الروم إلى الحسنية من أعمال الجزيرة، وصعد إلى قلعة كواشي وغيرها من قلاعه وأخذ ما فيها من مالٍ له، وعاد أبو الوفاء إلى ميافارقين وحاصرها.

ولما وصل إلى عضد الدولة خبر مجيء أبي تغلب إلى قلاعه سار إليه بنفسه فلم يدركه، ولكن استأمن إليه أكثر أصحابه، وعاد إلى الموصل، وسيّر في أثر أبي تغلب عسكراً مع قائدٍ من أصحابه هو أبو حرب طغان، فسار أبو تغلب إلى بدليس وظنّ أنه لا يتبعه أحد، فتبعه طغان فهرب من بدليس وقصد بلاد الروم ليتصل بملكهم المعروف ورد الرومي، وهو ليس من بيت الملك وإنما تملّك عليهم قهراً، واختلف الروم عليه ونصّبوا غيره من أولاد ملوكهم فطالت الحرب بينهم، فصاهر ورد هذا أبا تغلب ليتقوّى به فقُدّر أن أبا تغلب احتاج إلى الاعتضاد به، ولما سار أبو تغلب من بدليس أدركه عسكر عضد الدولة وهم حريصون على أخذ ما معه من المال فإنهم كانوا قد سمعوا بكثرته، فلما وقعوا عليه نادى أميرهم لا تتعرَّضوا لهذا المال فهو لعضد الدولة ففتروا عن القتال، فلما رآهم أبو تغلب في حالة فتورٍ حمل عليهم

فانهزموا فقتل منهم مقتلةً عظيمةً، ونجا منهم فنزل بحصنٍ، وأرسل «ورد» المذكور فعرّفه ما هو بصدده من اجتماع الروم عليه واستمدّه، وقال: إذا فرغت عُدت إليك، فسيّر إليه أبو تغلب طائفةً من عسكره فاتفق أن ورداً قد انهزم، فلما علم أبو تغلب بذلك يئس من نصره وعاد إلى بلاد الإسلام فنزل بـ«آمد» وأقام بها شهرين.

ولما عاد أبو الوفاء من طلب أبي تغلب اتجه إلى ميافارقين، وكان الوالي عليها «هزار مرد» وقد وقف في وجه أبي الوفاء وقاتله مدة ثلاثة أشهرٍ ثم مات هزارمرد فأخبر أبو تغلب بذلك فأمر أن يقوم مقامه غلام من الحمدانية اسمه مؤنس فولي البلد، ولم يكن لأبي الوفاء معه حيلة فعدل عنه، وراسل أبو الوفاء رجلاً من أعيان البلد اسمه أحمد بن عبيد الله واستماله فأجابه وشرع في استمالة الرعية إلى أبي الوفاء فأجابوه إلى ذلك وعظم أمره، وأرسل إلى مؤنس يطلب منه المفاتيح فلم يمكنه منعه لكثرة أتباعه فبعثها إليه وسأله أن يطلب له الأمان، فأرسل أحمد بن عبيد الله إلى أبي الوفاء في ذلك فأمنه وأمن سائر أهل البلد ففتح له البلد وسلّمه إليه، وكان أبو الوفاء مدة إقامته على ميافارقين محاصراً لها قد بثّ سراياه في تلك الحصون المجاورة لها فدخلها جميعها.

فلما سمع أبو تغلب بذلك سار عن آمد نحو الرحبة هو وأخته جميلة وأمر بعض أهله بالاستئمان إلى أبي الوفاء ففعلوا. ثم إن أبا الوفاء قد سار إلى آمد فحاصرها، فلما رأى أهلها ذلك سلكوا مسلك أهل ميافارقين فسلّموا أهل البلد بالأمان، فاستولى أبو الوفاء على سائر دياربكر، وقصده أصحاب أبي تغلب وأهله مستأمنين إليه فأمنهم وأحسن إليهم وعاد إلى الموصل.

وأما أبو تغلب فإنه لما قصد الرحبة أنفذ أخاه أبا عبد الله الحسين بن ناصر الدولة إلى عضد الدولة يستعطفه ويسأله الصفح فأحسن الجواب إلى أخيه وبذل له إقطاعاً يُرضيه على أن يطأ بساطه فلم يجبه أبو تغلب إلى ذلك، وسار إلى العزيز بالله العبيدي صاحب مصر.

كانت ديار مضر (حران والرقة) لأبي تغلب، وكان نائبه عليها سلامة البرقعيدي، وكان سعد الدولة بن سيف الدولة الحمداني صاحب حلب قد راسل عضد الدولة وعرض نفسه عليه، وقد بعث سعد الدولة جيشاً إلى سلامة البرقعيدي وجرت بينهما حروب، وأنفذ عضد الدولة إلى البلاد التي بيد سلامة البرقعيدي نقيب الطالبيين أبا أحمد الموسوي والد شريف الرضي فتسلّم البلاد التي بيد سلامة فتسلّمها بعد حربٍ شديدةٍ ودخل

أهلها في الطاعة، فأخذ عضد الدولة لنفسه الرقة وردّ باقيها إلى سعد الدولة فصارت له، ثم استولى عضد الدولة على الرحبة وتفرّغ بعد ذلك لأخذ قلاع أبي تغلب وحصونه، فلما استولى على جميع أعمال أبي تغلب استخلف أبا الوفاء على الموصل وعاد إلى بغداد في أواخر شهر ذي القعدة سنة ٣٦٨هـ.

سار أبو تغلب إلى الشام ووصل إلى دمشق، وبها قسّام قد تغلّب عليها فلم يُمكّن أبا تغلب من دخولها فنزل بظاهر البلد، وأرسل رسولاً إلى العزيز العبيدي بمصر يستنجده ليفتح له دمشق فوقع بين أصحابه وأصحاب قسّام فتنة فرحل إلى نوى[1] فأتاه كتاب رسوله من مصر يذكر أن العزيز العبيدي يريد أن يحضر هو عنده بمصر ليسيّر معه العساكر، فامتنع وتردّدت الرسل، ورحل إلى طبرية، وسيّر العزيز عسكراً مع قائد اسمه الفضل فاجتمع مع أبي تغلب عند طبرية، ووعده العزيز بكل ما أحبّ، وأراد أبو تغلب المسير معه إلى دمشق فمنعته الفتنة التي جرت بين أصحابه وأصحاب

---

(١) نوى: بلدة من حوران إلى الجنوب الغربي من دمش وعلى بعد ثمانين كيلومتراً منها. وإليها ينسب الإمام يحيى بن شرف النووي المتوفى سنة ٦٧٦هـ، وهو علامة بالفقه والحديث.

قسّام لئلا يستوحش قسّام وأراد أخذ البلد منه سلماً، ورحل الفضل إلى دمشق فلم يفتحها. وكان بالرملة دغفل بن المفرج بن الجراح الطائي قد استولى على تلك النواحي وأظهر طاعة العزيز العبيدي بمصر، وكثر جمعه، وسار إلى أحياء عقيل المقيمة بالشام ليخرجها من الشام، فاجتمعت عقيل إلى أبي تغلب وسألته نصرتها، وكتب إليه دغفل ألا يفعل، فتوسط أبو تغلب الحال فرضوا بما يحكم به العزيز العبيدي بمصر، ورحل أبو تغلب فنزل في جوار عقيل فخافه دغفل والفضل صاحب العزيز العبيدي وظنّا أنه يريد أن يستولي على تلك النواحي، ثم إن أبا تغلب سار إلى الرملة في شهر المحرم سنة ٣٦٩هـ، فلم يشكّ دغفل والفضل أنه يريد حربهما ـ وكانا بالرملة ـ فجمع الفضل العساكر من منطقة السواحل وكذلك جمع دغفل ما أمكنه جمعه وتصافّ الناس للحرب، فلما رأت عقيل كثرة الجمع انهزمت ولم يبق مع أبي تغلب إلا نحو سبعمائة رجل من غلمانه وغلمان أبيه فانهزم، ولحقه الطلب فوقف يحمي نفسه وأصحابه فضُرب على رأسه فسقط، وأُخذ أسيراً، وحمل إلى دغفل فأسره وقيّده، وأراد الفضل أخذه وحمله إلى العزيز العبيدي بمصر فخاف دغفل أن يصطنعه العبيدي كما فعل بـ«ألفتكين»

ويجعله عنده فقتله فلامه الفضل على قتله، وحمله إلى مصر، وكانت معه أخته جميلة بنت ناصر الدولة الحمداني، وكذلك كانت معه زوجته وهي ابنة عمه سيف الدولة الحمداني، فلما قُتل حملهما بنو عقيل إلى حلب إلى سعد الدولة بن سيف الدولة فأخذ أخته وسيّر ابنة عمّه جميلة إلى الموصل فسلّمت إلى أبي الوفاء نائب عضد الدولة فأرسلها إلى بغداد فاعتُقلت في حجرة في دار عضد الدولة.

وهكذا انتهى وضع بني حمدان بالموصل، وكان أبو طاهر إبراهيم وأبو عبد الله الحسين ابنا ناصر الدولة الحمداني في بغداد في خدمة شرف الدولة البويهي فلما مات شرف الدولة سنة ٣٧٩هـ وملك أخوه بهاء الدولة استأذناه في السير إلى الموصل، فأذن لهما فسارا، غير أن بهاء الدولة غيّر رأيه وأرسل إلى خواشاذه ـ وهو يتولّى الموصل ـ يأمره بدفعهما عنها، فأرسل إليهما خواشاذه يأمرهما بالعودة عنه، فأعادا جواباً جميلاً وجدّا بالسير حتى نزلا بالدير الأعلى بظاهر الموصل، وثار أهل الموصل بالديلم والأتراك ونهبوهم وخرجوا إلى بني حمدان، وخرج الديلم إلى قتالهم فهزمهم أهل الموصل وبنو حمدان وقتلوا منهم خلقاً كثيراً واعتصم

الباقون بدار الإمارة، وعزم أهل الموصل على قتلهم والاستراحة منهم فمنعهم بنو حمدان من ذلك، وسيّروا خواشاذه ومن معه إلى بغداد، وأقاموا بالموصل. ولكن لم يبقوا سوى سنةٍ واحدةٍ، ذلك أن ابني حمدان لما ملكا الموصل طمع فيها باذ الكردي فجمع ما استطاع جمعه من أهل منطقته وكاتب أهل الموصل ليستميلهم إليه فأجابه بعضهم فسار إليهم ونزل بالجانب الشرقي فضعفا عنه وراسلا أبا الذواد محمد بن المسيب أمير بني عقيل واستنصراه فطلب منهما مدينة جزيرة ابن عمر، ونصيبين وغير ذلك فأجاباه إلى ما طلب واتفقوا، وسار إليه أبو عبد الله الحسين بن ناصر الدولة، وأقام أبو طاهر إبراهيم بالموصل يحارب باذ الكردي. فلما اجتمع أبو عبد الله الحسين وأبو الذواد سارا فعبرا دجلة وصارا مع باذ على أرضٍ واحدةٍ ـ وهو لا يعلم ـ فأتاه الخبر بعبورهما وقد قارباه فأراد الانتقال إلى الجبل لئلا يأتيه هؤلاء من خلفه وأبو طاهر من أمامه فاختلط أصحابه وأدركه أتباع الحمدانيين وأراد الانتقال من فرسٍ إلى آخر فسقط واندقّت ترقوته فأتاه ابن أخته أبو علي بن مروان فأراده على الركوب فلم يقدر فتركه أصحابه وانصرفوا عنه واحتموا بالجبل، ووقع باذ بين القتلى فعرفه بعض العرب فقتله، وحمل جثته إلى بني حمدان وأخذ جائزةً على قتله.

أخذ أبو علي بن مروان يقصد حصناً حصناً حتى ملك ما كان لخاله، وسار إلى ميافارقين وسار إليه أبو طاهر وأبو عبد الله الحمدانيين طمعاً فيه فاقتتلوا وظفر أبو علي، وأسر أبا عبد الله الحمداني فأكرمه وأحسن إليه ثم أطلقه، فسار إلى أخيه أبي طاهر ـ وهو يحاصر مدينة آمد ـ فأشار عليه بمصالحة ابن مروان فلم يفعل، واضطر أبو عبد الله إلى موافقته، وسارا إلى أبي علي بن مروان وقاتلاه ثانيةً فهزمهما وأسر أبا عبد الله الحمداني أيضاً فأساء إليه وضيّق عليه إلى أن كاتبه صاحب مصر العبيدي وشفع إليه فأطلقه، ومضى إلى مصر وتقلّد منها ولاية حلب وأقام بتلك الديار إلى أن توفي، وأما أبو طاهر فإنه سار إلى نصيبين فلما وصل إليها قصده أبو الذواد فأسره وعلياً ابنه مع أمير بني نمير المزعفر وقتلهم صبراً.

ثالثاً: السامانيون:

في منتصف شهر شوال من سنة ٣٦٦هـ توفي الأمير منصور بن نوح الساماني صاحب خراسان وكان ببخارى بعد أن حكم خمس عشرة سنةً. وولي الأمر بعد ابنه نوح أبو القاسم وكان صغيراً لم يزد عمره على ثلاث عشرة سنةً حين آل إليه الأمر، وتلقّب بالمنصور.

استوزر الأمير نوح أبا الحسين العتبي فقام في حفظ الدولة بشكلٍ مرضيٍ، وكان قائد الجيوش هو محمد بن إبراهيم بن سيمجور وقد استوطن خراسان وطالت أيامه فيها فلا يطيع إلا فيما يريد، فعزله أبو الحسين العتبي عنها، واستعمل مكانه في قيادة الجيوش حسام الدين أبو العباس تاش وسيّره من بخارى إلى نيسابور سنة ٣٧١هـ فاستقرّ بها ونظر في أمورها وأطاعه جندها، فلما جاءه قابوس بن وشمكير وفخر الدولة بن ركن الدولة البويهي بعد أن هُزم قابوس أمام جند عضد الدولة بقيادة أخيه مؤيد الدولة، فكتب حسام الدين إلى الأمير أبي القاسم نوح بن منصور يعرفه خبر وصولهما، وكتبا إلى نوح يعرّفانه حالهما ويستنصرانه على مؤيد الدولة فوردت كتب نوح إلى حسام الدين يأمره بإجلال محلهما وإكرامهما وجمع العساكر والمسير معهما وإعادتهما إلى ملكهما، وكتب وزيره أبو الحسين العتبي بذلك أيضاً.

جمع حسام الدين العساكر من خراسان واجتمع من تفرّق من أصحاب فخر الدولة وقابوس فكان حشداً كبيراً في نيسابور وسار حسام الدين وفخر الدولة وقابوس مع العساكر إلى جرجان وبها مؤيد الدولة ومعه

عساكره وعساكر أخيه عضد الدولة فحاصرهم حسام الدين شهرين يغاديهم القتال ويراوحهم، وقلّ التموين في جرجان وضاق عليهم الأمر فخرجوا من جرجان في شهر رمضان سنة ٣٧١هـ على نيّة القتال والصدق فيه إما لهم وإما عليهم، فلما رأوهم أهل خراسان ظنّوا أنه القتال الذي اعتادوا عليه: قتال ثم تحاجُز، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً، فرأوا الأمر خلاف ما ظنّوه، وكان مؤيد الدولة قد كاتب بعض قادة خراسان ويُسمّى فائق الخاصة وأطمعه ورغّبه فأجابه إلى الانهزام عند اللقاء، فلما خرج مؤيد الدولة للقتال هذا اليوم حمل عسكره على فائق وأصحابه فانهزم هو ومن معه وتبعه الناس وثبت فخر الدولة، وحسام الدين في القلب واشتدّ القتال إلى آخر النهار، فلما رأوا تلاحق الناس في الهزيمة لحقوا بهم، وغنم أصحاب مؤيد الدولة منهم كثيراً من مواد التموين، وعاد حسام الدين وفخر الدولة وقابوس إلى نيسابور، وكتبوا إلى بخارى بالخبر فأتاهم يعدهم ويمنّيهم بإنفاذ العساكر إليهم والعودة إلى جرجان والريّ، وأمر الأمير نوح سائر العساكر بالمسير إلى نيسابور فأتوها من كل جهةٍ، وبينما كان حسام الدين ينتظر تكامل الحشد ليسير بهم أتاهم خبر مقتل الوزير أبي الحسين العتبي، فتفرّق ذلك الجمع وبطل

ذلك التدبير. وكان سبب قتل أبي الحسين العتبي أن أبا الحسن محمد بن إبراهيم بن سيمجور وضع جماعةً من المماليك لقتله فوثبوا عليه فقتلوه، فلم قُتل كتب الأمير نوح بن منصور إلى حسام الدين يستدعيه إلى بخارى ليُدبّر دولته ويجمع ما افترق بقتل أبي الحسين العتبي.

لما عُزل محمد بن إبراهيم بن سيمجور عن قيادة جيوش خراسان سار إلى سجستان فأقام بها، فلما انهزم أبو العباس حسام الدين عن جرجان ورأى ابن سيمجور الفتنة قد رفعت رأسها سار عن سجستان نحو خراسان وأقام بقهستان، فلما سار أبو العباس حسام الدين إلى بخارى وترك خراسان أرسل ابن سيمجور إلى فائق الخاصة يطلب موافقته بالاستيلاء على خراسان فأجابه إلى ذلك واجتمعا بنيسابور واستوليا على تلك النواحي، وبلغ الخبر إلى أبي العباس حسام الدين فسار عن بخارى بجمعٍ كبيرٍ إلى مرو قاعدة خرسان وترددت الرسل بينهم فاصطلحوا على أن تكون نيسابور وقيادة الجيوش لأبي العباس حسام الدين، وتكون بلْخ لفائق الخاصة وتكون هراة لأبي علي بن أبي الحسن بن سيمجور، وتفرّقوا على ذلك، وقصد كل واحدٍ منهم ولايته.

استوزر الأمير نوح بن منصور الساماني عبد الله بن عزير بعد عودة أبو العباس حسام الدين من بخارى إلى نيسابور، وكان عبد الله بن عزير ضدّ أبي الحسين العتبي، وضدّ أبي العباس حسام الدين، فلما ولي عبد الله بن عزير الوزارة بدأ بعزل أبي العباس حسام الدين عن خراسان وإعادة أبي الحسن محمد بن إبراهيم بن سيمجور إليها فكتب القواد الذين بخراسان إلى عبد الله بن عزير يسألونه أن يقرّ أبا العباس حسام الدين على عمله فلم يجبهم إلى ذلك، فكتب أبو العباس حسام الدين إلى فخر الدولة البويهي يستمدّه فأمده بعسكرٍ ومالٍ كثيرٍ، فأقام وعسكره بنيسابور وأتاهم أبو محمد عبد الله بن عبد الرزاق معاضداً لهم على ابن سيمجور، وكان أبو العباس حسام الدين حينئذٍ بمدينة مرو، فلما سمع ابن سيمجور وفائق الخاصة بوصول عسكر فخر الدين البويهي إلى نيسابور قصدوهم فانحاز عسكر فخر الدولة وابن عبد الرزاق، وأقاموا ينتظرون أبا العباس، ونزل ابن سيمجور ومن معه بظاهر نيسابور، ووصل أبو العباس حسام الدين فيمن معه واجتمع بعسكر الديلم، ونزل الجانب الآخر وجرى بينهم القتال عدة أيامٍ. وتحصّن ابن سيمجور بالبلد، وبعث فخر الدولة إلى أبي العباس عسكراً آخرين

يزيدون على ألفي فارسٍ، فلما رأى ابن سيمجور قوة أبي العباس انحاز عن نيسابور فسار عنها ليلاً وتبعه عسكر أبي العباس فغنموا كثيراً من أموالهم ودوابهم، واستولى أبو العباس على نيسابور، وراسل الأمير نوح بن منصور يستميله ويستعطفه، ولجّ عبد الله بن عزير في عزله ووافقه على ذلك والدة الأمير نوح وكانت تتحكّم في دولة ابنها، وكانوا يصدرون عن رأيها.

أقام أبو العباس حسام الدين في نيسابور يستعطف الأمير نوح بن منصور ووزيره عبد الله بن عريز وترك ملاحقة ابن سيمجور وأصحابه وإخراجهم من خراسان، فتراجع أصحاب ابن سيمجور المنهزمون إليه، وعادت له قوته وأتته الإمدادات من بخارى، وكاتب شرف الدولة أبا الفوارس بن عضد الدولة وهو بفارس يستمدّه، فأمدّه بألفي فارسٍ مراغمةً لعمّه فخر الدولة، فلما كثر جمعه قصد أبا العباس فالتقوا فاقتتلوا قتالاً شديداً إلى آخر النهار فانهزم أبو العباس وأصحابه، وأسر منهم جماعة كثيرة، وقصد أبو العباس حسام الدين جرجان وبها فخر الدولة البويهي فأكرمه وترك له جرجان وداهستان واستراباذ صافيةً له ولمن معه وسار عنها إلى الريّ، وأرسل إليه الكثير من الأموال والعتاد.

أقام أبو العباس حسام الدين بجرجان هو أصحابه

وجمع العسكر وسار نحو خراسان غير أنه لم يصل إليها، وعاد إلى جرجان، وأقام بها ثلاث سنوات، ثم وقع بها وباء خطير مات فيه كثير من أصحابه ثم مات هو، وذلك سنة ٣٧٧هـ. وكان أصحابه قد أساءوا السيرة مع أهل جرجان فلما مات ثار بهم أهلها ونهبوهم، وجرت بينهم وقعة عظيمة أسفرت عن هزيمة أهل جرجان، فقُتل منهم عدد كبير، ونُهبت أموالهم، وأُحرقت دورهم، وطلب كبارهم الأمان فكفّوا عنهم، وتفرّق أصحابه فسار أكثرهم إلى خراسان واتصلوا بأبي علي بن أبي الحسن محمد بن إبراهيم بن سيمجور، وكان حينذاك صاحب الجيش مكان أبيه، وكان والده قد توفي فجأةً.

وعندما قام أبو علي مكان أبيه اجتمع إخوته على طاعته، ونازعه فائق الخاصة الولاية.

رابعاً: الغزنويون:

ينتسب حكام غزنة الذين عرفوا بالغزنويين إلى سبكتكين، وهو من غلمان أبي إسحاق بن ألبتكين صاحب جيش غزنة للسامانيين، وكان مُقدّماً عنده وعليه مدار أمره، وقدم إلى بخارى أيام الأمير منصور بن نوح مع أبي إسحاق فعرفه رجال تلك الدولة بالعقل والعفّة وجودة الرأي والصرامة، وعاد معه إلى غزنة فلم يلبث

أبو إسحاق أن توفي، ولم يكن من أهله وأقاربه من يصلح للتقدّم فاجتمع عسكره ونظروا فيمن يلي أمرهم ويجمع كلمتهم، فاختلفوا، ثم اتفقوا على سبكتكين لما عرفوا من عقله ودينه ومروءته وكمال خلال الخير فقدّموه عليهم وولّوه أمرهم، وحلفوا له، وأطاعوه، فوليهم وأحسن السيرة فيهم، وساس أمورهم سياسةً حسنةً، وجعل نفسه كأحدهم في الحال والمال، وكان يدّخر من إقطاعه ما يعمل منه طعاماً لهم في كل أسبوعٍ مرتين، ثم إنه جمع العساكر وسار نحو الهند مجاهداً وجرى بينه وبين الهنود حروب شديدة، وكشف بلادهم وشنّ الغارات عليها، وطمع فيها، وخافه الهنود ففتح من بلادهم حصوناً ومعاقل، وقتل منهم كثيراً، واتفق له في بعض غزواته أن الهنود حشدوا له كثيراً وطاولوه الأيام وماطلوه القتال فقلّ الزاد عند المسلمين وعجزوا عن الحصول عليه فشكوا إليه ما هم فيه، فقال لهم: إني استصحبت لنفسي شيئاً من السويق للحاجة وأنا أقسمه بينكم قسمةً عادلةً على السواء إلى أن يمنّ الله بالفرج فكان يُعطي كل إنسانٍ منهم ملء قدحٍ معه ويأخذ لنفسه مثل أحدهم فيجتزئ به يوماً وليلةً وهم مع ذلك يقاتلون الكفار فرزقهم الله النصر عليهم والظفر بهم.

عظم شأن سبكتكين وارتفع قدره، وحسن بين الناس ذكره، وتعلّقت الأطماع به، فأتاه صاحب مدينة بُست[1] ويُسمّى «طغان» وهو من الأمراء الكبار يستنصر به، وذلك أنه خرج عليه أمير يُدعى «بابي تور» ووقعت بينهما حرب شديدة دخل إثرها بابي تور مدينة بُست وأجلى عنها «طغان» فقصد طغان سبكتكين مستنصراً به، وضمن له مالاً مقرراً وطاعةً يبذلها له، فتجهّز وسار معه حتى نزل على «بُست» وخرج إليه «بابي تور» فقاتله قتالاً شديداً، ثم انهزم «بابي تور» وتفرّق هو وأصحابه وتسلّم «طغان» البلد، فلما استقرّ فيه طالبه سبكتكين بما استقرّ عليه من المال فأخذ في المماطلة، فأغلظ له القول لكثرة مطله، فحمل طغان جهله أن سلّ السيف وضرب يد سبكتكين فجرحها، فأخذ سبكتكين السيف وضربه أيضاً فجرحه وحجزت العساكر بينهما، وقامت الحرب بين الطرفين فانهزم طغان واستولى سبكتكين على «بُست»، ثم إنه سار إلى «قصدار»[2]، وكان متوليها قد عصى عليه لحصانتها ووعورة مسالكها وظنّ أن ذلك يمنعه فسار إليه مع جماعةٍ من أصحابه بجدٍّ وحزمٍ

---

(١) بست: مدينة بين هراة وسجستان.

(٢) قصدار: مدينة قرب غزنة.

وكبسه فلم يشعر إلا والخيل معه فأُخذ من داره، ثم إنه منّ عليه وردّه إلى ولايته، وقرّر عليه مالاً يحمله إليه كل سنةٍ.

كان سبكتكين[1] يعترف بسلطة السامانيين عليه رغم استقلاله.

خامساً: القرامطة:

كان كبير القرامطة في هذه الآونة الحسن المعروف بالأعصم وهو ابن أحمد بن الحسن بن بهرام، وقد سار سنة ٣٦٣هـ من الإحساء إلى ديار مصر وحاصرها ولما سمع المعز لدين الله العبيدي صاحب مصر أن القرمطي قصد مصر كتب إليه كتاباً يذكر فيه فضل نفسه وأهل بيته، وأن الدعوة واحدة والهدف واحد، وأن القرمطة إنما كانت دعوتهم إليه وإلى آبائه من قبله، ووعظه وبالغ، وتهدّده وسيّر الكتاب إليه، وكتب جوابه: وصل كتابك الذي قلّ تحصيله وكثر تفضيله ونحن سائرون إليك في أثره والسلام. وسار حتى وصل إلى مصر فنزل على «عين شمس» بعسكره، وأنشب القتال وبثّ السرايا في البلاد ينهبونها فكثرت

---

(١) كان سبكتكين زوج أخت سيده أبي إسحاق بن ألبتكين. أي أن زوجته هي ابنة البتكين.

جموعه وأتاه من الأعراب أعداد كثيرة، وكان ممن أتاه حسَّان بن الجراح الطائي أمير قومه بالشام ومعه جمع كبير، فلما رأى المعز كثرة جموعه استعظم ذلك، وأهمّه، وتحيّر في أمره، ولم يقدم على إخراج عسكره لقتاله، واستشار أهل الرأي من نصائحه، فقالوا: ليس حيلة سوى السعي في تفريق كلمتهم، وإلقاء الخلاف بينهم، ولا يتمّ ذلك إلا بـ«حسان بن الجراح» فراسله العبيدي واستماله وبذل له مائة ألف دينارٍ إن هو خالف القرمطي فأجابه ابن الجراح إلى ما طلب منه، فاستحلفوه فحلف أنه إذا وصل إليه المال المقرّر انهزم بالناس، فأحضروا المال، فلما رأوه استكثروه فضربوا دنانير أكثرها من نحاس وألبسوها الذهب وجعلوها في أسفل الأكياس وجعلوا الذهب الخالص في أعلاها وحملت إليه، فأرسل إلى المعز العبيدي أن يخرج في عسكره يوم كذا ويقاتلونه وهو في الجهة الفلانية فإنه ينهزم، ففعل المعز ذلك فانهزم وتبعه الأعراب كافةً، فلما رآه القرمطي الحسن الأعصم منهزماً تحيّر في أمره وثبت وقاتل بعسكره غير أن عسكر المعز قد طمعوا فيه وتابعوا الحملات عليه من كل جانبٍ فأرهقوه فولّى منهزماً واتبعوا أثره وظفروا بمعسكره فأخذوا من فيه أسرى، وكانوا حول ألف وخمسمائة أسيرٍ فضُربت

أعناقهم ونُهب ما في المعسكر، وجرّد المعزّ العبيدي القائد أبا محمد بن إبراهيم بن جعفر في عشرة آلاف رجلٍ وأمره باتباع القرامطة والإيقاع بهم، فاتبعهم وتثاقل في سيره خوفاً من رجوع القرامطة إليه، وأما هم فإنهم ساروا حتى نزلوا أذرعات (درعا) وساروا منها إلى بلدهم، ويُظهرون أنهم يعودون.

الحسن بن بهرام

أبو سعيد الجنابي

سعيد أبو القاسم سليمان أبو طاهر أحمد أبو العباس يوسف أبو يعقوب

الحسن الأعصم

فلما بلغ المعز العبيدي انهزام القرامطة في الشام وعودتهم إلى هجر أرسل القائد ظالم بن موهوب العقيلي والياً على دمشق فدخلها وارتفع شأنه وكثرت أمواله وجموعه وعُدّته لأن «أبا الهيجاء» وابنه كانا من أصحاب القرمطي، وكانا بدمشق، ومعهما جماعة من القرامطة فأخذهم الوالي ظالم وحبسهم، وأخذ أموالهم وجميع ما يملكون، ثم إن القائد أبا محمود الذي سيّره المعزّ العبيدي يلاحق القرامطة قد وصل إلى دمشق بعد وصول ظالم إليها بأيامٍ قليلةٍ فخرج ظالم للقائه مسروراً بقدومه لأنه كان خائفاً من عودة القرامطة إليه، فطلب

منه أن ينزل بعسكره بظاهر دمشق وسلّم إليه «أبا الهيجاء» وابنه ورجلاً آخر يعرف بالنابلسي، وكان هرب من الرملة والتحق بالقرمطي فأُسر بدمشق أيضاً فحملهم أبو محمود إلى مصر، فسُجن أبو الهيجاء وابنه، وقيل للنابلسي: أنت الذي قلت: لو أن معي عشرة أسهمٍ لرميت تسعةً في المغاربة وواحداً في الروم؟ فاعترف فقُتل.

لما نزل القائد أبو محمود بن إبراهيم بظاهر دمشق امتدت أيدي أصحابه إلى العبث والفساد وقطع الطرق فاضطرب الناس وخافوا، ثم إن صاحب الشرطة أخذ رجلاً من أهل البلد وقتله فثار الغوغاء والأحداث وقتلوا رجال صاحب الشرطة وأقام ظالم بن موهوب العقيلي بين الرعية يداريهم، ونزح أهل القرى من قراهم لشدّة نهب المغاربة قراهم وأموالهم وظلمهم لهم. وفي نصف شهر شوال من سنة ٣٦٣هـ وقعت فتنة عظيمة بين عسكر أبي محمود بن إبراهيم وبين العامة وجرى بين الفريقين قتال شديد، وكان الوالي ظالم بن موهوب مع العامة يُظهر أنه يريد الإصلاح ولم يكاشف أبا محمود وانفصلوا، وعاد القتال، وانهزمت العامة غير مرةٍ وأحرق المغاربة ناحية باب الفراديس واحترق كثير من الدور والأموال وبات الناس بحالةٍ سيئةٍ ثم إنهم اصطلحوا هم وأبو محمود. ثم عادت الفتنة في شهر

ربيع الثاني سنة ٣٦٤هـ، وتردّدوا بالصلح ثم استقرّ الأمر بين القائد أبي محمود والدمشقيين على إخراج ظالم بن موهوب من البلد ويتولّى الأمر جيش بن الصمصامة ـ وهو ابن أخت أبي محمود ـ واتفقوا على ذلك.

خرج ظالم بن موهوب من دمشق وولي أمرها جيش بن الصمصامة، وسكنت الفتنة واطمأن الناس، ثم رجع المغاربة إلى ما كانوا عليه فثار عليهم الناس وقاتلوهم وقتلوا من لحقوا به، واتجهوا إلى القصر الذي فيه الوالي الجديد فهرب منه ومن معه من الجند المغاربة ولحق بالعسكر، فلما كان الغد ـ وهو الأول من شهر جمادى الأولى من سنة ٣٦٣هـ ـ زحف الوالي جيش بن الصمصامة بالعسكر إلى البلد وقاتله أهله فظفر بهم وهزمهم، وأحرق من البلد ما كان قد سلم وعم الاضطراب والفتن البلد.

وصلت أخبار الفوضى إلى المعز العبيدي صاحب مصر فأرسل إلى القائد ريّان الخادم والي طرابلس يأمره بالمسير إلى دمشق وتعريفه حقيقة الأمر، وصرف أبي محمود بن إبراهيم عن دمشق، ففعل ريّان ما أُمر به، فصرف القائد أبا محمود فسار إلى الرملة في جماعةٍ قليلةٍ من العسكر.

كان ألفتكين التركي مولى معزّ الدولة بن بويه قد

هرب من مولاه بختيار عز الدولة بن معز الدولة وسار مع طائفةٍ من الجند الترك باتجاه الغرب حتى وصل إلى حمص فنزل بالقرب منها فقصده ظالم بن موهوب العقيلي الذي كان أمير دمشق للمعز العبيدي ليأخذه فلم يتمكّن من أخذه فعاد عنه، وسار ألفتكين إلى دمشق فنزل بظاهرها، وكان أميرها حينئذٍ ريّان الخادم للعبيديين. فلما نزل ألفتكين بظاهر دمشق خرج إليه شيوخها وأشرافها وأظهروا له السرور بقدومه، وسألوه أن يقيم عندهم ويملك البلد، ويزيل عنهم سمة العبيديين فإنهم يكرهونها لمخالفة الاعتقاد، ولظلم عمالهم، ويكفّ عنهم شرّ الأحداث فأجابهم إلى ذلك، واستحلفهم على الطاعة والمساعدة، وحلف لهم على الحماية وكفّ الأذى عنهم منه ومن غيره، فدخل دمشق وأخرج عنها ريّان الخادم، وقطع خطبة المعزّ العبيدي، وخطب للخليفة العباسي الطائع لله وذلك في شهر شعبان سنة ٣٦٤هـ، وقمع أهل الفساد، وهابه الناس كافةً، وأصلح كثيراً من أمورهم، وكاتب المعز العبيدي يداريه ويُظهر له الانقياد، فشكر له، وطلب منه أن يحضر عنده ليخلع عليه ويُعيده والياً من جانبه فلم يثق به وامتنع من المسير، فتجهّز المعزّ العبيدي وجمع عساكره ليسيّرها إليه غير أن منيته قد حانت وتوفي،

وتولّى أمر العبيديين بعده ابنه العزيز بالله فأمن ألفتكين بموته جهة مصر.

قصد الفتكين البلاد التي يسيطر عليها العبيديون في الشام بجهات الساحل فعمد إلى مدينة صيدا فحاصرها وبها ابن الشيخ ومعه رؤوس المغاربة ومعهم ظالم بن موهوب العقيلي فقاتلهم وكانوا في كثرةٍ فطمعوا فيه وخرجوا إليه فاستجرّهم حتى ابتعدوا عن معقلهم ثم عاد إليهم فقتل منهم نحو أربعة آلاف رجلٍ، وطمع في أخذ عكا فتوجّه إليها وقصد طبرية ففعل فيها من القتل والنهب مثل صيدا وعاد إلى دمشق. فلما سمع العزيز العبيدي بذلك استشار وزيره يعقوب بن كلّس فيما يفعل فأشار بإرسال جوهر في العساكر إلى الشام فجهّزه وسيّره. فلما سمع ألفتكين بمسيره جمع أهل دمشق، وقال: قد علمتم أنني ما ولّيت أمركم إلا عن رضا منكم وطلبٍ من كبيركم وصغيركم لي وإني كنت مجتازاً، وقد أظلّكم هذا الأمر، وأنا سائر عنكم لئلا ينالكم أذىً بسببي، فقالوا: لا نمكّنك من فراقنا ونحن نبذل الأنفس والأموال في محبتنا لك وننصرك ونقوم معك، فاستحلفهم على ذلك، فحلفوا له فأقام عندهم، فوصل جوهر الصقلّيّ إلى دمشق في شهر ذي القعدة سنة ٣٦٥هـ فحاصرها فرأى من قتال ألفتكين ومن معه

ما استعظمه، ودامت الحرب شهرين قُتل فيها عدد كبير من الجانبين. فما رأى أهل دمشق طول مقام العبيديين عليهم أشاروا على ألفتكين بمكاتبة الحسن الأعصم القرمطي والاستنجاد به ففعل ذلك فسار القرمطي إليه من الإحساء فلما قرب منه رحل جوهر عن دمشق بعد أن أقام عليها سبعة أشهرٍ. ووصل القرمطي واجتمع هو وألفتكين وساروا في أثر جوهر الصقلّيّ وأدركوه وقد نزل بظاهر مدينة الرملة، وسيّر أثقاله إلى عسقلان فاقتتلوا فكان جمع ألفتكين وجوهر ما يقرب من خمسين ألف مقاتلٍ بين فارسٍ وراجلٍ، فنزلوا نهر الطواحين على بُعد خمسة عشر كيلو متراً منها، وفي هذا المكان ماء البلد فقطعوه عنهم، فاحتاج جوهر ومن معه إلى الماء وهو غير متوفرٍ فاضطر إلى الرحيل إلى عسقلان فتبعه ألفتكين والقرمطي فحاصراه بها، وطال الحصار وقلّت التموينات، وكان الوقت وقت شتاءٍ وأمر النقل صعب. وكان جوهر الصقلّيّ يراسل ألفتكين ويدعوه إلى الطاعة ويبذل له الوعود الكثيرة فيهمّ أن يفعل فيمنعه القرمطي ويخوّفه منه فزادت الشدة على جوهر وعلى من معه فعاينوا الهلاك فأرسل إلى ألفتكين يطلب منه أن يجتمع به فتقدّم إليه واجتمعا راكبين، فقال له جوهر: قد عرفت ما يجمعنا من عصمة الإسلام وحرمة الدين

وقد طالت هذه الفتنة وأُريقت فيها الدماء ونُهبت الأموال ونحن المؤاخذون بها عند الله تعالى وقد دعوتك إلى الصلح والطاعة والموافقة وبذلت لك الرغائب فأبيت إلا القبول ممن يولع نار الفتنة، فراقب الله تعالى وراجع نفسك وغلّب رأيك على هوى غيرك، فقال ألفتكين: أنا والله واثق بك في صحة الرأي والمشورة منك لكني غير متمكّنٍ مما تدعونني إليه بسبب القرمطي الذي أحوجتني أنت إلى مداراته والقبول منه، فقال جوهر: إذا كان الأمر على ما ذكرت فإنني أصدقك الحال ثقة بأمانتك وما أجده من الفتوة عندك وقد ضاق الأمر بنا، وأريد أن تمنّ عليّ بنفسي وبمن معي من المسلمين وتدم لنا، وأعود إلى صاحبي شاكراً لك، وتكون قد جمعت بين حقن الدماء واصطناع المعروف، فأجابه إلى ذلك وحلف له على الوفاء به، وعاد واجتمع بالقرمطي وعرفه الذي حدث، فقال: لقد أخطأت فإنه جوهراً له رأي وحزم ومكيدة وسيرجع إلى صاحبه فيحمله على السير إلينا بما لا طاقة لنا به، والصواب أن ترجع عن ذلك ليموتوا جوعاً ونأخذهم بالسيف، فامتنع ألفتكين عن ذلك، وقال: لا أغدر به، وأذن لجوهر ولمن معه بالمسير إلى مصر، فسار واجتمع بالعزيز العبيدي وشرح له الحال، وقال: إن كنت

تريدهم فاخرج إليهم بنفسك وإلا فهم واصلون على أثري، فبرز العزيز، وفرّق الأموال وجمع الرجال، وسار وجوهر على مقدمته، وورد الخبر إلى ألفتكين والقرمطي فعادا إلى الرملة وجمعاً العرب وغيرها وحشدا.

وصل العزيز العبيدي إلى الرملة ونزل بظاهرها بالقرب من ألفتكين والقرمطي، ثم اصطفوا للحرب في شهر المحرم سنة ٣٧٦هـ فرأى العزيز من شجاعة ألفتكين ما أعجبه فأرسل إليه في تلك الحال يدعوه إلى طاعته ويبذل إليه الرغائب والولايات وأن يجعله مقدم عسكره والمرجع في أمور دولته ويطلب أن يحضر عنده ويسمع قوله، فترجّل وقبّل الأرض بين الصفين وقال لمبعوث العزيز العبيدي: قل لأمير المؤمنين لو قُدّم هذا القول لسارعت وأطعت وأما الآن فلا يمكن إلا ما ترى. وعاد ألفتكين إلى موقعه وحمل على ميسرة العبيدي فهزمها وقتل كثيراً منها، فلما رأى العبيدي ذلك أمر قائد قلب عسكره أن يحمل فتقدّم، كما أمر الميمنة أن تحمل فحملت فانهزم ألفتكين والقرمطي ومن معهما ووضع المغاربة السيف فيهم فأكثروا القتل وقتلوا نحواً من عشرين ألفاً، ونزل العزيز العبيدي في خيامه وجاءه الناس بالأسرى فكل من أتاه بأسير خلع عليه، وبذل

لمن أتاه بـ «ألفتكين» أسيراً مائة ألف دينارٍ. وكان ألفتكين قد مضى منهزماً، وقد أنهكه العطش فلقيه المفرج بن دغفل الطائي، وكان بينهما أنس قديم، فطلب منه ألفتكين ماءً فسقاه وأخذه معه إلى بيته فأنزله وأكرمه، وسار إلى العزيز العبيدي فأعلمه بأسر ألفتكين، وطلب منه المال فأعطاه وسيّر معه من تسلّم ألفتكين منه، فلما وصل ألفتكين إلى العزيز لم يشكَّ أنه سيقتله لوقته، غير أنه رأى من إكرام العزيز له وإحسانه إليه ما أعجزه، وأمر له بالخيام فنُصبت وأعاد إليه من كان يخدمه، فرأى أنه لم يفقد شيئاً وحمل إليه من التحف والأموال ما لم ير مثله وأخذه معه إلى مصر، وجعله من مقدّمي حجابه وخاصّته. وأما الحسن الأعصم القرمطي فإنه وصل منهزماً إلى طبرية فأدركه رسول العبيدي يدعوه إلى العودة إليه ليكرمه أكثر مما أكرم ألفتكين فلم يرجع فأرسل له العزيز العبيدي عشرين ألف دينارٍ وجعلها له كل سنةٍ فكان يرسلها إليها، وعاد القرمطي الحسن الأعصم إلى هجر. ولما عاد العزيز العبيدي إلى مصر أنزل ألفتكين عند قصره وزاد أمره وتحكّم فتكبّر على الوزير يعقوب بن كلّس وترك الركوب إليه فصارت بينهما عداوة متأكّدة، فوضع عليه من سقاه سُمّاً فمات، فحزن العزيز عليه، واتهم الوزير

فحبسه نيفاً وأربعين يوماً، وأخذ منه خمسمائة ألف دينارٍ، ثم وقفت أمور العزيز باعتزال الوزير، فخلع عليه وأعاده إلى وزارته[1].

وجاء القرامطة من هجر إلى الكوفة بحشدٍ كبيرٍ بقيادة إسحاق وجعفر وهما من الستة القرامطة الذي يلقّبون بالسادة فدخلوا الكوفة وملكوا زمامها وخطبا لشرف الدولة البويهي فانزعج الناس لما في النفوس من خوفٍ منهم ومن هيبةٍ لهم لما فيهما من بأسٍ وصرامةٍ، حتى إن عضد الدولة فناخسرو وعز الدولة بختيار قد أقطعاهم الكثير وكانا يصانعهم، وكان نائبهم ببغداد الذي يُعرف بـ«ابن شاهويه» يتحكّم تحكّم الوزراء، فجهّز إليهم صمصامة الدولة المرزبان جيشاً فطردهم من تلك النواحي، وكان قد طرد نائبهم ابن شاهويه من بغداد، وادّعوا أن مجيئهم إلى الكوفة إنما كان بسبب طرد ابن شاهويه.

ووصل أبو قيس الحسن بن المنذر إلى الجامعين[2] ـ وهو من أكابر القرامطة ـ فأرسل له

---

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

(٢) الجامعين: هو حلة بني مزيد التي بأرض بابل على الفرات بين بغداد والكوفة.

صمصامة الدولة العساكر بإمرة أبي الفضل المظفر بن محمود الحاجب، فعبرت عساكر السلطان نهر الفرات إلى القرامطة وقاتلوهم فانهزمت القرامطة وأُسر قائدهم أبو قيس وجماعة من قوادهم فقتلوا. وعاد القرامطة فسيّروا جيشاً آخر فالتقوا هم وعساكر صمصامة الدولة بالجامعين أيضاً فأسفرت المعركة عند هزيمة القرامطة وقُتل قائدهم وغيره، وأُسرت جماعة، وبلغ المنهزمون الكوفة، ورحل القرامطة، وتبعهم عسكر السلطان إلى القادسية فلم يُدركوهم، وزال خطرهم آنذاك عن المنطقة.

وظهر سنة ٣٧٨هـ رجل من بني المنتفق يُدعى الأصفر فجمع حوله جمعاً كبيراً وسار إلى القرامطة والتقى معهم بمعركةٍ قُتل فيها مقدّم القرامطة وانهزم أصحابه وقُتل منهم وأُسر كثير، وسار الأصفر إلى هجر فتحصّن منه القرامطة فعدل إلى القطيف فأخذ ما كان فيها من عبيدهم وأموالهم ومواشيهم وسار بها إلى البصرة.

سادساً ـ العبيديون (الفاطميون):

مات كافور الإخشيدي بمصر سنة ٣٥٨هـ فأشار المعز العبيدي إلى قائده جوهر الصقلي بالسير إلى مصر فقصدها ودخلها سنة ٣٥٨هـ، واختطّ مدينة القاهرة ٣٥٩

ـ ٣٦١هـ، وسمّاها القاهرة المعزية، وأخذ يعمل لأفكار العبيديين، ولما رأى المعز أن الأمر قد استقر لهم بمصر استخلف على إفريقية بلكين بن زيري وارتحل هو نحو مصر في الخامس من صفر سنة ٣٦٢هـ، فمرّ ببرقة ودخل الاسكندرية يوم السادس من شعبان سنة ٣٦٢هـ، ودخل القاهرة في اليوم الخامس من رمضان وأصبحت قاعدة ملكه، وقد تلقّاه أعيان مصر فيها وخطبهم وذكر فضل أسرته وشرفها حسب ادّعاءاته.

وأما يوسف بلكين زيري فقد نظّم إدارته، ووثب أهل «بجاية» على عامله فقاتلوه فهزموه، فسيّر إليهم يوسف بلكين جيشاً فقاتلهم فلم يظفر بهم، فأرسل العامل إلى يوسف يُعرّفه الوضع، فجمع يوسف العسكر وتأهّب للسير إليهم، فبينما هو في الاستعداد إذ أتاه الخبر أن أهل «تاهرت» قد عصوا، وخالفوا، وأخرجوا عامله فرحل إلى تاهرت وقاتل أهلها، وانتصر عليهم، وخرّب فيها، فأتاه الخبر بها أن قبيلة زنانة قد نزلوا على مدينة تلمسان فرحل إليهم فهربوا منه، وأقام على تلمسان فحاصرها مدةً، ثم نزلوا على حكمه فعفا عنهم إلا أنه نقلهم إلى مدينة «أشير» فبنوا عندها مدينة سمّوها تلمسان.

العبيديون:

(١) عبيد الله (المهدي) ٢٩٧ ـ ٣٢٢هـ.

(٢) محمد (القائم) ٣٢٢ ـ ٣٣٤هـ.

(٣) إسماعيل (المنصور) ٣٣٤ ـ ٣٤١هـ.

(٤) معد (المعزّ) ٣٤١ ـ ٣٦٥هـ.

(٥) نزار (العزيز) ٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ.

(٦) منصور (الحاكم) ٣٨٦ ـ ٤١١هـ.

(٧) علي (الظاهر) ٤١١ ـ ٤٢٧هـ.

(٨) معد (المستنصر) ٤٢٧ ـ ٤٨٧هـ.

وجرت منافسة بين زيادة الله بن القديم وبين عامل آخر هو عبد الله بن محمد الكاتب، واجتمع مع كل واحدٍ منهما جماعة وكانت بينهما عدة وقائع، وكان يوسف بلكين يميل إلى عبد الله بن محمد الكاتب لصحبةٍ قديمةٍ بينهما، ثم إن عبد الله تمكّن أن يقبض على خصمه زيادة الله وسجنه واستبدّ بالأمور بعده، وبقي زيادة الله بن القديم محبوساً حتى توفي المعز العبيدي في مصر سنة ٣٦٥هـ وقوي أمر يوسف بلكين.

وفي سنة ٣٦٤هـ لجأ خلف بن حسين إلى قلعةٍ

منيعةٍ فاجتمع إليه كثير من البربر وغيرهم، وكان هو من أصحاب زيادة الله بن القديم المساعدين له فسمع يوسف بلكين بذلك فسار إليه وحاربه ووقع بينهما عدد من القتلى، ودخل يوسف القلعة وهرب خلف بن حسين، وقتل يوسف عدداً كبيراً ممن كان بالقلعة، وبعث بسبعة آلاف رجلٍ من رؤوسهم إلى القيروان. ثم تمكّن من خلف بن حسين فقتله وبعث بجثته إلى مصر، فلما سمع أهل «بجاية» بذلك خافوا فصالحوا يوسف بلكين ونزلوا على حكمه، فأخرجهم من مدينتهم وخرّب سورها.

وتوفي المعزّ العبيدي[١] سنة ٣٦٥هـ، وكان ملكه ثلاثاً وعشرين سنة وخمسة أشهرٍ وعشرة أيامٍ، منها مقامه بمصر سنتان وتسعة أشهرٍ والباقي بإفريقية. وكانت وفاته في السابع عشر من شهر ربيع الثاني سنة ٣٦٥هـ،

---

(١) المعز العبيدي: معد بن إسماعيل بن محمد بن عبيد الله (المهدي)، أبو تميم، حفيد ديصان، ولد بالمهدية يوم الاثنين الحادي عشر من شهر رمضان سنة ٣١٩هـ، وتولّى أمر العبيديين في إفريقية يوم الجمعة التاسع والعشرين من شهر شوال سنة ٣٤١هـ بعد موت أبيه، فكان عمره يوم تسلّمه السلطة العبيدية اثنتين وعشرين سنةً، وكان أبوه قد عهد له بالأمر في حياته، ثم جُدِّد له ذلك بعد موت أبيه. وهو أول ملوك العبيديين بمصر.

وكتم ابنه نزار (العزيز) موت أبيه حتى العيد الأضحى من السنة نفسها، فصلّى بالناس وخطبهم ودعا لنفسه وعزّى بأبيه. ولما استقرّ العزيز في الملك أطاعه العسكر فاجتمعوا عليه، وكان هو يسيّر الأمور منذ مات أبوه إلى أن أظهره، وأقرّ يوسف بلكين على ولاية إفريقية وأضاف إليه طرابلس، وسرت، وأجدابية فارتفعت مكانته فكان يظهر الطاعة مجاملةً.

جمع خزرون بن فلفول بن خزر الزناتي جمعاً كبيراً من أبناء قبيلته وسار إلى مدينة سجلماسة فلقيه صاحبها فانتصر عليه خزرون وقتله وتملّك سجلماسة، وأخذ منها كثيراً من الأموال والعتاد، وبعث برأس صاحبها إلى الأندلس، وعظم شأن قبيلة زناتة وقوي ملكهم، وكان يوسف بلكين عند سبتة، وتنقّل في المنطقة وطرد عمّال بني أمية في الأندلس، وهربت زناتة منه فلجأ كثير منهم إلى سبتة وهي للخليفة الأموي في الأندلس الحكم الثاني بن عبد الرحمٰن الثالث (٣٥٠ ـ ٣٦٦هـ)، وسار نحو سبتة يوسف بلكين فخافه أهلها.

أرسل العزيز العبيدي جيشاً إلى الحجاز وصل إلى مكة فحاصرها وخُطب للعبيدي فيها سنة ٣٦٥هـ. وسيّر العبيدي سنة ٣٦٧هـ أميراً على الموسم ليحجّ بالناس، وهو باديس بن زيري أخو يوسف بلكين، فلما وصل

باديس إلى مكة أتاه اللصوص بها، فقالوا له: نتقبّل منك الموسم بخمسين ألف درهم ولا تتعرّض لنا، فقال لهم: أفعل ذلك، اجمعوا لي أصحابكم حتى يكون العقد مع جميعكم فاجتمعوا فكانوا نيفاً وثلاثين رجلاً، فقال: هل بقي منكم أحد؟ فحلفوا لم يبق منهم أحد فقطع أيديهم كلهم. وكانت الخطبة بمكة للعزيز العبيدي.

وانتقل بعض أولاد زيري بن مناد إلى الأندلس سنة ٣٧٣هـ هم: زاوي، وماكسن، وجلالة بسبب اختلافهم مع أخيهم حماد، وقاموا هناك بالجهاد.

وتوفي يوسف بلكين بن زيري لسبعٍ بقين من شهر ذي الحجة سنة ٣٧٣هـ، وأوصى بولاية ابنه المنصور بعده. واستعمل العزيز العبيدي على دمشق نكجور التركي مولى قرعويه أحد غلمان سيف الدولة الحمداني وذلك سنة ٣٧٣هـ.

وانتصر المنصور بن يوسف بلكين على قبيلة كتامة وقائدهم أبي الفهم الذي أرسله إليهم العزيز العبيدي لحرب المنصور وصنهاجة للإيقاع بين الطرفين وإضعافهما ولتبقى له السيادة وذلك سنة ٣٧٧هـ. وبعد سنتين خرج رجل آخر من كتامة يقال له: أبو الفرج وادعى النسب إلى العبيديين واجتمعت حوله كتامة، وقاتل نائب المنصور الصنهاجي على مدينة ميلة غير أنه

هُزم وجنوده وهرب هو إلى غارٍ في جبلٍ قريبٍ فوثب عليه غلامان كانا له فأخذاه وأتيا به إلى المنصور الصنهاجي فقتله. وشدّد المنصور على كتامة وبثّ عسكره في بلادها، وعيّن عمالاً من قبله عليها، ولم يكن هذا قبل ذلك.

وجاء سعيد بن خزرون الزناتي إلى المنصور ودخل في طاعته، وعلت مكانته عنده فاستعمله نائباً له على مدينة «طبنة»[1]، وتوفي سعيد في الأول من شهر رجب سنة ٣٧٩هـ، وقدم ابنه فلفل بن سعيد على المنصور فأحسن إليه وأكرمه وعيّنه مكان أبيه والياً على طبنة.

وخالف أبو البهار عمّ المنصور بن يوسف بلكين صاحب إفريقية لشيءٍ جرى عليه من المنصور لم يحمله له لعزة نفسه، فسار المنصور إليه بـ«تاهرت» ففارقها عمّه إلى الغرب بمن معه من أهلها وأصحابه، ودخل عسكر المنصور تاهرت فانتهبوها، ثم طلب أهلها الأمان فأمنهم، ثم سار في طلب عمه حتى جاوز تاهرت بسبع عشرة مرحلة، ولقي العسكر شدةً، وقصد عمه زيري بن عطية صاحب فاس فأكرمه وأعلى محله، وبقي جند أبي البهار

(١) طبنة: مدينة في المغرب الأوسط على وادي الزاب، وهي أكبر المدن بين القيروان وسجلماسة.

يغيرون على نواحي المنصور، وفي سنة ٣٨١هـ قصدوا النواحي المجاورة لفاس فأوقعوا بأصحاب المنصور واستدلوا عليها، ثم ندم أبو البهار فسار إلى المنصور معتذراً مما جرى منه فقبله المنصور وأكرمه وأحسن إليه، وحمل إليه كل ما يحتاج إليه من مالٍ وغيره.

وعزل العزيز العبيدي صاحب مصر عامله على دمشق نكجور سنة ٣٧٨هـ بعد خمس سنواتٍ من ولايته وذلك لسوء سيرته، ولأن الوزير يعقوب بن كلس[1] كان منحرفاً عنه وقد أساء إلى أصحابه بدمشق من يهود

---

(١) يعقوب بن كلس: يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن هارون بن كلس، أبو الفرج: يهودي ولد ببغداد سنة ٣١٨هـ، وسافر به أبوه إلى الشام، ثم أنفذه إلى مصر، فاتصل بكافور الإخشيدي فولّاه ديوانه بمصر والشام، وكان يشاوره في أكثر أموره، وأظهر الإسلام سنة ٣٥٦هـ، وانتقل إلى المغرب ودخل في خدمة المعز العبيدي سنة ٣٦٣هـ، وتولى أموره، ولما مات كافور الإخشيدي سنة ٣٥٨هـ ولي الوزارة بمصر جعفر بن الفرات فقبض على جماعةٍ وصادرهم ومنهم يعقوب بن كلس، فهرب يعقوب إلى المغرب، وشجّع المعز للسير إلى مصر فإن اليهود يُعذّبون فكان ذلك من أكبر أسباب إرسال المعز لجوهر الصقلي إلى الديار المصرية، ولما تولّى العزيز مصر بعد أبيه استوزره أيضاً وارتفعت مكانته عنده، وتوفي سنة ٣٨٠هـ، وأنزله في القبر العزيز العبيدي بنفسه وألحده بيده.

وغيرهم، فقبّح ذكره عند العزيز وطلب عزله فأجابه إلى ذلك، فجُهّزت العساكر من مصر مع القائد منير الخادم وساروا إلى الشام فجمع نكجور ما أمكنه جمعه من العرب وغيرهم وخرج فلقي العسكر المصري عند داريا فقاتلهم فانهزم نكجور وعسكره، وخاف من وصول نزال والي طرابلس، وكان قدكاتبه العزيز العبيدي من مصر بمعاضدة منير الخادم، فأرسل نكجور يطلب الأمان من المصريين ليسلّمهم البلد فأجابوه إلى ذلك فأخذ ماله وسار، وأخفى أثره خوفاً من أن يغدروا به، وتوجّه إلى الرقة فاستولى عليها، وتسلّم منير الخادم دمشق.

راسل نكجور ما حوله من ولاة حيث كاتب بهاء الدولة البويهي بالانضمام إليه وكاتب باذ الكردي المتغلّب على ديار بكر والموصل بالمسير إليه، وكاتب سعد الدولة بن سيف الدولة الحمداني صاحب حلب بأن يعود إلى طاعته كما كان ويعطيه مدينة حمص كما كانت له، فليس فيهم من أجابه إلى شيء مما طلب، فبقي في الرقة يراسل جماعةً من رفاقه سابقاً من مماليك سعد الدولة ويستميلهم فأجابوه إلى الموافقة على قصد حلب بلد سعد الدولة وأخبروه أنه مشغول بلهوه، فأرسل نكجور حينئذٍ إلى العزيز العبيدي بمصر يُطمعه بحلب فطمع فعلاً ويعث إلى نزال والي طرابلس وإلى

باقي ولاة بلاد الشام بالعمل مع نكجور، وحاول وزير العزيز العبيدي وهو عيسى بن نسطوريوس النصراني عدم دعم نكجور ولكن لم يفلح.

جرت المراسلة بين نكجور ونزال وتمّ الاتفاق على المعاضدة وسار نكجور إلى «بالس» فحاصرها خمسة أيام فامتنعت عليه فتركها وتابع سيره، ووصل إلى سعد الدولة خبر مسير نكجور إليه فسار عن حلب ومعه لؤلؤ الكبير مولى أبيه سيف الدولة، وكتب إلى نكجور نفسه يستميله ويدعوه إلى الموافقة ورعاية حق الرق والعبودية ويبذل له أن يقطعه من الرقة إلى حمص فلم يقبل منه ذلك. وكان سعد الدولة الحمداني قد كاتب الوالي لملك الروم بإنطاكية يستنجده فسيّر إليه جيشاً كثيراً من الروم، وكاتب أيضاً الذين مع نكجور من العرب يُرغّبهم في الإقطاع والعطاء الكثير والعفو عن مساعدتهم نكجور، فمالوا إليه ووعدوه الهزيمة بين يديه، فلما التقى العسكران اقتتلوا واشتدّ القتال، فلما اختلط الناس في الحرب وشُغل بعضهم ببعضٍ عطف العرب على سواد نكجور فنهبوه واستأمنوا إلى سعد الدولة، فلما رأى نكجور ذلك اختار من شجعان أصحابه أربعمائة رجلٍ وعزم على أن يقصد موقف سعد الدولة ويُلقي نفسه عليه فإما له وإما عليه، فهرب واحد

ممن حضر الحال إلى لؤلؤ الكبير وعرّفه ذلك، فطلب لؤلؤ من سعد الدولة أن يتحرّك من موقفه ويقف مكانه فأجابه إلى ذلك بعد امتناعٍ، فحمل نكجور ومن معه فوصلوا إلى موقف لؤلؤ بعد قتالٍ عجب الناس منه واستعظموه كلهم، فلما رأى نكجور لؤلؤاً ألقى نفسه عليه ـ وهو يظنّه سعد الدولة ـ وضربه على رأسه فسقط على الأرض فظهر حينئذٍ سعد الدولة وعاد إلى موقفه ففرح به أصحابه، وقويت نفوسهم وأحاطوا بـ «نكجور» وصدقوا القتال فمضى منهزماً هو وعامة أصحابه وتفرّقوا وبقي منهم معه سبعة رجالٍ وكثر القتل والأسر في الباقين، ولما طالت المسافة على نكجور ألقى سلاحه، ونزل عن فرسه، وسار راجلاً، ونزل عند بعض الأعراب وأطمعه بالمال فلم يصدق كلامه، فتركه في بيته وذهب إلى سعد الدولة وأبلغه أن نكجور عنده، فأعطاه سعد الدولة ما أراد وزيادةً، وسيّر معه سريةً فتسلّموا نكجور وأحضروه عند سعد الدولة، فلما رآه أمر بقتله، فقُتل، وسار سعد الدولة إلى الرقة، وبها سلامة الرشيقي وأولاد نكجور فسلّموا إليه البلد بأمانٍ، غير أنه طمع بأموالهم فأخذها، كتب أولاد نكجور إلى العزيز العبيدي يسألونه أن يشفع فيهم، فأرسل إليه يشفع فيهم ويأمره أن يسيّرهم إلى مصر ويتهدّده إن لم يفعل، فأهان سعد الدولة

مبعوث العبيدي، وقال له: قل لصاحبك: أنا سائر إليه، وسيّر مقدمته إلى حمص ليلحقهم، غير أنه مرض ولم يلبث أن مات بعد أن وصى إلى ولده أبي الفضائل، وأوصى لؤلؤاً به، وكانت وفاة سعد الدولة سنة ٣٨١هـ.

سار أبو الحسن علي بن الحسين المغربي وزير نكجور إلى مصر وأطمع العزيز العبيدي بحلب فأرسل جيشاً بقيادة أحد أمرائه وهو منجوتكين فوصل إلى حلب وحاصرها وفيها أبو الفضائل ولؤلؤ، فكتبا إلى «بسيل» ملك الروم يستنجدانه وهو مشغول بقتال البلغار غير أنه أرسل إلى نائبه بإنطاكية يأمره بإنجاد أبي الفضائل فسار إليه بخمسين ألفاً، فلما سمع منجوتكين بالخبر سار إلى الروم ليلقاهم قبل اجتماعهم بأبي الفضائل فانتصر عليهم وولّوا الأدبار إلى انطاكية. وسار منجوتكين إلى إنطاكية فنهبها جنده وأحرقوها، كما نهبوا قراها. واتجه منجوتكين بعد ذلك إلى حلب وألقى الحصار عليها، فبعث لؤلؤ إلى أبي الحسن علي بن الحسين المغربي وغيره وبذل لهم المال ليردّوا منجوتكين عن حلب، ففعلوا ذلك، وكان منجوتكين قد ضجر من القتال فأجابهم إلى ذلك وسار إلى دمشق، ولما بلغ الخبر إلى العزيز العبيدي غضب وكتب بعودة العسكر إلى حلب، وإبعاد المغربي، وأرسل الأقوات من مصر عن طريق البحر إلى طرابلس ومنها إلى عسكر مصر.

وصل عسكر العبيدي إلى حلب وأقاموا عليها ثلاثة عشر شهراً فقلّت الأقوات بحلب وعاد أبو الفضائل إلى مراسلة ملك الروم والاعتضاد به، وقال له: متى أُخذت حلب أخذت إنطاكية وعظُم عليك الخطب، وكان ملك الروم قد توسّط بلاد البلغار فعاد وجد السيّر نحو حلب، ووصلت الأخبار إلى منجوتكين فسار عن حلب كالمنهزم. ووصل ملك الروم فنزل على باب حلب وخرج إليه أبو الفضائل ولؤلؤ فاستقبلاه ثم رحل إلى شيزر فنهبها، وانتقل إلى حمص فدخلها، وسار إلى طرابلس فنازلها فامتنعت عليه، وأقام عليه نيفاً وأربعين يوماً فلما أيس من دخولها رجع إلى بلاده.

ووصلت الأخبار إلى العزيز العبيدي بمصر فأظهر عِظم الأمر عليه، وأعلن أنه يريد غزو الروم، وأصابته أمراض فلم يحدث شيء.

ومات القائد العبيدي جوهر الصقلي[1] يوم الخميس لعشرٍ بقين من شهر ذي العقدة سنة ٣٨١هـ.

---

(١) جوهر الصقلي: أبو الحسن جوهر بن عبد الله المعروف بالكاتب الرومي، أصله من أرمينية، كان من موالي المعز العبيدي، سار إلى مصر ليأخذها بعد موت كافور الإخشيدي في شهر ربيع الأول سنة ٣٥٨هـ، فوصل إليها في شهر شعبان=

= من السنة نفسها ومعه مائة ألف جندي، فانتصر على جيش مصر، وجدّد الأمان الأهلها ودخلها يوم الثلاثاء لثمان عشرة خلت من شهر شعبان من السنة نفسها، ونزل مائة ألف جندي، ونزل مكان مدينة القاهرة، ثم أخذ ببنائها، وبناء الجامع الأزهر، وخطب يوم الجمعة فخطب لمولاه المعزّ العبيدي، وقطع خطبة بني العباس عن المنابر المصرية، وكذلك اسمهم عن السكة، وأزال الشعار الأسود، وذكر في الخطبة أسماء الذين تعدّهم الشيعة أئمةً، وكان يُظهر الإحسان إلى الناس، ويجلس بنفسه كل يوم سبتٍ للمظالم مع القاضي وجماعة من الفقهاء والوزير، وفي يوم الجمعة الثامن من ذي القعدة سنة ٣٥٨هـ أمر جوهر بزيادة عقب الخطب (اللهم صلّ على محمد المصطفى، وعلى علي المرتضى، وعلى فاطمة البتول، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، اللهم وصلّ على الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين). وأمر فأذّن بـ (حيّ على خير العمل).
وانتهى من بناء الجامع الأزهر في السابع من شهر رمضان سنة ٣٦١هـ، وأقام بمصر حتى وصل إليه المعزّ العبيدي وهو نافذ الأمر، واستمرّ على علو منزلته وارتفاع درجته متولياً للأمور حتى يوم الجمعة السابع عشر من شهر المحرم سنة ٣٦٤هـ فعزله المعز عن دواوين مصر وجباية أموالها والنظر في أحوالها إلى أن توفي يوم الخمسين لعشرٍ بقين من شهر ذي القعدة سنة ٣٨١هـ، وقام مكانه ابنه الحسين أبو عبد الله الذي كان يقال له: قائد القواد، وهو أكبر أمراء الحاكم العبيدي.
كان جوهر على دين مولاه المعزّ العبيدي لذا فقد ابتدع أموراً كثيرة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

الأندلس

توفي في الأندلس الخليفة الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمٰن الناصر بالله الأموي سنة ٣٦٦هـ، وكانت إمارته خمس عشرة سنةً وخمسة أشهرٍ، وكان عمره ثلاثاً وستين سنةً وسبعة أشهرٍ، وكان محباً لأهل العلم وهو منهم، وعارفاً بالأنساب والتاريخ وجامعاً للكتب، وتولّى أمر الأندلس بعده ولده هشام وتلقّب باسم المؤيّد بالله، وكان صغيراً لا يزيد عمره على عشر سنواتٍ، فقام بأمر إدارة البلاد أبو عامر محمد بن عبد الله بن عامر بن محمد أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري، وجده عبد الملك أحد الوجوه الذين دخلوا الأندلس مع جيش الفتح بقيادة طارق بن زياد، وتلقّب أبو عامر باسم الحاجب المنصور، وغدا الحاكم الحقيقي للأندلس، وقد حجب المؤيد بالله عن الناس فلم يكن أحد يراه ولا يصل إليه، وقام بأمر دولته القيام المرضي، وعدل في الرعية، واشتغل بالغزو وفتح بعض البلدان، وحصل على الغنائم، وأدام الله له الحال ستاً وعشرين سنةً غزا فيها اثنتين وخمسين غزوةً، وتوفي سنة٣٩٢هـ.

ولد أبو عامر سنة ٣٢٦هـ، وأصله من الجزيرة

الخضراء جنوبي الأندلس على مضيق جبل طارق، ورد شاباً إلى قرطبة طلباً للعلم فبرع فيه، واستخلف على قضاء كورة «ريّة»، ثم عهد إليه بوكالة السيدة صبح والدة هشام المؤيّد فولي النظر في أموالها وضياعها، وعظمت مكانته عندها، وولى الشرطة والسكة والمواريث وأضيف إليه القضاء بإشبيلية، ولما مات المستنصر بالله الحكم بن عبد الرحمٰن الناصر كان المؤيد صغيراً، وخيف الاضطراب فضمن ابن أبي عامر لأم المؤيد سكون البلاد واستقرار الملك لابنها، وقام بشؤون البلاد وغزا وفتح، ولم ينهزم له جيش.

شخصية الطائع لله:

كان الخليفة الطائع لله عبد الكريم بن جعفر أبيض مربوعاً، حسن الجسم، شديد القوة، كثير الإقدام، وكان أنفه كبيراً جداً، ولم يكن له من الحكم في ولايته ما يعرف به حال يستدلّ به على سيرته.

كانت مدة خلافته سبع عشرة سنةً وثمانية شهورٍ وستة أيامٍ.

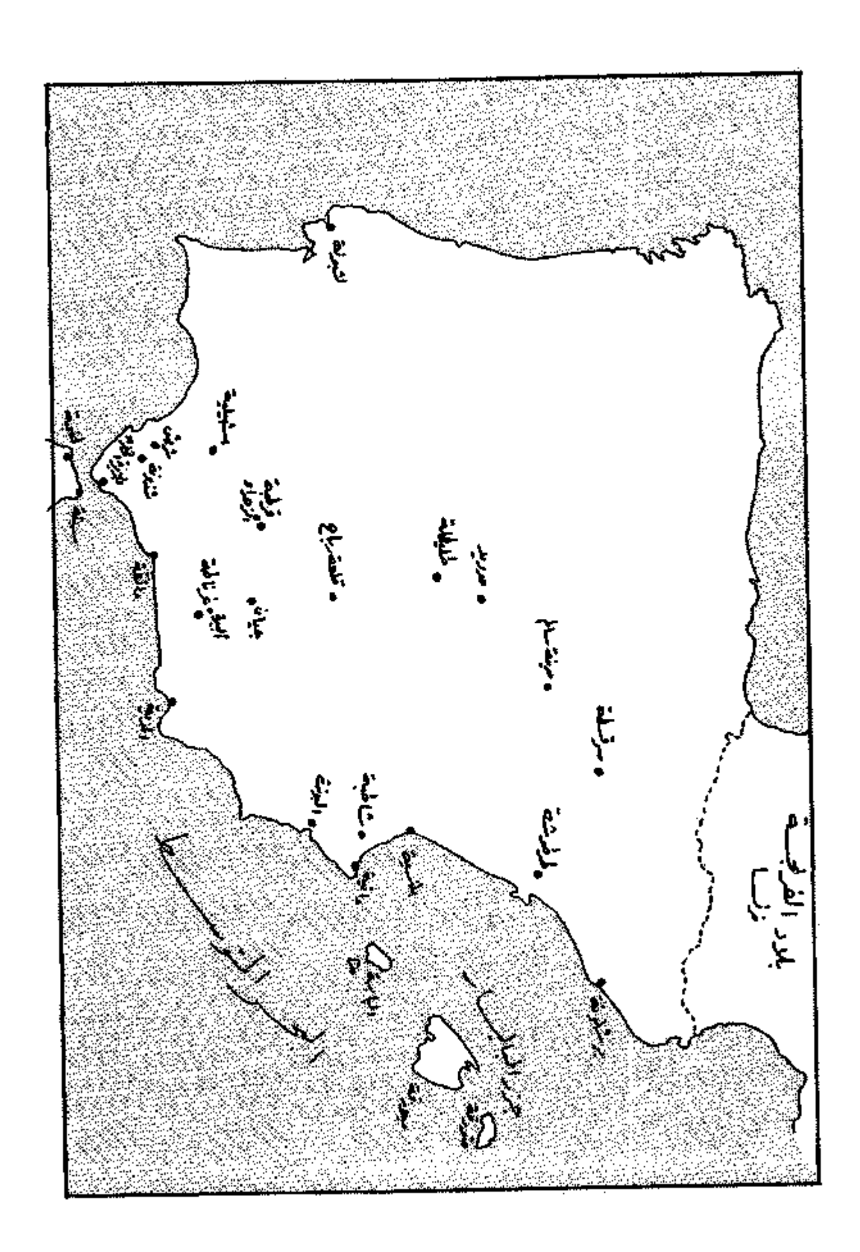
لما خُلع الطائع لله، وشهد على نفسه بالخلع، وبويع القادر بالله، حُمل الطائع لله إلى القادر بالله فبقي عنده إلى أن توفي ليلة عيد الفطر سنة ثلاثٍ وتسعين وثلاثمائة، أي عاش اثنتي عشر سنةً وشهراً وعشرة أيامٍ، وكان عند

القادر بالله مكرماً محترماً في أحسن حال.

توفي الخليفة الطائع لله وعمره ثمان وسبعون سنةً، وقد رثاه الشريف الرضي فقال:

أعجب لمسكة نفسي بعدما رميت
من النوائب بالإبكار والعون
ومن نجاتي يوم الدار حين هوى
غيري ولم أخلُ من حزمٍ ينجيني
مرقت مروق النجم منكدراً
وقد تلاقت مصاريع الردى دوني
وكنت أول طلّاع ثنيتها
ومن ورائي شرّ غير مأمون
من بعد ما كان رب الملك مبتسماً
إليّ أُدنيه في النجوى ويُدنيني
أمسيت أرحم من قد كنت أغبطه
لقد تقارب بين العزّ والهون
ومنظر كان بالسرّاء يُضحكني
يا قرب ما عاد بالضرّاء يبكيني
هيهات أغترّ بالسلطان ثانيةً
قد ضلّ ولّاج أبواب السلاطين

وصلّى عليه الخليفة القادر بالله.

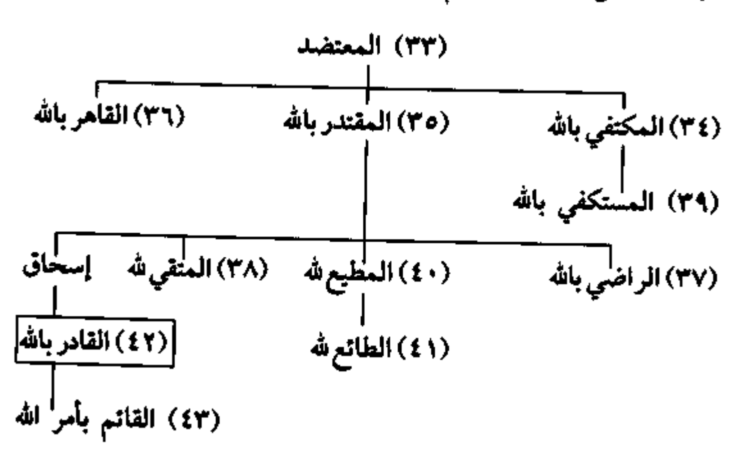

بلاد الفرنجة
فرنسا
سرقسطة
طرطوشة
مدينة سالم
طليطلة
شاطبة
قلعة رباح
لشبونة
قرطبة
الزهراء
جيان
إشبيلية
غرناطة
شريش
شذونة
مالقة

الفصل الثالث

٤٢ - القَادِر بالله

٣٨١ - ٤٢٢ هـ

القادر بالله هو أبو العباس أحمد بن إسحاق بن جعفر المقتدر بن أحمد المعتضد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس عمّ رسول الله ﷺ.



القادر بالله قبل الخلافة:

ولد القادر بالله أحمد بن إسحاق سنة ٣٣٦هـ، وأمه أمة اسمها «تمنّي» وقيل: «يُمنى»، وقيل: «دمنة».

ولم يكن لأحمد بن إسحاق قبل الخلافة أي دورٍ إذ لم يكن لأحدٍ من أفراد الأسرة الحاكمة من بني العباس ولا لأحدٍ من غيرهم أي دورٍ بارز سوى بني بويه بل لم يكن للخليفة نفسه ذلك حيث لم يكن له سوى اسم الخليفة فقط والصورة في الوقت الذي يُراد فيه إظهاره أو تقديم اسمه ومكانته.

خلافة القادر بالله:

لما قبض بهاء الدولة البويهي على الخليفة الطائع لله ذكر بهاء الدولة من يصلح للخلافة فاتفقوا على أبي العباس أحمد بن إسحاق، وهو ابن عم الطائع لله، وقد كان يومذاك بالبطيحة بين واسط والبصرة فأرسل إليه بهاء الدولة خواص أصحابه ليحضروه إلى بغداد ليتولّى الخلافة فساروا إليه، وشغب الديلم ببغداد، وحاولوا منع الخطبة يوم الجمعة، فقيل على المنبر: اللهم أصلح عبدك وخليفتك القادر بالله، ولم يذكر اسمه، وأرضاهم بهاء الدولة. ووصل القادر بالله إلى بغداد فاستقبله بهاء الدولة البويهي وأعيان

الناس، ودخل دار الخلافة في الثاني عشر من شهر رمضان سنة ٣٨١هـ وبايعه بهاء الدولة والناس، وخطب له في اليوم التالي، وجلس في ذلك اليوم جلوساً عاماً، وهُنئ بالأمر، وألقيت قصائد في مديحه، ومنها قصيدة للشريف الرضي[١] التي مطلعها:

شرف الخلافة يا بني العباس
اليوم جدّده أبو العباس
هذا الذي رفعت يداه بناءها الـ
عالي وذاك موصد الأساس
ذو الطود أبقاه الزمان ذخيرةً
من ذاك الجبل الأشمّ الراسي

ولما رجع القادر بالله إلى بغداد مانعته الديلم من الدخول إليها حتى يعطيهم رسم البيعة، وجرت بينهم خطوب طويلة، ثم رضوا عنه ودخل بغداد، وكانت مدة هربه إلى أرض البطيحة ثلاث سنين.

---

(١) الشريف الرضي: محمد بن الحسين بن موسى، أبو الحسن: ولد ببغداد سنة ٣٥٩هـ، وانتهت إليه نقابة الأشراف في حياة والده المتوفى سنة ٤٠٠هـ، وخلع عليه بالسواد وجُدّد له التقليد سنة ٤٠٣هـ، وتوفي في بغداد سنة ٤٠٦هـ.

أبو الفتوح الطالبي:

ظهر في مكة سنة ٣٨١هـ أبو الفتوح الحسين بن جعفر الطالبي أمير مكة، وادّعى أنه خليفة، وسمّى نفسه الراشد بالله، فمالأه أهل مكة، وحصل له أموال من رجل أوصى له بها، فانتظم أمره بها، وتقلّد سيفاً وزعم أنه ذو الفقار، وأخذ بيده قضيباً وزعم أنه كان لرسول الله ﷺ، ثم قصد بلاد الرملة ليستعين بعرب الشام، فتلقّوه بالرحب وقبّلوا له الأرض، وسلّموا عليه بأمير المؤمنين، وأظهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود.

ثم إن الحاكم العبيدي صاحب مصر قد بعث إلى عرب الشام بملاحظاتٍ ووعدهم بالأموال، وكذلك إلى عرب الحجاز، واستناب على مكة أميراً وبعث إليه بخمسين ألف دينارٍ، فانتظم أمر الحاكم وتمزّق أمر الراشد، وانسحب إلى بلاده كما بدأ منها، وعاد إليها كما خرج عنها، واضمحل حاله، وانتقضت حباله وتفرّق عنه رجاله[1].

---

(١) البداية والنهاية: ابن كثير.

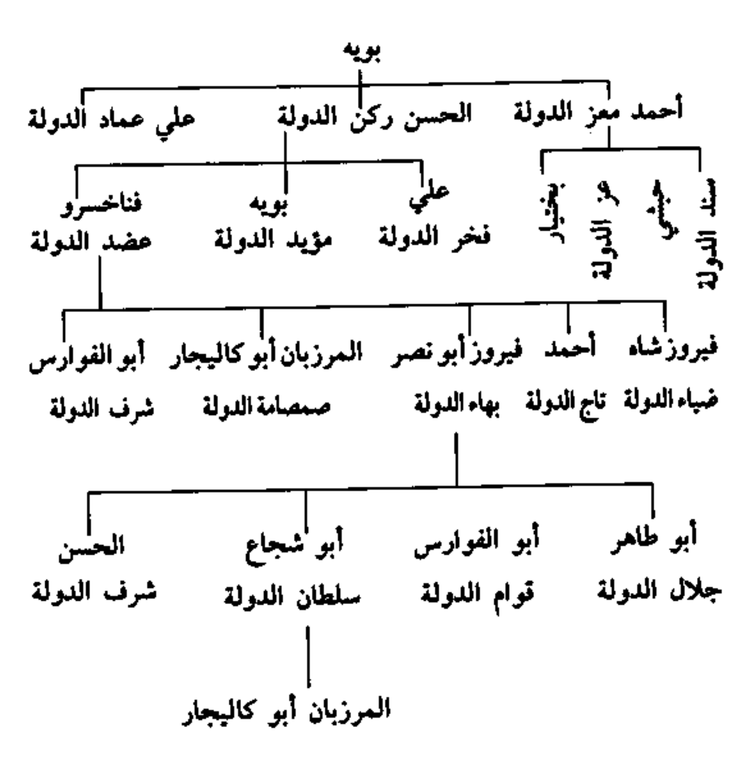
الإمارات

أولاً: البويهيون:

كان قد مات عضد الدولة فناخسرو سنة ٣٧٢هـ، وقام أبناؤه من بعده فسيطر أبو الفوارس شرف الدولة حتى ٣٧٩هـ حيث لقي حتفه، وظهر أخوه الآخر المرزبان أبو كاليجار صمصامة الدولة إذ سيطر حتى سنة ٣٨٨هـ غير أنه وقع الخلاف بينه وبين أخيه فيروز أبو نصر بهاء الدولة الذي توفي سنة ٤٠٣هـ، فبرز ابنه أبو شجاع سلطان الدولة حتى ٤١٥هـ، وولده من بعده المرزبان أبو كاليجار بن سلطان الدولة حتى سنة ٤٤٠هـ، وكان الخلاف مستمراً بين أبناء بني بويه في هذه المرحلة، وكانت المنطقة التي تحت نفوذهم في صراع بين الفئات المتنافسة على السلطة وليست المتناحرة.

كان خلف بن أحمد (ابن بانو بنت عمرو بن الليث الصفَّار) صاحب سجستان قد بعث ابنه عمراً إلى كرمان فملكها سنة ٣٨١هـ، وذلك أنه قوي أمره وكثرت أمواله فحدّثته نفسه أن يملك كرمان ولم تتهيأ له الفرصة قبل ذلك لهدنةٍ كانت بينه وبين عضد الدولة، فلما مات عضد الدولة وملك ابنه شرف الدولة واستقر أمره وانتظم

ملكه وأمن سلطانه لم يتحرّك خلف بن أحمد، فلما توفي شرف الدولة واضطرب ملوك بني بويه ووقع الخلاف بين صمصامة الدولة وبهاء الدولة قوي طمع خلف بن أحمد وانتهز الفرصة وجهّز ولده عمراً وسيّره.



في عسكرٍ كثيرٍ إلى كرمان وبها قائد يقال له: تمرتاش كان قد استعمله شرف الدولة، فلم يشعر تمرتاش إلا وعمرو قد قاربه، فلم يكن له ولمن معه

حيلة إلا الدخول إلى مدينة «أردشير»[1] وحملوا ما أمكنهم حمله وغنم عمرو الباقي وملك كرمان ما عدا أردشير، وصادر الناس وجبى الأموال، فلما وصل الخبر إلى صمصامة الدولة وهو صاحب فارس جهّز العساكر وسيّرها نجدةً لتمرتاش، وقدّم عليهم قائداً يقال له: أبو جعفر، وأمره بالقبض على تمرتاش عند الاجتماع به لأنه اتهمه بالميل إلى أخيه بهاء الدولة فيروز، فسار أبو جعفر فلما اجتمع بتمرتاش قبض عليه وحمله إلى مدينة شيراز. وسار أبو جعفر بالعسكر جميعه يقصد عمرو بن خلف ليحاربه فالتقى به فانهزم أبو جعفر وعسكره وبلغ الخبر صمصامة الدولة فعظم عليه الأمر وعزم على إرسال العباس بن أحمد في جيش أكبر من الأول فسيّره والتقى مع عمرو بن خلف فكانت الهزيمة على عمرو بن خلف وأسر جماعةٍ من قواده وأصحابه ومنهم صهر خلف بن أحمد ويدعى «ألفتكين» ويعرف باسم ابن أمير الخيل، وكان هذا في شهر المحرم سنة ٣٨٢هـ، وعاد عمرو إلى أبيه بسجستان مهزوماً فلما دخل عليه لامه ووبَّخه ثم حبسه أياماً ثم

---

(١) أردشير: كورة في فارس أكبر مدنها شيراز، وفيها مدينة تحمل اسمها أيضاً هي مدينة أردشير.

قتله بين يديه، وتولّى غسله، والصلاة عليه ودفنه في القلعة.

ثم إن صمصامة الدولة قد عزل العباس بن أحمد عن كرمان واستعمل عليها «أستاذ هرمز» فلما وصل إلى كرمان خافه خلف بن أحمد فكاتبه في تجديد الصلح واعتذر عن فعله فاستقرّ الصلح، فبعث خلف بن أحمد قاضياً كان بسجستان يعرف بأبي يوسف كان له قبول عند العامة والخاصة، ووضع عليه رجلاً يكون معه وأمره أن يسقيه سُمّاً إذا صار عند أستاذ هرمز، ويعود مسرعاً ويشيع أن أستاذ هرمز قتله، فسار أبو يوسف إلى كرمان فصنع له أستاذ هرمز طعاماً فحضره وأكل منه، فلما عاد إلى منزله سقاه ذلك الرجل سُمّاً فمات منه، ورجع الرجل مجداً إلى خلف بن أحمد، فجمع له خلف وجوه الناس ليسمعوا له فذكر أن أستاذ هرمز قتل القاضي أبا يوسف وبكى خلف وأظهر الجزع عليه ونادى في الناس بغزو كرمان والأخذ بثأر أبي يوسف، فاجتمع الناس واحتشدوا فسيّرهم مع ولده طاهر فوصلوا إلى «نرماسير» وبها عسكر الديلم فهزموهم وأخذوا البلد منهم، ولحق الديلم بـ«جيرفت» فاجتمعوا بها وجعلوا بـ«بردسير» من يحميها ـ وهي أصل بلاد كرمان ومصرها ـ فقصدها طاهر وحاصرها ثلاثة أشهرٍ فضاق الوضع

بأهلها، وكتبوا إلى أستاذ هرمز يعلمونه حالهم، وأنه إن لم يدركهم سلّموا البلد، فركب مسرعاً إليهم حتى أتى «بردسير»، فلما وصل إليها رحل طاهر ومن معه عنها وعادوا إلى سجستان، واستقرت كرمان للديلم وكان ذلك سنة ٣٨٤هـ.

كان عضد الدولة فناخسرو قد سجن أولاد ابن عمّه بختيار عز الدولة، وعندما مات عضد الدولة أطلق ابنه شرف الدولة أولاد بختيار وأحسن إليهم، وأنزلهم مدينة شيراز وأقطعهم، فلما مات شرف الدولة سنة ٣٧٩هـ حبسهم ثانيةً أخوه المرزبان صمصامة الدولة في قلعةٍ ببلاد فارس، غير أنهم استطاعوا أن يستميلوا القائم على القلعة ومن معه من الديلم، ولما وصل الخبر إلى صمصامة الدولة سيّر أبا علي بن أستاذ هرمز في عسكرٍ إليهم فلما اقترب منهم تفرّق من معهم من الرجال وتحصّن بنو بختيار وكانوا ستةً في القلعة مع من بقي إلى جانبهم، وحاصرهم أبو علي، وراسل أحد وجوه الديلم وأطمعه في الإحسان فأصعدهم إلى القلعة سراً فملكوها وأخذوا أولاد بختيار أسرى، فأمر صمصامة الدولة بقتل اثنين منهم وحبس الباقين منهم، ففُعل ذلك بهم.

وسيّر بهاء الدولة سنة ٣٨٢هـ أبا العلاء عبد الله بن

الفضل إلى الأهواز وتقدّم بأن يكون مستعداً لقصد بلاد فارس وأعلمه بأنه سيسيّر إليه العساكر متفرّقين فإذا اجتمعوا عنده سار بهم إلى بلاد فارس بغتةً فلا يشعر صمصامة الدولة إلا وهم معه في بلاده، فسار أبو العلاء ولم يتهيأ لبهاء الدولة إمداده بالعساكر. وانتشر الخبر فجهّز صمصامة الدولة عسكره، وسيّرهم إلى خوزستان، وكتب أبو العلاء إلى بهاء الدولة بالخبر ويطلب إنجاده بالعسكر، فسيّر إليه عسكراً كثيراً، ووصلت عساكر فارس فلقيهم أبو العلاء فانهزم هو وجنده وأُخذ أسيراً وحُمل إلى صمصامة الدولة فاعتقله ولم يقتله إذ طلبت والدة صمصامة الدولة ذلك من ابنها.

وعاد بهاء الدولة فبعث عسكراً إلى الأهواز سنة ٣٨٤هـ بقيادة طغان التركي وكان عددهم سبعمائة رجل. فلما اقتربوا منها رحل عنها أصحاب صمصامة الدولة، ثم توجّه صمصامة الدولة بنفسه ومعه عساكر من الديلم، وتميم، وأسد فلما بلغ مدينة «تستر» انتظر حتى أقبل الليل وتحرّك ليكبس عسكر بهاء الدولة ولكن ضلّ الأدلّاء عن الطريق فاقترب منهم فرأته طلائع بهاء الدولة فأخذوا الحذر واجتمعوا، وجعل قائدهم طغان التركي كميناً، فلما التقوا واقتتلوا خرج الكمين فانهزم صمصامة الدولة ومن معه، وكانوا ألوفاً كثيرةً استأمن منهم أكثر

من ألفي رجل، وغنم أصحاب بهاء الدولة شيئاً كثيراً، وضرب طغان للمستأمنة خياماً يسكنونها فلما نزلوا بها اجتمع جند طغان وتشاوروا، وقالوا: هؤلاء أكثر منا عدداً، ونحن نخاف أن يثوروا بنا، واستقر رأيهم على قتلهم، فلم يشعر المستأمنون إلا وقد أُلقيت الخيام عليهم، ووقع الأتراك فيهم بالعمد حتى أتوا عليهم، فقُتلوا كلهم، وورد الخبر على بهاء الدولة وهو بواسط، فلما سمع ذلك سار إلى الأهواز، وكان طغان وجنده قد ملكوها قبل وصوله إليها. وسار صمصامة الدولة إلى شيراز فدخلها، وأخذ يتجهّز للعودة إلى أخيه بهاء الدولة بالأهواز.

وكان قد عقد نكاح الخليفة القادر بالله على ابنة بهاء الدولة سكينة وذلك سنة ٣٨٣هـ بصداق مبلغه مائة ألف دينارٍ. وفي سنة ٣٨٤هـ عقد نكاح مهذب الدولة[1]

---

(١) مهذب الدولة: علي بن نصر، أبو الحسن، أمير البطيحة، وليها سنة ٣٧٦هـ بعد وفاة خاله المظفر وبعهد منه، إذ كان خاله المظفر بن علي حاجباً لعمران بن شاهين مؤسس إمارة البطيحة والذي توفي سنة ٣٦٩هـ، ولم يصلح من جاء بعده للإمارة فأخذها المظفر سنة ٣٧٣هـ، وأحسن السيرة، وكان عقيماً ، وكان مرجعه بني بويه، فلما توفي أخذها ابن أخته مهذب الدولة.

على ابنة بهاء الدولة وللأمير أبي منصور بويه بن بهاء الدولة على ابنة مهذب الدولة، وكان الصداق من كل جانبٍ مائة ألف دينارٍ.

وأمر صمصامة الدولة بقتل الأتراك الذين ببلاد فارس، فقُتل منهم جماعة وهرب الباقون وذلك سنة ٣٨٥هـ، وجهّز عسكره من الديلم وردّهم إلى الأهواز مع العلاء بن الحسن، واتفق أن طغان التركي نائب بهاء الدولة بالأهواز قد توفي وعزم الأتراك الذين معه على العودة إلى بغداد، ووصل الخبر إلى بهاء الدولة، فبعث نائباً عنه، ثم سار هو بنفسه إليها، وعمل العلاء بن الحسن الحيلة وكاتب بهاء الدولة، وجرت عدة وقائع بين الطرفين، وكانت نتائجها أن رجع الأتراك جند بهاء الدولة إلى واسط وأقام جند صمصامة الدولة بالأهواز.

وسار قائد كبير من قادة صمصامة الدولة واسمه لشكرستان إلى البصرة وأجلى عنها أصحاب بهاء الدولة، فكتب بهاء الدولة إلى صاحب البطيحة مهذب الدولة يقول له: أنت أحق بالبصرة فسيّر إليها جيشاً مع عبد الله بن مرزوق فتمكّن من أن يُجلي عنها لشكرستان وصفت البصرة لمهذب الدولة، ثم إن لشكرستان اجتمع لديه حشد قاتل به أصحاب بهاء الدولة وأخرجهم من

البصرة، ثم كاتب بهاء الدولة يطلب منه المصالحة، ويبذل له الطاعة ويخطب له بالبصرة فأجابه مهذب الدولة إلى ذلك، وأخذ ابنه أبا العز رهينةً، فكان لشكرستان يظهر طاعة صمصامة الدولة بهاء الدولة ومهذب الدولة، وقسا على أهل البصرة مدةً فتفرَّقوا عنه، ثم إنه أحسن إليهم وعدل فيهم فعادوا.

توفي أبو الذواد بن المسيب العقيلي سنة ٣٨٦هـ فطمع أخوه المقلّد بإمارة الموصل ولكن بني عقيل لم يساعدوه على ذلك بل قلّدوا أخاه علياً الإمرة لأنه أكبر منه، فأخذ المقلّد يتبع أساليب مختلفة للوصول إلى هدفه ومن ذلك استمالته الديلم الذين بالموصل فمال إليه بعضهم، كما كتب لبهاء الدولة البويهي يضمن منه البلد بألفي درهمٍ كل سنةٍ، وذهب إلى أخيه علي وأظهر له أن بهاء الدولة قد ولّاه الموصل وسأله أن يساعده على أبي جعفر الحجاج لأنه قد منعه عنها، فساروا ونزلوا على الموصل فخرج إليهم كل من استماله المقلّد من الديلم فضعف الحجاج وطلب منهم الأمان فأمنوه وواعدهم يوماً يخرج إليهم فيه، غير أنه غادر البلد على حين غفلةٍ منهم وقد أخذ أمواله وسار إلى بهاء الدولة فتبعوه فلم ينالوا منه شيئاً، ودخل المقلد

البلد واستقرّ الأمر بينه وبين أخيه عليّ بأن يخطب لهما ويقدّم عليّ لكبره ويكون معه نائب يجبي المال، واشتركا في البلد والولاية، وسار علي إلى البر وأقام المقلد بالبلد، وجرى الأمر على ذلك مدةً ثم اختلفا واختصما، وكان المقلد يتولى حماية غربي الفرات من أرض العراق، وكان له ببغداد نائب فيه حمق وتهور فجرى بينه وبين أصحاب بهاء الدولة مشاجرة فكتب إلى المقلد يشكو فانحدر المقلد من الموصل في عساكره وجرى بينه وبين أصحاب بهاء الدولة حرب انهزموا فيها، وكتب المقلد إلى بهاء الدولة يعتذر وطلب إنفاذ من يعقد عليه ضمان القصر، وكان بهاء الدولة مشغولاً بمن يقاتله من عسكر أخيه فاضطر إلى المغالطة، ومدّ المقلّد يده فأخذ الأموال فبرز نائب بهاء الدولة ببغداد ـ وهو يومئذٍ أبو علي بن إسماعيل ـ وخرج إلى حرب المقلد فبلغه الخبر فأرسل أصحابه ليلاً فاقتتلوا وعادوا إلى المقلد، وبلغ الخبر بهاء الدولة عن مجيء أصحاب المقلد إلى بغداد فأرسل أبا جعفر الحجاج إلى بغداد وأمره بمصالحة المقلّد والقبض على أبي علي بن إسماعيل، فسار أبو جعفر إلى بغداد في آخر شهر ذي الحجة سنة ٣٨٦هـ فلما وصل إليها راسله المقلد بالصلح فاصطلحا على أن يحمل إلى بهاء الدولة عشرة

آلاف دينارٍ ولا يأخذ من البلاد إلا رسم الحماية وأن يخطب لأبي جعفر بعد بهاء الدولة، وأن يخلع على المقلد الخلع السلطانية، ويلقّب بحسام الدولة، ولم يفِ المقلد بشيءٍ من ذلك سوى حمل المال، واستولى على البلاد ومدّ يده في المال، وقصد الأعيان وارتفعت مكانته، وقبض أبو جعفر على أبي عليّ، ثم هرب أبو عليّ نائب بهاء الدولة واستتر وسار إلى البطيحة متخفياً ملتجئاً إلى مهذب الدولة. واستمرّ الخلاف بين أبناء المسيب وهم: المقلد وعلي والحسن حتى مات علي سنة ٣٩٠هـ.

وتوفي فخر الدولة أبو الحسن علي بن ركن الدولة أبي علي الحسن بن بويه سنة ٣٨٧هـ، ولما توفي قام بعده ولده مجد الدولة أبو طالب رستم، وعمره أربع سنواتٍ، أجلسه الأمراء وجعلوا أخاه أبا طاهر شمس الدولة بهمدان وكان المرجع في تدبير الملك إلى والدة أبي طاهر وعن رأيها يصدرون.

وعاد أبو علي بن إسماعيل إلى طاعة بهاء الدولة فسار إليه بواسط، وخرج ابنا عز الدولة بختيار، وهما أبو القاسم وأبو نصر من سجنهما بالقلعة التي كانا فيها بعد استمالة الموكّلين بهما، واجتمع حولهما بعض

الأكراد وبعض الديلم الذين تركوا صمصامة الدولة، واتجه صمصامة الدولة إلى شيراز ولكن قُبض عليه، وسُلّم إلى أبي نصر بن عزّ الدولة بختيار فقتله وذلك في شهر ذي الحجة سنة ٣٨٨هـ، وقال: هذه سنّة سنّها أبوك، يعني ما كان من قتل عضد الدولة أبي صمصامة الدولة لعز الدولة بختيار والد أبي نصر، وكان عمر صمصامة الدولة خمساً وثلاثين سنةً وسبعة أشهرٍ ومدة إمارته ببلاد فارس تسع سنين وثمانية أيامٍ. وملك ابنا بختيار بلاد فارس بعد قتل صمصامة الدولة، وكتبا إلى أبي علي بن أستاذ هرمز الذي ملك الأهواز ودخل في طاعة بهاء الدولة أن يتعاونا معه ويقاتلون جميعاً بهاء الدولة لكنه خافهما فاستشار الذين معه من الديلم فأشاروا عليه بطاعة ابني بختيار ومقاتلة بهاء الدولة فلم يوافقهم على ذلك ورأى أن يراسل بهاء الدولة ويستميله، فقالوا: إن الأتراك مع بهاء الدولة ونحن نخافهم وتعلم ما كان بيننا وبينهم فسكت عنهم وتفرّقوا. وراسله بهاء الدولة وبذل له وللديلم الأمان والإحسان وترددت الرسل بين الجانبين، وقال بهاء الدولة: إن ثأري وثأركم عند من قتل أخي فلا عذر لكم في التخلّف عن الأخذ بثأره، واستمال الديلم فأجابوه إلى الدخول في طاعته، وبعثوا جماعةً من أعيانهم فحالفوه

واستوثقوا منه. ودخل أبو علي بن إسماعيل شيراز وكتب إلى بهاء الدولة بذلك فسار إليها ونزلها وسيّر عسكر مع أبي الفتح أستاذ هرمز إلى كرمان فملكها وأقام بها نائباً عن بهاء الدولة.

ولما انهزم أبو نصر بن عزّ الدولة بختيار أمام عسكر بهاء الدولة بشيراز سار إلى بلاد الديلم، وكاتب الديلم الذين في بلاد فارس وكرمان يستميلهم إليه وكاتبوه واستدعوه إلى بلاد فارس فسار إليهم، واجتمع حوله كثير من الديلم والأتراك والزط، وتردّد في تلك النواحي، ثم سار إلى كرمان فلم يقبله الديلم الذين بها، وكان المقدّم عليهم أبو جعفر بن أستاذ هرمز، فسار إليه والتقيا فانهزم أبو جعفر وملك أبو نصر أكثر كرمان فعظم الأمر على بهاء الدولة فسيّر إليه الموفق علي بن إسماعيل في جيشٍ كثيرٍ وسار مجدّاً فاستأمن إليه من في «جيرفت» من أصحاب أبي نصر بن عزّ الدولة بختيار فدخلها، فأنكر عليه من معه من القواد سرعة سيره وخوّفوه عاقبة ذلك فلم يصغ إليهم، وسأل عن حال أبي نصر بن بختيار فأُخبر أنه على ثمانية فراسخ من «جيرفت»، فاختار ثلاثمائة رجلٍ من شجعان أصحابه وسار بهم وترك الباقين مع السواد بجيرفت،

فلما بلغ ذلك المكان لم يجده ودُلّ عليه فلم يزل يتبعه من منزلٍ إلى منزلٍ حتى لحقه بـ«دارزين» فسار ليلاً وقدر وصوله إليه عند الصبح فأدركه فركب أبو نصر بن بختيار واقتتلوا قتالاً شديداً، وسار الموفق علي بن إسماعيل في نفرٍ من غلمانه فأتى ابن بختيار من ورائه فانهزم ابن بختيار وأصحابه ووضع فيهم السيف فقتل منهم الخلق الكثير، فغدر بابن بختيار بعض أصحابه وضربه فألقاه وعاد إلى الموفق ليخبره بقتله فأرسل معه من ينظر إليه فرآه وقد قتله غيره وحمل رأسه إلى الموفق، وأكثر الموفق القتل في أصحاب ابن بختيار واستولى على بلاد كرمان واستعمل عليها أبا موسى سياهجيل وعاد إلى بهاء الدولة فخرج بنفسه إليه وأكرمه ثم قبض عليه بعد عدة أيامٍ، وذلك سنة ٣٩٠هـ، ثم إن بهاء الدولة قتل الموفق سنة ٣٩٤هـ.

واستعمل بهاء الدولة على الأهواز أبا علي الحسن بن أستاذ هرمز ولقبه عميد الجيوش، وحمل إلى بهاء الدولة منها أموالاً جليلةً مع سيرةٍ حسنةٍ وعدلٍ في أهلها.

وقُتل حسام الدولة المقلد بن المسيب العقيلي قتله غيلةً مماليك له من الترك، وقام مكانه ابنه قرواش،

وتعاون مع عمه الحسن بن المسيب على منافسيه.

وأمر الخليفة القادر بالله سنة ٣٩١هـ في شهر ربيع الأول بالبيعة لولده بولاية العهد ولقّبه الغالب بالله وعمره يومذاك ثماني سنواتٍ وعدة شهورٍ، وكان سبب ذلك أن عبد الله بن عثمان الواثقي من ولد هارون الواثق بالله أمير المؤمنين كان من أهل نصيبين وقد قصد بغداد ثم سار عنها إلى خراسان وعبر نهر جيحون إلى هارون بن إيلك بغرا خاقان وأظهر أنه رسول من الخليفة القادر بالله وقد عهد إليه بولاية العهد من بعده، ويأمر هارون بالبيعة له، فأجابه هارون خاقان إلى ذلك وبايع له وخطب له ببلاده وأنفق عليه، فبلغ ذلك الخليفة القادر بالله فعظم عليه وراسل خاقان في كذب ما ادعاه الواثقي فلم يصغ إلى رسالته، وتوفي هارون خاقان وولي بعده قره خاقان فكاتبه الخليفة فأجابه إلى ما أراد وأمر بإبعاد الواثقي، فعندها بايع الخليفة لولده بولاية العهد، وأما الواثقي فإنه خرج من عندأحمد قره خاقان وقصد بغداد فعُرف بها فطُلب فهرب إلى البصرة ثم إلى فارس وكرمان ثم إلى بلاد الترك فلم يتمّ له ما أراد، وراسل الخليفة الولاة في طلبه فضاقت عليه الأرض، وسار إلى خُوارزم وأقام بها ثم فارقها فأخذه

يمين الدولة محمود بن سبكتكين فحبسه في قلعة وبقي فيها إلى أن توفي.

واستولى طاهر بن خلف بن أحمد سنة ٣٩١هـ على كرمان، وذلك أنه خرج عن طاعة أبيه صاحب سجستان وجرى بينهما قتال كان الظفر فيه لأبيه ففارق سجستان وسار إلى كرمان وفيها عسكر بهاء الدولة، فاجتمع من بها من العساكر إلى المقدم عليهم ومتولي أمر البلد ـ وهو أبو موسى سياهجيل ـ فقالوا له: إن طاهر بن خلف قد وصل إلينا ـ وهو ضعيف ـ والرأي أن تبادره قبل أن يقوى أمره ويكثر جمعه، فلم يفعل واستهان به، فكثر جمع طاهرٍ، وصعد إلى الجبال وبها قوم من العصاة على السلطان فاحتمى بهم وقوي، فنزل إلى «جيرفت» وسيطر عليها، وعلى غيرها وزاد طمعه فقصده أبو موسى والديلم فهزمهم وأخذ بعض ما بقي بأيديهم، فكاتبوا بهاء الدولة فسيّر إليهم جيشاً بقيادة أبي جعفر بن أستاذ هرمز فسار إلى كرمان وبها طاهر بن خلف فجرى قتال بين طلائع العسكرين، وعاد طاهر إلى سجستان وفارق كرمان، فلما بلغ سجستان أطلق سراح الأسرى ودعاهم إلى قتال أبيه معه، وحلف لهم أنهم إذا نصروه وقاتلوا معه أطلقهم ففعلوا ذلك وقاتل

أباه فهزمه، وملك طاهر البلاد، ودخل أبوه إلى حصن منيع له فاحتمى به، وأحبّ الناس طاهراً لحسن سيرته وسوء سيرة أبيه، وأطلق طاهر الديلم، ثم إن أباه راسل أصحابه ليفسدهم عليه فلم يفعلوا فعدل إلى مخادعته، وراسله يُظهر له الندم على ما كان منه ويستميله بأنه ليس له ولد غيره، وأنه يخاف أن يموت فيملك بلاده غير ولده، ثم استدعاه إليه ليجتمع به ويعرفه أحواله فتواعدا تحت قلعة خلف، فأتاه ابنه ونزل هو إليه كذلك، وكان قد أعدّ بالقرب منه كميناً فلما لقيه اعتنقه وبكى خلف وصاح في بكائه فخرج الكمين وقبضوا على طاهر وسلّموه إلى أبيه فقتله أبوه بيده وغسّله ودفنه، ولم يكن له ولد غيره، فلما قُتل طاهر طمع الناس في خلف لأنهم كانوا يخافون ابنه لشهامته، وقصده بعدئذٍ محمود بن سبكتكين وسيطر على بلاده.

ووُلد للخليفة القادر بالله سنة ٣٩١هـ ابنه عبد الله وهو الذي ولي الخلافة بعده سنة ٤٢٢هـ وعُرف باسم القائم بالله أبو جعفر، وكانت ولادته يوم الخميس الثامن عشر من شهر ذي القعدة.

سيّر قراوش المقلّد بن المسيّب العقيلي سنة ٣٩٢هـ جمعاً من بني عقيل إلى المدائن فحاصروها

فبعث إليهم أبو جعفر نائب بهاء الدولة جيشاً أزالهم عنها.

وملك يمين الدولة محمود بن سبكتكين سجستان سنة ٣٩٣هـ، ولكن حدث عصيان فيها وخالف رجاله السلطان فسار إليهم يمين الدولة وجرى قتال بين الطرفين يوم الجمعة في منتصف شهر ذي الحجة ٣٩٣هـ فانتصر عليهم فقتل بعضهم وفرّ بعضهم فسيّر في أثرهم من يطلبهم حتى خلت سجستان منهم فأقطعها أخاه نصراً مضافةً إلى نيسابور.

توفي الخليفة المخلوع الطائع لله في شهر شوال سنة ٣٩٣هـ.

وقلّد بهاء الدولة البويهي نقابة الطالبيين بالعراق سنة ٣٩٦هـ الشريف الرضي ولقّبه بذي الحسبين، ولقّب أخاه الشريف المرتضى ذا المجدين.

وتوفي بهاء الدولة أبو نصر بن عضد الدولة بن بويه وهو الملك بالعراق سنة ٤٠٣هـ، وكان موته تتابع الصرع مثل مرض أبيه، وكان موته بأرجان، ودُفن عند أبيه عضد الدولة، وكان عمره اثنتين وأربعين سنةً وتسعة أشهرٍ وخمسة عشر يوماً، وولي الملك بعده ابنه سلطان الدولة أبو شجاع، وسار من أرجان إلى شيراز، وولّى

أخاه أبا طاهر جلال الدولة بن بهاء الدولة البصرة، وأخاه أبا الفوارس قوام الدولة كرمان.

وقبض سلطان الدولة أبو شجاع على وزيره فخر الملك[1] أبي غالب سنة ٤٠٦هـ، وقتله في شهر ربيع الأول سنة ٤٠٧هـ.

عندما سلّم سلطان الدولة أبو شجاع أخاه أبو الفوارس قوام الدولة كرمان اجتمع الديلم حول أبي الفوارس وحسّنوا له محاربة أخيه وأخذ البلاد منه، فتجهّز وتوجّه أبو الفوارس إلى شيراز فلم يشعر سلطان الدولة حتى دخل أبو الفوارس إلى شيراز فجمع عساكره وسار إليه وجرى القتال بينهما فانهزم أبو الفوارس وعاد إلى كرمان، فتبعه إليها فخرج منها هارباً إلى خراسان

(١) فخر الملك، محمد بن علي بن خلف، أبو غالب: ولد بواسط سنة ٣٥٤هـ، ويقال له «ابن الصيرفي» لأن أباه كان صيرفياً بديوان واسط، كان من وزراء بني بويه المشهورين، تسلّم أبو غالب الوزارة لبهاء الدولة، وناب عنه بفارس، وولي العراق بعد عميد الجيوش فاستمرّ ست سنوات، وعمل الجسر ببغداد، ولما توفي بهاء الدولة أقرّه ابنه سلطان الدولة على الوزارة واستمرّ فيها مدةً، ثم بدرت منه هفوة لم يغفرها له سلطان الدولة فقبض عليه وقتله سنة ٤٠٧هـ في شهر ربيع الأول.

وقصد يمين الدولة محمود بن سبكتكين ـ وهو بـ(بُست) ـ فأكرمه واحترمه وحمل إليه شيئاً كثيراً، وأجلسه فوق دارا بن قابوس بن وشمكير، فقال دارا: نحن أعظم منهم لأن أباه وأعمامه خدموا آبائي، فقال محمود: لكنهم أخذوا الملك بالسيف ـ أراد بهذا نصره نفسه حيث أخذ خراسان من السامانية ـ ووعد محمود أن ينصرة. ثم إن محموداً سيّر جيشاً مع أبي الفوارس إلى كرمان وعلى مقدمته أبو أسعد الطائي ـ وهو من أعيان قواده ـ فسار إلى كرمان فملكها، وقصد بلاد فارس وقد فارقها سلطان الدولة إلى بغداد فدخل شيراز، فلما سمع سلطان الدولة بالخبر عاد إلى بلاد فارس فالتقوا هناك فانهزم أبو الفوارس وقُتل كثير من أصحابه وعاد بأسوأ حال، وملك سلطان الدولة بلاد فارس، وهرب أبو الفوارس إلى كرمان سنة ٤٠٨هـ، فسيّر سلطان الدولة الجيوش في أثره فأخذوا كرمان منه فلحق أبو الفوارس بشمس الدولة أبي طاهر بن فخر الدولة بن ركن الدولة بن بويه صاحب همذان، ولم يمكنه العودة إلى يمين الدولة لأنه أساء إلى أبي أسعد الطائي، ثم فارق شمس الدولة ولحق بمهذب الدولة صاحب البطيحة فأكرمه وأنزله داره، وبعث إليه أخوه جلال الدولة أبو طاهر من البصرة مالاً وثياباً وعرض عليه القدوم إليه فلم

يفعله، وترددت الرسل بينه وبين أخيه سلطان الدولة فأعاد إليه كرمان، وحُملت إليه الخُلع والأموال فعاد إليها.

وفي شهر ذي الحجة سنة ٤١١هـ ارتفع شأن أبي الحسن مشرف الدولة بن بهاء الدولة وخوطب بأمير الأمراء، ثم ملك العراق وقصد الأهواز واستخلف أخاه مشرف الدولة على العراق، ولما وصل سلطان الدولة إلى مدينة تستر بالأهواز أرسل وزيره ابن سهلان إلى بغداد ليخرج أخاه مشرف الدولة وضيّق عليه فما كان إلا أن سلّم ابن سهلان المدينة، واتفق مشرف الدولة مع أخيه أبي طاهر جلال الدولة، فلما سمع سلطان الدولة بذلك سار عن الأهواز إلى أرجان، وقطعت الخطبة له عن العراق وخُطب لأخيه مشرف الدولة في آخر شهر المحرم سنة ٤١٢هـ، وقُبض على ابن سهلان، وكُحّل، فلما وصلت الأخبار إلى سلطان الدولة سار في أربعمائة فارس إلى الأهواز ولكن لم يُستقبل ونادى الناس بشعار مشرف الدولة فسار عنها سلطان الدولة ومن معه، ولكن الديلم الذين رجعوا من بغداد إلى الأهواز بإذن مشرف الدولة قد رفعوا شعار سلطان الدولة ونادوا به، وهجموا على أبي غالب نائب مشرف

الدولة وقتلوه فشعر سلطان الدولة براحة النفس وأرسل ابنه المرزبان أباكاليجار إلى الأهواز فملكها سنة ٤١٢هـ.

وفي سنة ٤١٣هـ كان الصلح بين سلطان الدولة وأخيه مشرف الدولة وحلف كل واحدٍ منهما لصاحبه وجرى الاتفاق أن يكون العراق جميعه لمشرف الدولة وفارس وكرمان لسلطان الدولة.

وفي شهر شوال سنة ٤١٥هـ توفي سلطان الدولة أبو شجاع بن بهاء الدولة وملك مكانه ولده المرزبان أبو كاليجار وكان بالأهواز فاستدعي إلى فارس ليكون محل أبيه فتأخّر بالقدوم، وكان الأتراك يريدون الملك لصاحب كرمان أبي الفوارس قوام الدولة بن بهاء الدولة وهو عمّ أبي كاليجار فكاتبوه فحضر وتسلّم السلطة، ولكن أبا كاليجار تجهّز بعد مدةٍ وسار بالعسكر إلى فارس فسيّر عمه أبو الفوارس الجند إليه غير أنه هُزِم وسار إلى كرمان وملك أبو كاليجار بلاد فارس ودخل شيراز، ولكن لم تلبث جماعة من الديلم أن خرجت عن طاعته وأظهر رجالها أن أمنيتهم أنهم كانوا مع عمه أبي الفوارس، وفي الوقت نفسه كانت جماعة أخرى في مدينة «فسا» يرغبون أن يصلحوا حالهم مع أبي كاليجار

ويصيروا معه، فأرسل إليهم الديلم الذين بشيراز يعلمونهم ما يلقونه من الأذى ويأمرونهم بالتمسك بطاعة أبي الفوارس ففعلوا ذلك. وشغب الديلم الذين بشيراز على أبي كاليجار فاضطر أن يغادر بلاد فارس، فلما ترك شيراز كتب الديالمة الذين فيها إلى عمه أبي الفوارس يشجّعونه على القدوم إليهم، ويُعلمونه بُعد أبي كاليجار عنهم فسار فسلّموه شيراز، وقصد أبي كاليجار لقتاله حيث يُقيم ويخرجه عن البلاد فاختار العسكران الصلح، فاستقرّ لأبي الفوارس فارس وكرمان ولأبي كاليجار الأهواز، وعاد أبو الفوارس إلى شيراز، وسار أبو كاليجار إلى أرجان، ثم عادت الفتنة بين الطرفين بل أشدّ مما كانت عليه فسار كل من أبي كاليجار وعمه أبي الفوارس إلى صاحبه والتقوا فاقتتلوا فانهزم أبو الفوارس إلى دار بجرد وملك أبو كاليجار بلاد فارس، ورجع أبو الفوارس فجمع الأكراد فالتفّ حوله منهم نحو عشرة آلاف مقاتلٍ وسار بهم نحو أبي كاليجار فاقتتلوا أشدّ من القتال الأول فعادت الهزيمة فلحقت بأبي الفوارس فسار إلى كرمان، واستقر ملك أبي كاليجار بفارس سنة ٤١٧هـ، ولكن أهل شيراز كانوا يكرهون أبا كاليجار.

وتوفي في شهر ربيع الأول سنة ٤١٦هـ مشرف

الدولة بن بهاء الدولة بمرضٍ حادٍ عن عُمرٍ يعادل ثلاثاً وعشرين سنةً وثلاثة أشهرٍ وعشرين يوماً وقد ملك خمس سنواتٍ وخمسةً وعشرين يوماً، وقد خُطب بعد موته في بغداد لأخيه أبي طاهر جلال الدولة، وهو بالبصرة، واستُدعي إلى بغداد ولكن لم يصل إليها وإنما بلغ واسط وأقام بها ثم رجع إلى البصرة فقطعت الخطبة له وخُطب لابن أخيه المرزبان أبي كاليجار بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة وذلك في شهر شوال سنة ٤١٦هـ ـ وهو صاحب الأهواز يومئذٍ ـ والحرب قائمة بينه وبين عمه أبي الفوارس قوام الدولة صاحب كرمان، فلما سمع أبو طاهر جلال الدولة بذلك اتجه نحو بغداد فخرج عسكره إليه وردّوه عنها، وأرسلوا إلى أبي كاليجار ليأتي إلى بغداد ويملكها فوعدهم غير أنه لم يستطع ذلك بسبب صاحب كرمان عمه أبي الفوارس قوام الدولة.

وعصى أهل البطيحة سنة ٤١٨هـ على أبي كاليجار المرزبان ثم هدأت الأوضاع وسار أبو كاليجار لقتال عمه أبي الفوارس قوام الدولة وأخذ كرمان منه فاحتمى منه بالجبال، واشتدّ الحرّ على أبي كاليجار وعسكره وكثرت الأمراض، فتراسلا بالصلح وتمّ الاتفاق على أن

تكون كرمان لأبي الفوارس وتكون بلاد فارس لأبي كاليجار ويحمل كل سنةٍ إلى عمه عشرين ألف دينارٍ، وعاد أبو كاليجار إلى الأهواز.

وفي شهر جمادى الأولى سنة ٤١٨هـ كانت الخطبة ببغداد لجلال الدولة أبي طاهر بن بهاء الدولة فاتجه من البصرة إلى بغداد فدخلها في الثالث من شهر رمضان من السنة نفسها، وذلك أن الأتراك قد شعروا أن أمرهم قد ضعف فقصدوا دار الخلافة وأرسلوا يعتذرون من الخليفة القادر بالله مما بدر منهم بانفرادهم بالخطبة لجلال الدولة في بداية الأمر، ثم ردّه، وبالخطبة لأبي كاليجار ثانياً، ويشكرون الخليفة حيث لم يخالفهم في شيءٍ من ذلك، وقالوا: إن أمير المؤمنين صاحب الأمر ونحن العبيد وقد أخطأنا ونسأل العفو وليس عندنا الآن من يجمع كلمتنا، ونسأل أن ترسل إلى جلال الدولة ليأتي إلى بغداد ويملك الأمر ويجمع الكلمة ويُخطب له فيها، ويسألون أن يحلفه الرسول الذاهب لإحضاره لهم، فأجابهم إلى ما سألوا، وراسله هو وقواد الجند بالقدوم واليمين للخليفة والأتراك فحلف لهم وقدم إلى بغداد، وخرج الأتراك إليه فلقوه في الطريق، وأرسل الخليفة إليه القاضي فأعاد

تجديد العهد عليه للخليفة والأتراك ففعل، ودخل بغداد، واستقبله الخليفة، ودخل دار المملكة، وأمر بضرب الطبل أوقات الصلوات الخمس فراسله الخليفة في منعه فقطعه غضباً حتى أذن له في إعادته ففعل.

وعاد الترك فشغبوا على جلال الدولة وحاصروه فأرضاهم بالمال، ثم عادوا إلى ذلك فأصلح الخليفة بين قادتهم وجلال الدولة، ورجعوا إلى ما اعتادوا عليه فباع متاعه وفرّق ثمنه فيهم حتى سكنوا، وذلك سنة ٤١٩هـ.

ووقعت فتنة بين الأتراك والديلم بالبصرة وبها أبو المنصور العزيز بن جلال الدولة، وقوي الأتراك على الديلم وأخرجوهم منها فساروا إلى الأُبُلّة وصاروا إلى بختيار بن علي، فسار إليهم أبو المنصور العزيز بن جلال الدولة بالأُبُلّة ليعيدهم ويصلح بينهم وبين الأتراك فحملوا عليه ونادوا بشعار أبي كاليجار فعاد منهزماً إلى البصرة، ونهب الديلم المنطقة حتى نهبوا دار زوجة جلال الدولة.

ولما بلغ أبا كاليجار المرزبان بن سلطان الدولة ما كان يجري بالبصرة سيّر جيشاً إلى بختيار وأمره أن يقصد البصرة ويأخذها فسار إليها وقاتل العزيز بن جلال

الدولة فانهزم العزيز وغادر البصرة، وكاد يهلك ومن معه من العطش، وساروا إلى واسط وملك أبو كاليجار البصرة، ونهب الديلم أسواقها.

وتوفي في شهر ذي القعدة سنة ٤١٩هـ أبو الفوارس قوام الدولة بن بهاء الدولة صاحب كرمان، وكان قد تجهّز وجمع عسكراً كثيراً ليسير إلى بلاد فارس فأدركته منيته قبل ذلك، فلما توفي نادى أصحابه بشعار ابن أخيه أبي كاليجار، وأرسلوا إليه يطلبونه فسار إليهم مُجدّاً وملك كرمان دون قتال.

وفي سنة ٤٢٠هـ سار أبو كاليجار المرزبان إلى مدينة واسط فملكها وكان فيها ابن عمه العزيز بن جلال الدولة الذي فارقها عند سماعه بخبر غزو ابن عمه، ثم سار إلى الأهواز فنهبها، وكاتب أبو كاليجار عمه جلال الدولة، فلم يلتفت جلال الدولة إلى الكتاب، وتابع سيره إلى الأهواز وسار إليه أبو كاليجار والتقيا في آخر شهر ربيع الأول سنة ٤٢١هـ فاقتتلوا ثلاثة أيامٍ وانهزم أبو كاليجار وقُتل من عسكره ألف رجلٍ، وعاد جلال الدولة واستولى على واسط، وجعل ابنه العزيز عليها، وتابع هو المسير إلى بغداد.

سيّر جلال الدولة عسكراً إلى المذار[1] في شهر شوال سنة ٤٢١هـ، وفي المذار عسكر لأبي كاليجار فاقتتل العسكران فانهزم عسكر أبي كاليجار، واستولى عسكر جلال الدين على المذار وأساءوا الإساءة كلها، فلما سمع أبو كاليجار بالخبر سيّر إليهم عسكراً كثيفاً فاقتتلوا بظاهر البلد فانهزم عسكر جلال الدولة وقُتل أكثرهم، وثار أهل البلد فقتلوا غلمانهم ونهبوا أموالهم لقبيح سيرتهم معهم، وعاد من سلم من المعركة إلى واسط.

وسار عسكر جلال الدولة إلى البصرة، ولكن لم يفلحوا بالقتال، وحلّت بهم الهزيمة فلحقهم جنود من البصرة من أعوان جلال الدولة، ووصلوا إلى البصرة وقاتلوا عسكر أبي كاليجار وهزموهم، ودخلوا البصرة في شهر شعبان سنة ٤٢١هـ، واجتمع عسكر أبي كاليجار بالأُبُلّة مع بختيار بن علي يستعدون للعودة إلى البصرة، وكتبوا إلى أبي كاليجار يستمدّونه فسيّر إليهم عسكراً كثيراً قدموا إلى الأُبُلّة واجتمعوا مع بختيار، وحدث الصدام واشتدّ القتال وقُتل عدد كبير من

(١) المذار: بلدة بين البصرة وواسط.

أصحاب بختيار وانهزم بقيتهم، وأُخذ هو فقُتل، وعاد كل فريقٍ إلى موضعه، ونادى من بقي بالبصرة بشعار أبي كاليجار فجاءت عساكره ودخلتها.

ثانياً: الحمدانيون:

توفي سعد الدولة[1] أبو المعالي بن سيف الدولة

---

(١) سعد الدولة: شريف بن علي (سيف الدولة) بن عبد الله بن حمدان بن حمدون، أبو المعالي: صاحب حلب وحمص وما بينهما، كان في ميافارقين لما مات أبوه بحلب فقصدها وجلس على سرير أبيه سنة ٣٥٦هـ، وقامت بينه وبين خاله أبي فراس الحمداني الشاعر وحشة (وقيل: كان أبو فراس ينافسه): فقُتل أبو فراس سنة ٣٥٧هـ على يد قرعويه حاجب سعد الدولة، وهاجمه الروم فخشي أن يحاصروه في حلب فخرج إلى ميافارقين، وكانت أمه فيها، فاستقل قرعويه بحلب سنة ٣٥٨هـ، وعقد مع الروم معاهدة هدنة، وانتقل سعد الدولة إلى معرة النعمان فأقام بها ثلاث سنواتٍ، ثم سار إلى حمص، ومنها عاد إلى مهاجمة حلب فدخلها بعد أحداثٍ، وكتب سنة ٣٦٧هـ إلى الخليفة العباسي في بغداد يعلن طاعته إليه وخضوعه له فخلع عليه لقب سعد الدولة، وطالبه قائد جيش الروم الدمستق بردس بمال الهدنة فاتفق معه على أربعمائة ألف درهم فضة (كل عشرين درهماً بدينار) يؤديها سعد الدولة كل سنةٍ للروم، وعاد الدمستق سنة ٣٧٣هـ بجيشٍ كبيرٍ يريد دخول حلب، فصمد له سعد الدولة فرجع الدمستق، ومات سعد الدولة بعلّة الفالج سنة ٣٨١هـ بحلب، وحمل إلى الرقة فدفن فيها.

سنة ٣٨١هـ، وخلفه ابنه سعد أبو الفضائل، وكان سعد الدولة قد أوصى غلامه لؤلؤاً بابنيه سعد (أبو الفضائل)[1] وعبد الله (أبو الهيجاء) وبابنته ست الناس.

وأخذ لؤلؤ البيعة لسعد أبي الفضائل وتلقّب باسم «سعيد الدولة». وسار الوزير أبو الحسن المغربي إلى العزيز العبيدي بمصر وأطمعه بحلب فسيَّر العبيدي جيشاً بقيادة منجوتكين أحد أمرائه إلى حلب فحاصرها وبها أبو الفضائل ولؤلؤ فكتبا إلى ملك الروم بسيل يستنجدان به، وهو يقاتل البلغار، فأرسل ملك الروم إلى نائبه بإنطاكية يأمره بإنجاد أبي الفضائل فسار إليه في خمسين ألف مقاتل، فلما سمع منجوتكين الخبر سار إلى الروم كي يلقاهم قبل اجتماعهم بأبي الفضائل فعبر إليهم نهر العاصي، والتقى بهم وهزمهم وكثر القتل فيهم وعاود إلى أنطاكية مدحورين.

وسار منجوتكين إلى أنطاكية فنهبها ونهب قراها

---

(١) سعد (سعيد الدولة) بن شريف (سعد الدولة) بن علي سيف الدولة الحمداني، أبو الفضائل، ولي حلب سنة ٣٨١هـ بعد وفاة أبيه سعد الدولة، وكان لؤلؤ مولى أبيه هو المشرف عليه، وقد استبدّ بالأمر دونه ثم تخلّص منه سنة ٣٩٢هـ حيث مات مسموماً هو وزجته.

وأحرقها، وبعث أبو الفضائل إلى حلب فنقل الغلال منها وأحرق ما لم يستطع نقله إضراراً بعسكر العبيديين حين يصلون إليها، واتّجه منجكوتين إلى حلب وحاصرها فأرسل لؤلؤ إلى أبي الحسن المغربي وغيره وبذل لهم مالاً ليردّوا منجكوتين عنهم بحجة قلّة الأقوات وتعذّر التموين ففعلوا ذلك، وكان منجوتكين قد ملّ من الحرب فأجابهم إليه، وسار إلى دمشق. ولما بلغ الخبر إلى العزيز العبيدي غضب وكتب بعودة العسكر إلى حلب وإبعاد أبي الحسن المغربي، وبعث بالأقوات بحراً من مصر إلى طرابلس ومنها إلى العسكر، فسارت العساكر إلى حلب وأقاموا عليها ثلاثة عشر شهراً فقلّت الأقوات بحلب وعاد لؤلؤ إلى مراسلة ملك الروم والاعتضاد به، وقال له: متى أُخذت حلب أُخذت أنطاكية وعظُم عليك الخطب، وكان ملك الروم قد توسّط بلاد البلغار وجدّ السير نحو حلب، ووصلت الأخبار إلى فجكوتكين فسار عن حلب كالمنهزم، ووصل ملك الروم فنزل على باب حلب، وخرج إليه أبو الفضائل ولؤلؤ وعادا إلى حلب، وسار ملك الروم بسيل إلى شيزر فدخلها ونهبها، وإلى حمص فدخلها، ثم اتجه إلى طرابلس فنازلها فامتنعت عليه فأقام عليها أكثر من أربعين يوماً فلما أيس من دخولها عاد إلى بلاد

الروم. ولما بلغ الخبر إلى العزيز العبيدي أظهر الغضب ونادى في الناس بالنفير لغزو الروم وخرج من القاهرة، ولكن أصابته أمراض منعته من السير ثم أدركه الموت عام ٣٨٦هـ.

كان سعيد الدولة صورةً بالحكم، والأمر والنهي للؤلؤ الذي عمل على التخلّص من أبي الفضائل سعيد الدولة بل ومن ابنته التي كان لؤلؤ قد تزوج منها، وحكم بعدها باسم ولدي سعيد الدولة وهما: أبو الحسن علي، وأبو المعالي شريف ثم قبض لؤلؤ عليهما وأرسلهما مع بقية أفراد البيت الحمداني إلى القاهرة سنة ٣٩٤هـ، وبقي هو الحاكم الوحيد في حلب، وجعل ابنه منصوراً ولياً لعهده، وبذا انتهى أمر الحمدانيين.

مات لؤلؤ سنة ٣٩٩هـ وخلفه ابنه أبو نصر منصور فاعترف بسلطان العبيديين عليه، وأصبحت حلب بعد ذلك تتبع السلطة العبيدية في القاهرة، وخطب أبو نصر بن لؤلؤ للحاكم العبيدي صاحب مصر فلقّبه الحاكم مرتضى الدولة. ثم فسدت العلاقة بين الحاكم العبيدي وبين أبي نصر بن لؤلؤ صاحب حلب فطمع صالح بن مرداس[1] وبنو كلاب في أبي نصر وكانوا

---

(١) صالح بن مرداس بن إدريس الكلابي، أبو علي: أمير بادية=

يطالبونه بالصلات والخلع، ثم إنهم اجتمعوا سنة ٤٠٢هـ في خمسمائة فارسٍ ودخلوا مدينة حلب فأمر منصور بن لؤلؤ بإغلاق الأبواب والقبض عليهم فقُبض على مائةٍ وعشرين رجلاً منهم صالح بن مرداس وحبسهم، وقتل مائتين وأطلق من لم يفكر به. وكان صالح بن مرداس قد تزوج بابنة عمٍ له تدعى «جابرة» وكانت جميلةً فوصفت لأبي نصر بن لؤلؤ فخطبها إلى أبناء إخوتها وكانوا في سجنه، فذكروا له أن صالحاً قد تزوجها فلم يقبل منهم، وتزوجها ثم أطلقهم، وبقي صالح بن مرداس في الحبس، ثم ألقى بنفسه من القلعة واختفى في مجرى ماء، وانتشر الخبر بهربه فأرسل ابن لؤلؤ الخيل في طلبه فعادوا ولم يظفروا به، فلما سكن عنه الطلب خرج من مجرى الماء وسار بقيده حتى وصل إلى قريةٍ تُعرف بالياسرية، فرآه بعض الناس من العرب

= الشام، وأول الأمراء المرداسيين بحلب، كان مقامه في أطراف حلب، وثار في الرحبة واستولى عليها، وكاتبه الحاكم العبيدي بلقب «أسد الدولة»، ثم امتلك حلب سنة ٤١٧هـ، وامتد ملكه منها إلى عانة، وقوي أمره وحاربه الظاهر العبيدي صاحب مصر، واستمرت الوقائع بينهما إلى أن قُتل صالح قرب طبرية في ٤٢٠هـ في مكان يُعرف بالأقحوانة على الأردن.

فعرفوه فحملوه إلى أهله بمرج دابق، فجمع ألفي فارس، وقصد مدينة حلب وحاصرها اثنين وثلاثين يوماً فخرج إليه ابن لؤلؤ فقاتله، فهزمهم صالح وأسر ابن لؤلؤ فقيّده بقيده التي كان قد قُيّد به، وكان لابن لؤلؤ أخ فنجا وحفظ مدينة حلب، ثم إن ابن لؤلؤ بذل لابن مرداس مالاً على أن يطلقه فلما استقرّت الحال بينهما أخذ رهائنه وأطلقه.

وكان لابن لؤلؤ غلام يُدعى «فتح» صاحب مالٍ، فطمع ابن لؤلؤ بمال غلامه، وحذره غلامه فكاتب الحاكم العبيدي وأظهر له الطاعة، وأبدى العصيان لسيده، وأخذ من الحاكم صيدا وبيروت وكل ما في حلب من أموالٍ، وخرج ابن لؤلؤ من حلب إلى أنطاكية وبها الروم فأقام عندهم، وكان صالح بن مرداس قد مالأ «فتح» على ذلك. وتسلّم نواب الحاكم العبيدي حلب حتى صارت بيد رجلٍ من الحمدانية يعرف بـ«عزيز الملك»، وكان الحاكم قد قدّمه واصطنعه وولّاه حلب، فلما قُتل الحاكم، وولي الظاهر سنة ٤١١هـ عصى عزيز الملك على الظاهر العبيدي. وكان للعبيديين بالشام نائب يُعرف بـ«أنوشتكين البربري وبيده دمشق والرملة وعسقلان، فاجتمع حسان أمير بني طي،

وصالح بن مرداس أمير بني كلاب، وسنان بن عليان، وتحالفوا واتفقوا على أن يكون من حلب إلى عانة لصالح بن مرداس، ودمشق لسنان بن عليان، ومن الرملة إلى مصر لحسان أمير بني طي.

سار حسّان إلى الرملة فحاصرها وبها أنوشتكين فسار عنها إلى عسقلان، واستولى عليها حسّان ونهبها وذلك سنة ٤١٤هـ، وقصد صالح بن مرداس حلب وبها ابن ثعبان نائب الظاهر العبيدي، فاستسلم أهل البلد لصالح، ولكن ابن ثعبان اعتصم بالقلعة فحاصرها صالح واضطر من فيها إلى الاستسلام إذا انقطعت المياه عنهم، وملك صالح من بعلبك إلى عانة وذلك سنة ٤١٤هـ، وأقام بحلب ست سنوات.

سيّر الظاهر العبيدي جيشاً إلى الشام سنة ٤٢٠هـ بقيادة أنوشتكين البربري، فاجتمع صالح بن مرداس وحسان أمير بني طي على قتاله فالتقى الطرفان بالأقحوانة على الأردن عند طبرية فقُتل صالح وولده الأصغر، ونجا ولد صالح الأكبر وهو أبو كامل بن نصر بن صالح فرجع إلى حلب وملكها، وكان لقبه شبل الدولة. فلما علمت الروم ما جرى تجهّزوا وساروا إلى حلب بأعدادٍ كبيرةٍ فخرج أهل حلب لقتالهم فحاربوهم

وهزموهم، واضطر الروم للعودة إلى أنطاكية، وبقي شبل الدولة يملك حلب حتى سنة ٤٢٩هـ.

ثالثاً: السامانيون:

سار ملك الترك شهاب الدولة هارون بن سليمان إيلك المعروف بـ«بغراخان التركي» وكان له كاشغر[١] إلى حدود الصين، سار بعساكره إلى بخارى فسيّر إليه الأمير نوح بن منصور الساماني جيشاً كبيراً ولقيهم بغراخان فهزمهم فرجعوا إلى بخارى مفلولين، وهو في أثرهم، فخرج الأمير نوح بنفسه وسائر عسكره ولقيه فاقتتلوا قتالاً شديداً، وانتهت المعركة بهزيمة بغراخان فعاد إلى قاعدة ملكه «بلاساغون»[٢] وذلك سنة ٣٨٢هـ.

وفي سنة ٣٨٣هـ سار بغراخان مرةً أخرى إلى بخارى وذلك أن أبا علي محمد بن أبي الحسن إبراهيم بن سيمجور قد تولّى أمر خراسان بعد وفاة أبيه المفاجئة قد كاتب الأمير نوح بن منصور يطلب منه أن

(١) كاشغر: مدينة في تركستان الشرقية اليوم تخضع للصين، وقد فتحها قتيبة بن مسلم الباهلي رحمه الله سنة ٩٦هـ في عهد الوليد بن عبد الملك رحمهما الله.

(٢) بلاساغون: مدينة قرب كاشغر.

يقرّه على ما كان أبوه يتولّاه فأُجيب إلى ذلك، وحُملت إليه الخلع، فلما وصل الذي يحملها إلى طريق هراة سار إليها وبها فائق الخاصة الذي ينازع أبا علي الولاية فأخذ فائق العهد بالولاية والخلع، فعرف أبو علي ما دُبّر له من حيلةٍ وخداعٍ، وسار فائق من هراة نحو أبي علي الذي وصلت إليه الأخبار فتجهّز وسار في نخبة أصحابه مجدّاً نحو فائق فلقيه بين بوشنج[1] وهراة فهزمه فسار فائق مع أصحابه مفلولين إلى مرو الروذ، وكتب أبو علي مرةً أخرى مجدداً طلب ولاية خراسان فأجابه إلى ذلك وجمع له ولاية خراسان كلها بعد أن كانت هراة لفائق الخاصة، فعاد أبو علي إلى نيسابور ظافراً، وجبى أموال خراسان، فكتب إليه الأمير نوح يستنزله عن بعضها ليصرفه في أرزاق الجند فاعتذر إليه ولم يفعل، ورجع إلى نفسه فخاف عاقبة المنع فكتب إلى ملك الترك شهاب الدولة هارون بن سليمان إيلك المعروف بـ«بغراخان» يدعوه إلى أن يقصد بخارى ويملكها من السامانيين، وأطمعه فيهم، وتمّ الاتفاق بينهما على أن يملك بغراخان بلاد ما وراء النهر كله

(١) بوشنج: بلدة تعدّ منتزهاً في وادٍ مشجرٍ قرب هراة وبين هراة وبوشنج خمسين كيلاً.

ويملك أبو علي خراسان كلها، فطمع بغراخان في البلاد، وعزم على السير إلى بخارى. وأما فائق الخاصة فإنه أقام بمرو الروذ حتى جُبر كسره، واجتمع إليه أصحابه فسار إلى بخارى من غير إذنٍ، فارتاب الأمير نوح فيه فسيّر إليه الجيوش وأمرهم بمنعه، فلما التقوا به قاتلوه فانهزم وأصحابه وعاد على عقبيه وقصد ترمذ، فكتب الأمير نوح إلى صاحب الجوزجان من قبله، وأمره بقصد فائق، فجمع جمعاً كثيراً وسار نحوه فأوقع بهم فائق فهزمهم وغنم أموالهم، وكاتب أيضاً بغراخان يطمعه في البلاد، فسار نحو بخارى وقصد بلاد السامانيين فاستولى عليها شيئاً بعد شيءٍ، فسيّر إليه الأمير نوح جيشاً ضخماً بقيادة قائدٍ كبير من قواده يُدعى «أنج» فلقيهم بغراخان فهزمهم وأسر أنج وجماعةً من القادة، فلما ظفر بهم زاد طمعه في البلاد، وضعف نوح وأصحابه، وكاتب الأمير نوح أبا علي بن سيمجور يستنصره ويأمره بالقدوم إليه بالعساكر فلم يجبه إلى ذلك، ولم يُلبِ دعوته وقوي طمعه بالاستيلاء على خراسان، وسار بغراخان نحو بخارى فلقيه فائق وسار معه ونازلوا بخارى واختفى الأمير نوح، وملكها بغراخان ونزل فيها، وخرج نوح منها مستخفياً وعبر النهر إلى آمل وأقام بها، ولحق بها أصحابه فاجتمع

عنده منهم عدد كبير فأقاموا هناك، وتابع الأمير نوح كتبه إلى أبي علي ورسله يستنجده ويخضع له فلم يصغ إلى ذلك، وأما فائق فإنه استأذن بغراخان في قصد بلْخ والاستيلاء عليها فأمره بذلك فسار نحوها ونزلها.

أقام بغراخان ببخارى غير أنه لم يُطل الإقامة بها حيث لم يطب له هواؤها إذا أصابه المرض فتركها وانتقل إلى بلاد الترك، فلما غادرها انقضّ أهلها على مؤخرة عسكره ففتكوا بهم وأخذوا أموالهم، وشاركهم بذلك الأتراك من الغزّ. وما أن ترك بغراخان بخارى حتى وافته المنيّة. ولما سمع الأمير نوح بمسير بغراخان عن بخارى بادر إليها فيمن معه فدخلها وعاد إلى دار ملكه.

أعطى الأمير نوح ولاية خراسان إلى سبكتكين سنة ٣٨٤هـ، وذلك أن أبا علي بن سيمجور لم يصغ إلى طلب مساعدة الأمير نوح ولم يبال به فلما رجع الأمير نوح إلى ملكه ندم أبو علي على ما فرط فيه من ترك معونته عند حاجته إليه، وأما فائق فإنه لما استقر نوح ببخارى حدّث نفسه بالمسير إليه والاستيلاء على حكمه فسار عن بلْخ إلى بخارى فلما علم نوح بذلك سيّر إليه الجيوش لتردّه عن ذلك فالتقوا به فاقتتلوا شديداً فانهزم

فائق وأصحابه والتحقوا بأبي علي ففرح بهم وقوي جنانه بقربهم واتفقوا على مكاشفة الأمير نوح بالعصيان، فلما فعلوا ذلك كتب الأمير نوح إلى سبكتكين ـ وهو يومئذٍ بغزنة ـ يعرّفه بالوضع ويأمره بالمسير إليه لينجده وولّاه خراسان، وكان محمود بن سبكتكين في هذه الفتن مشغولاً بالغزو غير ملتفتٍ إلى ما هم فيه، فلما أتاه كتاب نوح ومبتوثه أجابه إلى ما أراد وسار نحوه بفرقةٍ واجتمع به وقررا ما يفعلانه، وعاد سبكتكين فجمع العساكر وحشد الحشود، فلما وصل الخبر إلى أبي علي وإلى فائق جمعا ما استطاعا جمعه وراسلا فخر الدولة البويهي يستنجدانه ويطلبان منه عسكراً فأجابهما إلى ذلك، وسيّر إليهما عسكراً كثيراً، وكان وزيره الصاحب بن عباد هو صاحب هذا الرأي والقرار في ذلك، وسار سبكتكين من غزنة ومعه ولده محمود واتجه نحو خراسان، وسار كذلك نوح فاجتمع هو وسبكتكين فقصدوا أبا علي بن سيمجور وفائقاً بنواحي هراة واقتتلوا فانحاز دارا بن قابوس بن وشمكير من عسكر أبي علي إلى عسكر نوح فانهزم أصحاب أبي علي وركبهم أصحاب سبكتكين يقتلون ويأسرون ويجمعون ما يتركه خصومهم، وتراجع أبو علي وفائق نحو نيسابور، وأقام نوح وسبكتكين بظاهر هراة حتى

استراحوا ثم انطلقوا نحو نيسابور، فلما علم بهم أبو علي سار هو وفائق نحو جرجان وكتبا إلى فخر الدولة بخبرهما فأرسل إليهما الهدايا والأموال وأنزلهما بجرجان، واستولى نوح على نيسابور، واستعمل عليها وعلى جيوش خراسان محمود بن سبكتكين ولقبه سيف الدولة ولقّب أباه سبكتكين ناصر الدولة فأحسن السيرة، ورجع نوح إلى بخارى، وسبكتكين إلى هراة وأقام محمود بنيسابور، وتوزّعهم هذا أعاد الطمع بخراسان إلى نفسيْ فائق وأبي علي، وسارا عن جرجان إلى نيسابور في شهر ربيع الأول سنة ٣٨٥هـ، فلما بلغ خبرهما إلى محمود كتب إلى أبيه بذلك وبرز فنزل بظاهر نيسابور وأقام ينتظر الدعم فأعجلاه فصبر لهما فقاتلاه فانهزم عنهما نحو أبيه وغنم أصحابهما منه شيئاً كثيراً، وأشار أصحاب أبي علي عليه باتباع محمود ومعاجلته ووالده عن الجمع والحشد فلم يفعل بل أقام بنيسابور، وكاتب الأمير نوحاً يستميله ويستقيل من عثرته وزلّته، وكذلك كاتب سبكتكين بمثل ذلك، وأحال بما جرى على فائق فلم يجيباه إلى ما أراد. وجمع سبكتكين العساكر فأتوه على كل صعبٍ وذلول وسار نحو أبي علي فالتقوا في شهر جمادى الآخرة بطوس فاقتتلوا عامة يومهم وأتاهم محمود بن سبكتكين في

عسكرٍ ضخمٍ من خلفهم فانهزموا وقُتل عدد كبير من أصحابهم ونجا أبو علي وفائق فقصدا مدينة أبيورد فتبعهم سبكتكين واستخلف ابنه محموداً بنيسابور، فقصدا مرو ثم آمل وراسلا الأمير نوحاً يستعطفانه، فأجاب أبو علي إلى ما طلب من قبول عذره إن فارق فائقاً ونزل بالجرجانية، ففعل ذلك فحذّره فائق وخوّفه من مكيدتهم به ومكرهم، فلم يُبال وفارق فائقاً. وسار أبو علي نحو الجرجانية ونزل بقريةٍ قرب خوارزم تسمى «هزاراسف»، فأرسل إليه أبو عبد الله خوارزمشاه من أقام له ضيافةً ووعده أنه يقصده ليجتمع به فسكن إلى ذلك. فلما كان الليل أرسل إليه خوارزمشاه جمعاً من عسكره فأحاطوا به وأخذوه أسيراً في شهر رمضان سنة ٣٨٥هـ فاعتقله في بعض دوره، وطلب أصحابه فأسر أعيانهم، وتفرّق الباقون، وأما فائق فإنه سار إلى إيلك خان فيما وراء النهر فأكرمه ووعده أن يعيده إلى قاعدته وكتب إلى الأمير نوح يشفع في فائق وأن يوليه سمرقند فأجابه إلى ذلك وأقام بها.

وصل خبر أسر أبي علي إلى والي الجرجانية مأمون بن محمد فقلق لذلك وعظُم عليه وجمع عساكره وسار نحو خوارزمشاه وعبر إلى كاث ـ وهي مدينة

خوارزمشاه - فألقى الحصار عليها وقاتل أهلها وتمكّن من دخولها عنوةً وأسر أبا عبد الله خوارزمشاه، وأحضر أبا علي وفكّ قيده وأخذه وعاد به إلى الجرجانية، واستخلف مأمون بن محمد بعض أصحابه على خوارزم وأصبحت تتبع له، وأحضر خوارزمشاه وقتله بين يدي أبي علي بن سيمجور.

ولما أقام أبو علي بالجرجانية عند مأمون بن محمد كتب مأمون إلى الأمير نوح يشفع فيه ويسأله الصفح عنه فأجيب إلى ذلك، وأمر أبا علي بالمسير إلى بخارى فسار إليها فيمن بقي معه من أهله وأصحابه، فلما بلغوا بخارى لقيهم الأمراء والعساكر، فلما دخلوا على الأمير نوح أمر بالقبض عليهم، وبلغ سبكتكين أن ابن عزيز وزير الأمير نوح يسعى في خلاص أبي علي فأرسل إليه يطلب أبا علي إليه فأُجيب فسجنه فمات في حبسه سنة ٣٨٧هـ، وكان ذلك خاتمة آل سيمجور، وكان ابنه أبو الحسن قد لحق بفخر الدولة البويهي فأحسن إليه وأكرمه، فخرج عنه سراً إلى خراسان لهوىً كان له بها، وظنّ أن أمره يخفى فانكشف فأُخذ أسيراً وسُجن عند أبيه. وأما أبو القاسم أخو أبي علي فإنه أقام في خدمة سبكتكين مدةً يسيرةً ثم ظهر منه خلاف

الطاعة، وقصد نيسابور فلم يتمّ له ما أراد، وعاد محمود بن سبكتكين إليه فهرب منه وقصد فخر الدولة البويهي، وبقي عنده.

توفي الأمير نوح بن منصور الساماني في شهر رجب سنة ٣٨٧هـ فضعف أمر السامانيين ضعفاً بيّناً حيث طمع في ملكهم أصحاب الأطراف، ولما توفي قام مكانه ابنه أبو الحرث منصور بن نوح وبايعه الأمراء والقادة والناس كافةً، وفرّق بينهم الأموال فاتفقوا على طاعته، وقام بأمر دولته وتدبيرها «بكتوزون». ولما بلغ خبر موت الأمير نوح إلى إيلك خان سار إلى سمرقند وانضمّ إليه فائق الخاصة فسيّر فرقةً إلى بخارى، فلما سمع الأمير منصور بمسيره تحيّر في أمره وأعجله عن التجهّز فسار عن بخارى وقطع النهر، ودخل فائق بخارى وأظهر أنه إنما قصد الإقامة بخدمة الأمير منصور رعايةً لحق أسلافه عليه إذ هو مولاهم، وأرسل إليه مشايخ بخارى ومُقدَّمهم في العودة إلى بلده وملكه وأعطاه من نفسه ما يطمئن إليه من العهود والمواثيق فعاد إليها ودخلها، وولي فائق أمره وحكم في دولته، وولي بكتوزون إمرة الجيوش بخراسان، ثم سار إلى خراسان فوليها.

وفي سنة ٣٨٩هـ سار محمود بن سبكتكين إلى بكتوزين بخراسان ثم رحل عن نيسابور واتجه إلى مرو الروذ فلما نزلها سار بكتوزون إلى الأمير منصور بن نوح وكان بسرخس فاجتمع به فلم يَرَ من إكرامه وبرّه ما كان يُؤمّله فشكا ذلك إلى فائق الخاصة فقابله بأضعاف شكواه فاتفقا على خلعه من الملك وإقامة أخيه عبد الملك مكانه ووافقهما فريق من قادة العسكر، فدعا بكتوزون الأمير منصور إليه بحجة تدبير ما هم بصدده من أمر محمود بن سبكتكين، فلما اجتمعوا به قبضوا عليه وأمر بكتوزون بسمل عينيه فسُملت، وأقاموا أخاه عبد الملك مقامه في الملك ـ وهو صبيّ صغير ـ وكانت مدة ولاية منصور سنةً وسبعة أشهرٍ، وماج الناس بعضهم في بعضٍ وأرسل محمود بن سبكتكين إلى فائق وبكتوزون يلومهما ويُقبّح فعلهما، وقويت نفسه على لقائهما، وطمع بالاستقلال في الملك، وسار عازماً على القتال.

سار محمود بن سبكتكين نحو بكتوزون وفائق ومعهما عبد الملك بن نوح فلما سمعوا بمسيره إليهما ساروا نحوه فالتقوا بمرو في آخر جمادى الأولى سنة ٣٨٩هـ فاقتتلوا أشد قتالٍ طيلة النهار، وانهزم بكتوزون

ومن معه، فأما عبد الملك وفائق فقد لحقا ببخارى، وقصد بكتوزون نيسابور، وقصد أبو القاسم بن سيمجور قهستان، فرأى محمود أن يتبع بكتوزون وأبا القاسم ويعاجلهما قبل الاجتماع والحشد، فسار إلى طوس فهرب منه بكتوزون إلى نواحي جرجان، فأرسل محمود خلفه أكبر قادته وأمرائه ـ وهو أرسلان الجاذب ـ في عسكرٍ جرارٍ فاتبعه حتى لحقه بجرجان وعاد محمود فاستخلفه على طوس وسار إلى هراة، فلما علم بكتوزون بمسير محمود عن نيسابور عاد إليها فملكها، فقصده محمود فهرب من أمامه واجتاز مرو ونهبها، وسار عنها إلى بخارى، واستقرّ ملك محمود بخراسان فأزال عنها اسم السامانية وخطب فيها للخليفة القادر بالله وكان إلى هذا الوقت لا يخطب له فيها بل كان يخطب للطائع لله، واستقلّ محمود بملك خراسان منفرداً، وولّى محمود قيادة جيوش خراسان أخاه نصراً وجعله بنيسابور على ما كان يليه آل سيمجور للسامانيين. وسار محمود إلى بلْخ مستقر والده فاتخذها دار ملك، واتفق أصحاب الأطراف بخراسان على طاعته. وبعد هذا فإن يمين الدولة محموداً أراد غزو الهند فجمع لها وتجهّز وانطلق للهند.

بقي بيد عبد الملك بن نوح الساماني ما وراء النهر، فلما انهزم من محمود قصد بخارى واجتمع بها هو وفائق الخاصة وبكتوزون فقويت نفوسهم وشرعوا بجمع العساكر وعزموا على العودة إلى خراسان، فاتفق أن مات فائق في شهر شعبان سنة ٣٨٩هـ، فلما مات ضعفت نفوسهم ووهنت قوتهم إذ كان هو المشار إليه من بينهم، وكان من موالي نوح بن نصر، وبلغ خبرهم إلى أيلك خان فسار في جمعٍ من الأتراك إلى بخارى وأظهر لعبد الملك بن نوح الساماني المودة والموالاة والحمية له فظنّوه صادقاً ولم يحترسوا منه، وخرج إليه الأمراء والقواد فلما اجتمعوا قبض عليهم، وسار حتى دخل بخارى في العاشر من شهر ذي القعدة سنة ٣٨٩هـ، فلم يدرِ عبد الملك ما يصنع لقلّة عدد أصحابه فاختفى، ونزل إيلك خان دار الإمارة، وبثّ الطلب والعيون على عبد الملك حتى ظفر به فأودعه السجن فمات به، وكان آخر ملوك السامانية، وسُجن معه أخوه أبو الحرث منصور بن نوح الذي كان في الملك قبله، وأخواه أبو إبراهيم إسماعيل وأبو يعقوب ابنا نوح، وأعمامه أبو زكريا وأبو سليمان وغيرهم من آل سامان وأفرد كل واحد منهم في حجرةٍ، وانتهى أمرهم.

وخرج سنة ٣٩٠هـ أبو إبراهيم إسماعيل بن نوح من سجنه الذي حبسه به إيلك خان، خرج بلباس الجارية التي تخدمه ولم ينتبه الموكلون به إلى ذلك. فلما خرج استخفى عند عجوزٍ في بخارى فلما سكن الطلب عنه سار عن بخارى إلى خوارزم، وتلقّب بالمنتصر، واجتمع إليه بقايا قوات السامانيين فكثر جمعه وسيّر قائداً من أصحابه إلى بخارى فبيّت من بها من أصحاب إيلك خان فهزمهم وقتل منهم عدداً، وانقض على بعض قادتهم، وتبع المنهزمين منهم نحو إيلك خان إلى نواحي سمرقند فلقي هناك عدداً كبيراً من العسكر جعلهم أيلك خان محافظةً على سمرقند وانضمّ إليهم المنهزمون ولقوا عسكر المنتصر فانهزم عسكر إيلك خان وتبعهم عسكر المنتصر فانتصروا عليهم وغنموا منهم فصلحت حالهم وعادوا إلى بخارى، ثم إن إيلك خان جمع الترك وقصد بخارى فخرج منها أصحاب السامانيين ومعهم المنتصر وعبروا نهر جيحون إلى آمل فضاقت عليهم فساروا نحو أبيورد فملكها المنتصر وجبى أموالها، وتابعوا السير إلى نيسابور وفيها منصور بن سبكتكين نائباً عن أخيه محمود فالتقوا قربها في شهر ربيع الثاني سنة ٣٩٠هـ فانهزم منصور وأصحابه وقصدوا هراة، وملك المنتصر نيسابور وكثرت عساكره،

وبلغ يمين الدولة محمود الخبر فسار مجداً نحو نيسابور، فلما اقترب منها خرج منها المنتصر واتجه نحو «إسفرايين»[1] فلما اشتدّ عليه الطلب سار نحو شمس المعالي قابوس بن وشمكير ملتجئاً إليه ومتقوّياً به فأكرمه وقدّم إليها ما يحتاج إليه، وأشار على المنتصر أن يقصد الريّ إذ ليس فيها من يدافع عنها والخلاف قائم بين أهلها، ووعده أن ينجده بعسكرٍ كثيرٍ مع أولاده فقبل مشورته وسار نحو الريّ فضعف أهلها عن قتاله غير أنهم حفظوا بلدهم منه ودسّوا إلى أعيان عسكره وبذلوا لهم الأموال ليردّوه عنهم ففعلوا ذلك، فصغّروا أمر الريّ عنده وهوّنوا من شأنها وحسّنوا له العودة إلى خراسان، وسار نحو نيسابور وتركه عسكر قابوس، فوصل المنتصر إلى نيسابور في آخر شوال سنة ٣٩١هـ وجبى الأموال، فأرسل له يمين الدولة محمود جيشاً فالتقى به فانهزم المنتصر وسار نحو أبيورد وقصد جرجان فردّه عنها شمس المعالي قابوس فقصد سرخس وجبى أموالها فسار إليه منصور بن سبكتكين من نيسابور فالتقوا بظاهر سرخس واقتتلوا فانهزم المنتصر وأصحابه وأُسر منهم أبو القاسم علي بن محمد بن سيمجور

---

(١) اسفرايين: بلدة حصينة في جهات نيسابور.

وجماعة من أعيان عسكره وحُملوا إلى منصور بن سبكتكين فسيّرهم إلى غزنة في ربيع الأول سنة ٣٩٢هـ.

وسار المنتصر تائهاً حتى وافى الأتراك الغزية ـ ولهم ميل إلى آل سامان ـ فأخذتهم الحمية فاجتمعوا حوله فسار بهم نحو إيلك خان وذلك في شهر شوال سنة ٣٩٣هـ فلقيهم إيلك خان بنواحي سمرقند فهزموه واستولوا على ما معه وأخذوا أمواله وأسروا جماعةً من أصحابه وقادته، وعادوا إلى بلدانهم وقرروا إطلاق ما معهم من أسرى من جماعة إيلك خان تقرّباً إليه، فعلم المنتصر بذلك فاختار جماعةً من أصحابه ممن يثق بهم وسار معهم وعبر نهر جيحون ونزل بـ«آمل» فلم يقبله أهلها فارتحل عنها وكان كلما قصد مكاناً ردّه أهله من معرته، فعاد وعبر النهر ورجع إلى بخارى، والتقى مع واليها من قبل إيلك خان فاقتتلوا فانهزم المنتصر إلى دبوسيه[1]، وجمع من استطاع جمعه وعادوا نزال والي بخارى وعاد فانهزم، وخرج إليه جمع كثير من رجال سمرقند ومشوا معه. وقدّموا له المال والرواحل. فلما سمع إيلك خان بما يجري حشد ما أمكن حشده من الأتراك وسار إلى المنتصر فالتقوا بنواحي سمرقند واشتدّ القتال بينهما وذلك في شهر شعبان سنة

---

(١) الدبوسية: بلدة من أعمال الصغد فيما وراء النهر.

٣٩٤هـ فانهزم إيلك خان وخسر كثيراً من الأموال والرواحل أخذها المنتصر وأصحابه. وعاد إيلك خان إلى بلاد الترك فجمع وحشد، وتمّ اللقاء ثانيةً بين الفريقين بنواحي أشرو سنة[1] فانهزم المنتصر وأكثر الترك في أصحابه القتل، وسار المنتصر منهزماً حتى عبر النهر وسار إلى الجوزجان[2] فنهب أموالها، وقصد مرو فسيّر محمود بن سبكتكين يمين الدولة إليه العساكر فغادر مكانه وهم في أثره حتى أتى بسطام[3] فأرسل إليه قابوس بن وشمكير عسكراً أبعدوه عنها فرجع إلى بلاد ما وراء النهر فسئم أصحابه حالهم من السهر والتعب والخوف ففارقه كثير منهم إلى بعض أصحاب إيلك خان فأعلموهم بمكانه فلم يشعر المنتصر إلا وقد أحاطت به الخيل من كل جانب فطاردهم ساعةً ثم ولّاهم الأدبار فنزل بحلّة من العرب في طاعة يمين الدولة محمود وقد أوصاهم بطلبه، فلما رأوه أمهلوه حتى أظلم الليل ثم وثبوا عليه وقتلوه.

---

(١) أشروسنة: بلدة كبيرة بما وراء النهر من بلاد الهياطلة الترك بين سيحون وسمرقند بينها وبين سمرقند مائة وثلاثون كيلاً، وهي اسم الإقليم كما أن الصغد اسم الإقليم.

(٢) الجوزجان: اسم كورة واسعة من كور بلْخ بخراسان، وهي بين مرو الروذ وبلْخ.

(٣) بسطام: بلدة كبيرة بقومس على جادة الطريق إلى نيسابور.


خوارزم
الري
جرجان
نسا
بخارى
سمرقند
مرو
نسف
نيسابور
سرخس
فرغانة
آمل
ترمذ
هراة
بلخ
بُست
كابل
غزنة

رابعاً: الغزنويون:

كان سبكتكين والياً على غزنة ويعترف بسلطان السامانيين رغم استقلاله في شؤون ولايته، وقد ساعد السامانيين في أمورهم العسكرية فأعطى الأمير نوح ولاية خراسان وقيادة جيوشها إلى محمود بن سبكتكين، فأقام محمود بمدينة نيسابور، ورجع أبو علي بن سيمجور إلى خراسان سنة ٣٨٥هـ، ولكن رجع محمود بمساعدة أبيه إلى قاعدته في نيسابور.

وكان سبكتكين ناصر الدولة يقيم في بلْخ وقد ابتنى فيها دوراً ومساكن فمرض وطال مرضه وأحب تغيير هواء مكان إقامته فاتجه إلى غزنة فمات بالطريق في شهر شعبان سنة ٣٨٧هـ، فنُقل ميتاً إلى غزنة ودفن فيها، وكانت مدة ملكه عشرين سنةً، وكان عادلاً خيراً، كثير الجهاد، حسن الاعتقاد، ذا مروءةٍ تامةٍ، وحسن عهدٍ ووفاءٍ، ولما حضرته الوفاة عهد إلى ولده إسماعيل من بعده بالملك، فلما مات بايع الجند إسماعيل، وحلفوا له، فأطلق لهم الأموال، فاشتطّوا بالطلب حتى أفنى الخزائن التي خلّفها أبوه، وكان إسماعيل أصغر من أخيه محمود فاستضعفه الجند.

كان محمود بن سبكتكين عندما توفي والده في

نيسابور فلما بلغه خبر الوفاة جلس للعزاء، ثم أرسل إلى أخيه إسماعيل يُعزّيه بأبيه ويُعرّفه أن أباه إنما عهد إليه لبعده عنه ويُذكّره ما يتعيّن من تقديم الكبير، ويطلب منه الوفاق وإرسال ما يخصّه من تركة أبيه فلم يفعل وترددت الرسل بينهما فلم تصل الأمور إلى نتيجة، فسار محمود عن نيسابور متجهاً إلى هراة قاصداً أخاه إسماعيل في غزنة، واجتمع محمود مع عمه بغراجق بهراة فساعده على أخيه إسماعيل، وسار محمود إلى بُست وبها أخوه نصر فتبعه وأعانه وسار معه إلى غزنة، وبلغ الخبر إلى إسماعيل وهو ببلْخ فسار عنها مجداً إلى غزنة فسبق أخاه محموداً إليها، وكان الأمراء الذين مع إسماعيل قد كاتبوا أخاه محموداً يستدعونه ووعدوه الميل إليه فجدّ المسير والتقى هو وأخوه إسماعيل بظاهر غزنة فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم إسماعيل فاحتمى بقلعة غزنة فحاصره أخوه محمود واستنزله بأمانٍ، فلما نزل إليه أكرمه وأحسن إليه ورفع مكانته وشاركه في ملكه وعاد إلى بلْخ واستقامت له الأمور، وكانت مدة ملك إسماعيل سبعة أشهرٍ.

أثناء هذه الأحداث كان بكتوزون قد ولي خراسان، فأرسل محمود بن سبكتكين إلى منصور بن

نوح الساماني يذكر له طاعته والمحاماة عن دولته فأعاد الجواب يعتذر عن خراسان ويأمره بأخذ ترمذ وبلْخ وما وراءها من أعمال بُست وهراة فلم يقنع بذلك فأعاد الطلب فلم يجبه إلى ذلك، فلما تيقّن محمود بالمنع سار إلى نيسابور وبها بكتوزون فلما بلغ الخبر بكتوزون رحل عن نيسابور فدخلها محمود وملكها، فلما سمع الأمير منصور بن نوح الساماني بذلك سار من بخارى نحو نيسابور، فلما علم محمود بذلك سار عن نيسابور إلى مرو الروذ ينتظر ما يكون.

وقُبض على منصور بن نوح وسملت عيناه ووضع مكانه أخوه عبد الملك سنة ٣٨٩هـ، فسار محمود بن سبكتكين إلى سرخس حيث يوجد عبد الملك وبكتوزون وفائق، فلما سمعوا بمسيره ساروا إليه فالتقوا به بمدينة مرو في آخر جمادى الأولى سنة ٣٨٩هـ، فانتصر محمود عليهم، وملك خراسان وأزال عنها اسم السامانية، ودخل إيلك خان بخارى وقضى على السامانيين فيها.

ولما شُغل يمين الدولة محمود بن سبكتكين بالأحداث سيّر خلف بن أحمد صاحب سجستان ابنه طاهراً إلى قهستان فملكها وسار بعدها إلى بوشنج فاحتلها وكانت هي وهراة لبغراجق عمّ يمين الدولة

(أخو سبكتكين) فلما فرغ يمين الدولة محمود من تلك الحروب استأذنه عمه في إخراج طاهر بن خلف من ولايته فأذن له بذلك فسار إليه فلقيه طاهر بنواحي بوشنج فاقتتلوا فانهزم طاهر وتابع بغراجق في طلبه فعطف عليه طاهر فقتله. فلما سمع يمين الدولة محمود بقتل عمه صعب عليه الأمر فجمع عساكره وسار نحو خلف بن أحمد فتحصّن منه خلف بحصن «اصبهبذ» وهو حصن منيع فحاصره فيه وضيّق عليه فذلّ وخضع.

لما فرغ يمين الدولة محمود بن سبكتكين من أمر خراسان ومن قتال خلف بن أحمد أحب أن يغزو الهند لينشر الإسلام ويقاتل الكفار ويكون ذلك الغزو جهاداً يُكفّر به ما كان منه من قتال المسلمين فاتجه نحو الهند فأتاه جيبال ملك الهند باثني عشر ألف فارسٍ وثلاثين ألف راجلٍ وثلاثمائة فيلٍ فاختار يمين الدولة من عساكره والمتطوعين للجهاد خمسة عشر ألف مقاتلٍ وسار نحوه فالتقوا في شهر المحرم سنة ٣٩١هـ فاقتتلوا وصبر الفريقان، فلما انتصف النهار انهزم الهنود، وقتل فيهم مقتلةً عظيمةً، وأسر ملكهم جيبال ومعه جماعة من أهله وعشيرته، وغنم المسلمون منهم أموالاً كثيرةً وجواهر نفيسةً، وأخذت من عنق جيبال قلادة من

الجوهر النادر قُوّمت بمائتي ألف دينارٍ، كما أُخذ من أعناق مقدمي الأسرى قلائد، وقُتل من الهنود خمسة آلاف رجلٍ، ومن الفيلة خمسة عشر فيلاً، وغنم المسلمون خمسمائة ألف رأسٍ من العبيد، وفتحوا من الهند بلاداً كثيرةً، ولما فرغ يمين الدولة من غزوته تلك أحب أن يطلق سراح ملك الهند جيبال ليراه الهنود في وضع الذلّ فأطلقه بمالٍ قرره عليه. وكان من عادة الهنود أنهم من وقع منهم في أيدي عدوهم أسيراً لم تنعقد له بعدها رئاسة فلما رأى جيبال حاله بعد إطلاق سراحه من أيدي المسلمين حلق رأسه ثم ألقى نفسه بالنار فاحترق. وغزا يمين الدولة محمود مرةً أخرى الهند وحاصر إحدى مدنها ودخلها قهراً، وبلغه أن جماعةً من الهنود قد اجتمعوا في شعاب تلك الجبال عازمين على الفساد والعناد فسيّر إليهم جماعةً من عسكره فأوقعوا بهم وأكثروا القتل فيهم ولم ينجُ منهم إلا الشريد الفريد وعاد إلى غزنة سالماً ظافراً.

بعد أن صالح يمين الدولة محمود بن سبكتكين سنة ٣٩٠هـ خلف بن أحمد صاحب سجستان عهد خلف إلى ابنه طاهر بالحكم وانصرف هو إلى عبادته غير أن طاهراً قد عقّ أباه وأهمل أمره فلاطفه أبوه ورفق به، ثم

إنه تمارض واستدعى ابنه ليوصي إليه فلما حضر قبض عليه وسجنه وبقي في السجن إلى أن مات. فلما سمع عسكر خلف وصاحب جيشه بذلك تغيّرت نيّاتهم في طاعته وكرهوه وامتنعوا عليه في طاعته، وأظهروا طاعة يمين الدولة محمود، وخطبوا له وأرسلوا إليه يطلبون منه أن يبعث إليهم من يتسلّم المدينة ففعل وملكها سنة ٣٩٣هـ، وعزم أن يسير إلى خلف بن أحمد ويأخذ ما بيده ويرتاح من مكره فسار إليه ـ وهو في حصن الطاق ـ ولهذا الحصن سبعة أسوار محكمة يحيط بها خندق عميق عريض لا يمكن عبوره إلا عن طريقٍ على جسرٍ يرفع عند الخوف فنازله وضايقه فلم يصل إليه، فأمر بردم الخندق ليمكن العبور إليه، فقطعت الأخشاب وردم بها وبالتراب في يومٍ واحدٍ مكاناً يعبرون عليه ويقاتلون فيه، وزحف الناس ومعهم الفيلة، واشتدّت الحرب وعظم الأمر، وتقدّم أكبر الفيلة إلى باب السور الأول فاقتلعه بخرطومه ونابيه وألقاه وملكه أصحاب يمين الدولة وتأخّر أصحاب خلف إلى السور الثاني ولم يزل أصحاب يمين الدولة يدفعونهم من سورٍ إلى سورٍ فلما رأى خلف ذلك أرسل يطلب الأمان فأجابه يمين الدولة إلى ما طلب وكفّ عنه، فلما حضر عنده أكرمه واحترمه وأمره بالمقام في أي البلاد شاء فسيّره إليها في هيئةٍ

حسنةٍ فأقام بها نحو أربع سنين، ونقل إلى يمين الدولة أنه يراسل إيلك خان يطمعه بقصد يمين الدولة فنقله إلى مكانٍ آخر واحتاط عليه هناك إلى أن أدركه أجله في شهر رجب من سنة ٣٩٩هـ، فسلّم يمين الدولة كل ما تركه إلى ولده أبي حفص.

وكان يمين الدولة لما ملك سجستان قد استخلف عليها قبل أن يغادرها أميراً كبيراً من أصحابه يُعرف باسم «قُنْجي» فأحسن السيرة في أهلها، ولكن جماعات من أهل الأهواء والفساد قد قدّموا عليهم رجلاً منهم يجمعهم وأعلنوا خلع طاعة يمين الدولة ومخالفته فسار إليهم يمين الدولة وحصرهم في حصن «أرك»[1] وبدأ القتال في شهر ذي الحجة سنة ٣٩٣هـ فظهر عليهم يمين الدولة، وظفر بهم، وملك حصنهم، وأكثر القتل فيهم، وانهزم بعضهم فسيّر في أثرهم من يطلبهم فأدركوهم، وأكثروا فيهم القتل حتى خلت سجستان من أهل الفساد، وصفت له، واستقر ملكه فيها فأقطعها أخاه نصراً إضافةً إلى نيسابور.

وغزا يمين الدولة محمود بن سبكتكين الهند أيضاً

---

(١) أرك: اسم لأبنيةٍ عظيمةٍ بـ «زرنج» مدينة سجستان.

سنة ٣٩٥هـ فسار إلى «بهاطية»[1] وهي وراء المُلتان ويعرف صاحبها بـ«بجهرا» والمدينة محصنة عالية السور يحيط بها خندق عميق فامتنع صاحبها بها، ثم خرج إلى ظاهرها فقاتل المسلمين ثلاثة أيامٍ ثم انهزم في الرابع وانطلق إلى المدينة ليدخلها هو وأصحابه فسبقهم المسلمون إلى باب البلد فملكوها عليهم وعملوا بهم حصداً بالسيوف فقُتل المقاتلون وسُبيت الذراري وأُخذت الأموال، وأما «بجهرا» فإنه لمّا أيقن بالهلاك أخذ جماعةً من ثقاته وسار إلى رؤوس الجبال فسيّر إليه يمين الدولة فرقةً فلم يشعر بهم «بجهرا» إلا وقد أحاطوا به وأعملوا السيوف في أصحابه فلما أيقن بالعطب طعن نفسه بخنجرٍ كان معه فسقط قتيلاً، وأقام يمين الدولة بـ«بهاطية» حتى أصلح أمورها، ونظّم شؤونها، ثم استخلف عليها وعاد إلى غزنة.

وفي سنة ٣٩٦هـ رجع إلى غزو المُلتان وذلك أن واليها أبا الفتوح وهو من بقايا الغزاة الذين توطّنوا هناك قد أغرته الدنيا ووسوست له شياطين الإنس والجن حتى نُسب إلى الإلحاد ونقل عنه خبث الأعمال فدعا أهل

---

(١) بهياطة: مدينة قديمة، موقعها إلى الشرق من مدينة لاهور اليوم إلى الجنوب قليلاً.

ولايته إلى ما هو عليه فأجابه بعضهم فرأى يمين الدولة محمود أن يجاهده ويستنزله عما هو عليه، فسار نحوه فرأى الأنهار التي في طريقه كثيرة الفيضان عظيمة المياه مما حال دون العبور، فأرسل إلى أحد ملوك الهند يطلب منه أن يأذن له في العبور ببلاده إلى المُلتان فلم يجبه إلى ذلك فابتدأ به قبل المُلتان، وقال: نجمع بين غزوتين، فدخل بلاده وجاسها وأكثر القتل في رجالها ففر صاحبها من بين يديه وهو في أثره كالشهاب إلى أن وصل إلى كشمير، ولما سمع أبو الفتوح بخبر إقباله إليه علم عجزه عن الوقوف أمامه والعصيان عليه فنقل أمواله إلى سرنديب[1] وأخلى الملتان فوصل يمين الدولة إليها ودخلها عنوةً وألزم أهلها عشرين ألف درهمٍ عقوبةً لعصاينهم.

ولما سار يمين الدولة إلى المُلتان استغلّ إيلك خان صاحب ما وراء النهر بُعده عن خراسان فسيّر صاحب جيشه «سُباشي تكين» سنة ٣٩٦هـ في معظم جنده، وسير أخاه جعفر تكين في عددٍ من الأمراء، وكان يمين الدولة قد جعل على هراة أميراً من أمرائه

(١) سرنديب: جزيرة سيلان.

يقال له رسلان الجاذب وأمره إذا ظهر عليه مخالف أن ينحاز إلى غزنة، فلما سار سباشي تكين إلى خراسان ارتحل أرسلان إلى غزنة وملك سباشي تكين هراة وأقام بها وأرسل إلى نيسابور من استولى عليها، فلما وصلت الأخبار إلى يمين الدولة وهو بالهند رجع إلى غزنة لا يلوي على شيءٍ فلما وصل إليها أصلح أمره، وأعدّ جنده وسار بهم إلى بلْخ وبها جعفر تكين أخو إيلك خان فعبر إلى ترمذ ونزل يمين الدولة في بلْخ وسيّر العساكر إلى سباشي تكين في هراة وتمكّن من السيطرة على خراسان، ولكن إيلك خان استنفر الترك وراسل قدرخان بن بغراخان وذكر له حاله واستنصره وكانت بينهما قرابة فاجتمع هو وإيلك خان وسارا بجندهما نحو يمين الدولة وبلغه الخبر وهو بطخارستان، فسار وجدّ وسبقهما إلى بلْخ واستعدّ للقتال، وخرج عن بلْخ فعسكر على فرسخين منهما في مكانٍ فسيحٍ، وجاء الطرف الآخر والتقى الطرفان واقتتلا ذلك اليوم إلى الليل، فلما كان الغد برز بعضهم لبعضٍ، وحمل يمين الدولة ومعه الفيلة على قلب إيلك خان فأزاله عن مكانه ووقعت فيهم الهزيمة وتبعهم أصحاب يمين الدولة يقتلون ويأسرون ويغنمون إلى أن عبروا نهر جيحون.

فلما فرغ يمين الدولة من موضوع خراسان رجع للغزو في الهند وخاصةً أن أحد أبناء ملوك الهند قد أظهر الإسلام على يد يمين الدولة فاستخلفه على بعض ما افتتحه من بلادهم فلما رجع يمين الدولة إلى خراسان واشتغل بالقتال ووصلت الأخبار إلى الهند ارتدّ هذا الوالي الهندي، ومالأ أهل ملّته السابقة فسار إليه يمين الدولة مجدّاً غاضباً فلما اقترب يمين الدولة منه فرّ الوالي الهندي ويعرف بـ«نواسه» فاستعاد يمين الدولة تلك الولاية وأعادها إلى حكم الإسلام واستخلف عليها بعض أصحابه وعاد إلى غزنة، فاستراح ثم استعدّ لغزوةٍ ثانيةٍ في بلاد الهند.

سار يمين الدولة من غزنة في شهر ربيع الثاني سنة ٣٩٨هـ حتى وصل إلى نهر السند فسار على ضفته متجهاً نحو الشمال الشرقي بعكس اتجاه مجرى النهر حتى التقى مع «ابرهمن بال» بن أنديال في جيوشٍ جرارةٍ من الهنود فاقتتلوا شطراً طويلاً من النهار ثم انهزم الهنود بعد مقاومةٍ عنيفةٍ وفرّ «ابرهمن بال» إلى جبلٍ عالٍ فيه قلعة بهيم وقد جعلها الهنود خزانة لصنمهم الأعظم فينقلون إليها أنواع الذخائر والجواهر وتبعه يمين الدولة فحاصرهم هناك وقاتلهم فضعفوا

وطلبوا الأمان وفتحوا باب الحصن فملك المسلمون القلعة وصعد يمين الدولة إليها في خواص أصحابه وثقاته فأخذوا الأموال والجواهر الكثيرة ورجع إلى غزنة بهذه الغنائم البالغة.

وعاد يمين الدولة محمود بن سبكتكين إلى غزو الهند سنة ٤٠٠هـ وتقدّم فيها فحطّم أصنامها وأذلّ من وقف في وجهه ولما رأى الهنود أنهم لا قِبل لهم بقتاله راسلوه بالصلح والهدنة على مالٍ يُؤدّونه مع خمسين فيلاً وأن يكون له ألفا فارسٍ في خدمته فقبض من ملك الهند ما بذله وعاد إلى غزنة.

وسار يمين الدولة سنة ٤٠١هـ إلى بلاد الغور وهي إلى الغرب من مدينة غزنة وبلادهم جبال وعرة ومضائق أوديةٍ صعبة، وكان أهلها يقطعون الطريق ويخيفون السبيل، ويحتمون بتلك الأماكن ويعتصمون بمرتفعاتها فلما كثر ذلك منهم جمع العساكر وسار إليهم وعلى مقدمته «التونتاش الحاجب» صاحب هراة، و«أرسلان الجاذب» صاحب طوس وهما أكبر أمرائه، فسارا فيمن معهما حتى انتهوا إلى مضيق قد احتشد فيه المقاتلة فتناوشوا القتال، وصبر الفريقان، فلما سمع يمين الدولة محمود بالوضع جدّ السير إليهم، وملك عليهم المسالك

فتفرقوا وساروا إلى كبيرهم المعروف بـ«ابن سوري» فانتهوا إلى مدينته فخرج منها ما يقرب من عشرة آلاف مقاتلٍ فقاتلهم المسلمون حتى انتصف النهار ورأى يمين الدولة من الغوريين شجاعةً في الحرب وصبراً على القتال فأمر يمين الدولة من أصحابه أن يولّوهم الأدبار على سبيل الاستدراج ففعلوا، فلما رأى الغورية ذلك ظنّوه هزيمةً فلحقوا بهم حتى ابتعدوا عن مدينتهم فحينئذٍ عطف عليهم يمين الدولة محمود بأصحابه ووضعوا السيوف فيهم فأبادهم قتلاً وأسراً، وكان بين الأسرى كبيرهم «ابن سوري» ودخل المسلمون المدينة وملكوها وغنموا ما فيها، ودخلوا القلاع والحصون التي لهم في تلك الجهات، ولما رأى ابن سوري ذلك قتل نفسه بالسمّ، وأظهر يمين الدولة شعار الإسلام، وكلّف جماعةً ممن معه تبقى هناك وتعلّم سكان المنطقة الإسلام. ثم انتقل إلى غزو منطقةٍ أخرى فانتصر على أهلها ـ بإذن الله ـ وغنم ورجع إلى غزنة مظفراً منصوراً.

وسار يمين الدولة سنة ٤٠١هـ إلى قُنْدهار وملكها، وكان واليها قد صالحه على مبلغٍ يُؤدّيه إليه غير أنه قد قطع ذلك مغتراً بقوته وحصانة بلده، فأظهر

يمين الدولة أنه يريد هراة وقد غادر غزنة في شهر جمادى الأولى سنة ٤٠١هـ، ثم انطلق نحو قندهار وقد سبق خبره فلم يشعر صاحبها إلا وقد أحاط به عسكر يمين الدولة فطلب الأمان فأجابه إلى ذلك وأخذ منه المال الذي كان قد اجتمع عنده وأقرّه على ولايته وعاد إلى غزنة.

وغزا يمين الدولة الهند أيضاً سنة ٤٠٤هـ وسار إلى وسط البلاد تقريباً حيث استغرق سيره شهرين حتى إذا قارب هدفه رتّب عساكره فسمع كبير الهنود بذلك فجمع من عنده من عسكرٍ وحشد الإمكانات وصعد إلى جبلٍ هناك صعب المرتقى وعر الطريق ضيّق المسلك واحتمى به وطاول المسلمين وكتب إلى الهنود يستدعيهم من كل ناحيةٍ فاجتمع عليه منهم كل من يحمل سلاحاً فلما تكامل حشده وتمّ استعداده نزل من الجبل وتصافّ هو والمسلمون واشتدّ القتال وعظم الخطب وانتصر المسلمون ـ بإذن الله ـ فهزموا أعداءهم وأكثروا فيهم القتل وغنموا ما معهم من مالٍ وسلاحٍ وفيلةٍ، ولما انتهت الحرب عاد يمين الدولة إلى غزنة، وأرسل إلى الخليفة القادر بالله يطلب منه عهداً بخراسان وما بيده من الممالك فكتب له ذلك ولقّبه نظام الدين. وكانت

تلك المعركة إلى الشرق من كوجرات بثلاثمائة كيلٍ في موقع أندور تقريباً وتعرف في التاريخ «ناردين».

وفي سنة ٤٠٥هـ ذُكر ليمين الدولة محمود أن بناحية «تانيشر» وسط الهند فيلة تسمى «الصيلمان» وهي الموصوفة في الحرب، وأن أمير تلك المنطقة قد عُرف بعناده للمسلمين فرأى يمين الدولة أن يغزوه مجاهداً في سبل الله فحشد قواته وانطلق نحوه فاعترضته أودية عميقة ومسالك وعرة فقطعوها بمشقةٍ حتى إذا اقتربوا من هدفهم اعترضهم نهر غزير المياه صعب المخاضة وهو أحد روافد نهر الغانج التي تتجه إليه من الجنوب، وقد وقف أمير تلك البلاد مع عساكره وفيلته على ضفة ذلك النهر يمنع عبوره، فأمر يمين الدولة شجعان عسكره بعبور النهر وإشغال الأعداء بالقتال ليتمكّن باقي العسكر من العبور ففعلوا ذلك وقاتلوا الهنود وشغلوهم عن حماية النهر من أن يعبره أحد، فاجتاز النهر سائر عسكر المسلمين من المخاضات وقاتلوهم من الجهات جميعها وذلك في نواحي مدينة «كوتا» شمال شرقي مدينة «أحمد أباد» وعلى بعد أربعمائة كيلٍ منها، واستمرّ القتال إلى آخر النهار فانهزم الهنود وظفر المسلمون وغنموا ما معهم من فيلةٍ وأموالٍ وسلاحٍ

ورجع المسلمون إلى غزنة مرتاحي النفوس بانتصارهم وغنمهم.

وغزا يمين الدولة محمود الهند سنة ٤٠٦هـ غير أن خبراء الطريق قد ضلّوا، كما أن البحر قد هاج وطغت أمواجه على الساحل وغرقت أعداد من المسلمين ويمين الدولة نفسه قد خاض بالماء عدة أيامٍ وبعد النجاة عادوا من حيث انطلقوا.

كان ملك خوارزم والجرجانية أبو العباس مأمون بن مأمون يتبع يمين الدولة وقد زوّجه أخته، ثم إن يمين الدولة قد أرسل إلى خوارزمشاه يطلب منه أن يخطب له على منابر بلاده فأجابه إلى ذلك وأحضر أمراء دولته واستشارهم في ذلك فأظهروا الامتناع ونهوه عنه وهدّدوه بالقتل إن فعله فرجع مبعوثه إليه وحدّثه بما رأى، ثم إن أمراء خوارزمشاه خافوه حيث ردّوا أمره فقتلوه غيلةً، ولم يُعرف قاتله، وأجلسوا مكانه أحد أولاده، وعلموا أن يمين الدولة يسوؤه ذلك وربما طالبهم بثأره فاتفقوا على قتاله، ووصلت الأخبار إلى يمين الدولة فجمع العساكر وسار نحوهم فلما اقترب منهم جمعهم صاحب جيشهم ويُعرف بـ«ألبتكين البخاري» وأمرهم بالخروج إلى لقاء مقدمة يمين الدولة

فخرجوا معه وقاتلوا مقدمة يمين الدولة محمود واشتدّ القتال بينهم، وعلم يمين الدولة بالأخبار فتقدّم نحوهم بسائر جيوشه فوصل إليهم وهم لا يزالون بالقتال، فثبتت الخوارزمية إلى منتصف النهار ثم انهزموا وركبهم أصحاب يمين الدولة يقتلون ويأسرون ولم يسلم منهم إلا القليل وقد اختلفوا أيضاً فيما بينهم وسلّموا قائدهم ألبتكين البخاري إلى يمين الدولة فأخذه أسيراً وسائر قادته وقتلهم عند قبر أبي العباس خوارزمشاه، وأخذ الباقين من الأسرى معه إلى غزنة، وتسلّم بلاد خوارزم، ووضع عليها نائباً عنه هو حاجبه التونتاش، ولما وصل إلى غزنة أطلق سراح أسرى الخوارزمية وأجرى لهم الأرزاق وسيّرهم إلى أطراف بلاده من الهند يحمونها من الأعداء ويحفظونها من أهل الفساد وذلك سنة ٤٠٧هـ.

وبعد أن انتهى يمين الدولة من موضوع خوارزم سار إلى الهند مجاهداً فاتجه نحو كشمير فمشى ثلاثة أشهرٍ، فدخل أرض الهند وجاءه رسل ملوكها بالطاعة وبذل الأتاوة فلما اقترب من كشمير أتاه أميرها وأسلم على يده ومشى معه في العشرين من شهر رجب سنة ٤٠٧هـ ففتح ما حول كشمير من ولاياتٍ، وأخذ

الحصون المنيعة حتى وصل إلى حصن «هودب»[1] وهو آخر حصون ملوك الهند، فنظر هودب من أعلى حصنه فرأى من العساكر ما هاله وأرعبه وعلم أنه لا ينجيه إلا الإسلام، فخرج في نحو عشرة آلافٍ ينادون بكلمة الإخلاص طلباً للنجاة فقبله يمين الدولة وسار عنه إلى قلعة «كاجند»[2]، وكان في طريق يمين الدولة غياض كثيرة ذات أشجارٍ باسقةٍ ملتفةٍ لا يستطيع السالك اجتيازها إلا بمشقةٍ كبيرةٍ، فلما علم كاجند بمسير المسلمين إليه سيّر عساكره ومعهم الفيلة إلى أطراف تلك الغياض يمنعون من يريد اجتيازها، فترك يمين الدولة من يقاتلهم وسلك طريقاً أخرى إلى القلعة فلم يشعر الذين فيها إلا والمسلمين أمامهم فنشب القتال بينهم فلم يصبر الهنود على الصبر فالمسلمون يندفعون نحو الخصم ويقتحمون المخاطر يطلبون الشهادة يبغون الجنة فمن يقف أمامهم؟ ففرّ الهنود مذعورين فاعترضهم نهر عميق فألقوا أنفسهم فيه يريدون النجاة هرباً من الموت فغرق أكثرهم فكان عدد الغرقى والقتلى قريباً من

---

(١) هودب: اسم صاحب الحصن.
(٢) كاجند: اسم أحد أعيان الهنود في تلك المرحلة من الزمن، ويعدّ من شياطينهم، وتُعرف القلعة باسمه.

خمسين ألفاً هربوا من الموت فأدركهم وطلبه المسلمون فابتعد عنهم وأعزّهم الله بنصره، وانطلق كاجند إلى زوجته فقتلها ثم قتل نفسه بعدها وغنم المسلمون ما خلّفا بعدهما، وملكوا حصونه. ثم ارتحل يمين الدولة إلى معبدٍ للهنود ويُعدّ من أعتى الحصون وأمنعها، على نهر الغانج، وفي هذا المعبد كثير من الأصنام والأموال وبعض أصنامهم مصاغة من الذهب، فحطّم الأصنام وأخذ الأموال، وتابع سيره نحو مدينة قنوج[1] وأميرها «راجيال» فوصل إليها في الثاني من شهر شعبان سنة ٤٠٧هـ فرأى صاحبها قد فارقها وعبر نهر الغانج فاحتلّها يمين الدولة وملكها وقلاعها وأعمالها، وحطّم ما فيها من أصنامٍ كثيرةٍ، ثم سار إلى قلعة البراهمة فقاتله أهلها وثبتوا، ولكن لم يصبروا فاستسلموا فقتلوا فلم ينج منهم إلا الشريد، وتابع يمين الدولة سيره إلى قلعة «آسي» وصاحبها «جندبال» فلما اقترب منها يمين الدولة هرب منها صاحبها، وأخذ المسلمون حصنه وما حوى، ثم انطلقوا إلى قلعة «شروه» وصاحبها «جندراي» فلما اقترب المسلمون من القلعة أخذ صاحبها أمواله وفيلته واتجه إلى المرتفعات حيث احتمى هناك، ولم يدر أحد

---

(١) قنوج: مدينة على نهر الغانج بين «أغرا» و«بنارس».

أين هو، فأخذ المسلمون القلعة وما فيها، وجاءت أخبار «جندراي» إلى يمين الدولة فأرسل في أثره فرقةً لحقت به في آخر شهر شعبان ٤٠٧هـ وجرى بين الفريقين قتال قُتل فيه أكثر عسكر «جندراي» وأُسر كثير، وغُنمت الأموال، واستطاع جندراي أن ينجو فراراً، وعاد يمين الدولة والمسلمون معه إلى غزنة ظافرين، وبنى يمين الدولة بالغنائم مسجد غزنة الكبير.

وسار يمين الدولة محمود سنة ٤٠٩هـ غازياً الهند وقد حشد واستعدّ أكثر من أية غزوةٍ سبقت له للهند وذلك أنه لما فتح مدينة قنوج سنة ٤٠٧هـ وفرّ منها صاحبها راجيال، وعاد يمين الدولة إلى غزنة أرسل أحد ملوك الهند الكبار واسمه «بيدا» إلى راجيال يُوبّخه على انهزامه وتسليم بلده للمسلمين وزادت الملاومة والكلام بين بيدا وراجيال حتى أدّى الأمر إلى الاختلاف وتأهّب كل واحدٍ منهما لصاحبه وسار إليه ووقع القتال وقُتل راجيال وأكثر جنده، فزاد «بيدا» عتواً، وذاع صيته في الهند، وقصده بعض الذين أزال يمين الدولة ملكهم في الهند وصاروا من أتباعه فوعدهم بإعادة سلطانهم، ووصلت هذه الأخبار إلى يمين الدولة محمود فتجهّز للغزو وقصد الملوك «بيدا»، وعبر نهر الغانج ولم يسبق

له أن اجتازه، وغنم بعض القوافل في طريقه، وجدّ السير وأتاه خبر ملكٍ من ملوك الهند يقال له: بروجيبال قد سار من بين يديه ملتجئاً إلى «بيدا» ليحتمي به وليعينه على يمين الدولة، فشمّر يمين الدولة عن ساقه وتبع بروجيبال وذلك في الرابع عشر من شهر شعبان سنة ٤٠٩هـ، وبينه وبين الهنود أصحاب بروجيبال نهر عميق فعبر إليهم بعض عساكره وبدؤوا بقتالهم لإشغالهم، ثم عبر يمين الدولة وباقي العسكر إليهم فاقتتلوا عامة نهارهم وانهزم بروجيبال ومن معه، وكثر فيهم القتل والأسر، وأسلموا أموالهم وأهليهم للمسلمين، وأخذ المسلمون ما يزيد على مائتي فيلٍ، ولحق بهم المسلمون يتتبعون آثارهم، وقد انهزم ملكهم بروجيبال جريحاً فاحتار في أمره فأرسل إلى يمين الدولة يطلب الأمان فلم يُؤمّنه ولم يرض منه إلا بالإسلام، وقُتل من عسكره عدد كبير، وجدّ بروجيبال ليلحق بـ«بيدا» فانفرد به بعض الهنود فقتله.

ورأى ملوك الهند ذلك فتتابعوا ببعث رسلهم إلى يمين الدولة محمود يبذلون له الطاعة والأتاوة. وسار بعدها باتجاه مدينة «باري» وهي حصينة منيعة فوجدها خاليةً على عروشها ليس بها ساكن فأمر بهدمها مع عشر

قلاعٍ أخرى قريبةٍ منها، وتابع سيره يطلب الملك «بيدا» حتى أدركه على شاطئ نهرٍ مع جيشٍ عرمرمٍ فالتقى الفريقان بالقتال حتى أدركهم الليل فحجز بينهم الظلام، فلما كان الغد بكر لهم يمين الدولة فلم يجد أحداً، قد فرّوا وتركوا خزائن أموالهم وسلاحهم فغنمها المسلمون، واقتفى آثار المنهزمين فلحق بهم في الغياض والآجام فأكثر المسلمون بهم القتل والأسر ونجا «بيدا»، ورجع يمين الدولة محمود إلى غزنة.

وغزا يمين الدولة محمود الهند أيضاً سنة ٤١٤هـ وأوغل في البلاد وقتل كثيراً من أهل الكفر وغنم كثيراً أثناء سيره حتى وصل إلى قلعةٍ على رأس جبلٍ منيعٍ ليس له مرتقىً إلا من موضعٍ واحدٍ، والقلعة واسعة فيها أناس كثيرون مع تموينات ٍوفيرةٍ كما يوجد فيها خمسمائة فيلٍ فحاصرهم يمين الدولة محمود وضيّق عليهم، واستمرّ القتال مدةً فقُتل منهم كثير، فلما رأى الهنود ما حلّ بهم أذعنوا وطلبوا الأمان فأمّنهم وأقرّ ملكهم عليهم على خراجٍ يُؤدّونه.

وشدّ يمين الدولة محمود العزيمة على غزو الهند سنة ٤١٦هـ بهدف الجهاد ونشر الإسلام إضافةً إلى تحطيم الصنم «سومنات» وذلك أن هذا الصنم كان

أعظم أصنام الهند، وذلك أن أتباعه الهنود كانوا يقصدونه إذا حدث خسوف للقمر في ليلةٍ من الليالي فيجتمع عنده ما ينوف على مائة ألف إنسان، ويزعم الهنود أن الأرواح إذا فارقت الأجساد اجتمعت إليه ـ على مذهب التناسخ ـ فينشئها فيمن شاء، وأن المدّ والجزر عنده إنما هو عبادة البحر له على قدر استطاعته، وكانوا يحملون إليه كل نفيسٍ يُعلّق ويعطون سدنته مالاً جزيلاً، وقد وُقف له ما يزيد على عشرة آلاف قريةٍ، وقد اجتمعت في البيت الذي هو فيه من نفيس الجوهر ما لا تُحصى قيمته. ولأهل الهند نهر كبير يُسمّى «الغانج» يُعظّمونه غاية التعظيم، ويُلقون فيه عظام من يموت من كبرائهم ويعتقدون أنها تُساق إلى النعيم،، وبين هذا النهر وبين صنم «سومنات» نحو مائتي فرسخٍ (حوالي ألف كيل)، وكان يحمل من مائه كل يومٍ إلى سومنات ما يُغسل به، ويكون عنده من البراهميين كل يومٍ ألف رجلٍ لعبادته وتقديم الوفود إليه وثلاثمائة رجلٍ يحلقون رؤوس زوّاره ولحاهم، وثلاثمائة رجلٍ وخمسمائة أَمَةٍ يغنون ويرقصون على باب الصنم ولكل واحدٍ من هؤلاء شيء معلوم كل يومٍ. وكان كلما فتح يمين الدولة محمود فتحاً وكسر صنماً يقول الهنود إن هذه الأصنام قد سخط عليها

سومنات ولو أنه راضٍ عنها لأهلك من قصدها بسوء، فلما بلغ ذلك يمين الدولة عزم على غزوه وإهلاكه ظنّاً منه أن الهنود إذا فقدوه ورأوا كذب ادّعائهم الباطل دخلوا في الإسلام، فاستخار الله تعالى، وسار من غزنة في العاشر من شعبان سنة ٤١٦هـ في ثلاثين ألف فارسٍ من عساكره سوى المتطوعة وسلك سبيل مدينة الملتان فوصل إليها في منتصف شهر رمضان، وفي طريقه إلى الهند برية[١] قفر لا ساكن فيها ولا ماء ولا ميرة فتجهّز هو وعسكره على قدرها ثم زاد بعد الحاجة عشرين ألف جملٍ تحمل الماء والتموين. فلما قطع المفازة رأى في طرفها حصوناً مشحونةً بالرجال وعندها آبار قد غوّروها ليتعذّر عليه حصارها فيسّر الله تعالى فتحها عند اقترابه منها بالرعب الذي قذفه في قلوبهم، وتسلّمها وقتل سكانها وحطّم أوثانها، وامتاروا منها الماء وما يحتاجون إليه، وسار إلى سومنات فلقي في طريقه عدة حصونٍ فيها كثير من الأوثان شبه الحجّاب والنقباء حسبما سوّل لهم الشيطان فقاتل يمين الدولة ودخلها وخرّبها وكسّر أصنامها، وتابع إلى سومنات في مفازة قفرةٍ قليلة الماء فلقي فيها عشرين ألف مقاتل من

---

(١) هذه البراري المقفرة هي صحراء ثار ومنطقة راجستان.

سكانها لم يدينوا للملك فأرسل إليهم السرايا فقاتلوهم فهزموهم وغنموا مالهم، وامتاروا من عندهم الماء، وساروا حتى صاروا على مرحلتين من سومنات وقد ثبت أهلها له ظنّاً منهم أن الصنم يمنعهم ويدفع عنهم فاستولى على المدينة وقتل رجالها وغنم أموالها وتسمّى المدينة «دبولوارة» وسار عنها إلى سومنات[1] فوصل إليها يوم الخميس منتصف ذي القعدة سنة ٤١٦هـ فرأى حصناً حصيناً على ساحل البحر بحيث تبلغه أمواج البحر، أهله على الأسوار يتفرّجون على المسلمين واثقين أن معبودهم سيقطع دابرهم ويهلكهم، فلما كان الغد ـ وهو الجمعة ـ زحف يمين الدولة وقاتل من به، فرأى الهنود من المسلمين قتالاً لم يعهدوا مثله ففارقوا السور، فنصب المسلمون السلالم عليه وصعدوا إليه وكبّروا وأظهروا شعار الإسلام فحينئذٍ اشتدّ القتال

(١) سومنات: مدينة ساحلية كبيرة، بها علماء الهنود وعبادهم، والصنم المعروف بها «البد» وصورته إحليل وفرج امرأةٍ مصنوعان من ذهب، وعند طائفة منهم يسمون ذلك العلة الغريبة في اتحاد نوع الإنسان، ويكون على كرسي من ذهب مضمّخ بالمسك في رأسه إلى الكرسي ومقلّد بعقود الياقوت والجواهر. ويكون أمامه أطباق مملوءة بالأحجار الكريمة، والكرسي على مقعدٍ مستديرٍ يتّسع لعشرة رجالٍ.

وعظم الخطب، وتقدّم جماعة الهنود إلى سومنات فعفّروا له خدودهم وسألوه النصر، وخيّم الليل فكفّ بعضهم عن بعضٍ، فلما كان الغد بكّر المسلمون إليهم وقاتلوهم فأكثروا فيهم القتل وأجلوهم عن المدينة إلى بيت صنمهم «البد» فقاتلوا على بابه أشدّ قتالٍ وكان الفريق منهم بعد الفريق يدخل إلى الصنم فيعتنقونه ويبكون ويتضرّعون ويخرجون فيقاتلون إلى أن يُقتلوا حتى كاد الفناء يستوعبهم، فبقي منهم القليل فدخلوا البحر إلى مركبين لينجوا فيهما فأدركهم المسلمون فقتلوا بعضهم وغرق الآخرون. وأما البيت الذي فيه الصنم فهو مبني على ستٍّ وخمسين ساريةً من الساج المصفح بالرصاص، وصنم سومنات من حجر طوله خمسة أذرعٍ مدورةٍ ظاهرةٍ وذراعان في البناء وليس بصورةٍ مصورةٍ فأخذه يمين الدولة فكسره وأحرق بعضه، وأخذ بعض الحجر منه فجعله عتبة الجامع، وكان بيت الصنم مظلماً إذ لا يدخله النور وإنما الضوء الذي عنده من قناديل الجوهر الفائق، وكان عنده سلسلة ذهب فيها جرس، كلما مضى جزء معلوم من الليل حُرّكت السلسلة فيرن الجرس فتقوم طائفة من البراهميين إلى عبادتهم، وعنده خزانة فيها عدد من الأصنام الذهبية والفضية وعليها الستور المعلّقة المرصعة بالجوهر كل صنمٍ منسوب إلى

عظيمٍ من عظمائهم، وقيمة ما في البيوت يزيد على عشرين ألف ألف دينارٍ فأخذ يمين الدولة الجميع، وكان عدد القتلى يزيد على خمسين ألف قتيلٍ. ثم إن يمين الدولة ورد عليه الخبر أن «بهيم» صاحب مدينة «انهلوارة» قد قصد قلعةً تسمى «كندهة» على جزيرة في البحر بينها وبين البر من جهة سومنات أربعون فرسخاً (مائتا كيل) فسار إليها يمين الدولة من سومنات، فلما حاذى القلعة رأى رجلين من الصيادين فسألهما عن خوض البحر هناك فعرفاه أنه يمكن خوضه ولكن إن تحرك الهواء يسيراً غرق من فيه، فاستخار الله تعالى وخاضه هو ومن معه فخرجوا سالمين ـ بإذن الله ـ فرأوا «بهيم» قد فارق قلعته وأخلاها، فأخذ يمين الدولة ما فيها، وسار إلى «بهاطية» فأطاعه أهلها ودانوا له، فارتحل إلى مدينته غزنة فوصل إليها في العاشر من شهر صفر سنة ٤١٧هـ.

وسار يمين الدولة محمود سنة ٤٢٠هـ إلى مدينة الريّ فانصرف «منوجهر بن قابوس» من بين يديه وهو صاحب جرجان وطبرستان وحمل إليه أربعمائة ألف دينارٍ، وكان مجد الدولة بن فخر الدولة بن بويه صاحب الريّ قد كتب إليه يشكو جنده، فلما وصلت إلى يمين

الدولة كتب مجد الدولة بعث إليه جيشاً وأمر قائده أن يقبض على مجد الدولة[1]، فلما وصلت العسكر إلى الريّ ركب مجد الدولة يستقبلهم فقبضوا عليه وعلى ابنه أبي دُلَف فلما انتهى الخبر إلى يمين الدولة بالقبض عليه سار إلى الريّ فوصل إليها في شهر ربيع الثاني سنة ٤٢٠هـ ودخلها وأخذ من الأموال ألف ألف دينارٍ ومن الجواهر ما قيمته خمسمائة ألف دينارٍ ومن الثياب الكثير، وأحضر مجد الدولة وسأله عن إهماله وعن عدم اتعاظه بما كان من أحوال الأمم قبله، وسيّره إلى خراسان بحراسةٍ ورقابةٍ، ثم ملك قزوين وقلاعها. ولما ملك يمين الدولة الريّ كتب إلى الخليفة القادر بالله يذكر له أنه وجد لمجد الدولة من النساء الحرائر ما يزيد على خمسين امرأةً أنجبن له نيفاً وثلاثين ولداً، ولما سئل عن ذلك قال: هذه عادة سلفي. وصلب يمين الدولة من الباطنية عدداً كثيراً، ونفى المعتزلة إلى خراسان وأحرق كتب الفلسفة ومذاهب الاعتزال

---

(١) مجد الدولة رستم بن فخر الدولة علي بن ركن الدولة الحسن بن بويه: كان مشغولاً عن ملكه باللهو والنساء ومطالعة الكتب ونسخها، وكانت والدته تدبّر له أمور مملكته، فلما توفيت طمع جنده فيه واختلت أحواله.

والنجوم. وتحصّن منه «منوجهر بن قابوس بن وشمكير» بجبالٍ حصينةٍ وعرة المسالك فلم يشعر إلا وقد اقترب منه يمين الدولة فهرب منه إلى غياضٍ ذات نباتاتٍ متشابكةٍ ومسالكَ وعرةٍ، وبذل له خمسمائة ألف دينارٍ ليُصالحه فأجابه إلى ذلك فأرسل إليه المال فسار عنه إلى نيسابور، ثم توفي «منوجهر» بعد ذلك وولي بعده ابنه «أنو شروان» فأقره يمين الدولة محمود وقرّر عليه خمسمائة ألف دينارٍ أخرى وخُطب لمحمود في أكثر بلاد الجبل حتى حدود أرمينية، ودخل ابنه مسعود زنجان، وعاد محمود إلى خراسان، واستخلف ابنه مسعوداً فقصد أصبهان وملكها من علاء الدولة، وعاد عنها، واستخلف بها بعض أصحابه فثار به أهلها فقتلوه، فرجع إليهم مسعود فأدّبهم إذ قتل منهم نحو خمسة آلافٍ، وسار إلى الريّ فأقام بها.

وفي سنة ٤٢١هـ سيّر مسعود بن يمين الدولة محمود جيشاً إلى همذان فملكها وأخرج منها نواب علاء الدولة واتجه مسعود إلى أصبهان فلما اقترب منها فارقها علاء الدولة فغنم مسعود ما كان فيها من مالٍ وسلاحٍ وذخيرةٍ وتوفي يمين الدولة محمود بن سبكتكين فاتجه ابنه مسعود إلى خراسان فرجع علاء الدولة إلى بلاده التي فارقها.

توفي يمين الدولة[1] في شهر جمادى الأولى سنة ٤٢١هـ بعد مرضٍ قارب السنتين، ولما حضره الموت وأوصى لابنه محمد ـ وهو ببلْخ ـ وكان محمد أصغر من أخيه مسعود، إلا أنه كان معرضاً عن أخيه مسعود[2] لأن أمره لم يكن نافذاً عنده وسعى بينهما أصحاب الأغراض فزادوا الأب نفوراً عن مسعودٍ فوصّى بالملك لولده محمد، وتوفي الأب يمين الدولة محمود فخُطب على المنابر لمحمد من أقاصي الهند حتى نيسابور ـ

(١) يمين الدولة، فاتح الهند، أبو القاسم، محمود بن سيد الأمراء ناصر الدولة سبكتكين، التركي: كان والده أبو منصور سبكتكين قد قدم بخارى في أيام نوح بن منصور في صحبة ألبتكين متولياً على غزنة فعُرف بالشهامة والإقدام والسمو، فلما سار ألبتكين متولياً على غزنة ذهب في خدمته أبو منصور سبكتكين، فلم يلبث ألبتكين أن توفي، واحتاج الناس إلى أميرٍ، فأمّروا عليهم أبا منصور فتمكّن وارتفعت مكانته وأخذ يغزو أطراف الهند مجاهداً. وولد يمين الدولة سنة ٣٦٠هـ فمات وعمره إحدى وستون سنةً، وكان عاقلاً، ديّناً، خيرّاً، عنده علم ومعرفة، كثير الإحسان، ملازماً للجهاد.

(٢) مسعود بن محمود سبكتكين: كان طويلاً جسيماً مليحاً، كبير العين، شديداً حازماً، سديد الجواب، كثير البِرّ، مُحبّاً للعلم وكان أبوه يخشى مكانه، ويحبّ أخاه محمداً، فأبعد مسعوداً وأعطاه الريّ والجبال، وطلب منه أن يحلف لأخيه أنه لا يقاتله، ويلقب مسعود بـ «شهاب الدولة».

وكان لقبه جمال الدولة ـ وأرسل إليه أعيان دولة أبيه يخبرونه بوفاة والده ووصيته له بالملك ويستدعونه ويحثّونه على السرعة ويخوّفونه من أخيه مسعود، فلما بلغه الخبر سار إلى غزنة فوصل إليها بعد موت أبيه بأربعين يوماً فاجتمعت العساكر على طاعته وفرّق بينهم الأموال وأسرف في ذلك.

أما مسعود فكان بأصبهان عند وفاة أبيه فلما سمع بالخبر لبس السواد، وبكى، وعمل العزاء وخطب لنفسه بأصبهان والريّ وأرمينية ثم سار واستقرّ بنيسابور واستخلف بأصبهان بعض أصحابه ومعه فرقة من العسكر، وحين فارقها ثار أهلها بالوالي عليهم بعده فقتلوه وقتلوا من معه من الجند، وأتى مسعوداً الخبر فعاد إليها وحاصرها ودخلها عنوةً وأكثر فيها القتل واستخلف فيها رجلاً كفئاً، وكتب إلى أخيه محمد يعلمه بذلك وأنه لا يريد من البلاد التي وصى له أبوه بها شيئاً منها وأنه يكتفي بما فتحه من بلاد طبرستان والجبل وأصبهان وغيرها ويطلب منه الموافقة وأن يقدّمه في الخطبة على نفسه فأجابه محمد جواب مغالِطٍ، وكان مسعود قد وصل إلى الريّ فأحسن إلى أهلها وسار منها إلى نيسابور ففعل مثل ذلك. وأما محمد فإنه أخذ على

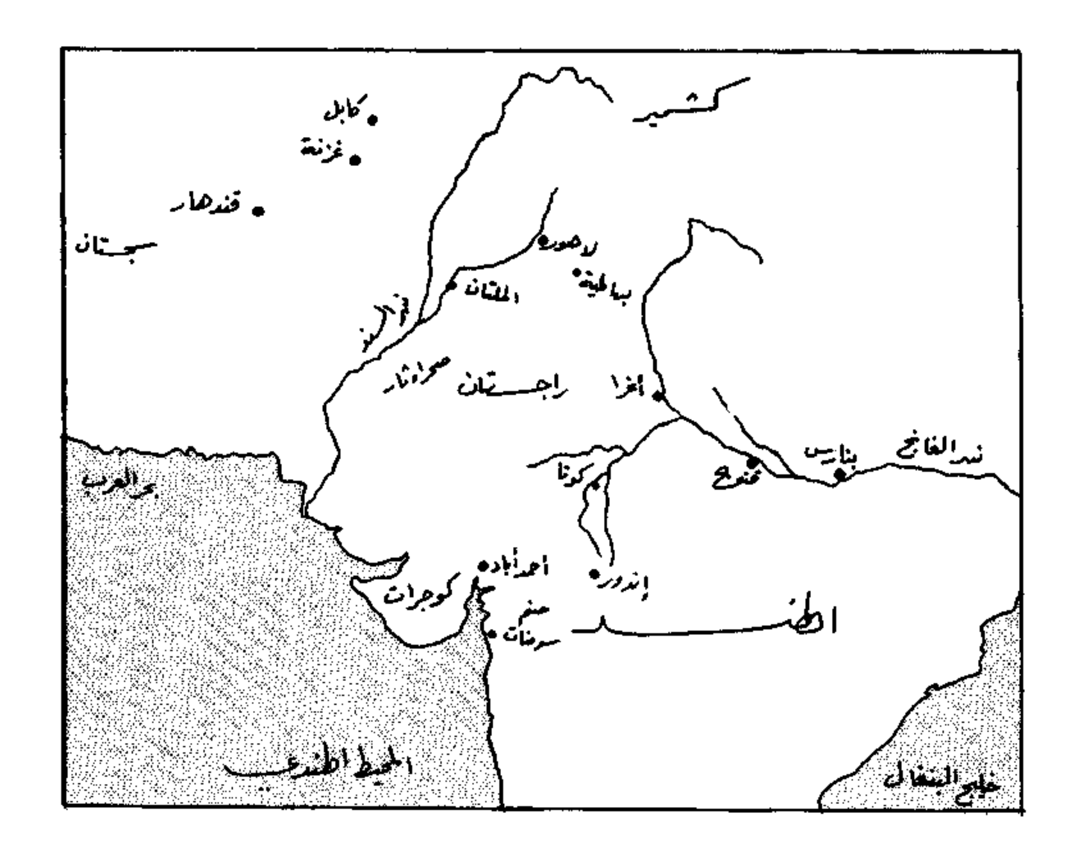
عسكره العهود والمواثيق على المناصحة، وسار في عساكره إلى أخيه مسعود محارباً، وكان بعض عساكره يميل إلى أخيه مسعود لكبره وشجاعته، ولأنه قد اعتاد التقدّم على الجيوش وفتح البلاد، وبعضهم كان يخافه لقوة نفسه، وكان محمد قد جعل عمه يوسف بن سبكتكين مقدم جيشه فلما همّ بالركوب في داره بغزنة ليسير سقطت قلنسوته عن رأسه فتطيّر الناس من ذلك، وأرسل إليه «التونتاش» صاحب خوارزم ـ وكان من أعيان أصحاب أبيه محمود ـ يشير عليه بموافقة أخيه وترك مخالفته فلم يصغ إلى قوله، وسار فوصل إلى «تكتاباذ» أول يوم من شهر رمضان سنة ٤٢١هـ فأقام إلى عيد الفطر، فلما كانت ليلة الثلاثاء الثالث من شهر شوال ثار به جنده فأخذوه وقيّدوه وسجنوه وكان مشغولاً باللهو واللعب عن التدبير في شؤون المملكة والنظر في أحوال الجند والرعية، وكان الذي سعى في الإخذال عنه «علي خويشا وند» صاحب أبيه وأعانه على ذلك عمه يوسف بن سبكتكين، فلما قبضوا عليه نادوا بشعار أخيه مسعود، ورفعوا محمداً إلى قلعة تكتاباذ وكتبوا إلى مسعود بالحال فلما وصل إلى هراة لقيته العساكر مع الحاجب علي خويشاوند فلما لقيه الحاجب علي قبض عليه وقتله وقبض بعد ذلك على عمّه

يوسف، وقبض أيضاً على جماعةٍ من أعيان القواد في أوقاتٍ متفرقةٍ، وكان اجتماع الملك لمسعود واتفاق الكلمة عليه في شهر ذي القعدة سنة ٤٢١هـ، وسار إلى غزنة فوصل إليها في الثامن من شهر جمادى الآخرة سنة ٤٢٢هـ، وثبت ملكه بها وجاءته رسل الملوك من سائر الأمصار إلى بابه واجتمع له ملك خراسان وغزنة وبلاد الهند والسند وسجستان وكرمان ومكران والريّ وأصبهان وبلاد الجبل فعظم سلطانه وخيف جانبه.

خامساً: القرامطة:

مات الحسن الأعصم سنة ٣٦٦هـ وقام على أمر القرامطة من بعده جعفر بن الحسن بن بهرام، وقد بدأ وضعهم يضعف حيث أخذ البويهيون يسمعون النقد لهم بسبب دعمهم للقرامطة الضمني إذ كان لهم نائب في بغداد هو «ابن شاهويه» وكان له نفوذ الوزراء، فطلب منه صمصامة الدولة المغادرة، ولاحق عسكر الدولة القرامطة الذين غادروا الكوفة.

وكذلك فإن العبيديين قد شعروا بالخلاف مع القرامطة من حيث الأرومة، وكان الصراع معهم على الشام فزال القرامطة من تلك الجهات وزاد ضعفهم.



كشمير
كابل
غزنة
قندهار
سجستان
لاهور
بهاطية
الملتان
نهر السند
صحراء ثار
راجستان
اغرا
كوتا
قنوج
بنارس
نهر الغانج
بحر العرب
كوجرات
أحمد أباد
إندور
سومنات
الهند
المحيط الهندي
خليج البنغال

وغدت القبائل تقاتلهم لفسادهم وسوء عقيدتهم، واستطاع الأصفر أحد أعيان بني مزيد الذين يقيمون على ضفاف نهر الفرات الغربية جنوبي العراق يلاحقهم حتى وصلوا إلى قاعدهم هجر وتحصّنوا بها، وسار الأصفر إلى القطيف، وبقي القرامطة في المنطقة حتى سنة ٤٦٧هـ حيث جاءت القوات العباسية ـ وكان السلاجقة قد قضوا على البويهيين ـ وساعدت عبد الله بن علي العيوني، وأنهت القرامطة.

سادساً: العبيديون:

مات العزيز العبيدي (أبو منصور نزار بن المعزّ أبي تميم) صاحب مصر[1] لليلتين بقيتا من رمضان سنة

---

(١) العزيز العبيدي: ولد بمدينة المهدية بتونس سنة ٣٤٤هـ. وكان أسمر طويلاً، أصهب الشعر، عريض المنكبين، عارفاً بالخيل والجوهر، ولى عيسى بن نسطورس كتابته، وكان وزيره يعقوب بن كلس يهودياً، واستناب بالشام يهودياً اسمه «منشا» فاعتزّ بهم اليهود والنصارى وآذوا المسلمين، فعمد أهل مصر إلى كتابة قصّةٍ وجعلوها في يد صورةٍ عملوها من قراطيس، وفيها بالذي أعز اليهود بيعقوب ومنشا والنصارى بعيس بن نسطورس وأذلّ المسلمين بك إلا كشفت ظلامتي، ووضعوا تلك الصورة في طريق العزيز العبيدي فلما رآها أمر بأخذها، فلما قرأها فهم المعنى، فعزل الذين سُمّوا. ولما=

٣٨٦هـ، وعمره اثنتان وأربعون سنةً وثمانية أشهرٍ ونصف بالقاهرة، وكان قد أظهر أنه يريد غزو الروم فأصابته عدة أمراضٍ منها: النقرس، والحصباء، والقولنج وزادت عليه إلى أن مات، فكانت إمرته إحدى وعشرين سنةً وخمسة أشهرٍ وأحد عشر يوماً، ولما مات العزيز العبيدي ولي بعده ابنه المنصور أبو علي ولقّب بالحاكم بأمر الله، وأوصى العزيز بابنه الحاكم «أرجوان» الخادم، وكان يتولّى أمر داره وجعله مدبّر دولة ابنه فقام بأمره وبايع له وأخذ له العهد على الناس إذ كان عمر الحاكم يوم تولّى الأمر إحدى عشرة سنةً وستة أشهرٍ، وحدّثت أخته ست الملك[1] ابنة العزيز نفسها بالوثوب على الملك وتنصيب ابن عمتها عبد الله مكان أخيها،

= توفي دفن عند أبيه في حجرةٍ من القصر.

(١) ست الملك: ولدت سنة ٣٥٩هـ فهي أكبر من أخيها الحاكم بست عشرة سنةً فكان يستشيرها في معضلاته، ثم تغيّر عليها وهمّ بقتلها، وساءت سيرته فاتفقت مع حسين بن دوّاس وهو كبار القادة ووعدته بتوليته إدارة الملك فاغتيل الحاكم سنة ٤١١هـ، ووُلّي ابنه عليّ، وهو صبيّ، فجاء حسين بن دوّاس يستنجزها وعدها فأوعزت إلى خادمٍ لها فقتله وصاح يا لثأر الحاكم، ثم قامت بإدارة الدولة مدة أربع سنواتٍ أظهرت فيها المقدرة على الإدارة، وماتت سنة ٤١٥هـ.

فأحسّ أرجوان بذلك فقبض عليها وحملها مع ألف فارس إلى قصرها بالقاهرة، ودعا الناس إلى بيعة الحاكم وأحلفهم على الطاعة وأطلق الأرزاق. وتقدّم الحسن بن عمّار[1] شيخ قبيلة كتامة وسيّدها وأخذ بتدبير دولة الحاكم العبيدي واستولى عليها وتلقّب بأمين الدولة، فأشار عليه ثقاته بقتل الحاكم، وقالوا: لا حاجة إلى من يتعبّدنا فلم يفعل احتقاراً للحاكم واستصغاراً لسنّه، وامتدّت قبيلة كتامة في البلاد وحكموا فيها ومدّوا أيديهم إلى أموال الرعية وحريمهم، وأرجوان مقيم مع الحاكم في القصر يحرسه، واتفق معه «شكر» خادم عضد الدولة فلما اتفقا وصارت كلمتهما واحدةً وكتب «أرجوان» إلى «منجوتكين» أمير دمشق يشكو له ما يعاني من الحسن بن عمّار فتجهّز «منجوتكين» وسار من دمشق نحو مصر، فوصل الخبر إلى ابن عمار فأظهر أن منجوتكين قد خلع طاعة الحاكم وندب العساكر إلى قتاله وسيّر إلى منجوتكين

---

(١) الحسن بن عمار بن علي الكتامي، أبو محمد: ولي للحاكم العبيدي الأمور والتدبير سنة ٣٨٦هـ، واعتزل العمل سنة ٣٨٧هـ، ثم قُتل غيلةً في القاهرة سنة ٣٩٠هـ، وكان من عقلاء الوزراء.

جيشاً كبيراً وجعل على الجيش أبا تميم سليمان بن جعفر بن فلاح الكتامي، وسار كل طرفٍ إلى الآخر فالتقيا بعسقلان على ساحل البحر المتوسط شمال غزة فانهزم منجوتكين وأصحابه وقُتل منهم ألفا رجلٍ وأُسر منجوتكين وحُمل إلى مصر فأبقى عليه ابن عمار وأطلقه استمالةً للمشارقة بذلك، واستعمل ابن عمار على الشام أبا تميم سليمان بن جعفر فسار إلى طبرية واستناب على دمشق أخاه علي بن جعفر، فامتنع أهلها عليه، فكاتبهم أبو تميم يتهددهم فخافوا وأذعنوا بالطاعة واعتذروا من فعل سفهائهم، وخرجوا إلى عليّ في معسكره فلم يعبأ بهم وركب ودخل البلد فأحرق وقتل وعاد إلى معسكره، وقدم عليهم أبو تميم فأحسن إليهم وأمنهم وأطلق السجناء، ونظر في أمر الساحل، فاستعمل أخاه علياً على طرابلس وعزل عنها جيش بن الصمصامة الكتامي فمضى إلى مصر واجتمع مع «أرجوان» على حسن بن عمار فانتهز «أرجوان» الفرصة ببُعد كتامة عن مصر مع أبي تميم فشجّع المشارقة على الفتك بمن بقي بمصر من الكتاميين وبابن عمار معهم. فبلغ ذلك الحسن بن عمار فعمل على الإيقاع بأرجوان، وشكر العضدي فأخبرهما عيون لهما على ابن عمار بذلك فاحتاطا ودخلا قصر الحاكم باكين، وثارت الفتنة واجتمعت

المشارقة ففرّق فيهم المال وقاتلوا ابن عمار ومن معه فانهزم واختفى، فلما ظفر أرجوان أظهر الحاكم العبيدي وأجلسه وجدّد له البيعة وكتب إلى وجوه القواد والناس بدمشق للإيقاع بأبي تميم فلم يشعر إلا وقد هجموا عليه ونهبوا خزائنه فخرج هارباً فقتلوا من عنده من كتامة وعادت الفتنة إلى دمشق وسيطر أهل الشغب. ثم إن أرجوان أذن للحسن بن عمار في الخروج من مخبئه، وأجراه على إقطاعه وأمره بإغلاق بابه. وعصى أهل صور وأمّروا عليهم رجلاً من الملّاحين يعرف بـ«العلّاقة»، وعصى أيضاً المفرج بن دغفل بن الجراح، ونزل على الرملة وعاث الفساد، واتفق أن «الدوقس» صاحب الروم نزل على حصن أفامية (شمال شرقي مدينة طرابلس الشام) فأخرج أرجوان جيش بن الصمصامة في عسكرٍ ضخمٍ فسار حتى نزل بالرملة فأطاعه واليها وظفر فيها بأبي تميم فقبض عليه، وسيّر عسكراً إلى مدينة صور وعليهم أبو عبد الله الحسين بن ناصر الدولة الحمداني فغزاها براً وبحراً فأرسل العلّاقة المسيطر على صور إلى ملك الروم يستنجده فسيّر إليه عدة مراكب مشحونةً بالرجال فالتقوا بمراكب خصومهم على مدينة صور فهُزم الروم وقُتل منهم جمع كبير، فلما هُزمت الروم انخذل أهل صور وضعُفت نفوسهم فملك

البلد أبو عبد الله الحسين الحمداني فنهب البلد وأخذ الأموال وقتل كثيراً من جندهم، وأخذ «العلاقة» أسيراً فسيّره إلى مصر فقُتل هناك، وأقام أبو عبد الله الحمداني بمدينة صور، وسار جيش بن الصمصامة لقصد المفرج بن دغفل بالرملة فهرب من بين يديه وأرسل يطلب العفو فأمّنه، وسار جيش إلى عسكر الروم فلما وصل إلى دمشق تلقّاه أهلها مُذعنين فأحسن إلى رؤوس أهل الشغب، ووزّع المؤن وأباح دم كل مغربيٍّ يتعرّض لأهلها فعمّت الطمأنينة. وسار إلى أفامية فصافّ الروم عندها فانتصرت الروم وهُزم هو وأصحابه ما عدا بشارة الإخشيدي فإنه ثبت في خمسمائة فارس، وانطلق الروم في الريف يأخذون ما فيه، والدوقس صاحب الروم واقف على رايته وبين يديه ولده وعدد من الغلمان فقصده أحد الأكراد ويُسمّى أحمد بن الضحاك من أصحاب بشارة فظنّه الدوقس مستأمناً فلم يحترز منه فلما دنا منه حمل عليه وضربه فقتله فصاح المسلمون قُتل عدو الله وعادوا إلى مواقعهم وهُزمت الروم وقتل منهم مقتلة عظيمة. وسار جيش بن الصمصامة إلى باب أنطاكية يأخذ ما يجده، وعاد إلى دمشق فنزل بظاهرها وكان الوقت شتاءً فسأله أهل دمشق ليدخل البلد فلم يفعل ونزل

بـ«بيت لهيا»[1] وأحسن السيرة في أهل دمشق، ثم قتل المشاغبين بحيلةٍ وعددهم نحو ثلاثة آلافٍ، ودخل دمشق بعدها فطاف في المدينة فاستغاث الناس وسألوه العفو فعفا عنهم، وأحضر أشراف أهلها وقتل رؤساء المشاغبين بين أيديهم وسيّر الأشراف إلى مصر، وأخذ أموالهم ونعمهم، وفرض على أهل البلد خمسمائة ألف دينارٍ، ثم مرض بالبواسير ومات وذلك سنة ٣٨٦هـ، وولي بعده ابنه محمد بن جيش بن الصمصامة.

وراسل أرجوان بعد ذلك بسيل ملك الروم وهادنه عشر سنين بعد ملاطفةٍ وتألّفٍ وهدايا. وسيّر أرجوان جيشاً إلى برقة وطرابلس الغرب فدخلها واستعمل عليها أنس الصقلبي، ونصح أرجوان للحاكم العبيدي وبالغ في ذلك ولازم خدمته، وكان نافذ الأمر مطاعاً في مصر والشام والحجاز والمغرب، ولكن لما ملك الحاكم العبيدي واستقلّ بالملك والرأي، رأى لأرجوان حكماً وأوامر عليه فاستثقل ذلك وأسرّه في نفسه، وكان الحاكم يرتاح إلى رأي خادم يُعرف بـ«ريدان الصقلبي»

---

(١) بيت لهيا: موقع في غوطة دمشق شمال شرقي دمشق يبعد عنها سبعة أكيال بين جوبر وزملكا اليوم.

فأطلعه الحاكم على ما في نفسه من أرجوان فزاد ريدان في الحمل عليه والإغراء به، وقال له فيما قال: إن أرجوان يريد أن يجري نفسه مجرى كافور الإخشيدي ويجريك مجرى ولد الإخشيد في الحجر عليك والأخذ على يدك والصواب أن تقتله وتدبّر أمرك منفرداً، فقال له الحاكم: إن كان هذا هو رأيك والصواب عندك فأريد منك المساعدة عليه، فبذلها له ففي سنة ٣٨٩هـ أشار ريدان على الحاكم أن يبعث إلى أرجوان وقت الظهر بعد انصرافه إلى داره وتفرّق الناس عنه للركوب إلى الصيد وأن يقف له في البستان الذي داخل القصر فإذا حضر أمر بقتله، فأرسل إليه بالركوب، وقال: أريد أن ترتب الخدم في جانبي البستان فإني أقف على بابه وأنت بين يدي فإذا حضر أرجوان دخلت البستان وتبعني وكنت في أثره فإذا نظرت إليك فاضربه بالسكين في ظهره ويقضي عليه الخدم فبينما هما في الحديث إذ دخل أرجوان فقال للحاكم: يا أمير المؤمنين إن الحر شديد والبزاة في مثل هذا الجو لا تصيد، فقال: صدقت ولكنا ندخل البستان ونطوف فيه ساعةً، وبعث أرجوان إلى «شكر العضدي» ـ وكان قد ركب ـ بأن يسير مع الموكب إلى ظاهر القاهرة ويقف عند القنطرة، فإن مولانا يخرج من البستان ويتبعك، ففعل، ودخل

الحاكم البستان وأرجوان خلفه وريدان بعده، وكان أرجوان خصياً أبيض اللون تام الخلقة، فبدره ريدان فضربه بين أكتافه بسكينٍ أخرجها من صدره، فقال أرجوان: يا مولانا غُدرت، فصاح الحاكم: يا عبيد خذوا رأسه فتكاثر عليه الخدم فقتلوه، وحدثت الفوضى، فكتب الحاكم رقعةً بيده وأعطاها إلى أصحاب الرسائل فسلّموها إلى «شكر» وكبار القادة يقول فيها: إنني أنكرت على أرجوان أموراً أوجبت قتله فقتلته فالزموا الطاعة وحافظوا على ما فيها في رقابكم من البيعة المأخوذة، فلما قُرئت عليهم، قالوا: الأمر لمولانا، واستدعى الحسين بن جوهر[1] ـ وكان من شيوخ الدولة ـ فأمره بصرف الناس فصرفهم، وعاد الحاكم إلى قصره، وكل قائدٍ إلى داره.

كان لأرجوان وزير نصراني اسمه فهد بن إبراهيم

(١) الحسين بن جوهر الصقلي: قائد القواد ولّاه ذلك الحا كم العبيدي، وردّ إليه تدبير المملكة سنة ٣٩٠هـ، فأقام نحو ثلاث سنواتٍ، ورأى من حال الحاكم ما أخافه فهرب هو وولده وصهره زوج أخته القاضي عبد العزيز بن نعمان، فأرسل إليهم الحاكم من أعادهم، وطيّب قلوبهم وآنسهم مدةً ثم حضروا للخدمة في قصره بالقاهرة فأمر بالقبض على حسين وعبد العزيز وقتلهما سنة ٤٠١هـ.

فاستوزره الحاكم العبيدي، ثم إن الحاكم رتّب الحسين بن جوهر موضع أرجوان ولقّبه قائد القواد، ثم قتل الحسن بن عمار، ثم قتل الحسين بن جوهر، ولم يزل يقيم الوزير بعد الوزير ويقتلهم، ثم جهّز «يارختكين» للمسير إلى حلب وحصارها وسيّر معه العساكر الكثيرة فسار فخافه حسّان بن المفرّج الطائي(١)، فلما ارتحل يارختكين من غزة إلى عسقلان كمن له حسّان ووالده وأوقعا به وبمن معه وأسراه وقتلاه، وقُتل من الفريقين قتلى كثيرة، وسارا إلى الرملة وحاصراها وملكاها وما يتبعها فعظم ذلك على الحاكم العبيدي وأرسل يعاتبهما، وأرسل حسّان ووالده إلى أمير مكة أبي الفتوح الحسن بن جعفر(٢) وخاطباه بأمير المؤمنين وطلباه إليهما ليُبايعا له بالخلافة فحضر

---

(١) مفرّج بن دغفل بن جراح من قبيلة طيء: أمير بادية الشام في أيام العبيديين، كان من إقطاعه مدينة الرملة. وتوفي مسموماً سنة ٤٠٤هـ.
وابنه حسان كانت إقامته بمدينة الرملة، وخلف أباه على الإمارة وتوفي حوالي سنة ٤٢٠هـ.

(٢) الحسن بن جعفر بن محمد الطالبي، أبو الفتوح: ولي مكة سنة ٣٨٤هـ للعبيديين أصحاب مصر، ثم خلع طاعتهم، وادّعى الخلافة، وخطب لنفسه، ثم اضطر الرجوع عن ذلك، وطالت مدة إمارته فكانت ٤٣ سنة، وتوفي بمكة سنة ٤٣٠هـ.

واستناب بمكة وخوطب بالخلافة، ثم إن الحاكم العبيدي راسل حسّاناً وأباه وضمن لهما الإقطاعات الكثيرة والعطاء الجزيل واستمالهما فعدلا عن أبي الفتوح وردّاه إلى مكة وعادا إلى طاعة الحاكم، ثم إن الحاكم العبيدي قد جهّز عسكراً إلى الشام واستعمل عليهم علي بن جعفر بن فلاح[1]، فلما وصل إلى الرملة أزاح حسّان بن المفرج وعشيرته عن الرملة ونواحيها وأخذ ما كان له من الحصون بجبل الشراة واستولى على أمواله وذخائره وسار إلى دمشق والياً عليها فوصل إليها في شهر شوال سنة ٣٩٠هـ، وأما حسّان فقد بقي شريداً نحو سنتين ثم أرسل والده إلى الحاكم العبيدي فأمّنه وأقطعه فسار إليه حسان بمصر فأكرمه وأحسن إليه، وتوفي المفرّج مسموماً سنة ٤٠٤هـ بسمٍّ وضعه الحاكم له وبموته ضعف أمر حسّان.

---

(١) علي بن جعفر بن فلاح الكتامي، أبو الحسن: من أمراء الحاكم العبيدي، قاد الجيوش المتجهة إلى الشام، مرض سنة ٤٠٦هـ، وركب الحاكم إلى داره لعيادته، ثم كان الناظر في أمور الدولة جميعها، وجعل له في السجل ولاية الاسكندرية وتنّيس ودمياط، ولُقّب بوزير الوزراء، ذي الرياستين، الأمر المظفّر، قطب الدولة، قتله فارسان مُتنكّران بالقاهرة سنة ٤٠٩هـ.

قتل عيسى بن خلاط العقيلي بالرحبة[1] أبا علي بن ثمال[2] وملكها وأقام بها مدةً ثم قصده بدران بن مقلد العقيلي فأخذ الرحبة منه وملكها فأمر الحاكم العبيدي بمصر نائبه بدمشق لؤلؤ البشاري بالمسير إلى بدران بالرحبة فقصد الرقة أولاً واستولى عليها ثم انطلق منها إلى الرحبة وملكها وعاد إلى دمشق، وكان بالرحبة رجل من أهلها يعرف بـ«ابن محكان»، واحتاج إلى من يجعله ظهيراً له يستعين به على من يطمع فيه فكاتب صالح بن مرداس الكلابي[3] فقدم عليه وأقام عنده مدةً، ثم إن

(١) الرحبة: وهي بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات أسفل من قرقيسيا التي هي عند التقاء نهر الخابور بالفرات وبينهما ثلاثون كيلومتراً، وتعرف بـ «رحبة مالك بن طوق» فهي عند مدينة «الميادين» اليوم.

(٢) أبو علي بن ثمال والي الحاكم العبيدي على الرحبة.

(٣) صالح بن مرداس بن إدريس الكلابي، أبو علي: أمير بادية الشام في أيامه، وأول الأمراء المرداسيين بحلب، كان مقامه في أطراف حلب، وثار في الرحبة واستولى عليها، وكاتبه الحاكم العبيدي صاحب مصر بلقب «أسد الدولة»، ثم امتلك حلب سنة ٤١٧هـ، وامتدّ ملكه منها إلى عانة، وقوي أمره، فحاربه الظاهر العبيدي صاحب مصر، واستمرت الوقائع بينهما حتى قُتل صالح في مكانٍ يُعرف بـ «الأقحوانة» على نهر الأردن قرب بحيرة طبرية سنة ٤٢٠هـ.

صالحاً تغيّر عليه فسار إلى ابن محكان وقاتله على البلد، وقطع الأشجار ثم تصالحا، وتزوج ابنة ابن محكان، ودخل صالح البلد إلا أن أكثر إقامته كانت بالحلة، ثم إن ابن محكان راسل أهل عانة فأطاعوه ونقل أهله وماله إليهم وأخذ رهائنهم، ثم عادوا فخرجوا عن طاعته وأخذوا ماله واستعادوا رهائنهم وردّوا أولاده فاجتمع ابن محكان وصالح بن مرداس على قصد عانة فسارا إليها، فكلف صالح من يقتل ابن محكان فقتل غيلةً، وسار صالح إلى الرحبة فملكها وأخذ أموال ابن محكان وأحسن إلى الرعية غير أنه كان يتبع العبيديين.

وفي سنة ٣٩٩هـ ولّى الحاكم العبيدي القائد أبا الجيش حامد بن ملهم أميراً على دمشق بعد علي بن جعفر بن فلاح فوصل أبو الجيش إلى دمشق في الرابع والعشرين من شهر رجب سنة ٣٩٩هـ، وكان القائد علي بن جعفر بن فلاح مستولياً على الجند نافذ الأمر في البلد فوصل إليه كتاب عزله يوم الجمعة في منتصف شهر رمضان من السنة نفسها، وكانت مدة إقامته في الولاية إلى عزله سنةً واحدةً وأربعة أشهرٍ ونصف الشهر.

وفي سنة ٤٠٠هـ عُزل حامد بن ملهم وتولّى أمر دمشق بعده القائد أبو عبد الله بن نزال، ولكن لم يلبث أن عُزل وحلّ مكانه غلام القائد منير فأقام مدةً يسيرةً ثم عُزل.

وكانت الخطبة في الحرمين الشريفين سنة ٤٠٠هـ للحاكم العبيدي.

وفي سنة ٤٠١هـ خطب قرواش بن المقلد أمير بني عقيل للحاكم العبيدي صاحب مصر في أعماله كلها وهي: الموصل، والأنبار، والمدائن، والكوفة.

قبض لؤلؤ غلام سعد الدولة على شؤون الدولة الحمدانية في حلب دون سعيد الدولة أبي الفضائل بن سعد الدولة بن سيف الدولة ثم عمل على التخلّص منه بل ومن ابنته التي كان لؤلؤ قد تزوج بها، وحكم بعد ذلك باسم ولدي سعيد الدولة وهما: أبو الحسن علي، وأبو المعالي شريف، ثم قبض عليهما وأرسلهما مع بقية أفراد البيت الحمداني إلى القاهرة سنة ٣٩٤هـ، وبقي هو الحاكم الوحيد في حلب، وجعل ابنه منصوراً أبا نصر ولياً لعهده، ومات لؤلؤ سنة ٣٩٩هـ، وخلفه ابنه منصور أبا نصر فاعترف بسلطة العبيديين عليه، وأصبحت حلب بعد ذلك تتبع السلطة العبيدية. ولقّب الحاكم العبيدي

صاحب مصر أبا نصر بن لؤلؤ «مرتضى الدولة» ولكن فسدت العلاقة بينهما فطمع صالح بن مرداس الكلابي بأبي نصر وبمدينة حلب وخاصةً أن قومه بني كلاب كانوا يطالبونه بالصلات والأموال، ثم إنهم اجتمعوا سنة ٤٠٢هـ في خمسمائة فارسٍ ودخلوا مدينة حلب فأمر أبو نصر بن لؤلؤ بإغلاق أبواب المدينة والقبض عليهم، فأُلقي القبض على مائةٍ وعشرين رجلاً منهم صالح بن مرداس، وقُتل مائتان، ثم أطلق أبو نصر الباقيين، وكان صالح بن مرداس قد تزوّج بابنة عمٍّ له تسمّى «جابرة» وكانت جميلةً فوصفت لأبي نصر بن لؤلؤ فخطبها إلى أبناء إخوتها، وكانوا في حبسه، فذكروا له أن صالحاً قد تزوّجها فلم يقبل منهم وتزوّجها، ثم أطلقهم، وبقي صالح بن مرداس في السجن فتمكّن بوسيلةٍ فصعد السور وألقى نفسه من أعلى القلعة إلى تلّها، واختفى في مسيل ماءٍ، وشاع الخبر بهربه فأرسل أبو نصر بن لؤلؤ الخيل في طلبه فعادوا ولم يظفروا بطلبهم، فلما سكن عنه الطلب سار بقيوده حتى وصل إلى قرية الياسرية فرأى أناساً من قبائل العرب فعرفوه وحملوه إلى أهله بمرج دابق، فجمع ألفي فارسٍ وقصد حلب وحاصرها اثنين وثلاثين يوماً فخرج إليه ابن لؤلؤ فقاتله فانتصر صالح وأسر أبا نصر بن لؤلؤ فقيّده بقيده

الذي كان في رجله، وكان لأبي نصر أخ فنجا وحفظ مدينة حلب، وبذل ابن لؤلؤ لابن مرداس على أن يطلقه فلما استقرّ الحال بينهما أخذ رهائنه وأطلقه، فقالت أم صالح لابنها: قد أعطاك الله مالاً كنت تؤمله فإن رأيت أن تتمّ صنيعك بإطلاق الرهائن فهو المصلحة فإنه إن أراد الغدر بك لا يمنعه من عندك، فأطلقهم، فلما دخل البلد حمل إليه أبو نصر بن لؤلؤ أكثر مما اتفقا عليه، وكان قد تقرر عليه مائتا ألف دينارٍ ومائة ثوبٍ وإطلاق كل أسير عنده من بني كلاب. فلما رحل صالح عن حلب أراد أبو نصر إلقاء القبض على غلامه «فتح» ـ وكان ناظر القلعة ـ حيث اتهمه بممالأة صالح بن مرداس على الهزيمة من القلعة يوم كان سجيناً فيها، وكان فتح خلاف ظنّ ابن لؤلؤ به، واطلع ابن لؤلؤ ذلك غلاماً له اسمه «سرور» وأراد أن يجعله مكان فتح بالقلعة، فأعلم سرور بعض أصدقائه ويُعرف بـ«ابن غانم» فحدّث ابن غانم بذلك فتحاً لمودةٍ بينهما، وأشار إليه بمكاتبة الحاكم العبيدي بمصر، فصار فتح كلما دعاه أبو نصر أو بعث إليه رسولاً يعتذر ويتعلّل، ثم كاتب الحاكم العبيدي وأظهر الطاعة له، وأبدى العصيان على سيّده أبي نصر بن لؤلؤ وأخذ من الحاكم بيروت وصيدا وكل ما في حلب من الأموال. وكان صالح بن مرداس

قد مالأ فتح غلام ابن لؤلؤ، ولما عاد عن حلب تسلّم نواب الحاكم العبيدي صاحب مصر وتنقّلت بأيديهم حتى صارت بيد رجلٍ من بقايا الحمدانيين يُعرف بـ«عزيز الملك» فقدّمه الحاكم العبيدي واصطنعه وولّاه حلب فلما قُتل الحاكم العبيدي سنة ٤١١هـ وتولّى الظاهر عصى عليه فدبّرت ست الملك أخت الحاكم من قتله، وكان للعبيديين بالشام نائباً يُعرف بـ«أنوشتكين البربري» وبيده دمشق، والرملة، وعسقلان، فاجتمع حسّان أمير بني طيء وصالح بن مرداس أمير بني كلاب وسنان بن عليان وتحالفوا واتفقوا على أن يكون من حلب إلى عانة لصالح ومن الرملة إلى مصر لحسان ودمشق لسنان.

سار حسان أمير بني طيء إلى الرملة وبها أنوشتكين فحاصرها ثم غادرها إلى عسقلان فاستولى عليها ونهبها وقتل أهلها وذلك سنة ٤١٤هـ أيام الظاهر العبيدي صاحب مصر، وقصد صالح بن مرداس حلب وبها والٍ يُعرف بـ«ابن ثعبان» يتولّى أمرها للعبيديين، وبالقلعة خادم يُعرف بـ«موصوف» فأما أهل حلب فقد سلّموا مدينتهم إلى صالح بن مرداس لإحسانه إليهم ولسوء سيرة نواب العبيديين معهم ولفساد عقيدة

العبيديين، وصعد ابن ثعبان إلى القلعة وتحصّن بها فحاصره صالح، وفُقد الماء بالقلعة فاضطر الجند فيها إلى الاستسلام وتسليم القلعة سنة ٤١٤هـ، وتملّك صالح من بعلبك إلى عانة، وأقام بحلب ستّ سنوات، فلما كانت سنة ٤٢٠هـ جهّز الظاهر العبيدي صاحب مصر جيشاً وسيّره إلى الشام لقتال صالح وحسّان، وكان مقدّم العساكر العبيديين أنوشتكين البربري فاجتمع صالح وحسان على قتاله بالأقحوانة على نهر الأردن عند طبرية فقُتل صالح وولده الأصغر، ونجا ولده أبو كامل نصر بن صالح فرجع إلى حلب وملكها، وكان لقبه شبل الدولة. فلما علمت الروم بإنطاكية الأوضاع القائمة ساروا إلى حلب في عددٍ ضخمٍ فخرج إليهم أهلها فقاتلوهم وهزموهم فرجعوا إلى إنطاكية وبقي شبل الدولة سيّد حلب حتى سنة ٤٢٩هـ، فأرسل إليه «الدزبري» جيشاً من مصر فالتقى الطرفان عند مدينة حماة فقُتل شبل الدولة في شهر شعبان ٤٢٩هـ، وملك الدزبري حلب في شهر رمضان وغدت بلاد الشام جميعها تتبعه وارتفع شأنه وكثر ماله وأرسل يستدعي الجند الأتراك من البلاد فبلغ العبيديين أنه عازم على العصيان فتقدّموا إلى أهل دمشق بالخروج عن طاعته، ففعلوا، فسار عنها نحو حلب في شهر ربيع الثاني سنة

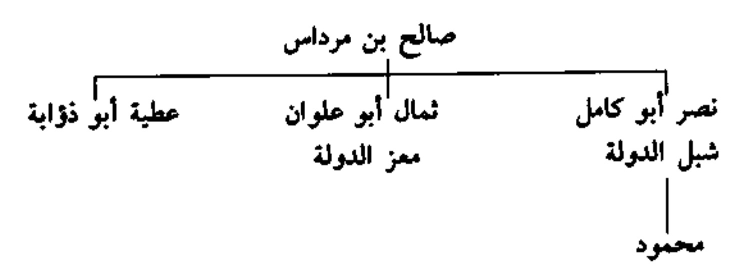
٤٣٣هـ وتوفي بعد ذلك بشهرٍ واحدٍ، وكان أبو علوان ثمال بن صالح بن مرداس[١] الملقّب بمعز الدولة ببلدة الرحبة على الفرات فلما بلغه موت الدزبري جاء إلى حلب فملكها تسليماً من أهلها وحاصر امرأة الدزبري وأصحابه بالقلعة أحد عشر شهراً وملكها في صفر سنة ٤٣٤هـ، وبقي فيها حتى سنة ٤٤٠هـ، فبعث العبيديون إليه من مصر أبا عبد الله الحسين بن ناصر الدولة الحمداني فخرج أهل حلب إلى قتاله فهزمهم فعادوا إلى بلدهم واعتصموا بها، ورجع هو إلى مصر، وكرّر العبيديون محاولتهم فأرسلوا خادماً يعرف بـ«رفق» إلى قتال معز الدولة فخرج إليه أهل حلب فقاتلوا فانهزم الجيش العبيدي وأسر قائده (رفق) وذلك سنة ٤٤١هـ في

(١) ثمال بن صالح بن مرداس، أبو علوان، معز الدولة: ولي ملك حلب سنة ٤٣٤هـ فسيّر له العبيديون ثلاثة جيوش قاتلها ثمال وردّها، ثم كاتب المستنصر العبيدي وبعث إليه بهدايا ثمينةٍ، وتنازل له عن حلب، وسلّمها إلى مكين الدولة الحسن بن علي بن ملهم، ورحل إلى مصر سنة ٤٤٩هـ، وثار على مكين الدولة سنة ٤٥٢هـ محمود بن نصر بن صالح بن مرداس واستولى على حلب، فعاد العبيديون إلى معز الدولة يفاوضونه في استرداد حلب من ابن أخيه محمود بن نصر فزحف بجيشٍ من مصر إلى حلب فملكها ثانيةً سنة ٤٥٣هـ، واستتب له الأمر فيها ثم غزا الروم وانتصر، وتوفي في حلب سنة ٤٥٤هـ.

شهر ربيع الأول، ومات (رفق) عندهم، ثم إن معز الدولة بعد ذلك أرسل الهدايا إلى العبيديين، وأصلح أمره معهم، ونزل لهم عن حلب، فبعثوا إليها أبا علي الحسن بن علي بن ملهم ولقّبوه مكين الدولة فتسلّمها من معز الدولة ثمال بن صالح بن مرداسٍ في شهر ذي القعدة سنة ٤٤٩هـ. وسار ثمال إلى مصر في شهر ذي الحجة، وسار أخوه أبو ذؤابة عطية بن صالح إلى الرحبة وأقام أبو علي الحسن بن علي بن ملهم بحلب.

راسل بعض أهل حلب محمود بن نصر شبل الدولة بن صالح يستدعوه ليُسلّموا البلد إليه، وسمع ابن ملهم بالخبر فقبض على جماعةٍ منهم، بينهم رجل يُعرف بـ«ابن نباتة»، فاجتمع أهل البلد وحاصروا ابن ملهم، وجاء محمود بن نصر وحاصره معهم في شهر جمادى الآخرة سنة ٤٥٢هـ، ووصلت الأخبار إلى مصر فسيّر العبيديون ناصر الدولة أبا علي حمدان بن ناصر الدولة الحسن الحمداني في جيشٍ بعد اثنين وثلاثين يوماً من دخول محمود بن نصر حلب، فلما اقترب الحمداني من البلد خرج منها محمود بن نصر إلى البراري واختفى، وكان عطية أبو ذؤابة بن صالح بن مرداس نازلاً بقرب حلب فكره فعل محمود بن أخيه، وأساء ابن ملهم في

حلب إذ أخذ أموال الناس، وقبض على مائةٍ وخمسين رجلاً من المشاغبين ـ حسب رأيه ـ وأما ناصر الدولة حمدان فلم يسمح لأصحابه بدخول حلب ونهبها بل سار في طلب محمود فالتقيا في شهر رجب فانهزم أصحاب الحمداني وثبت هو فجُرح وأُسر وحمل أسيراً إلى محمود فحمله وسار به إلى حلب فملكها وملك القلعة في شهر شعبان سنة ٤٥٢هـ، وأطلق الحمداني فسار هو وابن ملهم إلى مصر، فجهّز العبيديون من مصر معز الدولة ثمال بن صالح بن مرداس إلى ابن أخيه محمود بن نصر بن صالح بن مرداس فحاصره في حلب في شهر ذي الحجة سنة ٤٥٢هـ فاستنجد محمود بخاله منيع بن شبيب بن وثاب النميري صاحب حران فجاء إليه، فلما بلغ خبر مجيئه معز الدولة ثمال بن صالح خرج من حلب إلى البراري في شهر المحرم سنة ٤٥٣هـ، وعاد منيع إلى حران فرجع ثمال إلى حلب وخرج إليه محمود بن أخيه فاقتتلوا وقاتل محمود قتالاً شديداً، ثم انهزم محمود فمضى إلى أخواله بني نمير بمدينة حرّان، وتسلّم ثمال حلب في شهر ربيع الأول سنة ٤٥٣هـ، وخرج إلى الروم غازياً، وتوفي بحلب في شهر ذي القعدة سنة ٤٥٤هـ.



وأوصى ثمال بن صالح بن مرداس إلى أخيه عطية أبي ذؤابة بن صالح بحلب فملكها، ونزل به قوم من التركمان مع ابن خان التركماني فقوي بهم، فأشار عليه بعض أصحابه بقتلهم فأمر أهل البلد بذلك، فقتلوا منهم جماعةً ونجا الباقون فقصدوا محمود بن نصر في حرّان واجتمعوا معه على حصار حلب فحاصرها وملكها في شهر رمضان سنة ٤٥٤هـ، وقصد عمه عطية أبو ذؤابة الرقة فملكها ولم يزل بها حتى أخذها منه شرف الدولة مسلم بن قريش سنة ٤٦٣هـ، وسار عطية إلى بلاد الروم فمات بالقسطنطينية سنة ٤٦٥هـ.

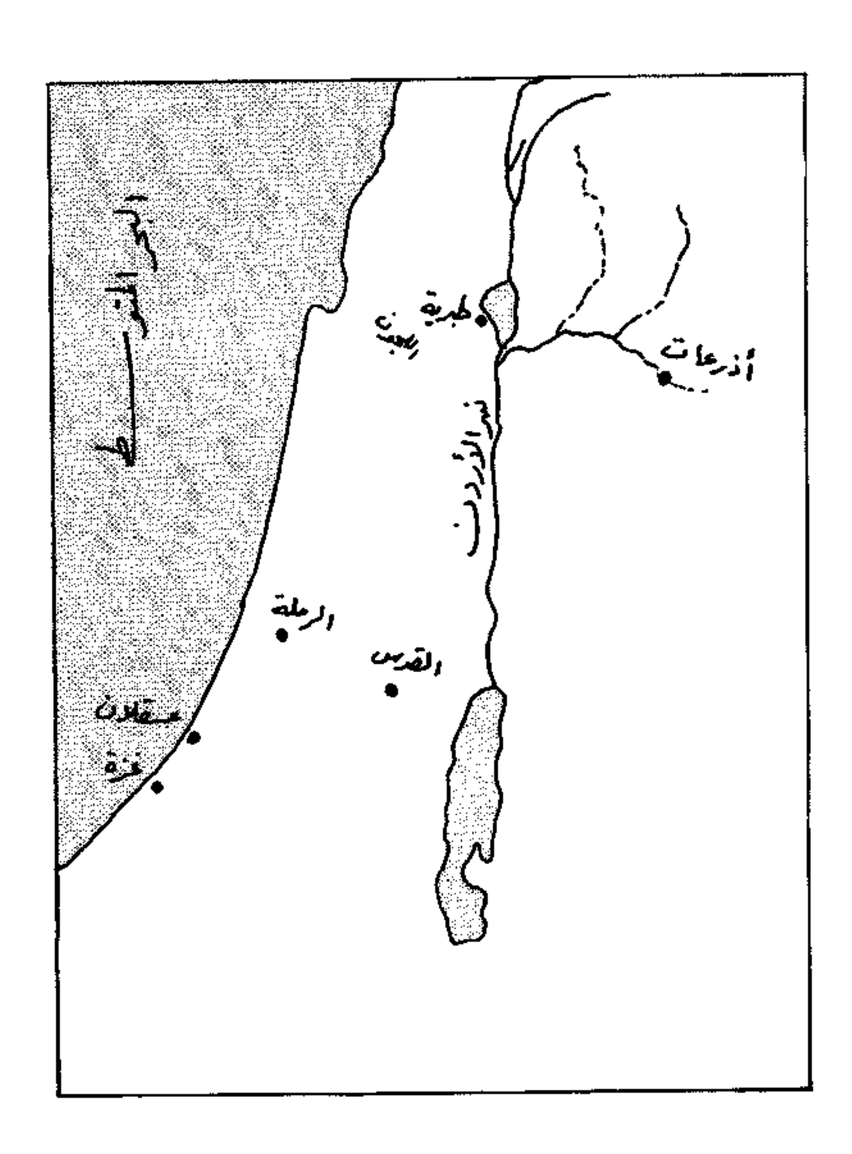
وأرسل محمود بن نصر بن صالح بن مرداس التركمان مع أميرهم «ابن خان» إلى حصن «ارتاح» فحاصروه وأخذوه من الروم سنة ٤٦٠هـ، وسار محمود إلى مدينة طرابلس فحاصرها وأخذ من أهلها مالاً وعتاداً وأرسل ما أخذ مع رسالةٍ إلى السلطان السلجوقي «ألب أرسلان»، ومات محمود في حلب سنة ٤٦٨هـ في شهر ذي

الحجة، وكان قد وصّى من بعده بحلب لابنه «مشيب» ولكن أصحابه لم ينفذوا وصيته لصغر مشيب، وسلّموا البلد إلى ولده الأكبر واسمه نصر، وجده لأمه العزيز بن جلال الدولة أبو طاهر البويهي وكان قد تزوجها عند دخولهم مصر عندما ملك طغرلبك العراق سنة ٤٤٧هـ، وقُتل نصر بيد أحد التركمان لخلافٍ وقع بينهم، وملك حلب بعده أخوه مشيب فصعد القلعة واستدعى أحمد شاه مقدّم التركمان فخلع عليه وأحسن إليه، وبقي مشيب في حلب حتى سنة ٤٧٢هـ فقصده «تتش بن ألب أرسلان» السلجوقي فحاصره في حلب أربعة أشهرٍ ونصف الشهر، ثم رحل عنه، ونازله شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي فأخذ حلب منه سنة ٤٧٢هـ، وانتهى أمر بني مرداس.

وتوفي أمير إفريقية المنصور بن يوسف بلكين في شهر ربيع الأول سنة ٣٨٦هـ ودُفن بقصره، وولي مكانه ابنه باديس[1] أبو مناد وأتته الخلع والهدايا من الحاكم العبيدي بمصر كما جاءه العهد بإمرة إفريقية من الحاكم، وبايع باديس وأبناء عمومته للحاكم، ولما استقرّ له الأمر سار إلى سردينيا وأتاه الناس من كل ناحيةٍ للتعزية والتهنئة، وأراد بنو زيري أعمام أبيه أن يخالفوه فمنعهم أصحاب أبيه.

---

(١) ولد باديس سنة ٣٧٤هـ. وتولّى ولا يزيد عمره على اثنتي عشرة سنة.


البحر المتوسط
طبرية
نهر الأردن
أذرعات
الرملة
القدس
عسقلان
غزة

ثار على باديس رجل من صنهاجة يدعى خليفة بن مبارك، فقُبض عليه وحمل إلى باديس فسُجن ولم يُقتل احتقاراً له. واستعمل باديس عمّه حماد بن يوسف بلكين[1] على «أشير»[2] وأقطعه إياها وأعطاه من الخيل والسلاح والعُدد شيئاً كثيراً، فخرج إليها.

وفي منتصف شهر صفر سنة ٣٨٩هـ أمر باديس بن المنصور نائبه محمد بن أبي العرب بالاستعداد والمسير إلى قبيلة زناته بأكبر عددٍ من العساكر يمكنه جمعه إذ كان عمه «يطوفت» قد كتب إليه يخبره أن زيري بن عطية[3] الملقب بالقرطاس نزل عليه بـ«تاهرت» محارباً،

---

(١) حماد بن يوسف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي، صاحب قلعة حماد وإليه نسبتها عاش مع أبيه وأخيه المنصور بن يوسف بلكين، وتولى باديس وهو صغير السن، وتولى عمه حماد أعماله بالقيروان، وتوفي باديس سنة ٤٠٦هـ وكادت الإمرة في إفريقية تعود إلى عمه حماد، وتولى المعز بن باديس، وخالف حماد غير أنه هزم أمام جيش المعز بن باديس، وتوفي حماد سنة ٤١٩هـ. وأبناء حماد هم ملوك إفريقية فيما بعد.

(٢) أشير: بلدة في الجزائر اليوم مقابل بُجاية عمّرها زيري بن مناد الصنهاجي سنة ٣٢٤هـ، وتملكها بعد ذلك بنو حماد، وحماد هو حفيد زيري.

(٣) زري بن عطية الخزري المغراوي الزناتي: أمير زناتة، كان=

فأمر محمداً بالاستعداد له فسار في عساكر كثيرةٍ حتى وصل إلى «أشير» وبها حماد بن يوسف عمّ باديس فرحل حماد معه فوصلا إلى تاهرت واجتمعا بـ«يطوفت»، وبينهما وبين زيري بن عطية مرحلتان، فزحفوا إليه وكانت بينهما حروب شديدة، وكان أكثر عسكر حماد يكرهونه لقلة عطائه فلما اشتدّ القتال انهزموا فتبعهم أكثر العسكر، فأراد محمد بن أبي العرب أن يردّ الناس فلم يقدر على ذلك وتمت الهزيمة، وملك زيري بن عطية مالهم ورجعت عساكر باديس إلى «أشير»، وبلغ خبر الهزيمة إلى باديس فارتحل مُيمّماً وجهه شطر «طبنة»[1] فلما اقترب منها بعث في طلب «فلفل بن سعيد» فخاف فأرسل إليه يعتذر، وطلب عهداً بإقطاعه مدينة طبنة فكتب له وانطلق باديس، فلما ابتعد

= جده «الخزر بن صولات» قد أسلم على يد عثمان بن عفان ﷺ، ولما قامت صنهاجة بدعوة العبيديين بالمغرب ثبتت زناتة على الدعوة للأمويين، وقادها، زيري بن عطية فملك مدينة فاس وغيرها واتسع سلطانه، وخاض حروباً كثيرة، وتوفي سنة ٣٩١هـ.

(١) طُبنة: مدينة في بلاد الجزائر اليوم على ضفة وادي الزاب فتحها موسى بن نصير، وهرب منها كسيلة أمير البربر وليس بين القيروان وسجلماسة مدينة أكبر منها.

أسرع «فلفل» إلى طبنة فسيطر على ما حولها، وقصد بجاية فحاصرها، وباديس سائر إلى «أشير».

فلما سمع زيري بن عطية الزناتي بأن باديس قد اقترب منه رحل إلى تاهرت فقصده باديس ففرّ زيري من وجهه، فلما سمع باديس بذلك استعمل عمه «يطوفت» على أشير وأعطاه أموالاً وعُدداً وعاد إلى «أشير» فبلغه ما فعل «فلفل بن سعيد» فأرسل إليه العسكر، وبقي «يطوفت» ومعه أعمامه وأولاد أعمامه، فلما ابتعد عنهم باديس عصوا وخالفوا عليه منهم: «ماكسن» و«زاوي» وغيرهما وقبضوا على «يطوفت» وأخذوا ما معه من أموال فهرب من بين أيديهم ولحق بباديس. وأما فلفل بن سعيد فإنه لما وصلت إليه عسكر باديس لقيهم وقاتلهم وهزمهم وقتل منهم، وسار يطلب القيروان فسار عند ذلك باديس إلى «بجاية» فلقيه أهلها وأعلموه ما قاسوا من قتال فلفل وأنه قد حاصرهم خمسةً وأربعين يوماً فشكر لهم ووعدهم الإحسان، وسار يطلب فلفلاً والتقى معه في حربٍ، وطال القتال بينهم وصبر الفريقان ثم مالت، الكفة إلى جانب باديس وأحرز النصر وهُزمت زناتة وهُزم فلفل، وقتل من زويلة[1]

---

(١) زويلة: مدينة في ليبيا اليوم جنوب طرابلس الغرب وإلى الشرق=

تسعة آلاف قتيل، وعاد باديس إلى قصره، وفرح أهل القيروان إذ خافوا أن يأتيهم فلفل، ثم إن عمومة باديس اتصلوا بفلفل وصاروا معه. فلما سمع باديس بذلك سار إليهم، ولكن لم يلبث أن وصل إليه خبر مفاده أن أعمامه فارقوا فلفلاً ولم يبق معه سوى «ماكسن بن زيري» وذلك في مطلع عام ٣٩٠هـ.

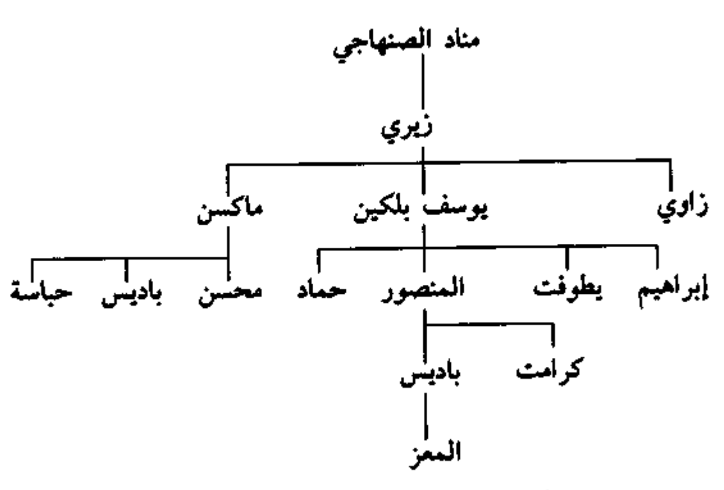
كانت طرابلس الغرب تتبع باديس بن يوسف، وكان له نائب فيها، فكاتب هذا النائب الحاكم العبيدي بمصر وطلب منه أن يسلّمه طرابلس وأن يكون تابعاً له فأرسل الحاكم العبيدي إلى طرابلس يأنس الصقلي، وكان يأنس هو المتولّي لشؤون برقة، فوصل يأنس وتسّلم طرابلس وأقام بها وذلك سنة ٣٩٠هـ، فأرسل باديس إلى يأنس يسأله عن سبب قدومه إلى طرابلس، وقال له: إن كان الحاكم قد استعملك عليها فأرسل إليّ العهد لأقف عليه، فقال يأنس: إنما أرسلني معيناً ونجدةً إن احتيج إليّ، ومثلي لا يطلب منه عهد بولاية لمحلّي من دولة الحاكم، فأرسل إليه جيشاً فلقيهم يأنس

= قليلاً بينهما ١٦٠٠ كيلو متر، وتقع على خط عرض ٢٦ شمالاً تقريباً وتعدّ أول بلاد السود، ولما فتح عمرو بن العاص ﷺ، برقة بعث عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة.

خارج طرابلس فقُتل يأنس في المعركة وانهزم أصحابه ودخلوا طرابلس وتحصّنوا بها، وكان قد قُتل منهم كثير، ونزل عليهم الجيش وحاصرهم فأرسلوا إلى الحاكم العبيدي يستمدّونه فجهّز جيشاً بقيادة يحيى بن علي الأندلسي وسيّرهم إلى طرابلس وأطلق لهم مال برقة فلم يجد يحيى فيها مالاً فاختلّت حاله، فسار إلى فلفل، وكان قد دخل إلى طرابلس واستولى عليها فأقام معه فيها واستوطنها.

وسار «ماكسن بن زيري» عم أبي باديس إلى «أشير» وبها ابن أخيه حماد بن يوسف فكان بينهما قتال عنيف قُتل فيها «ماكسن» وأولاده محسن وباديس وحباسة وذلك سنة ٣٩١هـ.

سار يحيى بن علي الأندلسي وفلفل بن سعيد من طرابلس إلى مدينة قابس في جيشٍ عرمرمٍ فحاصروها ثم رجعوا إلى طرابلس، ولما رأى يحيى بن علي ما هو عليه من قلّة المال واختلال حاله وسوء مجاورة فلفل وأصحابه له رجع إلى مصر إلى الحاكم العبيدي بعد أن أخذ فلفل وأصحابه خيولهم وما اختاروا من عُددهم بين الشراء والغصب، فأراد الحاكم قتله ثم عفا عنه، وأقام فلفل بن سعيد في طرابلس إلى سنة ٤٠٠هـ فمرض ومات.



وولي أخوه «ورو» فأطاعته زناتة واستقام أمره فسار باديس إلى طرابلس لقتال زناتة، فلما بلغهم مسيره فارقوها وملكها باديس ففرّ أهلها، وأرسل «ورو» أخو فلفل بن سعيد إلى باديس يطلب أن يكون هو ومن معه من زناتة في أمانة ويدخلون في طاعته ويجعلهم عمالاً كسائر عماله، فأمنهم وأحسن إليهم، وأعطاهم «نفزاوة»[١] و«قسطيلة»[٢] على أن يرحلوا من

(١) نفزاوة: بلدة قديمة غير قائمة اليوم، من بلاد شرقي الجزائر اليوم في منطقة الزاب إلى الغرب من مدينة قفصة التونسية، وقريبة من شط «ملغيغ».

(٢) قسطيلة: بلدة قديمة غير قائمة اليوم من بلدان تونس اليوم في منطقة شط الجريد، ومن مدنها توزر ونفطة وهما قائمتان اليوم على شط الجريد.

أعمال طرابلس ففعلوا ذلك، ثم إن «خزرون بن سعيد» أخا «ورو» قد جاء إلى باديس ودخل في طاعته وفارق أخاه، فأكرمه باديس وأحسن إليه، ثم إن أخاه «ورو» خالف باديس وسار إلى طرابلس فحاصرها وسار إليه خزرون ليمنعه عن حصارها وذلك سنة ٤٠٣هـ.

دعا أبو ركوة الوليد الأموي[١] بني قرة إلى نفسه

---

(١) أبو ركوة: واسمه الوليد، وهو من ولد هشام بن عبد الملك بن مروان، فهو قريب في النسب للأمويين الذين يحكمون الأندلس، وكان يومها صاحب الأندلس المؤيد هشام بن الحكم بن عبد الرحمٰن الناصر، فلما سيطر المنصور بن أبي عامر على المؤيد وحجبه عن الناس تتبع أهله ومن يصلح منهم للملك فطلبه فقتله بعضهم وهرب بعضهم، وكان الوليد أبو ركوة ممن هرب، وكان في مقتبل شبابه، وعمره حوالي عشرين سنةً، وهو من مواليد الأندلس وفي قرطبة وقد نشأ هناك فلما هرب قصد مصر، وأخذ يقرأ الحديث، ثم ارتحل إلى مكة واليمن، وكان في سفره ورحلته يظهر بمظهر المتصوفة ويحمل ركوةً على ظهره، على طريقتهم، فعُرف بها، ثم عاد إلى مصر ونزل في «بني قرّة» وفتح مكتباً يعلم الصبيان الخط وتظاهر بالدين والنسك وأمّهم في صلواتهم، وشرع في دعوتهم إلى ما يريد، وقد أظهر الدعوة إلى الخليفة القادر بالله فاستجابوا له، وسبب استجابتهم أن الحاكم العبيدي كان قد=

وذكر لهم أن قد جاء في الكتب أنه يملك مصر وغيرها ووعدهم ومنّاهم فاجتمعت بنو قرة وزناتة على بيعته وخاطبوه بالإمامة ـ وكانوا بنواحي برقة ـ فلما سمع والي برقة خبره كتب إلى الحاكم العبيدي يستأذنه بالسير إليهم والعمل على إصلاحهم فأمرهم بالكفّ عنهم وتركهم، ثم إن أبا ركوة جمعهم وسار إلى برقة واتفقوا على أن يكون له ثلث الغنائم ولبني قرة الثلث ولزناتة الثلث، فلما اقتربوا من برقة خرج إليهم واليها فانهزم والي برقة الذي يقود عسكر الحاكم العبيدي وملك أبو ركوة برقة وقوي هو ومن معه بما أخذوا من الأموال والسلاح وغيره، ودخل برقة في جحفلٍ عظيمٍ فجمع له أهلها نحواً من مائتي ألف دينارٍ، ونقشوا الدراهم والدنانير بألقابه وخطب بالناس يوم الجمعة ولعن الحاكم العبيدي، والتفّ حول أبي ركوة من الجند نحو ستة عشر ألفاً، ونادى بالكفّ عن الرعية والنهب وأظهر

= أسرف في مصر بقتل القواد وحبسهم وأخذ أموالهم، وسائر القبائل في ضنكٍ وضيقٍ، ويودّون خروج الملك عن يده، وكان الحاكم العبيدي قد أذى بني قرة وحبس جماعةً من أعيانهم وقتل بعضهم، في هذا الوقت دعاهم أبو ركوة فاستجابوا له. وكان بين بني قرة وزناتة حروب ودماء فاتفقوا على الصلح ومنع أنفسهم من الحاكم.

العدل وأمر بالمعروف، فلما وصل المنهزمون إلى الحاكم العبيدي بمصر عظم عليه الأمر وأهمّته نفسه ومُلكه فندب عسكراً يُقدّر بخمسة آلاف فارسٍ وسيّرهم إلى برقة وقدّم عليهم ينال الطويل التركي، وسيّر أبو ركوة قائداً في ألف فارسٍ وأمرهم بالمسير إلى ينال ومن معه ومطاردتهم قبل وصولهم إلى ذات الحمام حيث بينها وبين برقة مفازة لا ماء فيها إلا في آبارٍ عميقةٍ، وأمر أبو ركوة عسكره أن يغوّروا المياه في تلك المفازة ففعلوا ذلك ورجعوا فحينئذٍ خرج أبو ركوة في عساكره ولقي خصومهم وقد خرجوا من المفازة على ضعفٍ وعطشٍ فقاتلهم واشتدّ القتال فحمل ينال الطويل على عسكر أبي ركوة وقتل منهم كثيراً وأبو ركوة واقف ولم يحمل ولا عسكره فاستأمن إليه جماعة كثيرة من كتامة لما نالهم من الأذى والقتل من الحاكم العبيدي، وأخذوا الأمان لمن بقي من أصحابهم ولحقهم الباقون فحمل حينئذٍ على عسكر الحاكم فانهزمت وأُسر قائدهم ينال الطويل وقُتل، وأُسر أكثر عسكره وقُتل منهم عدد كبير، وعاد أبو ركوة وأصحابه إلى برقة وقد امتلأت أيديهم من الغنائم، وانتشر ذكر أبي ركوة وعظمت هيبته، وأقام ببرقة وتردّدت سراياه إلى صعيد مصر، وتضايق الحاكم العبيدي، وفرح جند

مصر وأعيانها لما يعانون من العبيديين، وعلم الحاكم بذلك فزاد قلقه واشتدّ غضبه. وكتب الناس إلى أبي ركوة يستدعونه، وممن كتب إليه الحسين بن جوهر المعروف بقائد القواد، فسار أبو ركوة حينئذٍ من برقة إلى الصعيد، وعلم الحاكم فاشتدّ خوفه وبلغ به الأمر كل مبلغٍ، وجمع عساكره واستشارهم، وكتب إلى الشام يستدعي العساكر فجاءته وفرّق الأموال وأعطى الدواب والسلاح وسيّر اثني عشر ألفاً بين فارسٍ وراجلٍ سوى الأعراب واستعمل على الجميع الفضل بن عبد الله[1] فلما قاربوا أبا ركوة لقيهم في عساكره وهمّ بمناجزة جند الحاكم العبيدي والفضل يحاجزه ويدافع ويراسل أصحاب أبي ركوة يستميلهم ويبذل لهم الرغائب فأجابه قائد كبير من بني قرّة يعرف بـ«الماضي»

---

(١) الفضل بن عبد الله: كان الفضل في جيش أبي ركوة فأرسل إليه الحاكم العبيدي بمالٍ ليغريه ويستميله إلى جيشه والغدر بأبي ركوة، ويقال: إن الحاكم قد بعث إليه بخمسمائة ألف دينارٍ وخمسة آلاف ثوبٍ، فلما وصلت الأموال إليه رجع عن أبي ركوة وقال له: إنا لا طاقة لنا بالحاكم وما دمت بين أظهرنا فنحن مطلوبون بسبيلك، فاختر لنفسك بلداً تكون فيها، فسأل أن يبعثوا معه فارسين يوصلانه، إلى النوبة.... ولم يكن من جواب.

وكان يطالعه بأخبار القوم وما هم عازمون عليه فيدبّر الفضل أمره على حسب ما يعلمه منه، وقلّت التموينات على العساكر فاضطر الفضل إلى القتال ووقع الصدام وقُتل من الفريقين قتلى كثيرة، ورأى الفضل من جمع أبي ركوة ما هاله وخاف المناجزة ورجع إلى عسكره، وراسل بنو قرة العرب الذين في عسكر الفضل يستدعونهم إليهم ويذكرونهم أعمال الحاكم بهم فأجابوهم، وجرى التفاهم على أن تكون الشام للعرب، وتكون مصر لأبي ركوة ومن معه، وتواعدوا ليلةً يسير فيها أبو ركوة للفضل فإذا وصل إليه انهزمت العرب ولا يبقى دون مصر مانع، فكتب الماضي للفضل بذلك فلما كان ليلة الميعاد جمع الفضل رؤساء العرب ليفطروا عنده، وأظهر أنه صائم وطاولهم الحديث وتركهم في خيمةٍ واعتزلهم، وأوصى أصحابه بالحذر، ورام العرب العودة إلى خيامهم فعلّلهم وطاولهم ثم أحضر الطعام وأحضرهم فأكلوا وتحدّثوا، وسيّر الفضل سريةً إلى طريق أبي ركوة فالتقوا بالعسكر القادم من عنده فاقتتلوا ووصل الخبر إلى العسكر وارتجّ وأراد رؤساء العرب الركوب فمنعهم وأرسل إلى أتباعهم فأمرهم بالركوب والقتال ولم يكن عندهم علم بما فعل رؤساؤهم فركبوا واشتدّ القتال ورأى بنو قرّة الأمر على خلاف ما اتفقوا

عليه، ثم ركب الفضل ومعه رؤساء العرب وقد فاتهم ما عزموا عليه فباشروا الحرب وغاصوا فيها، وورد أبو ركوة مدداً لأصحابه فلما رآه الفضل ردّ أصحابه وعاد إلى المدافعة، وجهّز الحاكم العبيدي أربعة آلاف فارسٍ وعبروا إلى الجيزة وسمع أبو ركوة بهم فأسرع ليوافقهم عند مصر وضبط الطرق لئلا يسمع الفضل ولم يمكن (الماضي) أن يراسله فساروا وأرسل إليه من الطريق يعرفه الخبر، وقطع أبو ركوة مسير خمس ليالٍ في ليلتين وكبسوا عسكر الحاكم بالجيزة وقتلوا نحو ألف فارسٍ، وخاف أهل مصر ولم يظهر الحاكم من قصره، ولكن أمر من عنده من العسكر بالعبور إلى الجيزة، ورجع أبو ركوة فنزل عند الهرمين ثم انصرف من يومه. وكتب الحاكم إلى الفضل كتاباً ظاهراً يقول فيه: إن أبا ركوة انهزم أمام عسكرنا ليقرأه على القادة، وكتب إليه سرّاً يعلمه الحال. فأظهر الفضل البشارة بانهزام أبي ركوة تسكيناً للناس، ثم سار أبو ركوة إلى مكانٍ يعرف بالسبخة كثير الأشجار، وتبعه الفضل، وكمن أبو ركوة بين الأشجار وطارد عسكر الفضل ثم رجع عسكره القهقرى ليستجرّوا عسكر الفضل ويخرج الكمين عليهم، فلما رأى الكمناء رجوع عسكر أبي ركوة ظنّوها الهزيمة لا شكّ فيها فولّوا يتبعونهم وركبهم أصحاب الفضل

وعلوهم بالسيوف فقتلوا منهم عدة ألوفٍ، وانهزم أبو ركوة ومعه بنو قرة وساروا إلى ديارهم فلما بلغوها ثبّطهم الماضي عنه، فقالوا له: قد قاتلنا معك ولم يبق فينا عزم على القتال فخذ لنفسك وانجُ، فسار إلى بلاد النوبة، فلما وصل إلى حصنٍ يُعرف بحصن الجبل للنوبة أظهر أنه رسول من الحاكم إلى ملكهم، فقال له صاحب الحصن: الملك عليل ولا بدّ من استخراج الأمر في مسيرك إليه، وبلغ الفضل الخبر فأرسل إلى صاحب القلعة بالخبر على حقيقته فوكّل به من يحفظه وأرسل إلى الملك بالحال، وكان ملك النوبة قد توفي وملك ولده فأمر بأن يسلّم إلى نائب الحاكم العبيدي، فتسلّمه رسول الفضل وسار به فلقيه الفضل وأكرمه[1] وأنزله في مضاربه وحمله إلى مصر فأُشهر بها وطيف به. وكتب أبو ركوة إلى الحاكم رقعةً يقول فيها: يا مولانا الذنوب عظيمة وأعظم منها عفوك والدماء حرام ما لم يحللها سخطك وقد أحسنت وأسأت وما ظلمت إلا نفسي وسوء عملي أوبقني، وأقول:

---

(١) سبب إكرام الفضل له خوفاً من أن يقتل نفسه، وقصد الفضل أن يأتي به حيّاً إلى الحاكم.

فررت فلم يغن الفرار ومن يكن
مع الله لم يعجزه في الأرض هارب
ووالله ما كان الفرار لحاجةٍ
سوى فزع الموت الذي أنا شارب
وقد قادني جرمي إليك برمّتي
كما خرّ ميتاً في رحى الموت سارب
وأجمع كل الناس أنك قاتلي
فيا رُبّ ظنٍّ ربّه فيك كاذب
وما هو إلا الانتقام وينتهي
وأخذك منه واجباً لك واجب

ولما طيف به ألبس طرطوراً وجُعل خلفه قرد يصفعه ـ كان معلماً بذلك، ثم حُمل إلى ظاهر القاهرة ليُقتل فتوفي قبل وصوله. وبالغ الحاكم في إكرام الفضل إلى حدٍّ أنه عاده مرتين في مرضٍ أصابه فاستعظم الناس ذلك، ولما عوفي الفضل عمل الحاكم على قتله.

اشتدّ نقد الناس سنة ٤٠٠هـ للحاكم العبيدي لكثرة ما قام به من أعمالٍ منكرةٍ ودعوا عليه بعد الصلوات، وصارحه بعضهم علناً فخاف من نقمةٍ عامرةٍ فتظاهر ببعض الأعمال الدينية كالخطبة يوم الجمعة والصلاة

بالمسلمين، ومنع تقبيل الأرض بين يديه، ومناداته يا مولانا و. . . وبقي على ذلك ثلاث سنواتٍ ثم رجع إلى سابق عهده.

في شهر ربيع الثاني سنة ٤٠٢هـ كتب محضر في بغداد من قبل الفقهاء والعلماء والقضاة يطعن بنسب العبيديين في مصر وأنهم على غير ملّة الإسلام، والذين كتبوا المحضر: الشريف المرتضى(١)، والشريف الرضي(٢)، والزكي أبو يعلى عمر بن محمد، وابن الأكفاني، وابن الخرزي، وابن الأزرق، وأبو العباس

---

(١) الشريف المرتضى: علي بن حسين بن موسى، أبو طالب، من ولد موسى الكاظم بن جعفر الصادق، نقيب الطالبيين: ولد سنة ٣٥٥هـ في بغداد، وهو جامع كتاب نهج البلاغة المنسوب إلى علي بن أبي طالب ﷺ، ولا صحة لذلك، وقيل: أن الذي جمعه هو أخوه الشريف الرضي. وللمرتضى ديوان شعرٍ كبيرٍ، وتواليفه كثيرة منها: الشافي في الإمامة، وهو من المتبحّرين في علم الكلام والاعتزال والأدب والشعر، وتوفي ببغداد سنة ٤٣٦هـ.

(٢) الشريف الرضي: محمد بن حسين بن موسى، أبو الحسن: ولد ببغداد سنة ٣٥٩هـ انتهت إليه نقابة الطالبيين في حياة والده، له ديوان شعرٍ، ويُعدّ أبرع الطالبيين بالشعر رغم كثرة المجيدين بينهم، وديوانه أربع مجلداتٍ، ومات في بغداد سنة ٤٠٦هـ في شهر صفر.

الأبيوردي، وأبو الفضل النسوي، وأبو حامد الإسفرايني[1]، والكشفلي[2]، والقدوري[3]، والصيمري[4]، وأبو عبد الله البيضاوي، وأبو عبد الله بن

---

(١) أبو حامد الأسفراييني: أحمد بن أبي طاهر محمد بن أحمد الأسفراييني، شيخ الشافعية ببغداد في عصره، ولد في «أسفرايين» بالقرب من نيسابور سنة ٣٤٤هـ، ورحل إلى بغداد فتفقّه فيها وعظمت مكانته، فجمع مجلسه ثلاثمائة متفقهٍ، وقيل: سبعمائةٍ، وألّف كتباً منها: مطول في أصول الفقه، ومختصر في الفقه سمّاه «الرونق»، وأفتى وهو ابن سبع عشرة سنةً، وتوفي في بغداد سنة ٤٠٦هـ في شهر شوال. قال ابن الصلاح: وعلى الشيخ أبي حامد تأوّل بعض العلماء حديث (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنةٍ من يجدد لها دينها) فكان الشافعي على رأس المائتين، وابن سريجٍ على رأس الثلاثمائة، وأبو حامد على رأس الأربعمائة.

(٢) الكشفلي: نسبةً إلى كشفل من قرى طبرستان.

(٣) القدوري: أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن حمدان، أبو الحسين القدوري، فقيه حنفي، ولد سنة ٣٦٢هـ في بغداد، انتهت إليه رئاسة الحنفية في العراق، وصنّف المختصر المعروف باسمه «القدوري» في فقه الحنفية، ومن كتبه «التجريد» في سبعة أجزاء يشتمل على الخلاف بين أبي حنيفة والشافعي، وتوفي في بغداد سنة ٤٢٨هـ.

(٤) الصيمري: الحسين بن علي بن محمد بن جعفر، أبو عبد الله الصيمري: ولد سنة ٣٥١هـ، أصله من صيمر من بلاد خوزستان (الأهواز)، قاضٍ فقيه، كان شيخ الحنفية في بغداد، ولي قضاء المدائن، ومات ببغداد سنة ٤٣٦هـ، له=

النعمان، وابن البطحاوي. وقد قالوا: إنهم يشهدون شهادة يتقرّبون بها إلى الله، ومعتقدين ما أوجب الله على العلماء من أن ينشروا للناس.

ظهر الخلاف بين باديس بن منصور صاحب إفريقية وبين عمه حماد، وقد أدّى هذا الخلاف إلى قتالٍ دار بينهما، وذلك أن باديس قد أُبلغ عن عمه حمّاد أموراً أنكرها عليه فأغضى عنها حتى زاد الأمر عن حدّه، وكان لباديس ولد اسمه المنصور أراد أن يُقدّمه ويجعله ولي عهده فأرسل إلى عمه حماد يقول له: أن يسلّم بعض ما بيده من الأمصار التي أقطعه إياها إلى نائب ولده المنصور، وهي: قسنطينة وما حولها مثل قصر الإفريقي و... وبعث هاشم بن جعفر وهو من قادتهم ليتسلّم ذلك نيابةً عن المنصور وسيّر معه عمه إبراهيم ليمنع أخاه حماداً من أمرٍ إن أراده، فسار هاشم وإبراهيم حتى إذا اقتربا من حماد فارق إبراهيم هاشماً وتقدّم إلى أخيه حماد فلما وصل إليه زيّن له الخلاف مع باديس، ووافقه على ذلك، وخلعا الطاعة، وأظهرا العصيان، وجمعا الجموع الكثيرة فكانوا ثلاثين

= «مناقب الإمام أبي حنيفة» و«مسائل الخلاف في أصول الفرق».

ألف مقاتلٍ، فبلغ ذلك عساكره وسار إليهما فانطلق حماد وأخوه إبراهيم إلى هاشم بن جعفر والعسكر الذين معه فكان بينهم قتال انهزم نتيجته هاشم بن جعفر والتجأ إلى «باجة» وغنم حماد ماله وعتاده، وسار باديس إلى موضع يعرف باسم «قبر الشهيد» فأتاه جمع كثير من عسكر عمّه حماد، ووصلت كتب من حماد وإبراهيم إلى ابن أخيهما باديس أنهما ما فارقا الجماعة ولا خرجا عن الطاعة وما صدر من أفعالٍ لهما يكذب كل ما يقوله لسانهما، وتقدّم باديس بجيشه إلى عمه وعسكره، ووصل حماد في شهر صفر سنة ٤٠٦هـ إلى مدينة «أشير» وهي له، وفيها نائبه واسمه خلف الحميري فمنعه خلف من دخولها ودخل في طاعة باديس، وأصابت حماد الحيرة إذ كان يعوّل في أمره على مدينة أشير لحصانتها وقوة أهلها، ووصل باديس إلى مدينة «المسيلة»[1] فاستقبله أهلها وفرحوا به، وسيّر جيشاً إلى المدينة التي أقامها عمه حماد فخرّبها، وهرب إلى باديس جماعة كثيرة من القلعة التي ينزل بها عمه إبراهيم

---

(١) المسيلة: بلدة في المغرب شمال الدار البيضاء اليوم وبينهما خمسين كيلومتر، وقد اختطها محمد بن عبيد الله العبيدي سنة ٣١٥هـ، وكان ولي عهد أبيه، وتعرف اليوم باسم المحمدية.

فانتقم إبراهيم من أهليهم وممن في القلعة جميعاً، وأخيراً التقى باديس وعمه حماد في بداية شهر جمادى الأولى سنة ٤٠٦هـ واقتتوا قتالاً شديداً وصبر أصحاب باديس رغبةً بالنصر على حماد لما يفعله بمن ينتصر عليه، وانهزم حماد وعسكره، وتفرّق عنه أصحابه وضعُف شأنه، وكذلك مات «ورو» بن سعيد الزناتي المسيطر على ناحية طرابلس الغرب واختلفت كلمة زناتة إذ مالت فرقة مع أخيه خزرون ومالت أخرى مع ابن «ورو» فاشتدّ ذلك على حماد حيث كان يأمل أن تتغلّب زناتة على بعض البلدان فيضطر باديس أن يتحرّك نحوهم فيمكن له أن ينشط ويجمع الجموع.

وفي يوم الثلاثاء آخر شهر ذي القعدة سنة ٤٠٦هـ وفي منتصف الليل توفي باديس بن المنصور بن يوسف بلكين[1]، وما أن مات حتى خرج الخادم إلى حبيب بن أبي سعيد، وباديس بن أبي حمامة، وأيوب بن يطوفت

(١) باديس بن المنصور: ولد يوم الأحد الثالث عشر من شهر ربيع الأول سنة ٣٧٤هـ، وتولى الحكم بعد أبيه المنصور يوم الخميس الثالث عشر من شهر ربيع الأول سنة ٣٨٦هـ، فكان عمره اثني عشر عاماً، فكان يتولى إمارة إفريقية نيابةً عن الحاكم العبيدي صاحب مصر، وقد لقّبه الحاكم نصير الدولة، وكان حازم الرأي شديد البأس.

ـ وهم أكبر قادته ـ وأخبرهم بموت باديس. وكان بين حبيب بن أبي سعيد وبين باديس بن أبي حمامة عداوة فخرج حبيب مسرعاً إلى باديس وخرج باديس إلى حبيب أيضاً فالتقيا بالطريق فقال كل واحدٍ منهما لصاحبه: قد عرفت الذي بيننا والأولى أن نتفق على إصلاح هذا الخلل فاجتمعا مع أيوب وقالوا: إن العدو قريب منا وصاحبنا بعيد منا وإذا تأخّرنا نرجع إليه في أمورنا ولم نأمن العدو، ونحن نعلم ميل صنهاجة إلى المعزّ بن باديس وميل غيرهم إلى عمّه كرامت بن المنصور، فاجتمعوا على تولية كرامت ظاهراً فإذا أمنوا ولّوا المعز بن باديس فلا ينقطع الشر، فأحضروا كرامت بن المنصور وولّوه مباشرةً، وأصبحوا وليس عند أحدٍ من العسكر خبر من ذلك وعزموا على أن يقولوا للناس بكرةً: إن باديس قد شرب دواءً. فلما أصبحوا أغلق أهل مدينة المحمدية أبوابها وكأنما نودي فيهم بموت باديس فشاع الخبر وخاف الناس خوفاً عظيماً واضطربوا لموته وأظهروا ولاية أخيه «كرامت»، فلما رأى ذلك عبيد باديس ومن معهم أنكروه، فخلا حبيب بأكابرهم وعرفهم الحال فسكنوا، ومضى كرامت إلى مدينة «أشير» ليجمع صنهاجة وأحلافها وأعطوهم من الخزائن مائة ألف دينارٍ، وأما

المعزّ بن باديس[1] فقد كان عمره ثمان سنواتٍ وستة أشهرٍ وأياماً. ولما وصل إليه خبر وفاة أبيه أجلسه من عنده للعزاء ثم ركب في الموكب وبايعه الناس، وأما العساكر فإنهم رحلوا من مدينة المحمدية إلى المعزّ فوصلوا إلى مدينة المنصورية[2] في الرابع من المحرم سنة ٤٠٧هـ، ووصلوا بعد أربعة أيامٍ إلى المهدية وبها المعزّ. وأما كرامت عمّ المعز فإنه لما وصل إلى مدينة «أشير» اجتمعت عليه قبائل صنهاجة ومن معها وأتاه

---

(١) المعز بن باديس بن المنصور الصنهاجي: ولد بالمنصورية من أعمال إفريقية في شهر جماد الأول سنة ٣٩٨هـ، وولي إمرة إفريقية بعد وفاة أبيه سنة ٤٠٦هـ، وأقره الحاكم العبيدي صاحب مصر، ولقبه شرف الدولة، فساد الأمن في أيامه، وقرّب العلماء، وانتصر على زناتة، وخطب للعباسيين وقطعها عن الفاطميين سنة ٤٤٠هـ، فوجّه إليه المستنصر العبيدي أعراب بني هلال وبني سُليم من جزيرة العرب وأباح لهم الغارة على المغرب، فاحتلوا القيروان وحاربوا المعزّ بن باديس وتغلّبوا عليه وتقهقر إلى مدينة المهدية، وتوفي سنة ٤٥٤هـ، وهو أول من حمل أهل إفريقية على مذهب الإمام مالك، وكانوا على مذهب أبي حنيفة.

(٢) المنصورية: مدينة بقرب القيروان من نواحي إفريقية استحدثها المنصور إسماعيل العبيدي سنة ٣٣٧هـ وصارت منزلاً لملوك العبيديين ثم لملوك إفريقية من بني باديس الصنهاجيين، وأخيراً قبائل بني هلال وبني سُليم سنة ٤٤٢هـ.

عمّه حماد في ألف وخمسمائة فارس، فتقدّم إليه كرامت بسبعة آلاف مقاتل، فالتقوا فاقتتلوا قتالاً شديداً، فرجع بعض أصحاب كرامت إلى بيت المال فنهبوه وهربوا فتمت الهزيمة عليه وعلى أصحابه، وسار إلى مدينة أشير فأشار عليه قاضيها وأعيان أهلها بالإقامة ومنع عمه حماد عنها ففعل، ونازلهم حماد، وطلب كرامت ليجتمع به فخرج إليه فأعطاه مالاً وأذن له بالمسير إلى المعز، ودخل حماد أشير فقتل كثيراً من أهلها ممن أشار على كرامت بحفظ البلد ومنع حماد منه، ووصل كرامت إلى ابن أخيه المعز بن باديس فأكرمه وأحسن إليه، وسار المعزّ إلى حماد عمّ أبيه في الثاني والعشرين من شهر صفر سنة ٤٠٨هـ لمنعه عن البلدان فقد كان يحاصر مدينة بجاية فلما اقترب منه رحل حماد عن بجاية فتابعه فالتقيا في آخر شهر ربيع الأول سنة ٤٠٨هـ فاقتتلوا فما هي إلا ساعة حتى انهزم حماد وأصحابه وأعمل عساكر المعز فيهم السيف وغنموا أموالهم وعتادهم ونادى المعزّ من أتى برأس، فله أربعة دنانير فأُتي بعددٍ كثيرٍ، وأُسر إبراهيم أخو حماد ونجا حماد وقد أصابته جراحة وتفرّق عنه أصحابه، ورجع المعزّ، وجاء مبعوث من حماد إلى المعزّ يعتذر إليه ويقرّ بالخطأ ويسأل العفو، فأجابه

المعزّ إن كنت على ما قلته فأرسل ولدك القائد إلينا، واستعمل على جميع العرب التي كانت مجاورةً لإبراهيم عمّ أبيه أميراً عمه كرامت. فعاد جواب حماد أنه إذا وصل إليه كتاب أخيه إبراهيم بالعلامات التي بينهما أنه قد أخذ له عهد المعزّ بعث ولده القائد أو حضر هو بنفسه، فحضر إبراهيم وأخذ العهود على المعز، وأرسل إلى حماد يعرفه ذلك ويشكر للمعز على إحسانه إليه.

ووصل المعز إلى قصره في آخر شهر جمادى الأولى سنة ٤٠٨هـ، ولما وصل أطلق إبراهيم، عمّ أبيه وخلع عليه وأعطاه الأموال وجميع ما يحتاج إليه، فلما سمع حماد ذلك أرسل ولده القائد إلى المعز وكان وصوله إليه للنصف من شعبان سنة ٤٠٨هـ فأكرمه وأعطاه شيئاً كثيراً وأقطعه المسيلة وطُبنة، وعاد القائد إلى أبيه في شهر رمضان سنة ٤٠٨هـ، ورضي بالصلح، وحلف عليه، واستقرت الأمور بينهما وتصاهرا فزوّج المعزّ أخته بعبد الله بن حماد فازدادوا اتفاقاً وأمناً، ولما استقرّ الصلح والاتفاق سيّر المعز الجيوش إلى القبائل البربرية وغيرها فإن الحروب بينهم كانت بسبب الاختلاف كثيرةً والدماء مسفوكةً فلما رأوا عسكر

السلطان رجعوا إلى السكون والكفّ عن الحروب، ومن أبي قوتل، وأصلح السلطان بين القبائل.

ووصل من الأندلس زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي وهو عمّ المنصور أبي باديس ومعه أهله وولده وخدمه، وكان قد أقام بالأندلس مدةً طويلةً، وكان قد ملك غرناطة بالأندلس وقاسى حروباً كثيرةً، ووصل معه أموال كثيرة فأكرمهم المعزّ وحمل لهم شيئاً كثيراً.

وكان الناس في مصر خاصةً يكرهون الحاكم العبيدي لسوء تصرفاته وفساد أعماله وتناقض أوامره وخبث طويته إضافةً إلى ضلاله و.... إذ قتل عدداً من رجال دولته، وأمر في بداية حكمه بسبّ الصحابة ﷺ وأن يكتب شتمهم على حيطان المساجد والأسواق وكتب إلى سائر عماله بذلك، وقد بدأ بهذا العمل سنة ٣٩٥هـ، واستمرّ مدةً، ثم أمر بمنع هذا ومعاقبة من يفعله. وأمر في سنة ٣٩٩هـ بترك صلاة التراويح وقتل إماماً صلّاها، ولم يُصلّها أحد حتى سنة ٤٠٨هـ حيث رجع عن ذلك، ومنع النساء من الخروج من بيوتهن وقتل من خرج منهن[1]، وحرّم بعض الأطعمة التي لا يحبها كالسبانغ والخبيزة و... ويرفع رتبة الوزير ثم

---

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير.

يقتله، ويبني المدارس وينصّب فيها الفقهاء ثم يهدمها ويقتل فقهاءها، وأعلنت الدعوة إلى تأليهه سنة ٤٠٧هـ في مساجد القاهرة وفُتح سجل تكتب فيه أسماء المؤمنين فاكتتب عدد كبير من أهل القاهرة خوفاً من بطشه، وتحوّل لقبه إلى الحاكم بأمره(١)، وقام بدعوته محمد بن إسماعيل الدرزي(٢) وحسن بن حيدرة

(١) الأعلام - الزركلي.

(٢) محمد بن إسماعيل الدرزي، أبو عبد الله: أحد أصحاب الدعوة لتأليه الحاكم العبيدي، وإليه تُنسب فرقة تحمل لقبه، وهو فارسي الأصل، قدم إلى مصر سنة ٤٠٧هـ، ودخل في خدمة الحاكم، وصنّف له كتاباً قال فيه: إن روح آدم انتقلت إلى عليّ بن أبي طالب ومنه إلى أسلاف الحاكم مُتقمّصةً من واحدٍ إلى آخر حتى انتهت إلى الحاكم. وقد جاهر بالقول في الحلول والتناسخ. وصنّف كتاباً آخر ذكر فيه أن الإله حلّ في عليّ وأن روح عليّ تنقّلت في أولاده حتى وصلت إلى الحاكم. واتفق مع حمزة بن علي في الدعوة إلى عبادة الحاكم وانقادت إليهما جماعة كثيرة قبل اختلافهما. وقال الحاكم لداعيه: كم في جريدتك؟ قال: ستة عشر ألفاً. فكان الدرزي يدّعي ربوبية الحاكم، ويُعرف هو باسم «نشتكين الدرزي» وإن الحاكم قد أرسله إلى بلاد الشام لنشر دعوته فنزل في وادي التيم (بداية نهر الحاصباني أحد الأنهار التي تؤلف نهر الأردن)، وقتل هناك سنة ٤١١هـ. وفي بعض الروايات أن الحاكم العبيدي هو الذي قتله.

الفرغاني، وكادا يفشلان فظهر حمزة بن علي بن أحمد[1] فقويت الدعوة به عند أعوان الحاكم.

---

(١) حمزة بن علي بن أحمد: فارسي الأصل في مقاطعة «زوزن» كان قزازاً تأدّب بالعربية، وانتقل إلى القاهرة حوالي سنة ٤٠٥هـ، ويعدّ من كبار الباطنية ومن مؤسسي «الدرزية» اتصل برجال الدعوة السرية من أعوان الحاكم العبيدي وأصبح من أركانها، واستمر يعمل لها في الخفاء، ويواصل رفع كتبه إلى الحاكم، ثم أظهرها سنة ٤٠٨هـ، وجاهر بتأليه الحاكم العبيدي، وقال: إنه رسوله، وأقره الحاكم على ما نعت به نفسه، وجعله داعي الدعاة، وبعد هلاك الحاكم ارتحل إلى وادي التيم. وحمزة بن علي عند طائفة الدروز أول الحدود الخمسة المعصومين، ويُكنّون له بالعقل، ويقولون: إنه أمر بإقامة أركان الدين، وهي عندهم: «صدق اللسان، وحفظ الإخوان، وترك جميع الأديان، والابتعاد عن مهاوي الشرك والبهتان، والإقرار بوحدانية الحاكم في كل الأزمان، والرضا بفعله كيفما كان، والتسليم لأمره في كل آن» ولحمزة بن علي أسماء أو صفات كثيرة في كتب الطائفة: السابق الحقيقي. ذو مصّة. الإرادة. العقل الكلي. قائم الزمان. والإمام. الأمر. الآية الكبرى. آية التوحيد. آية الكشف. آية الحقيقة. آدم الصفا. آدم الكلي.

ولحمزة بن علي رسائل في مذهبهم، والدعوة للحاكم والردّ على مخالفيهم، منها: «الدامغة» في الردّ على الفاسق النصيري، و«الرضى والتسليم» و«التنزيه» و«رسالة النساء» و«الصبحة الكائنة» و«نسخة سجل المجتبى» و«تقليد المقتنى» و«مكاتبة أهل الكدية البيضاء» ورسالة «أنصنا» و«شرط الإمام=

ووقعت وحشة بين الحاكم العبيدي[1] وبين أخته ست الملك، وبعث بعدة رسائل ليست حسنةً يقول فيها: بلغني أن الرجال يدخلون عليك وتهدّدها بالقتل. فأرسلت إلى قائدٍ كبيرٍ من قواده يقال له: ابن دوّاس ـ وكان أيضاً يخاف الحاكم ـ تقول له: إني أريد أن ألقاك فحضرت عنده، وقالت له: قد جئت إليك في أمرٍ تحفظ فيه نفسك ونفسي، وأنت تعلم ما يعتقده أخي فيك وأنه متى تمكّن منك لا يُبقي عليك وأنا كذلك، وقد أُضيف إلى هذا ما يظهر منه مما يكرهه المسلمون ولا يصبرون عليه وأخاف أن يثوروا عليه فيهلك هو

= صاحب الكشف» ورسالة «التحذير والتنبيه» و«البلاغ والنهاية» و«سبب الأسباب والكنز لمن أيقن واستجاب».

(١) الحاكم: منصور (الحاكم بأمر الله) بن نزار (العزيز بالله) بن معد (المعز لدين الله) بن إسماعيل (المنصور) بن محمد (القائم) بن عبيد الله (المهدي)، أبو علي: سادس ملوك العبيديين، متألّه، غريب الأطوار. ولد في القاهرة سنة ٣٧٥هـ، ولي بعد موت أبيه سنة ٣٨٦هـ وعمره إحدى عشرة سنةً، فدخل القاهرة في اليوم الثاني لوفاة أبيه فدفنه وباشر أعمال الدولة، وخطب له على منابر إفريقية والشام والحجاز. وقتل وعمره ست وثلاثون سنةً وتسعة أشهرٍ، وكانت ولايته خمساً وعشرين سنةً وعشرين يوماً. وأعلن حمزة بن علي بعد قتل الحاكم أنه احتجب وسيعود لنشر الإيمان بعد الغيبة.

ونحن معه وتذهب هذه الدولة فأجابها إلى ما تريد، وقالت: إنه يصعد إلى هذا الجبل غداً وليس معه إلا الركابي وصبيّ وينفرد بنفسه فتقيم رجلين تثق بهما يقتلانه ويقتلان الصبيّ، وتقيم ولده بعده، وتكون أنت مدير الدولة، وأزيد في عطائك مائة ألف دينار. فأقام رجلين وأعطتهما هي ألف دينارٍ، ومضيا إلى الجبل، وركب الحاكم على عادته وسار منفرداً فقتلاه.

ولما فُقد الحاكم العبيدي تولّى الأمر بعده ولده علي أبو الحسن[1] ولُقّب الظاهر لإعزاز دين الله وردّ النظر في الأمور جميعها إلى الوزير أبي القاسم علي بن أحمد الجرجرائي[2] بعد وفاة ست الملك سنة ٤١٥هـ.

---

(١) علي أبو الحسن بن منصور (الحاكم بأمر الله): ولد بالقاهرة ليلة الأربعاء عاشر شهر رمضان سنة ٣٩٥هـ، وتولّى الملك بعد مقتل أبيه في شهر شوال سنة ٤١١هـ. كانت عمته ستّ الملك هي القائمة بأمر الدولة حتى توفيت سنة ٤١٥هـ. وكانت له مصر والشام وخطبة إفريقية. واضطربت أحوال الدولة في مصر والشام في أيامه وتغلب حسان بن مفرج الطائي شيخ عربان نابلس على أكثر بلاد الشام، ودام ملك الظاهر قرابة خمس عشرة سنة حيث توفي سنة ٤٢٧هـ بالقاهرة، وكان عنده ميل إلى اللهو.

(٢) علي بن أحمد الجرجرائي، أبو القاسم، نجيب الدولة: ولد في جرجرايا بسواد العراق، وسكن مصر، فتنقّل في الأعمال=

بعد أن قُتل الحاكم العبيدي بقي الجند ينتظرون عودته خمسة أيامٍ، ثم اجتمعوا إلى أخته ست الملك، وقالوا: قد تأخّر مولانا ولم تجر عادته بذلك، فقالت: قد جاءتني منه رقعة بأنه يأتي بعد غدٍ فتفرّقوا، وبعثت الأموال إلى القواد على يد «ابن دوّاس» فلما كان اليوم السابق ألبست أبا الحسن علي من أخيها الحاكم أفخر الثياب، وكان الجند قد حضروا حسب الموعد، فلم يرعهم إلا وقد أُخرج أبو الحسن - وهو صبيّ - والوزير بين يديه فصاح يا عبيد الدولة مولاتنا تقول لكم: هذا مولاكم أمير المؤمنين فسلّموا عليه، فقبّل ابن دوّاس الأرض والقواد الذين أرسلت إليهم الأموال، ودعوا له فتبعهم الباقون ومشوا معه. وكتبت الكتب إلى البلاد بمصر والشام بأخذ البيعة له. وجمعت ست الملك

= السلطانية بالريف والصعيد، وكثُر التظلُّم منه في أيام الحاكم العبيدي فقبض عليه واعتقل سنة ٤٠٣هـ، ثم أُطلق، ثم صدر أمر بقطع يديه سنة ٤٠٤هـ فقُطعتا. ثم ولي ديوان النفقات سنة ٤٠٦هـ، ولُقّب بـ«نجيب الدولة» سنة ٤٠٧هـ. واستوزره الظاهر العبيدي سنة ٤١٨هـ، وأقرّه بعده المستنصر، ورفع مكانته، فاستمرّ بالوزارة يحمل لقب الوزير الأجلّ الأوحد صفيّ أمير المؤمنين وخالصته حتى توفي سنة ٤٣٦هـ، ولما مات حضر الصلاة عليه المستنصر العبيدي.

أخت الحاكم الناس ووعدتهم وأحسنت إليهم، ورتّبت الأمور ترتيباً حسناً، وجعلت الأمر بيد ابن دوّاس، وقالت له: إننا نريد أن نردّ أحوال المملكة إليك ونزيد في إقطاعك ونشرّفك بالخلع فاختر يوماً يكون لذلك. فدعا لها وظهر الخبر به بين الناس. ثم أحضرته وأحضرت القواد معه وأغلقت أبواب القصر، وأرسلت إليه خادماً، وقالت له: قل للقواد: إن هذا قتل سيّدكم واضربه بالسيف ففعل ذلك وقتله، فلم يختلف رجلان، وباشرت الأمور بنفسها، وصار لها هيبة عند الناس، واستقامت الأمور، وعاشت أربع سنواتٍ بعد الحاكم، وماتت سنة ٤١٥هـ.

وبعد موت الحاكم العبيدي أغارت قبيلة زناتة على أملاك المعز بن باديس صاحب إفريقية فخرج عامل مدينة قابس وقاتل زناتة وهزمها.

وقطعت جماعة كبيرة من زناتة الطريق وأفسدت في الأرض سنة ٤١٥هـ وقويت شوكتها وكثر جمعها فأرسل لهم المعزّ بن باديس قوةً استأصلت شأفة هؤلاء الذين قطعوا الطرق وأفسدوا.

وردت رسل من قبيلة زناتة ومن قبيلة كتامة سنة ٤١٧هـ إلى المعز بن باديس صاحب إفريقية يطلبون العفو عما بدر منهم والصلح معه وأن يقبل دخولهم في

طاعته وتحت حكمه وتعهدوا أن يحفظوا الطريق وأعطوا على ذلك عهودهم ومواثيقهم فأجابهم إلى ما سألوا، وجاء مشايخ زناتة وكتامة إلى المعز فاستقبلهم وأنزلهم منزلاً كريماً ووصلهم وبذل لهم أموالاً كثيرةً.

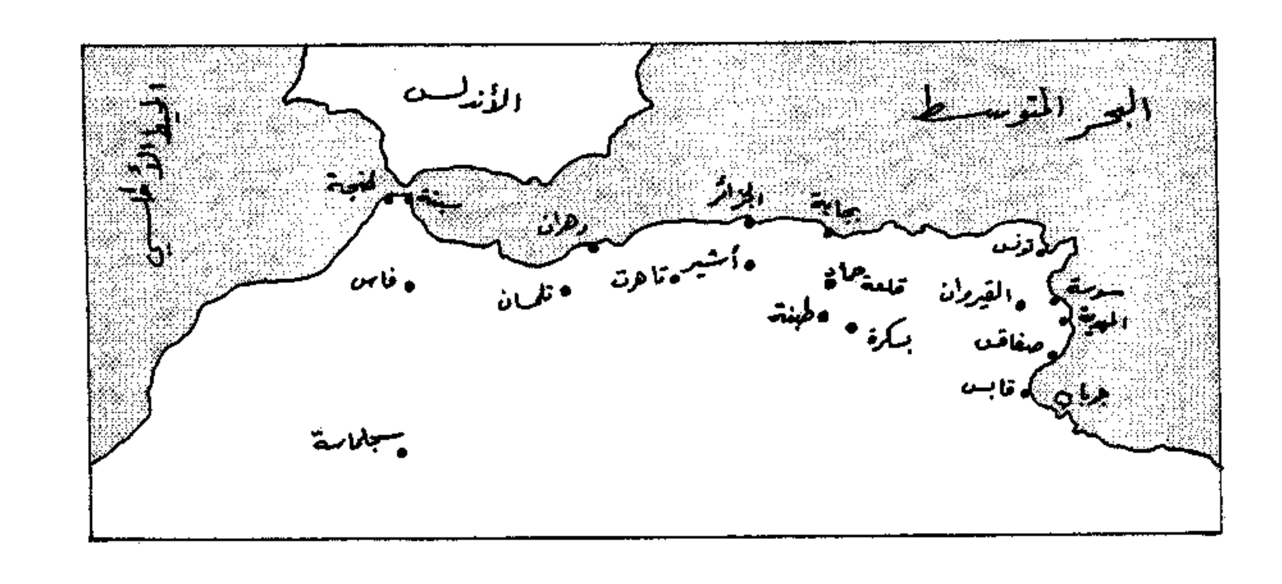
ومات حماد بن يوسف بلكين عمّ المعز بن باديس، وولي بعده ابنه «القائد» وعظم على المعز موته لأن الأمر بينهما كان قد صلح، واستقامت الأمور للمعز بعده، وأذعن له أولاد عمه حماد بالطاعة.

وسار الدزبري[1] سنة ٤٢٠هـ على رأس عساكر من مصر إلى الشام فأوقعوا بصالح بن مرداس الكلابي وحسّان بن المفرج بن الجراح الطائي فهزمهما وقتل صالح بن مرداس وابنه الأصغر وملك الدزبري الشام جميعاً، وملك حلب شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس.

وعادت زناتة إلى خلاف المعز بن باديس سنة ٤٢٠هـ وتجمّعت فبلغ الخبر المعز فجمع عساكره وسار إليه بنفسه ولاقى جموعها وهزمهم وقتل عدداً كبيراً منهم ورجع غانماً ظافراً.

---

(١) الدزبري: نسبة إلى دزبر بن دويتم الديلمي، واسمه «أنوشتكين».


البحر المتوسط
الأندلس
المحيط الأطلسي
طنجة
سبتة
وهران
الجزائر
بجاية
تونس
سوسة
المهدية
صفاقس
قابس
جربة
القيروان
قلعة حماد
بسكرة
طبنة
أشير
تاهرت
تلمسان
فاس
سجلماسة

وخرج ملك الروم من القسطنطينية بثلاثمائة مقاتلٍ إلى الشام وتابعوا السير حتى أصبحوا على مقربةٍ من حلب وصاحبها شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس، غير أن جند الروم اختلفوا فيما بينهم واضطروا للعودة.

وتمكّن الروم من دخول مدينة الرها سنة ٤٢٢هـ نتيجة خلاف المسلمين حيث راسل «ابن عطير» الذي يملك نصف المدينة راسل أرمانوس ملك الروم وباعه ما يملك من المدينة بعشرين ألف دينارٍ فجاء الروم وملكوا الرها وخرّبوا المساجد وقتلوا الكثير من المسلمين، فلما علم نصر الدولة بن مروان[1] سيّر جيشاً إلى الرها دخلها عنوةً ولكن اعتصم الروم في برجين كانا في المدينة فسيّر إليهم عشرة آلاف مقاتلٍ غير أنهم هُزموا وبقي الروم في البلد.

---

(١) نصر الدولة بن مروان: أحمد بن مروان بن دوستك: كردي الأصل، تملك سنة ٤٠١هـ بعد مقتل أخيه منصور، واستمر ملكه ٥١ سنة، وكان حازماً عادلاً محافظاً على الطاعات مع ميلٍ إلى اللهو، استوزر أبا القاسم ابن المغربي مرتين، وتوفي نصر الدولة سنة ٤٥٣هـ.

ووصل الروم إلى أفامية بالشام وملكوها عن طريق حسان بن المفرج الطائي الذي هرب من الدزبري.

سابعاً: اليمن:

انتهت دولة بني زياد في زبيد سنة ٤٠٢هـ بعد موت الحسين بن سلامة[١] الذي تولّى أمر بني زياد وهو أحد مواليهم حيث لم يبق في بني زياد من يصلح للحكم سوى طفلٍ صغيرٍ اسمه أبو الجيش بن إسحاق. وكان الحسين جيد الإدارة حسن السمعة فأعاد مكانة دولة بني زياد من جديدٍ، وخضعت له أكثر اليمن وأجزاء من الحجاز. وعندما مات تمزّقت دولته فتغلّب بنو نجاح على تهامة، وبنو يعفر على صنعاء وغيرهم على بقية مدن اليمن وأقاليمها.

---

(١) الحسين بن سلامة النوبي، أبو عبد الله: أمير تهامة اليمن، كان أسود نوبياً من موالي بني زياد ولاة اليمن ولما تضعضع أمرهم بعد وفاة سيده عبد الله بن إسحاق، وتغلّب ولاة الحصون والجبال على ما في أيديهم، نهض الحسين فتسلّم مقاليد الإمارة سنة ٣٥٧هـ، وأرسى قواعدها، وقاتل العصاة فانتظم له أمر باليمن كله، وكان عادلاً حسن السيرة، وقد بنى المساجد وحفر الآبار، وتوفي سنة ٤٠٢هـ.

أعلن نجاح[1] مولى بني زياد نفسه سلطاناً على تهامة، وراسل الخليفة العباسي القادر بالله مُعلناً له الطاعة والولاء، واستمر نجاح في حكم إمارته حتى سنة ٤٥٢هـ.

وأما إمارة بني يعفر فقد توفي أميرها عبد الله بن محمد بن قحطان سنة ٣٨٧هـ وقام بعده ابنه أسعد وبقي حتى عام ٣٩٣هـ حيث دخل في طاعة الإمام القاسم بن علي العياني[2] في (عيان)[3].

---

(١) نجاح: رأس دولة آل نجاح في زبيد، من الدعاة الشجعان، كان عبداً من موالي آل زياد أصحاب اليمن، نشأ في إمارة الحسين بن سلامة، فلما توفي الحسين سنة ٤٠٢هـ، واستبد كل عاملٍ بإقليمه أعلن نجاح نفسه سلطاناً على تهامة واستولى على زبيد سنة ٤١٢هـ، واتسع ملكه، وضربت السكة باسمه، وخرج عليه أهل الاطماع فتغلّب عليهم واستمرّ إلى أن قتله علي بن محمد الصليحي بدسّ سمٌّ له على يد جاريةٍ سنة ٤٥٢هـ.

(٢) القاسم بن علي العيّاني، أبو الحسين، المنصور بالله: من أئمة الزيدية في اليمن، له مؤلفات تقارب المائة، اشتهر بالشام، وأنفذ رسله إلى اليمن سنة ٣٨٨هـ، وبويع له، ورحل إلى الحجاز، ودخل اليمن فاستقر في صنعاء إلى أن توفي سنة ٣٩٣هـ، ودفن في عيان.

(٣) عيّان: بلد في اليمن من ناحية مخلاف جعفر.

وخلف الإمام القاسم ابنه الحسين بن القاسم[1] والملقّب بالمهديّ وذلك سنة ٣٩٣هـ، وبقي الحسين حتى سنة ٤٠٣هـ حيث قتل في معركةٍ مع آل الضحاك في «ريدة».

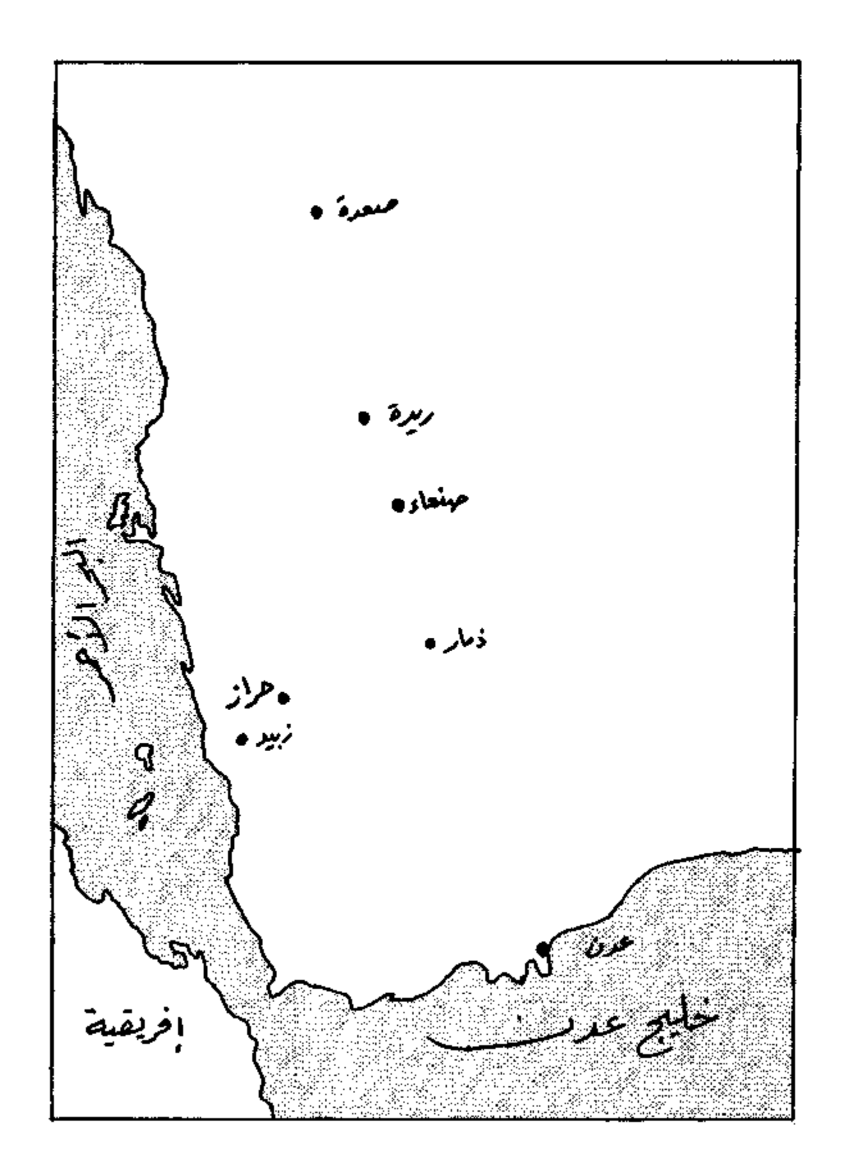
وفي مدينة صعدة كان الإمام الداعي يوسف[2] منذ سنة ٣٦٦هـ حتى توفي سنة ٤٠٣هـ.

وقد عمّ الخراب مدينة صنعاء وغيرها من بلاد اليمن لكثرة الخلاف والنزاع وعدم اجتماع الكلمة وذلك من سنة ٤٠٥ إلى سنة ٤٤٨هـ.

---

(١) الحسين بن القاسم بن علي العياني، المهدي لدين الله من أئمة الزيدية باليمن. قام بأمر الإمامة بعد أبيه. كانت إقامته بصنعاء، وقاتله بعض معارضيه فقُتل شمال صنعاء سنة ٤٠٤هـ، وكان فصيحاً مناظراً، وله مؤلفات منها: «التحدي للعلماء والجهال» و«تفسير غريب القرآن» و«كتاب الأسرار» و«الصفات».

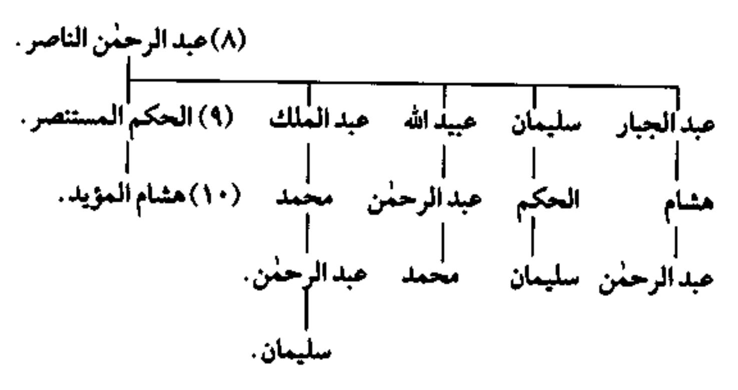
(٢) الداعي يوسف: يوسف بن يحيى بن أحمد بن يحيى: من أئمة اليمن الزيدية، من العلماء، له عدة تصانيف، قام في بلدة «ريدة» من بلاد حاشد باليمن، وتلقّب بـ«الداعي إلى الله»، ودخل صعدة، ثم سار إلى نجران. ومات بصعدة ودفن بها سنة ٤٠٣هـ.


صعدة
ريدة
صنعاء
ذمار
حراز
زبيد
عدن
خليج عدن
إفريقية

الأندلس

توفّي الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمٰن الناصر سنة ٣٦٦هـ، وتولّى أمر الأندلس بعده ابنه هشام وتلقّب باسم «المؤيّد بالله»، وكان صغيراً لا يزيد عمره على العشر سنواتٍ فقام بأمر البلاد محمد بن عبد الله بن عامر بن محمد أبي عامر، وسيّر جيشاً إلى بلاد الفرنجة فنالوا منهم وغنموا وأوغلوا في ديارهم، وأسروا «غرسية» وهو ملك الفرنجة وابن ملكٍ من ملوكهم يقال «شانجة»، وتوفّي محمد بن أبي عامر سنة ٣٩٣هـ فحدث خلاف بين أبناء البيت الأموي الحاكم فملك سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمٰن الناصر سنة ٣٩٩هـ لمدةٍ قصيرةٍ وأُعيد هشام للخلافة ثانيةً سنة ٤٠٠هـ في التاسع من شهر ذي الحجة، وكان الحُكم في دولته إلى واضح العامري حيث تولّى أبناء محمد بن أبي عامر إدارة البلاد بعد وفاة أبيهم وكان أولهم عبد الملك أبو مروان المظفّر. ودخل أهل قرطبة إلى هشام المؤيّد بالله بعد أن أُعيد للخلافة فوعدهم ومنّاهم، وكتب إلى البربر الذين مع سليمان بن الحكم بن سليمان ودعاهم إلى طاعته والوفاء ببيعته فلم يجيبوه إلى ذلك، ثم نُقل إليه أن نفراً من الأمويين بقرطبة قد كاتبوا سليمان وواعدوه

ليكون بقرطبة في السابع والعشرين من شهر ذي الحجة ليسلّموا إليه البلد فأخذهم وحبسهم.



فلما كان موعد قدوم البربر جاءوا فركب الجند وأهل قرطبة وخرجوا إليهم مع الخليفة هشام المؤيد بالله فرجع البربر وتبعهم عساكر الخليفة فلم يلحقوا بهم، وتردّدت الرسل بينهم فلم يتفقوا على شيء.

ثم إن سليمان والبربر قد راسلوا ملك الفرنج يستمدّونه ويذلوا له تسليم حصونٍ كان المنصور محمد بن أبي عامر قد فتحها وأخذها منهم، فأرسل ملك الفرنج إلى المؤيّد يعرّفه الحال ويطلب منه تسليم هذه الحصون حتى لا يمدّ سليمان بالعساكر، فاستشار المؤيد أهل قرطبة في ذلك فأشاروا عليه بتسليمها إليه خوفاً من أن يمدّ سليمان بالجند، واستقرّ الصلح في شهر المحرم سنة ٤٠١هـ، فلما يئس سليمان من إنجاد

الفرنج سار البربر نحو قرطبة ونزلوا بالقرب منها في شهر صفر سنة ٤٠١هـ، وأخذت خيولهم تُغير على البلدان فخرّبت فيها الكثير، فعمل المؤيّد وواضح العامري سوراً وخندقاً على قرطبة أمام السور الكبير. ونازل سليمان أهل قرطبة خمسةً وأربعين يوماً فلم يستطع أن يملك بلدهم، فانتقل إلى الزهراء[1] وحاصرها وقاتل أهلها ثلاثة أيامٍ، ثم إن بعض الموكلين بحماية الباب قد سلّمه فصعد البربر على السور وملكوا البلدة عنوةً، وأفسدوا بداخلها من نهب الأموال وإحراق القصر والجامع، والقتل دون تمييزٍ.

وكاتب واضح سليمان يُعلمه أنه يريد الارتحال عن قرطبة سرّاً ويُشير عليه أن يُهاجم قرطبة بعد مسيره عنها، ووصل الخبر إلى المؤيّد فقبض عليه وقتله، واشتدّ الأمر بقرطبة وعظم الخطب، وقلّت الأقوات، وقتل الخليفة المؤيّد كل من مالَ إلى سليمان بقرطبة. وجاء سليمان ومعه البربر وحاصروا قرطبة ولازموا هذا الحصار والقتال لأهل قرطبة، وضيّقوا عليهم، وأثناء

---

(١) الزهراء: مدينة صغيرة قرب مدينة قرطبة اختطها عبد الرحمٰن الناصر سنة ٣٢٥هـ، وعملها متنزهاً له، وأنفق عليها الكثير. وبين قرطبة والزهراء عشرة كيلو مترات.

الحصار خرج في طليطلة عبيد الله بن محمد بن عبد الجبار وبايعه أهلها فسيّر إليهم المؤيد جيشاً فرض الحصار عليهم فعادوا إلى الطاعة، وأُخذ عبيد الله أسيراً وقُتل في شهر شعبان سنة ٤٠١هـ، ثم إن أهل قرطبة قاتلوا البربر في بعض الأيام فقتلوا منهم عدداً كبيراً وغرق في النهر مثلهم، فرحلوا عنها وساروا إلى إشبيلية فأرسل إليها المؤيد جيشاً فحماها ومنع البربر عنها.

وراسل سليمان والي سرقسطة من قبل المؤيّد وولاه مدنٍ أخرى يدعوهم إليه فأجابوه وأطاعوه، فسار سليمان عن إشبيلية إلى قلعة رباح[1] فملكوها وغنموا ما فيها واتخذوها مقراً لهم، ثم عادوا إلى قرطبة فحاصروها وقد خرج كثير من أهلها وعساكرها جوعاً وخوفاً واشتدّ القتال عليها ودخلها سليمان عنوةً وقهراً وقتل جنده كثيراً من أهلها وكان ذلك في منتصف شهر شوال سنة ٤٠٣هـ، وأُخذ المؤيّد من قصره وحُمل إلى سليمان، وبويع لسليمان وخرج هشام المؤيد إلى شرقي الأندلس. وتلقّب سليمان بالمستعين بالله، وكان من جنده القاسم بن حمود وعلي بن حمود، فولى سليمان

---

(١) قلعة رباح: مدينة بالأندلس من أعمال طليطلة، وهي غرب طليطلة.

على الجزيرة الخضراء القاسم بن حمود[1]، وولّى عليّ بن حمّود[2] على طنجة وسبتة، فلم يلبث علي بن حمود أن استقلّ وزحف إلى مالقة فملكها ثم إلى قرطبة فدخلها وقتل سليمان بيده سنة ٤٠٧هـ، وبمقتله انقطع ذكر بني أمية على منابر الأندلس مدة سبع سنين، وذلك

---

(١) القاسم بن حمود بن ميمون الإدريسي الحسني الملقّب بالمأمون، ثاني ملوك الدولة الحمودية بقرطبة، ثار عليه ابن أخيه يحيى بن علي بمالقة سنة ٤١٢هـ فخرج القاسم من قرطبة دون قتالٍ، وأقام بإشبيلية مدةً جمع بها شتاته واستمال إليه طوائف من البربر وهاجم قرطبة فدخلها سنة ٤١٣هـ، ولم ينتظم له الأمر فخرج إلى شريش، فقبض عليه يحيى وسجنه بمالقة إلى أن مات سنة ٤٣١هـ.

(٢) علي بن حمود بن ميمون الإدريسي الحسني المقلب بالناصر لدين الله أول ملوك الدولة الحمودية بقرطبة، كان في منشئه من جملة جند سليمان بن الحكم الأموي، وولّاه سليمان سبتة وطنجة سنة ٤٠٣هـ، فكاتب العصاة من أهل البادية فبايعوه بالخلافة فزحف بهم إلى قرطبة فدخلها عنوةً بعد قتالٍ، وقبض على سليمان بن الحكم وعلى أبيه الحكم بن سليمان بن عبد الرحمٰن الناصر فقتلهما في يومٍ واحدٍ هو الحادي والعشرون من شهر المحرم سنة ٤٠٧هـ وتلقّب بالناصر لدين الله. واستتب له الأمر سنةً وعشرة أشهرٍ، وخرج عليه الموالي الذين قاموا بنصرته فخلعوه، ودخل عليه بعض الصقالبة منهم، وهو في الحمام فقتلوه وذالك سنة ٤٠٨هـ، وكان عمره ٤٨ سنة، وله من الأولاد يحيى وإدريس.

أن خيران العامري[1] لم يكن راضياً بولاية سليمان بن الحكم الأموي لأنه كان من أصحاب المؤيّد، فلما ملك سليمان قرطبة انهزم خيران في جماعةٍ كثيرةٍ من الفتيان العامريين فتبعهم البربر فقاتلهم واشتدّ القتال بينهم وجرح خيران عدة جراحاتٍ وتُرك على أنه ميت، فلما فارقوه قام يمشي فأخذه رجل من البربر إلى داره بقرطبة وعالجه وأعطاه مالاً وخرج سرّاً من قرطبة إلى شرقي الأندلس فكثر جمعه، وقويت نفسه وقاتل من هناك من البربر، وملك المرية، واجتمع إليه الأجناد فأزال البربر عن البلاد المجاورة له فارتفعت مكانته وعظُم شأنه.

وكان علي بن حمود الإدريسي بمدينة سبتة وبينه وبين الأندلس عدوة المجاز وهو مالك لها، وكان أخوه القاسم بن حمود بالجزيرة الخضراء بالأندلس والياً عليها وبينه وبين أخيه مجاز البحر. وطمع علي بن حمود بالسيطرة على الأندلس لِما رأى من الاختلاف، فكتب إلى خيران يذكر له أن هشام المؤيد كان كتب له

---

(١) خيران العامري: نسبة إلى ابن أبي عامر، وهو خيران الصقلبي، أطاعه فتيان العامريين كلهم، ولما رأى الخلاف قد دبّ في الخلافة وثب على المرية وأعمالها، واستقلّ بها، واستقرّ فيها إلى أن مات سنة ٤١٩هـ.

بولاية العهد والأخذ بثأره إن هو قُتل، فدعا خيران لعلي بن حمود بولاية العهد، وكان خيران يكاتب الناس ويدعوهم إلى الخروج على سليمان فوافقه جماعة منهم: عامر بن فتوح وزير هشام المؤيد ـ وكان بمالقة ـ وكاتبوا علي بن حمود ليعبر إليهم لينهضوا معه ويسيروا إلى قرطبة فعبر إلى مالقة سنة ٤٠٥هـ فخرج منها عامر بن فتوح وسلّمها إليه، ودعا بولاية العهد له، وسار خيران ومن أجابه إليه فاجتمعوا بالمنكب[١] سنة ٤٠٦هـ، وقرّروا ما يجب أن يفعلوه، وعادوا يتجهّزون للسير إلى قرطبة وبايعوا علي بن حمود وبلغوا غرناطة فوافقهم أميرها وسار معهم إلى قرطبة فخرج سليمان بن الحكم والبربر إليهم فاقتتلوا على خمسين كيلاً من قرطبة وانهزم سليمان والبربر معه، وأُخذ سليمان أسيراً فحمل إلى علي بن حمود، ومع سليمان أخوه وأبوه الحكم بن سليمان بن عبد الرحمٰن الناصر، ودخل علي بن حمود قرطبة في شهر المحرم سنة ٤٠٧هـ. وأخذ علي بن حمود أسراه الذين بين يديه وقتلهم وهم سليمان وأبوه الحكم، وأخوه. ودعا علي بن حمود الناس إلى بيعته

---

(١) المنكب: بين المرية ومالقة من أعمال ألبيرة وتبعد عن غرناطة ٦٠ كيلو متراً.

فبويع ولقّب المتوكّل على الله، وأظهر خيران الخلاف وخرج عن قرطبة.

لما خرج خيران عن قرطبة أخذ يسأل عن بني أمية فأرشد على عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمٰن الناصر الأموي وكان قد خرج من قرطبة مستخفياً ونزل بـ«جيان» فبايعه خيران وغيره ولقّبوه المرتضى. وراسل خيران أهل سرقسطة وأميرها كما راسل أهل شاطبة وبلنسية وطرطوشة والبونت فأجابوا كلهم إلى بيعة عبد الرحمٰن المرتضى وخلاف علي بن حمود فاتفق عليه أكثر أهل الأندلس، واجتمعوا بموضعٍ يعرف بـ«الرياحين» يوم عيد الأضحى سنة ٤٠٨هـ ومعهم الفقهاء والعلماء وجعلوا الخلافة شورى، واتفقوا على بيعته ونزلوا غرناطة، وأقبل عبد الرحمٰن المرتضى على أهل بلنسية وشاطبة وأظهر الجفاء لمنذر بن يحيى التجيبي أمير سرقسطة ولخيران العامري ولم يُقبل عليهما فندما على ما كان منهما، وسار حتى وصل إلى غرناطة فنزل عليها وقاتلوا أهل غرناطة قتالاً شديداً فغلبهم أهل غرناطة وأميرهم زاوي بن زيري الصنهاجي، وانهزم المرتضى وعسكره واتبعهم عسكر صنهاجة يقتلون ويأسرون وقُتل عبد الرحمٰن المرتضى،

وعمره أربعون سنةً، وهو أصغر من أخٍ له اسمه هشام، وقد سار هشام هذا إلى منطقة البونت وأقام بها، وأخذ علي بن حمود يلاحق خيران ويقاتل ويدخل البلدان التي تتبعه وينتقل من بلدٍ لآخر.

وتجهّز علي بن حمود في شهر ذي القعدة سنة ٤٠٨هـ للمسير إلى جيان لقتال من بها من عسكر خيران. فلما كان اليوم الثامن والعشرون من شهر ذي القعدة خرجت عساكر علي بن حمود إلى ظاهر مدينة قرطبة وهي باستعدادها الكامل ووقفت تنتظر علي بن حمود، فدخل الحمام ومعه غلمانه فقتلوه، فلما طال عليهم انتظاره بحثوا عن أمره فدخلوا عليه فوجدوه مقتولاً، فعاد العسكر إلى البلد، وتولّى الأمر بعده أخوه القاسم بن حمود، والقاسم أكبر من علي بعدة أعوامٍ.

بايع الناس القاسم بعد مقتل أخيه عليّ، وتلقّب القاسم بـ«المأمون» فلما استقرّ ملكه كاتب العامريين واستمالهم وأقطع بعضهم إقطاعاتٍ ذات أهميةٍ، وراسل خيران واستعطفه فلجأ إليه واجتمع به ثم غادره إلى «المرية»، وبقي القاسم يملك قرطبة وغيرها إلى سنة ٤١٢هـ. وسار من قرطبة إلى إشبيلية فما ارتحل حتى جاء ابن أخيه يحيى بن عليّ من مالقة إلى قرطبة ودخلها

دون مانعٍ. ولما تمكّن يحيى بقرطبة دعا الناس إلى بيعته فأجابوه في مطلع شهر جمادى الأولى سنة ٤١٢هـ، ولقب بـ«المعتلي» وبقي بقرطبة يُدعى له بالخلافة وعمه بإشبيلية يُدعى له بالخلافة أيضاً إلى شهر ذي القعدة سنة ٤١٣هـ، فسار يحيى عن قرطبة إلى مالقة ووصل الخبر إلى عمه فركب وجدّ بالسير ليلاً ونهاراً إلى أن وصل إلى قرطبة فدخلها في الثامن عشر من شهر ذي القعدة، وكانت مدة إقامته بإشبيلية يعمل على استمالة البربر فقوي أمره بهم، وبقي القاسم في قرطبة شهوراً ثم اضطرب أمره بها، وسار ابن أخيه يحيى بن علي إلى الجزيرة الخضراء وغلب عليها وفيها أهل عمه وماله، وغلب أخوه إدريس بن علي صاحب سبتة على طنجة التي كانت عادة القاسم يلجأ إليها إن رأى ما يخيفه بالأندلس.

فلما ملك ابنا أخيه بلاده طمع فيها الناس وتسلّط عليه البربر في قرطبة وأخذوا أموال أهلها، فاجتمع أهل قرطبة وخرجوا عليه وقاتلوه بالعاشر من جمادى الأولى سنة ٤١٤هـ فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم توقّف القتال بينهم وأمن بعضهم بعضاً إلى منتصف الشهر، والقاسم بالقصر يظهر التودّد لأهل قرطبة وأنه إلى جانبهم وحقيقته مع

البربر، فلما كان يوم الجمعة منتصف جمادى الآخرة صلّى الناس الجمعة فلما فرغوا تنادوا: السلاح السلاح فاجتمعوا واستعدّوا وحفظوا البلد ودخلوا قصر الإمارة فخرج عنها القاسم واجتمع معه البربر وقاتلوا معه أهل البلد وضيّقوا عليهم، وكانوا أكثر منهم عدداً فبقوا كذلك خمسين يوماً والقتال متصل، فخاف أهل قرطبة وسألوا البربر أن يفتحوا لهم الطريق ويؤمنوهم على أنفسهم وأهليهم فأبوا إلا أن يقتلوهم، فصبروا حينئذٍ على القتال وخرجوا من البلد ثاني عشر شهر شعبان فقاتلوهم قتال مجاهدٍ فنصرهم الله على البربر، وهُزم البربر هزيمةً منكرةً ولحقت كل طائفةٍ ببلدٍ واستولت عليه. وسار القاسم بن حمود إلى إشبيلية وكتب إلى أهلها في إخلاء ألف دارٍ ليسكنها البربر فعظم ذلك عليهم، وكان في إشبيلية ولدا القاسم: محمد والحسن فثار بهما أهلها فأخرجوهما عنهم ومن معهم وضبطوا البلد، وقدّموا على أنفسهم ثلاثةً من شيوخهم وكبرائهم، وهم: القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عبّاد اللخمي[1]، ومحمد بن يريم الإلهاني

---

(١) محمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن قريش بن عباد، من بني عطاف بن نعيم اللخمي، من نسل ملك الحيرة=

ومحمد بن محمد بن الحسن الزبيدي فكانوا يدبّرون أمر البلد والناس. ثم اجتمع ابن يريم والزبيدي وسألا ابن عبّاد اللخمي أن ينفرد بتدبير أمورهم فامتنع وألّحوا عليه، فلما خاف على البلد بامتناعه أجابهم إلى ذلك وانفرد بالتدبير وحفظ البلد. فلما رأى القاسم بن حمود ذلك سار حتى نزل بـ«شريش»[1] فزحف إليه ابن أخيه

= النعمان بن المنذر، يكنى أبا القاسم، ويقال له: القاضي ابن عباد: مؤسس الدولة العبادية في إشبيلية بالأندلس، أصله من العريش بين مصر والشام، وأول من دخل الأندلس من أسلافه نعيم وعطاف، كان أبو القاسم في بدء أمره بإشبيلية أيام استيلاء القاسم بن حمود عليها بعد زوال دولة الأمويين، ثم استقلّ بها وتسمّى بالظافر وتملك قرطبة وغيرها. وعلم بخبر شخص في قلعة رباح، قال ابن حزم: اسمه خلف الحصري، يزعم أنه هشام بن الحكم الأموي (المؤيد) وأنه لم يقتل سنة ٤٠٣هـ كما قال الناس، بل اختفى فاراً، فاستدعاه إليه، وشهد بعض من بقي من نساء القصر والخدم أنه هو هشام، وكان شبيهاً به فبايعه بالخلافة وحفّه بمظاهرها سنة ٤٢٦هـ، وسمّى نفسه حاجباً له، فقوي به أمره وانتعشت دولته، وانقطعت أطماع ملوك الطوائف عنها، ودعاهم إلى بيعة المؤيد هشام فأجابه أكثرهم، واستمر أبو القاسم إلى أن توفي سنة ٤٣٣هـ. وكان أبو القاسم على اطلاعٍ بالأدب ويشارك الشعراء في صنعة الشعر، ويلقب بالقاضي ذي الوزارتين.

(١) شريش: مدينة كبيرة من كورة شذونة جنوبي الأندلس، وهي قاعدة هذه الكورة.

يحيى بن علي ومعه جمع من البربر فحصروه ثم أخذوه أسيراً فحبسه يحيى فبقي في سجنه حتى توفي يحيى وتولّى أخوه إدريس بعده فأخذ عمّه القاسم وقتله وبعث به إلى ابنه محمد وهو بالجزيرة الخضراء فدفنه[١].

ولما انهزم القاسم بن حمود ومعه البربر أمام أهل قرطبة اتفق المنتصرون على ردّ بني أمية إلى الخلافة فاختاروا عبد الرحمٰن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمٰن الناصر الأموي فبايعوه بالخلافة في الثالث عشر من شهر رمضان سنة ٤١٤هـ، وعمره حينئذٍ اثنتان وعشرون سنةً، وتلقّب بالمستظهر بالله، وكانت ولايته شهراً واحداً وسبعة عشر يوماً وقُتل، وكان سبب قتله أنه أخذ جماعةً من أعيان قرطبة فسجنهم لميلهم إلى سليمان بن عبد الرحمٰن المرتضى بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمٰن الناصر وأخذ أموالهم فسعوا عليه من السجن وألّبوا الناس فأجابهم صاحب الشرطة

---

(١) كانت ولاية القاسم بن حمود بقرطبة مذ تسمّى بالخلافة إلى أن أسره ابن أخيه ستة أعوامٍ وبقي محبوساً ستة عشر عاماً إلى أن قتل سنة ٤٣١هـ، وكان عمره ثمانون عاماً، وله من الولد محمد والحسن وأمهما أميرة بنت الحسن بن القاسم بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

وغيره واجتمعوا وقصدوا السجن فأخرجوا من فيه، وكان ممن وافقهم أبو عبد الرحمٰن محمد بن عبد الرحمٰن بن عبيد الله بن عبد الرحمٰن الناصر في جماعةٍ كثيرةٍ فظفروا بالمستظهر فقتلوه في شهر ذي القعدة سنة ٤١٤هـ، ولم يكن له ولد.

بعد مقتل المستظهر بايع الناس أبا عبد الرحمٰن محمد وخطبوا له بالخلافة ولقّبوه المستكفي بالله، وكان همّه نفسه فقط، وبقي بالخلافة سنةً وأربعة أشهرٍ وأياماً، وثار عليه أهل قرطبة في شهر ربيع الأول سنة ٤١٦هـ فخلعوه، وخرج عن قرطبة ومعه جماعة من أصحابه حتى صاروا إلى أعمال مدينة سالم فضجر منه بعض رجاله فشوى له دجاجةً فأكلها فمات في شهر ربيع الثاني سنة ٤١٦هـ، وكان عمره خمسين سنةً.

لما مات محمد المستكفي سعى أهل قرطبة لإعادة يحيى بن علي بن حمود للخلافة، وكان بمالقة يخطب لنفسه، فكتبوا إليه وخاطبوه بالخلافة، وخطبوا له في شهر رمضان سنة ٤١٦هـ فأجابهم إلى ذلك وأرسل إليهم عبد الرحمٰن بن عطاف والياً عليهم، ولم يحضر هو باختياره فبقي عبد الرحمٰن بن عطاف في قرطبة إلى شهر المحرم سنة ٤١٧هـ، فسار إليه مجاهد وخيران العامريان

في شهر ربيع الأول في جيشٍ كثيرٍ فلما اقترب من قرطبة الغزاة ثار أهلها على عبد الرحمٰن بن عطاف فأخرجوه وقتلوا من أصحابه جماعةً كثيرةً ونجا الباقون، وأقام مجاهد وخيران بها نحو شهرٍ ثم اختلفا فخاف كل منهما صاحبه فخرج خيران منها لسبعٍ بقين من شهر ربيع الثاني سنة ٤١٧هـ وسار إلى المرية وبقي فيها حتى سنة ٤١٨هـ وتوفي، وصارت المرية بعده لصاحبه زهير العامري، فخالف حبوس بن ماكسن الصنهاجي وأخوه علي طاعة يحيى بن علي بن حمود، وبقي مجاهد مدةً في قرطبة ثم سار إلى دانية، وقطعت خطبة يحيى بن علي بن حمود من قرطبة وأُعيدت الخطبة للأمويين.

شخصية القادر بالله:

كان أبيض، حسن الجسم، كثّ اللحية يُخضّب. ومن أصحاب الدين، والدوام على التهجّد، كثير الصدقات. وكان حليماً كريماً صاحب خيرٍ، يحب الخير وأهله ويأمر به، ويبغض الشرّ وأهله وينهى عنه. وصنّف كتاباً في الأصول، ذكر فيه فضل الصحابة، وكفر من قال بخلق القرآن، والمعتزلة، وذكر فضائل عمر بن عبد العزيز، وكان ذلك الكتاب يُقرأ منه في كل جمعةٍ في حلقة أصحاب الحديث، ويحضره الناس مدة

خلافته. وعدّه ابن الصلاح في الشافعية، تفقّه على أبي بشر أحمد بن محمد الهروي.

وقال أبو الحسن الأبهري: أرسلني بهاء الدولة إلى القادر بالله في رسالةٍ فسمعته ينشد:

سبق القضاء بكل ما هو كائن
والله يا هذا لرزقك ضامن

تُعنى بما يفنى وتترك ما به
تغنى كأنك للحوادث آمن

أوما ترى الدنيا ومصرع أهلها
فاعمل ليوم فراقها يا خائن

واعلم بأنك لا أبا لك في الذي
أصبحت تجمعه لغيرك خازن

يا عامر الدنيا أتعمر منزلاً
لم يبق فيه مع المنية ساكن

الموت شيء أنت تعلم أنه
حق وأنت بذكره مُتهاون

إن المنيّة لا تُؤامر من أتت
في نفسه يوماً ولا تستأذن

فقلت: الحمد لله الذي وفّق أمير المؤمنين لإنشاد مثل هذه الأبيات، فقال: بل لله المنّة إذ ألزمنا بذكره

ووفّقنا لشكره، ألم تسمع قول الحسن البصري في أهل المعاصي: هانوا عليه فعصوه ولو عزّوا عليه لعصمهم، ومناقبه كثيرة[1].

مرض الخليفة القادر بالله سنة ٤٢١هـ فعهد إلى ولده عبد الله بن أبي جعفر بالخلافة بعده ودعي له على المنابر يوم الجمعة لتسعٍ بقين من جمادى الأولى سنة ٤٢١هـ.

وتوفي ليلة الاثنين الحادي عشر من شهر ذي الحجة سنة ٤٢٢هـ ودفن ليلة الثلاثاء بين المغرب والعشاء وصلّى عليه ابنه القائم بأمر الله، فكان عمره ستاً وثمانين سنةً، وقضى بالخلافة من عمره إحدى وأربعين سنةً وثلاثة أشهرٍ.

---

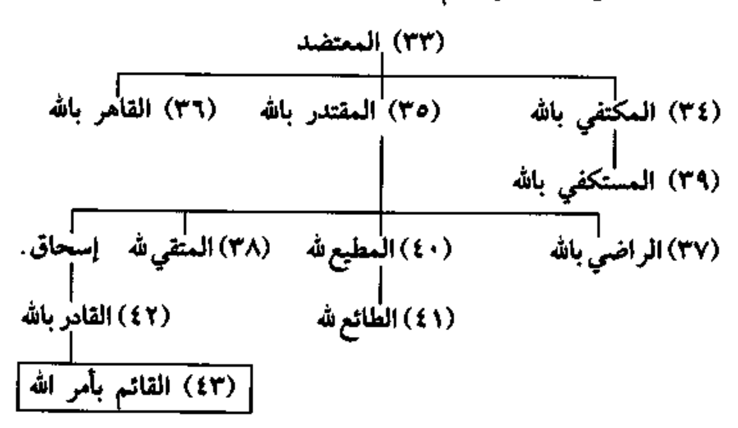
(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

الفصل الرابع

٤٣ - القائم بأمر الله

٤٢٢ - ٤٦٧هـ

القائم بأمر الله هو أبو جعفر عبد الله بن أحمد القادر بالله بن إسحاق بن جعفر المقتدر بالله بن أحمد المعتضد بالله بن طلحة الموفق بالله بن جعفر المتوكل على الله بن محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس عمّ رسول الله ﷺ.



القائم بأمر الله قبل الخلافة:

ولد في نصف شهر ذي القعدة سنة ٣٩١هـ، وأمه أم ولدٍ أرمنية تُسمّى «بدر الدجى» وقيل «قطر الندى».

لم يكن لعبد الله بن أحمد القادر بالله أي دورٍ قبل الخلافة سواء أكان ذلك في الحياة السياسية أم في الحياة الاجتماعية أم في الجهاد، فكان كسلفه من الخلفاء في العهد البويهي فالخليفة اسم يُلقّب به بعض أبناء الأسرة من بني العباس وصورة أمام الناس والحلّ والعقد والأمر والنهي كله بيد بني بويه، كما أن الجهاد لنشر الإسلام وقتال الأعداء قد توقّف، فالمهادنة هي الغالبة وإذا كان قتال فهو غارات وهذا بالنسبة إلى الروم أما الفرق الضالة كالقرامطة والعبيديين فقد تُركت لهم اليد للإفساد والتخريب وبثّ الكفر وإظهار الضلال، والخليفة إذا احتاج إليه المسيطرون البويهيون قدّموا اسمه ومنزلته لحلّ بعض الأمور أو توقيع الرقع المكتوبة مسبقاً.

خلافة القائم بأمر الله:

لما مات القادر بالله في الحادي عشر من شهر ذي الحجة سنة ٤٢٢هـ؛ صلّى عليه ابنه عبد الله القائم بأمر الله، ودفنه في الليلة التالية وهي ليلة الثلاثاء وذلك

بين المغرب والعشاء، وجلس القائم في صباح اليوم الثاني وهو الأربعاء في قصر الخلافة، وجُددت له البيعة، وكان أبوه قد بايع له بولاية العهد سنة ٤٢١هـ، واستقرّت له الخلافة، وكان عمره يومذاك إحدى وثلاثين سنةً، كما أن أباه هو الذي لقّبه بـ«القائم بأمر الله».

اقتنع المتلوّنون أن أمر الخلافة الإسلامية قد وهن وأن مكانة الخلفاء قد ضعفت وأن قوة عسكرها قد تبدّدت وأن فكرة الجهاد قد انحسرت في النفوس وأنه قد آن الأوان للعمل على ضرب الإسلام بإزالة الخلافة. ورأى المتلوّنون أن اجتثاث الخلافة لا يصحّ أن يكون على يد جماعةٍ معينةٍ أو أتباع أرومةٍ واحدةٍ لأن هذا سيثير النقمة على هذه الفئة وسيُعلن الحرب عليها والجهد بها وإذا أُعلن الجهاد فلن تقف أمام المجاهدين قوة مهما عتت لأن المجاهدين يطلبون الشهادة فلا يهابون قوةً ولا يخافون بطولةً ولا يخشون موتاً عكس خصومهم الذين يحبون الحياة ويأملون تحقيق الأماني وبلوغ المآرب الدنيوية بل إن الأرومة التي ينتمي إليها أكثر المتلوّنين فيها مسلمون صادقون وسينضمون إلى إخوانهم المؤمنين فلا يُفكّرون بعصبية الأرومة بل لا

تخطر على بالهم لأنها عصبية جاهلية وقد امتلأت قلوبهم بالإيمان لذا يجب إثارة الفتنة على أساس المصالح لتسبح الأفكار بالأهواء ويحلّق الخيال بالرغبات الدنيوية.

ورأى المتلوّنون أن يكون العمل ببدء الأكثرية بالفتنة على غير العادة كي تضيع أكثر المعالم ويختفي المتلوّنون وراء العمل، وكعادتهم ينضمّون إلى جانب الأقلية وهي وإن لم تكن جميعها من أرومتهم غير أنها قد تأثّرت بما بثّوه من أفكارٍ فيها المخالفة وفيها البعد عن أصول العقيدة فرسخ في النفوس عند بعضهم وبقي عاطفةً عند آخرين، كما أن المؤمنين من أرومتهم بعيدون عنهم، وربما لعبت العصبية الجاهلية عند أفرادٍ.

منذ أن مرض الخليفة القادر بالله أخذت الأفكار تُطرح وبدأت المخططات تُرسم ما دام الأمر يحتاج إلى انتقال الخلافة من رجلٍ إلى آخر. وفجأةً ظهر رجل يحمل لقب «المذكور» ودعا إلى الجهاد وأظهر العزم على ذلك، واستأذن من الخليفة القادر بالله في شهر ربيع الأول سنة ٤٢٢هـ فأذن له، وكتب له منشوراً من دار الخلافة، وأُعطي علماً فاجتمع حوله لفيف كثير فالناس متعطشة للجهاد ولكن ليس هناك من يدعوهم

إليه ولا من يحملهم لذلك، غير أن هذا المذكور قد أراد غير ما أظهر فسار وبين يديه الرجال والسلاح فصاحوا بذكر أبي بكر وعمر ﷺ، وصاحوا هذا يوم معاوية فنافرهم أهل الكرخ ورموهم وغضبوا غضباً شديداً وكأن مهمتهم في الحياة معاداة الصحابة وشتمهم، وثارت الفتنة، ونهبت دور اليهود لأنهم دعموا أهل الكرخ، ووقف أصحاب النفوذ من المتلوّنين كذلك إلى جانب أهل الكرخ، فصحيح أنهم يتظاهرون أنهم معهم بل من قادتهم وساداتهم وممن تشرّبوا حبّ آل البيت في قلوبهم، والحقيقة غير ذلك فهم لا يحبون هؤلاء ولا أولئك ولكن لإثارة الفتنة وإضعاف الأمة ولبثّ فكرهم الضال بين أصحاب العاطفة الذين يُبدون محبة جماعةٍ من المسلمين ثم للهدم من الداخل. فظهر أن الذي أثار الفتنة الطرف الآخر والواقع أن الذي أشعلها ذلك الدعيّ «المذكور» وكان المتلوّنون وراءه وهم الذين خطّطوا لذلك، وأنكر الخليفة ما حدث إنكاراً شديداً، وركب الوزير لتهدئة الحركة فأُصيب، واشتدّ الأمر إذ زادت الحرائق وامتدّ القتال إلى عددٍ من الأسواق، وأظهر الجند كراهيتهم لجلال الدولة البويهي وأرادوا قطع خطبته ففرّق فيهم الأموال وحلف لهم فسكنوا بعد أن اقتنعوا أن المتلونين وراء الفتنة، ثم

عاودوا الشكوى إلى الخليفة وطلبوا منه أن يأمر بقطع خطبة جلال الدولة فلم يجبهم إذ لا يملك من الأمر شيئاً، واستمرت الحالة إلى عيد الفطر.

وتوفي الخليفة القادر بالله في شهر ذي الحجة ٤٢٢هـ، وتولى الأمر ابنه القائم بأمر الله، وهدأت الأمور نسبياً فأحبّ المتلوّنون إشعالها من جديدٍ وزيادة أوارها، وأرادوا إثارة العصبية الجاهلية لكسب أبناء أرومتهم كافةً ليكونوا إلى جانبهم ولإثارة المجموعة الثانية وهي الأتراك ومتى برزت قرون الجاهلية التهبت الفتنة وعمّ لهيبها الجميع.

أثار جلال الدولة البويهي في شهر ربيع الأول سنة ٤٢٣هـ الجند الأتراك وجلس في بيته وأغلق بابه لا يقابل أحداً ولا يرغب السماع من أحدٍ فجاء الأتراك إليه ودخلوا داره ونهبوها، وطلبوا الوزير أبا إسحاق السهلي فهرب منهم، وهرب جلال الدولة إلى «عكبرا» في شهر ربيع الثاني، فخطب الأتراك ببغداد لابن أخيه المرزبان أبي كاليجار، وأرسلوا إليه يطلبونه وهو بالأهواز فأُشير إليه ألا يستجيب فامتنع، فلما رأوا امتناعه أعادوا خطبة جلال الدولة وساروا إليه وسألوه العودة إلى بغداد واعتذروا له فرجع بعد ثلاثةٍ وأربعين يوماً.

ورجع الجند فثاروا على جلال الدولة في شهر رمضان سنة ٤٢٤هـ، وقبضوا عليه وأخرجوه من داره ثم سألوه أن يعود إليها فعاد، ثم انتقل إلى الكرخ مع وزيره أبي القاسم فاستقبلهما أهل الكرخ بالحفاوة، ثم اختلف الجند فقال بعضهم: نخرجه من بلادنا ونُملّك غيره، وقال بعضهم: ليس من غيره وغير ابن أخيه أبي كاليجار المرزبان، وأبو كاليجار قد رجع إلى الأهواز، ولا بد من المداراة، وانتقل جلال الدولة قليلاً إلى واسط ثم رجع إلى بغداد وصفت الأمور نسبياً.

وضعف أمر الخلافة ببغداد وعاد الجند فثاروا على جلال الدولة سنة ٤٢٧هـ فانتقل متخفياً إلى الكرخ ونزل بدار الشريف المرتضى، ودخل الجند دار جلال الدولة ونهبوها وخرّبوا فيها، فأرسل الخليفة إليه بالعودة إلى داره فرجع.

وحدثت فتنة سنة ٤٢٨هـ بين جلال الدولة وبين أحد أكابر الأمراء ويُدعى «بارسطغان» ويلقّب حاجب الحُجّاب، وقد خاف «بارسطغان» على نفسه فالتجأ إلى دار الخلافة في شهر رجب سنة ٤٢٨هـ، وتردّدت الرسل بين الخليفة وبين جلال الدولة، ودافع الخليفة عن بارسطغان، وأخذ بارسطغان يراسل أبا كاليجار ملك

الأهواز، فبعث أبو كاليجار جيشاً إلى واسط فاتفقوا مع عسكر واسط وأخرجوا الملك العزيز بن جلال الدولة من واسط وكان نائب أبيه عليها، فخرج إلى أبيه، وكشف بارسطغان القناع وجمع حوله جماعةً ونادوا بأبي كاليجار وأخرجوا جلال الدولة من بغداد فسار إلى «أوانا»[1] ومعه البساسيري، وأخرج بارسطغان الوزير أبا الفضل العباس بن الحسن فنظر بالأمور نيابةً عن الملك أبي كاليجار، وأرسل بارسطغان إلى الخليفة يطلب الخطبة لأبي كاليجار، فاحتجّ بعهود جلال الدولة، فأكره بارسطغان الخطباء على الخطبة لأبي كاليجار ففعلوا، وجرى بين الفريقين مناوشات، وسار جند واسط إلى بارسطغان ببغداد فكانوا معه، وتعقّدت الأمور بين جلال الدولة وبارسطغان فعاد جلال الدولة إلى بغداد ونزل بالجانب الغربي منها ومعه قرواش بن المقلد العقيلي ودبيس بن علي بن مزيد الأسدي، وخُطب لجلال الدولة بالجانب الغربي من بغداد ولأبي كاليجار بالجانب الشرقي منها. وسار جلال الدولة إلى

---

(١) أوانا: بليدة كثيرة البساتين والشجر، تعدّ منتزهاً تقع إلى الشمال من بغداد، وتبعد عنها خمسين كيلاً، بينها وبين مدينة تكريت.

الأنبار، وسار قرواش بن المقلد إلى الموصل، ووصل الخبر إلى بارسغطان أن أبا كاليجار قد عاد إلى فارس ففارق الديلم بارسطغان فضعف أمره فغادر بغداد وسار إلى واسط، فرجع جلال الدولة إلى بغداد وأرسل البساسيري في أثر بارسطغان ثم تبعهم جلال الدولة ودبيس بن علي بن مزيد الأسدي فلحقوه بالخيزرانية فقاتلوه فسقط عن فرسه فأُخذ أسيراً وحُمل إلى جلال الدولة فقتله. وسار جلال الدولة إلى واسط فملكها.

وترددت الرسل بين أبي كاليجار وعمه جلال الدولة بالصلح والتفاهم وإزالة الخلاف فتمّ الاتفاق على الصلح وحلف كل واحدٍ منهما لصاحبه، وأرسل الخليفة القائم بأمر الله الخلع النفيسة إلى أبي كاليجار، وتزوّج أبو منصور بن أبي كاليجار ابنة جلال الدولة.

وسأل جلال الدولة الخليفة القائم بأمر الله ليُخاطب بملك الملوك فامتنع ثم أجاب إليه إذ أفتى الفقهاء بجوازه إلا قاضي القضاة أبو الحسن الماوردي إذ امتنع عن ذلك.

وسيّر أبو كاليجار جيشاً إلى البصرة فملكها في شهر صفر سنة ٤٣١هـ، وكانت بيد الظهير أبي القاسم الذي تولّى أمرها بعد بختيار، وأنه عصى

على أبي كاليجار مرةً وصار في طاعة جلال الدولة، ثم فارقه وعاد إلى طاعة أبي كاليجار ويحمل له كل سنةٍ سبعين ألف دينارٍ، وارتفعت مكانة الظهير أبي القاسم وتعرّض إلى أملاك أبي الحسن بن أبي القاسم بن مكرم صاحب عمان وأخذ أمواله فراسل أبو الحسن الملك أبا كاليجار وبذل زيادة ثلاثين ألف في ضمان البصرة كل سنةٍ وجرى الحديث عن السير إلى البصرة فصادف قلباً موغراً من الظهير فحصلت الإجابة وجهّز أبو كاليجار جيشاً مع العادل أبي منصور فوصل إلى البصرة وحاصرها، كما سارت العساكر من عُمان في البحر وألقت الحصار على البصرة أيضاً، وأُلقي القبض على الظهير وأُخذت أمواله جميعها، ووصل أبو كاليجار إلى البصرة فأقام بها قليلاً ثم عاد إلى الأهواز، وجعل ابنه عزّ الملوك فيها ومعه الوزير أبو الفرج، وأخذ الظهير معه إلى الأهواز.

وشغب الجند الأتراك على جلال الدولة ببغداد سنة ٤٣١هـ فخافهم فانتقل إلى الجانب الغربي من بغداد، ثم تردّدت الرسل بينهم بالصلح، وأراد الارتحال عن بغداد غير أن أصحابه حالوا دون ذلك فراسل

دبيس بن مزيد الأسدي وقرواش بن مقلد العقيلي[1] صاحب الموصل وجمع عنده العسكر فاستقرت القواعد بينهم ورجع إلى داره.

وقع الخلاف بين جلال الدولة وبين قرواش بن مقلد العقيلي صاحب الموصل، وذلك أن صاحب الموصل بعث قوةً إلى تكريت ليضمّها إليه وجرى قتال مع أمير تكريت خميس بن ثعلب في شهر ذي القعدة سنة ٤٣١هـ فأرسل خميس ولده إلى جلال الدولة في بغداد وبذل له بذولاً كثيرةً ليكفّ قرواش عنه فأجابه إلى ذلك، وبعث إلى قرواش يأمره بالكفّ عن تكريت فلم يستجب بل سار بنفسه إلى تكريت وألقى الحصار عليها، ثم أخذ يراسل الجند الأتراك في بغداد يُثيرهم على جلال الدولة، وعلم جلال الدولة بذلك فأرسل له

---

(١) قرواش بن المقلد بن المسيب العقيلي، من هوازن، أبو المنيع، معتمد الدولة: صاحب الموصل والكوفة والمدائن، وليها بعد مقتل أبيه سنة ٣٩١هـ، وكان أديباً شاعراً، أحسن تدبير مملكته وإدارة رعيته، ودامت إمرته خمسين سنةً، ووقع خلاف بينه وبين أخيه بركة بن المقلد، فقبض عليه أخوه سنة ٤٤١هـ وحبسه في إحدى قلاع الموصل، ثم نقله ابن أخيه قريش بن بدران بن المقلد إلى قلعة الجراحية من أعمال الموصل فتوفي سنة ٤٤٤هـ.

أرسلان بن عبد الله البساسيري[1] في شهر صفر سنة ٤٣٢هـ على رأس قوةٍ فيها مجموعات من الأعراب والأتراك وقاموا أثناء سيرهم بتعدياتٍ حالت دون بلوغ قصدهم، واشتدّ الأمر على جلال الدولة فجمع العساكر وسار إلى الأنبار على عزم أخذها من قرواش غير أن الأحداث قد حالت دون ذلك حيث اصطدموا مع الأعراب وقلّ التموين، ثم اختلف بنو عقيل على قرواش فراسل جلال الدولة، وطلب رضاه، وبذل له ما أرضاه، وعاد إلى طاعته فتحالفا، وعاد كل إلى مكانه.

وأرسل أبو كاليجار سنة ٤٣٣هـ عسكراً في البحر إلى عُمان إذ وقع عصيان فيها فوصل العسكر إلى

---

(١) أرسلان بن عبد الله، أبو الحارث البساسيري: قائد، ثائر، تركي الأصل كان من مماليك بني بويه فحمل أفكارهم وكان ضمن مخططهم، وخدم الخليفة العباسي القائم بأمر الله فقدّمه على الأتراك جميعاً في بغداد، وخُطب له على منابر بغداد والأهواز، وقلّده الخليفة الأمور كلها فعظُم أمره، وهابته الملوك، وتلقّب بالمظفّر، ثم تنكّر للخليفة القائم بأمر الله وأخرجه من بغداد، وخطب للمستنصر العبيدي صاحب مصر سنة ٤٥٠هـ، وأخذ له بيعة القضاة والأشراف ببغداد قسراً، ولم يثق به المستنصر فأهمل أمره فتغلّب عليه أعوان الخليفة من عسكر السلطان طغرل بك فقتلوه سنة ٤٥١هـ.

«صحار»[1] فملكوها، وعاد الخارجون إلى الطاعة واستقرت الأمور، وعاد عسكر أبي كاليجار إلى البصرة.

ووقعت وحشة سنة ٤٣٤هـ بين الخليفة القائم بأمر الله وبين الملك جلال الدولة وذلك لتعدّي الملك على صلاحية الخليفة.

وفي السادس من شعبان سنة ٤٣٥هـ توفي جلال الدولة[2]. ولما توفي كان ولده الأكبر الملك العزيز أبو منصور بواسط فكاتبه الأجناد بالطاعة وشرطوا عليه تعجيل ما جرت عليه العادة من حق البيعة فترددت المراسلات بينهما لفقد المال، وبلغ موته إلى أبي كاليجار بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة أي ابن أخيه وكان ملك البصرة، فكاتب القواد والأجناد ورغّبهم بالمال وكثرته وتعجيله فمالوا إليه وعدلوا عن الملك العزيز بن جلال الدولة. وكان الملك العزيز قد سار من

---

(١) صحار: مدينة ساحلية على ساحل خليج عُمان بين مسقط والفجيرة.

(٢) جلال الدولة أبو طاهر بن بهاء الدولة فيروز بن عضد الدولة فناخسرو البويهي: ولد سنة ٣٨٣هـ، وملك ببغداد ست عشرة سنةً وأحد عشر شهراً، وكان مرضه ورماً في كبده، وبقي عدة أيامٍ مريضاً ودفن بداره.

واسط باتجاه بغداد فلما وصل إلى النعمانية غدر به جنده فتركوه ورجعوا إلى واسط فاضطر أن يفرّ هائماً على وجهه من مكانٍ لآخر ومن والٍ لثانٍ ورجع إلى بغداد يريد الفتنة فدخلها متخفياً فثار عليه جند أبي كاليجار فخرج منها متنكراً بعد أن قتل من كان عنده، ووصل إلى نصر الدين بن مروان وتوفي بـ«ميافارقين» سنة ٤٤١هـ.

وأما أبو كاليجار فلم تزل الرسل تتردد بينه وبين قادة عسكر بغداد حتى استقرّ له الأمر، وحلفوا، وخطبوا له ببغداد في شهر صفر سنة ٤٣٦هـ، وكان قد أرسل أموالاً فُرّقت على الجند وبعث عشرة آلاف دينارٍ إلى الخليفة القائم بأمر الله ومعها هدايا كثيرة، ولقّبه الخليفة بـ«محيي الدين»، وسار إلى بغداد، بمائة فارسٍ من أصحابه لئلا تخافه الأتراك، ودخل بغداد في شهر رمضان سنة ٤٣٦هـ.

أرسل الملك أبو كاليجار سنة ٤٣٩هـ إلى السلطان ركن الدين طغرل بك بالصلح فأجابه إليه واصطلحا وكتب طغرل بك إلى أخيه «ينال» يأمره بالكفّ عما وراء ما بيده، واستقر الحال أن يتزوج طغرل بك بابنة أبي كاليجار ويتزوج الأمير أبو منصور بن أبي كاليجار بابنة

داود أخي طغرل بك وجرى العقد في شهر ربيع الثاني سنة ٤٣٩هـ.

وسار أبو كاليجار[1] إلى كرمان في شهر ربيع الثاني سنة ٤٤٠هـ لأخذها من أميرها «بهرام بن لشكرستان»، وقبل أن يصل أبو كاليجار[1] إلى هدفه شعر بخشونةٍ في حلقه فلم يُبال ولم يلبث أن توفي. ورجع ابنه أبو منصور فلاستون إلى مدينة شيراز وملكها. ولما وصل خبر وفاة الملك أبي كاليجار إلى بغداد وبها ولده أبو نصر خسروفيروز أحضر أبو نصر الجند واستحلفهم، وراسل الخليفة القائم بأمر الله بإمضاء الخطبة له، وإعطائه لقب «الملك الرحيم» فأجابه الخليفة إلى ما أراد ولكن امتنع عن إعطائه لقب «الملك الرحيم» إذ قال لا يجوز. واستقرّ ملكه بالعراق والبصرة

---

(١) أبو كاليجار المرزبان بن سلطان الدولة أبي شجاع بن بهاء الدولة فيروز بن عضد الدولة فناخسرو البويهي: مات وعمره أربعون سنةً وشهور، وكان ملكه بالعراق بعد وفاة جلال الدولة أربع سنوات وشهرين وعشرين يوماً، ولأبي كاليجار من الأولاد: خسرو فيروز (الملك الرحيم)، وفولاستون أبو منصور، وخسرو شاه أبو سعيد، واسفنديار، وكامرو أبو طالب وبهرام أبو المظفر، وكيخسرو أبو علي، مع ثلاثةٍ صغار.

والأهواز. وكان أبو علي كيخسرو بالبصرة. وكان فولاستون أبو منصور قد استولى على شيراز فسيّر إليه الملك الرحيم أخاه خسروشاه أبا سعيد في عسكرٍ فملكوا شيراز وخطبوا للملك الرحيم، وقبضوا على الأمير أبي منصور ووالدته وذلك في شهر شوال سنة ٤٤٠هـ.

سار الملك خسروفيروز من بغداد إلى الأهواز سنة ٤٤٠هـ فأطاعه جندها، وكان الملك العزيز بن جلال الدولة قد سار إلى البصرة لما وصل إليه خبر موت ابن عمه المرزبان أبو كاليجار لكن العساكر فيها قد خرجوا إليه وقاتلوه وهزموه فاضطر إلى الرجوع عنها.

وخُطب سنة ٤٤٠هـ للأمير أبي العباس محمد بن الخليفة القائم بأمر الله بولاية العهد، ولُقّب بـ«ذخيرة الدين» وولي عهد المسلمين.

وقامت فتنة عمياء في بغداد بين أهل الكرخ وغيرهم وفاقت ما يقع سنوياً في العاشر من المحرم وفي الثامن عشر من شهر ذي الحجة، وامتدت من أواخر سنة ٤٤٤هـ إلى منتصف سنة ٤٤٥هـ.

وصل طغرل بك السلجوقي إلى أصبهان وأصابه

المرض، وتوقّع بعضهم وفاته، ثم عافاه الله، ووصل إليه الأمير كيخسرو أبو علي بن الملك المرزبان أبي كاليجار الذي كان صاحب البصرة فأكرمه طغرل بك وأحسن ضيافته ووعده بالدعم.

رجع الأمير أبو منصور فولاستون بن الملك أبي كاليجار إلى شيراز فاستولى عليها، وخرج منها أخوه أبو سعيد خسروشاه وذلك سنة ٤٤٦هـ.

واستولى طغرل بك السلجوقي على أذربيجان فأطاعه أمراؤها فأبقاهم على أعمالهم وقصد «ملاذكرد» وهي للروم فحاصرها وضيّق على أهلها وأخذ ما جاورها، فأرسل له نصر الدولة بن مروان صاحب ديار بكر الهدايا الكثيرة والعساكر، وكان قد خطب له قبل هذا الوقت وأطاعه وآثر السلطان طغرل بك غزو الروم فتقدّم في بلادهم ونال من الغنائم الكثير ووصل إلى «أرزنجان» ثم عاد إلى أذربيجان عندما هجم الشتاء من غير أن يدخل «ملازكرد» وأظهر أنه يقيم إلى أن ينتهي الشتاء ثم يعود ليتابع الجهاد، وسار إلى الريّ فأقام بها إلى أن انتهت سنة ٤٤٦هـ ودخل العام الجديد فرجع نحو العراق.

وسار صاحب الموصل الأمير أبو المعالي

قريش بن بدران[1] إلى مدينة الأنبار فدخلها وخطب فيها لطغرل بك ذلك أن جهاد طغرل بك في بلاد الروم قد أيقظ الهمم وأثار النفوس إذ مضت مدة ليست بالقصيرة تساهل فيها المتنفّذون بالجهاد، وابتعدوا بالناس عنه حتى كادت الرعية تنساه، فلما أعلن طغرل بك أنه مجاهد مالت النفوس إليه وأحبته، وانتبهت إلى ما أريد لها سابقاً وما خطط لذلك من (المتلوّنين).

ووقعت وحشة بين الخليفة القائم بالله وبين أبي الحارث البساسيري في شهر رمضان سنة ٤٤٦هـ، وذلك أن رجلين من أصحاب قريش بن بدران قد دخلا بغداد سرّاً فثارت ثائرة البساسيري وأخذ يتصرّف دون الرجوع إلى مسؤولٍ، واتجه في شهر ذي الحجة إلى الأنبار سنة ٤٤٦هـ ليملك الأنبار من جديدٍ ويسترجعها من قريش بن بدران، فدخلها قهراً وأحرق وهدّم الكثير، ونهب البلد ورجع إلى بغداد.

وفي شهر المحرم من سنة ٤٤٧هـ سار القائد فولاذ الديلمي بأمر خسروفيروز الملك الرحيم إلى شيراز

---

(١) قريش بن بدران العقيلي، أبو المعالي: صاحب الموصل ونصيبين، استمرت دولته عشر سنواتٍ، ومات بالطاعون في نصيبين سنة ٤٥٣هـ.

فدخلها وأخرج عنها الأمير أبا منصور فولاستون، وأقام بها، وقطع خطبة طغرل بك وخطب لخسروفيروز ولأخيه أبي سعيد خسروشاه، وكاتبهما يُظهر لهما الطاعة فعلما أنه يخدعهما بذلك فسار إليه أبو سعيد خسروشاه واجتمع وأخوه أبو منصور فولاستون على السير إلى شيراز وحصار القائد فولاذ فيها على أساس طاعة أخيهما خسروفيروز الملك الرحيم، فسارا وحاصرا فولاذ وطال الحصار إلى أن فُقدت الأقوات فهرب فولاذ مع عددٍ من صحبه إلى قلعة اصطخر ودخل فولاستون وخسروشاه شيراز.

وثب الأتراك على البساسيري وألقوا عليه القبض، واقتنعوا أن الأرومة لا تُغني شيئاً وأن الأمر يعود إلى العقيدة وحدها وكذلك فإن ما يُظهره المرء لا يغني عن حقيقته. وقامت جماعة من المسلمين تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، واستأذن بعضهم من دار الخلافة في السير إلى دار البساسيري ونهبها فإن صاحبه أبا سعد النصراني يتاجر بما حرّم الله وسنده البساسيري فأُذن لهم في شهر رمضان سنة ٤٤٧هـ، فنهبوها وأحرقوها، ونُسب إلى البساسيري الصلة مع المستنصر العبيدي صاحب مصر، وفسدت الحال مع الخليفة إلى

حدٍ لا يُرجى صلاحه، وأرسل الخليفة إلى خسروفيروز الملك الرحيم البويهي يأمره بإبعاد البساسيري فأبعده.

عاد طغرل بك السلجوقي إلى همدان وأعلن أنه يريد الحج سنة ٤٤٧هـ كما ينوي إصلاح طريق مكة والسير إلى الشام ومصر وإزالة الحكم العبيدي للخلاص من ضلالاته فعظم الإرجاف عند الذين يلتقون مع العبيديين ببعض الأهداف والمخططات. ووصل طغرل بك إلى حلوان، وسمع خسروفيروز الملك الرحيم باقتراب طغرل بك من بغداد فارتحل إلى واسط وفارقه البساسيري في الطريق لمراسلةٍ وردت إلى خسروفيروز البويهي (الملك الرحيم) من الخليفة يُعلمه فيها أن البساسيري قد خلع الطاعة وقد راسل الأعداء العبيديين، لذا فإن الملك إذا آثر البساسيري فقد انقطع ما بينهما وإن أبعده ورجع إلى بغداد تولّى الديوان أمره، لذا فقد رجع خسروفيروز البويهي إلى بغداد على حين سار البساسيري إلى نور الدولة دبيس الأسدي[(١)]

(١) دبيس بن علي بن مزيد الأسدي، أبو الأعزّ، نور الدولة: أمير بادية الحلة في العراق، ولد سنة ٣٩٤هـ، وليها بعد وفاة أبيه سنة ٤٠٨هـ، وثارت عليه فتن كثيرة ساعده البساسيري أخيراً على قمعها، فلما استقرّ حرّضه البساسيري على معاداة بني=

لمصاهرةٍ بينهما. وأرسل طغرل بك رسولاً إلى الخليفة يُعلن به الطاعة ويعد الأتراك في بغداد بالجميل والإحسان. ووصل خسروفيروز (الملك الرحيم) إلى بغداد في منتصف رمضان سنة ٤٤٧هـ، وأرسل إلى الخليفة يُعلن له الطاعة أيضاً، وأنه قد سلّم أمره إليه ليفعل ما تقتضيه العواطف معه، وكذلك قال الأمراء الذين مع خسروفيروز فأُجيبوا بأن المصلحة تقتضي أن يدخل الجند خيامهم إلى بغداد من ظاهرها وأن يرسلوا رسولاً إلى طغرل بك يبذلون له الطاعة والخطبة فأجابا إلى ذلك وفعلوه، وبعثوا رسلاً إلى طغرل بك فأجابهم إلى ما طلبوا ووعدهم بالإحسان إليهم. وتقدّم الخليفة إلى الخطباء بالخطبة إلى طغرل بك بجوامع بغداد، فخُطب له يوم الجمعة لثمانٍ بقين من رمضان سنة ٤٤٧هـ. وأرسل طغرل بك يستأذن الخليفة بدخول بغداد فأذن له فوصل إلى النهروان وخرج الوزير رئيس

= العباس وموالاة العبيديين أصحاب مصر ففعل وهاجما بغداد فدخلاها سنة ٤٥٠هـ وخطبا فيها للعبيديين ولكن أمرهما لم يطل فإن السلطان طغرل بك السلجوقي قاتلهما فهزم دبيساً وقتل البساسيري سنة ٤٥١هـ، ثم رضي عن دبيس وأقرّه في إمارته حتى توفي سنة ٤٧٤هـ.

الرؤساء إلى لقائه في موكبٍ عظيمٍ من القضاة والأعيان وكبار أمراء عسكر خسروفيروز البويهي (الملك الرحيم)، ودخل طغرل بك بغداد يوم الاثنين لخمسٍ بقين من شهر رمضان سنة ٤٤٧هـ، ووصل إليه قريش بن بدران صاحب الموصل، وكان في طاعته في هذا الوقت.

ودخل طغرل بك وعسكره بغداد وحدثت فوضى وكان خسروفيروز البويهي (الملك الرحيم) يخطط ظنّاً بأن الغرباء يمكن القضاء عليهم، وجاء خسروفيروز إلى خيمة السلطان طغرل بك لتبرئة ساحته فأمر السلطان بإلقاء القبض عليه وعلى أمرائه في آخر شهر رمضان سنة ٤٤٧هـ، وحبسوا ثم نقل خسروفيروز إلى قلعة السيروان[١] وكانت مدة ولايته على بغداد ست سنواتٍ وعشرة أيامٍ، وانتقد الخليفة القائم بأمر الله ما جرى وعاتب السلطان طغرل بك على ذلك.

خرج من بغداد أعداد من الجند والتحقوا بالبساسيري فكثر جمعه، وكتب السلطان طغرل بك إلى نور الدولة دبيس يأمره بإبعاد البساسيري ففعل فسار

---

(١) السيروان: قلعة في بلاد الجبل.

البساسيري إلى رحبة مالك[1] بالشام، وكاتب المستنصر العبيدي صاحب مصر ودخل في طاعته. وأما السلطان طغرل بك فقد نظّم أمره وراعى الأحوال فقد أقطع الأمير أبا علي كيخسرو بن الملك المرزبان أبي كاليجار «قرميسين»[2] وأعمالها، وأمر أهل الكرخ أن يؤذنوا في مساجدهم فجراً بقولهم «الصلاة خير من النوم» وأمر بعمارة دار المملكة وانتقل إليها في شهر شوال سنة ٤٤٧هـ.

وهكذا ثبتت قدم السلاجقة في بغداد، وأخذت تتزعزع أقدام البويهيين وما عملوا على بثّه، وشعر الناس بشيءٍ من الراحة بزوال المتلوّنين عن الساحة، وأملوا أن تزول أفكارهم وما طرحوه من ضلالٍ، وما كانوا يثيرونه من فتنٍ في كل مناسبةٍ بغية إضعاف الأمة، كما رجوا أن يعود الجهاد إلى مكانته فينطلق المسلمون دعاةً فاتحين، كابحين للظلم ومزيلين للكفر.

---

(١) رحبة مالك: على نهر الفرات بعد التقاء نهر الخابور بالفرات بمسافة قصيرة.

(٢) قرميسين: تعريب «كرمنشاه» وكرمنشاه مدينة معروفة بين همدان وحلوان.

الغزنويون:

توفّي يمين الدولة محمود بن سبكتكين سنة ٤٢١هـ بعد أن عهد لابنه الصغير محمد، ووقع الخلاف بين محمد وأخيه الأكبر مسعود، وقتل الحاجب علي خويشاوند الملك محمد بن محمود بن سبكتكين واتفقت الكلمة على مسعود بن محمود في شهر ذي القعدة سنة ٤٢١هـ، وسار إلى غزنة فوصل إليها في الثامن من شهر جمادى الآخرة سنة ٤٢٢هـ، وشمل ملكه الهند، والسند، وغزنة، وخراسان وسجستان، وكرمان، ومكران، والريّ، وأصبهان، وبلاد الجبل.

كان يمين الدولة محمود بن سبكتكين قد استناب على ما فتحه من بلاد الهند قائداً يُسمّى «أحمد ينالتكين» لما لاحظ فيه من كفايةٍ، فلما آل أمر ملك الغزنويين إلى مسعود بن محمود ووطّد قواعده سار إلى خراسان بقصد السير إلى العراق فما أن قطع شوطاً وابتعد عن مقرّ سلطانه حتى عصى أحمد ينالتكين فاضطر مسعود إلى العودة بعد أن أناب علاء الدولة بن كالويه على أصبهان وابن قابوس بن وشمكير على جرجان وطبرستان، وسيّر أبا سهل الحمدوني إلى الريّ، وسار مسعود إلى الهند فألزم أحمد ينالتكين إلى العودة إلى

الطاعة، وتابع مسعود سيره نحو كشمير فدخل قلعة «سرستي» جنوب كشمير سنة ٤٢٥هـ، وتعدّ هذه القلعة من أكثر حصون الهند مناعةً، وكان أبوه محمود قد حاصرها أكثر من مرةٍ ولم يتهيّأ له دخولها. فلما حاصرها مسعود راسله صاحبها وبذل له مالاً على الصلح فأجابه على ذلك، وكان فيها قوم من التجار المسلمين فعزم صاحبها على أخذ أموالهم وحملها إلى مسعودٍ على أنها منه حسب الاتفاق. فكتب التجار رقعةً ورموها بالنشّاب إلى مسعود يُعرّفونه فيها ضعف الهنود بها، وأنه إن استمرّ بالحصار ملك القلعة، فرجع مسعود عن الصلح إلى القتال وردم خندق القلعة بالأشجار والأتربة ودخلها بإذن الله وأخذ ما جاورها من البلدان، وكان ينوي متابعة الجهاد بالهند، غير أن الفتن في خراسان اضطرته إلى مغادرة المنطقة، ومنها خروج علاء الدولة بن كاكويه وفرهاذ بن مرادويج وخلعهما الطاعة فسارت إليهما عساكر مسعود بن محمود بن سبكتكين بإمرة أبي سهل الحمدوني والتقى الفريقان واقتتلا قتالاً شديداً، وصبر عسكرهما ثم قُتل فرهاذ بن مرداويج وفرّ علاء الدولة بن كاكويه وتبعه أبو سهل وجرت محاولات لإعادته إلى الطاعة لم تُجد، ودخل أبو سهل أصبهان وأخذ كتب أبي علي ابن سينا الذي

كان في خدمة علاء الدولة، وحُملت الكتب إلى غزنة.

ثم إن مسعود بن محمود بن سبكتيكن قُتل سنة ٤٣٢هـ على يد ابن أخيه، ولما علم مودود بن مسعود بقتل أبيه سار بعسكره من خراسان إلى غزنة والتقى بعمه مع عسكره واقتتلوا في الثالث من شعبان سنة ٤٣٢هـ. فانتصر مودود وقبض على عمه وعلى ولده أحمد بن محمد الذي قتل مسعوداً وعلى كبار قادة عمه فقتلهم جميعاً ثم قتل أولاد عمه كلهم إلا عبد الرحيم إذ أنكر على أخيه ما فعله بعمّه مسعود. وبنى مكان المعركة مدينة أسماها «فتح أباذ» أي مدينة الفتح، وعاد إلى غزنة فدخلها في الثالث والعشرين من شهر شعبان سنة ٤٣٢هـ وقتل كل من كان له يد في القبض على أبيه مسعود، واستوزر أبا نصر وزير أبيه، وأظهر العدل وسلك سيرةً حسنةً.

كان يمين الدولة محمود بن سبكتكين قد سيّر ابنه الآخر مجدود إلى الهند سنة ٤٢٦هـ، فسار إلى الملتان وإلى لاهور فملكهما وجمع بهما العساكر وأظهر خلاف ابن أخيه مودود وخلع طاعته، فبعث له مودود جيشاً ليقاتله وتهيّأ مجدود واستعرض جنده، وحضر العيد الأضحى فانتظر ثلاثة أيامٍ وأصبح في اليوم الرابع ميتاً

في مدينة لاهور ولم يعلم سبب موته، فثبت ملك مودود، وراسله ملك الترك فيما وراء النهر بالطاعة والمتابعة.

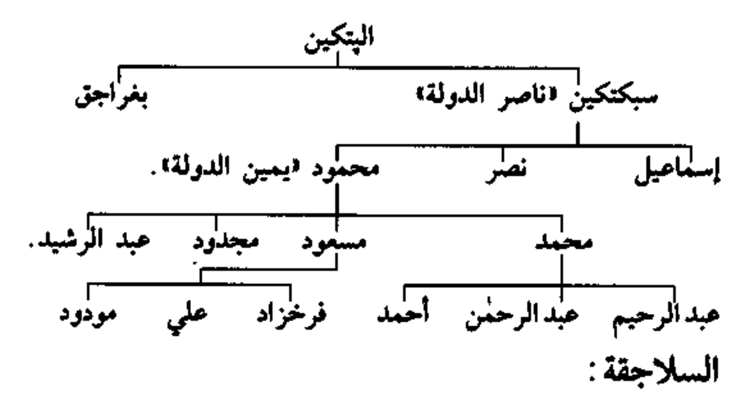
بعث أبو الفتح مودود بن مسعود عسكراً مع حاجبٍ له إلى نواحي خراسان فأرسل إليهم صاحب خراسان داود أخو طغرل بك ابنه ألب أرسلان فانتصر عليهم ورجع عسكر أبي الفتح إلى غزنة وذلك في شهر المحرم سنة ٤٣٥هـ، وتقدّم السلاجقة فبعث إليهم أبو الفتح مودود عسكراً انتصروا عليهم وذلك بعد شهرٍ واحدٍ من القتال الأول أي في شهر صفر سنة ٤٣٥هـ.

واجتمع ثلاثة ملوكٍ من ملوك الهند وقصدوا «لاهور» وحاصروها، فاستنجد صاحبها نائب الملك مودود به فسيّر إليه الجيش، واتفق أن أحد هؤلاء الملوك قد فارق جماعته وعاد إلى طاعة الملك مودود فاضطر الآخرن أن يرجعا إلى بلادهما غير أن المسلمين قد لاحقوا أحدهما وحاصروا عسكره وغنموا الكثير، وأخذوا بقية حصون ذلك الملك. ثم قصد المسلمون بلاد الملك الثاني والتقوا بقواته وكانت معركةً شديدةً بين الطرفين أسفرت عن مقتل الملك الهندي مع قتل وأسر خمسة آلافٍ من الهنود إضافةً إلى مغانم كثيرةٍ حصل عليها المسلمون.

وتوفي أبو الفتح مودود بن مسعود بن محمود بن سبكتكين في العشرين من شهر رجب سنة ٤٤١هـ، وعمره تسع وعشرون سنةً وقد ملك تسع سنواتٍ، وكانت وفاته بمدينة غزنة، وكان قد خرج يريد الغزو فلم يَسِرْ سوى مرحلةٍ حتى اشتدّ عليه «القولنج» فعاد إلى غزنة مريضاً، وسيّر وزيره أبا الفتح عبد الرزاق بن أحمد الميمندي إلى سجستان لأخذها، واشتدّت العلّة بمودود فتوفي.

قام بمُلك غزنة بعد مودود ابنه فبقي خمسة أيامٍ في الملك، ثم عدل الناس عنه إلى عمه علي بن مسعود. وكان مودود لما تولّى الملك قبض على عمّه عبد الرشيد بن محمود وسجنه في قلعة «ميدين» فلما توفي مودود كان وزيره قد اقترب من هذه القلعة فنزل عبد الرشيد إلى العسكر ودعاهم إلى طاعته فأجابوه وعادوا معه إلى غزنة فلما اقتربوا منها هرب منها علي بن مسعود، واستقرّ الملك لعبد الرشيد، وتلقّب شمس دين الله سيف الدولة.

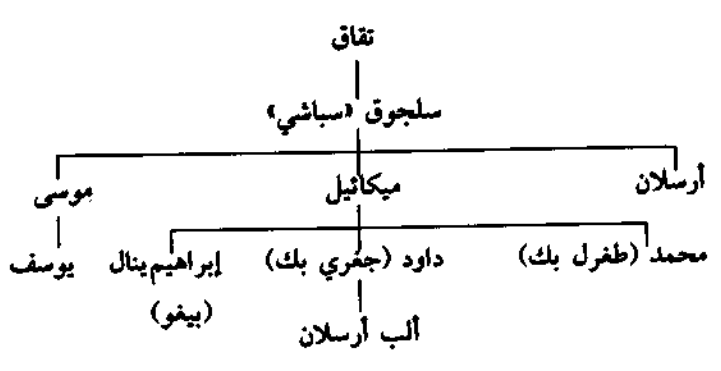
وسار طغرل إلى غزنة سنة ٤٤٤هـ وحاصرها وتمكّن من دخولها وأخذ عبد الرشيد وقتله، وتولّى أمر غزنة فرخزاد بن مسعود.



السلاجقة:

يعود السلاجقة إلى الأتراك الغُزّ والذين كان مقدمهم يُدعى «تقاق» ويعني هذا الاسم القوس الجديد، وكانوا ينقادون له ولا يخالفونه أبداً. وأراد ملك الترك «بيغو» مرةً أن يغزو ديار الإسلام، وجمع جنده واستعدّ فنصحه «تقاق» ألا يفعل، وطال الحوار بينهما فأغلظ بيغو بالكلام لتقاق، فما كان من تقاق إلا أن لطمه فشجّ رأسه، فأحاط خدم ملك الترك بيغو بـ«تقاق» وأرادوا أخذه فمانعهم وقاتلهم وساعده من معه من أصحابه فتفرّقوا عنه ثم صلُح الأمر بينهما، وأقام تقاق عنده، وولد له «سلجوق» فلما بلغ مرحلة الشباب ظهرت عليه إمارات النجابة وعلامات التفوّق، وظاهرة السيادة فقرّبه ملك الترك وقدّمه، ولقّبه «سباشي» وتعني هذه الكلمة قيادة الجيش. وكانت امرأة ملك الترك تُخوّف زوجها من سلجوق لما ترى فيه من التقدّم وطاعة الناس له والانقياد

إليه، وأغرته بقتله وبالغت في ذلك لإعراضه عنها، وسمع سلجوق بالخبر فسار بجماعته جميعاً ومن يطيعه إلى بلاد المسلمين فأكرمه الله بالإسلام والحياة مع المسلمين فازداد رفعةً وطاعةً، حتى نُسب له كل من أسلم من جماعته وأصبحوا يعرفون باسم السلاجقة[1]، وكذا نُسب إليه من أسلم من الأتراك الغزّ، وأخذ يغزو كفّار الترك، وكان ملكهم يأخذ الخراج من المسلمين في تلك البلاد، فطرد سلجوق عمّال ذلك الملك، وصفت للمسلمين.



(١) لكن أعداء الإسلام ظلّوا يطلقون عليهم اسم الأتراك الغزّ دلالة على الكفر وأيام الجاهلية، وكذا فعل أعداؤهم، ومثل هذا ما يجري اليوم بالدعوة إلى العصبيات الجاهلية كالطورانية في تركيا، والفارسية في إيران، والفرعونية في مصر، والقومية العربية في عددٍ من أمصار العرب، والبربرية في المغرب، وكذا الحرص على تسمية مصر بـ«القبط» (Egypt) وتركيز الأجانب وأعداء الإسلام على ذلك، والمسلمون لا ينتبهون.

استولى هارون بن أيلك خان على أطراف بلاد السامانيين فأرسل الملك الساماني إلى سلجوق يستمدّه فأمدّه بابنه أرسلان مع قوةٍ من أصحابه فقوي الملك الساماني على هارون واستردّ ما أخذه منه، وعاد أرسلان إلى أبيه، وتوفي سلجوق بعد مائةٍ وسبع سنواتٍ عاشها.

وغزا ميكائيل بن سلجوق بعض بلاد الأتراك غير المسلمين وقاتل بنفسه واستشهد في سبيل الله، ونزل أبناؤه بالقرب من بخارى على مائة كيلومترٍ منها، وأطاعتهم عشائرهم، ووقفوا عند أمرهم ونهيهم، وخافهم أمير بخارى، وأثاره الأعداء عليهم، فأراد الإيقاع بهم، والقضاء عليهم فالتجؤوا إلى بغراخان ملك تركستان فأقاموا في بلاده واحتموا به وامتنعوا. واستقرّ الرأي بين محمد طغرل بك وأخيه داود جغري بك أن لا يجتمعا عند بغراخان إنما يحضر عنده أحدهما ويقيم الآخر في أهله خوفاً من مكرٍ يمكره بهما فبقيا كذلك مدةً ثم إنه بغراخان اجتهد في اجتماعهما عنده فلم يفعلا فقبض على طغرل بك وأسره فثار جغري بك في عشائره ومن يتبعه وقصد بغراخان ليُخلّص أخاه، فبعث إليه بغراخان عسكراً فاقتتلوا فانهزم عسكر بغراخان وكثُر

فيهم القتل وأنقذ جغري بك أخاه من الأسر وانصرفوا إلى مقرهم السابق قرب مدينة بخارى، وأقاموا هناك.

وانتهت الدولة السامانية سنة ٣٨٩هـ، وتملّك أيلك خان بخارى وكان شأن أرسلان بن سلجوق عمّ طغرل بك قد ارتفع في بلاد ما وراء النهر، وكان علي تكين أخو أيلك خان في سجن أرسلان فخرج هارباً ودخل بخارى واستولى عليها واتفق مع أرسلان بن سلجوق فعظُمت مكانتهما فسار إليهما أيلك خان وقاتلهما لكنه هُزم، وبقيا في بخارى.

كان علي تكين يكثر معارضة يمين الدولة محمود بن سبكتكين صاحب غزنة ويقطع الطريق على رسله الذين يتردّدون إلى ملوك الترك، فلما سار الغزنوي إلى تلك الجهات وعبر نهر جيحون هرب علي تكين من بخارى، ودخل أرسلان بن سلجوق وجماعته المفازة هناك واحتموا من محمود الغزنوي. ولما رأى محمود الغزنوي قوة السلاجقة وكثرتهم أحبّ أن يستميلهم إليه فراسل أرسلان بن سلجوق ورغّبه واستماله فأتاه فقبض عليه وسجنه، وفرّق السلاجقة في جهات خراسان.

ورجع علي تكين إلى بخارى وأراد أن يعمل الحيلة ويظفر بالسلاجقة إلى جانبه أو يفرّق بينهم كي

يأمن جانبهم ويضمن جمعهم فأرسل إلى يوسف بن موسى بن سلجوق وأطمعه وقدّم له الأماني الواسعة وطلب منه الحضور إليه فأتاه فقدّمه على جميع الأتراك الذين في ملكه وأقطعه إقطاعاتٍ كثيرةً ولقّبه بالأمير إينانج بيغو، وكان قصده من ذلك كله تفريق كلمة السلاجقة غير أنه قد علم مراده لذا لم يُطعه يوسف في شيءٍ مما أراده منه.

لما رأى علي تكين أن مكره لم يُفده مع يوسف ولم يبلغ منه ما أراد أمر بقتله فقُتل على يد أحد أمراء علي تكين واسمه «ألب قره» فلما قُتل عظُم ذلك على ابني عمه طغرل بك وجغري بك وعلى جميع عشائرهم، فجمع السلاجقة جموعهم وحشد علي تكين عساكره والتقى الطرفان فانتصر السلاجقة وهُزم عسكر علي تكين، وذلك في بداية سنة ٤٢٠هـ، وكان قد وُلد لداود جغري بك ابن في الأول من شهر المحرم سنة ٤٢هـ أسماه «ألب أرسلان».

وفي سنة ٤٢١هـ قصد محمد طغرل بك وأخوه داود جغري بك ألب قره الذي قتل ابن عمهما يوسف فقتلاه، وأوقعا بفرقةٍ من عسكر علي تكين، فقتلا نحو ألف رجلٍ، فجمع علي تكين عسكره وسار إليهما بقوةٍ

كبيرةٍ فأوقعوا بعساكر السلاجقة ضربةً كبيرةً إذ قتلوا منهم مقتلةً عظيمةً وأخذوا أموالهم، وسبوا نساءهم، واضطر طغرل بك وأخوه داود ومن بقي معهما إلى التوجّه نحو خراسان، فكتب لهم خوارزمشاه هارون بن التونتاش يستدعيهم ليتفقوا معاً ليكونوا يداً واحدة فسار إليه طغرل بك وجغري بك، وبيغو (محمد، وداود، وإبراهيم)، وخيّموا بظاهر مدينة خُوارزم (خيوه) وذلك سنة ٤٢٦هـ ووثقوا بخُوارزمشاه واطمأنوا إليه، فجعل عليهم الأمير شاه ملك وأمره أن يغدر بهم وأرسل له عسكراً فكبسوهم وأكثروا فيهم القتل ونهبا ما استطاعوا نهبه من متاعهم، وأخذوا ما أمكنهم أخذه من أموالهم ونسائهم، فسار السلاجقة عن خُوارزم واتجهوا نحو (نسا) ومنها إلى (مرو)، وبقي أولادهم وذراريهم في الأسر.

راسل السلاجقة الملك مسعود بن محمود الغزنوي وكان قد ملك طبرستان، وطلبوا منه الأمان ووعدوه أن يكونوا من أعوانه وأن يُقاتلوا كل من يُخالفه، ولكن جماعةً من الخلف قد أثاروه عليهم وخوّفوه منهم، فقبض على رسلهم، وأرسل إليهم جيشاً ضخماً بقيادة حاجبه فالتقى بهم عند مدينة نسا في شهر شعبان سنة

٤٢٦هـ، وانهزم السلاجقة وأُخذت أموالهم، وجرى النزاع بين عساكر الملك مسعود على ما أخذوا من غنائم وأدّى الأمر إلى الاقتتال بعضهم مع بعض، واتفق أن داود جغري بك قد قال لجماعته السلاجقة بعد هزيمتهم: أن عسكر الأعداء الآن قد نزلوا واطمأنوا وأمنوا الطلب، والرأي أن نقصدهم عسى أن نبلغ منهم بعض ما نريد فساروا إليهم، وهم على تلك الحال من الخلاف والاقتتال فأوقعوا بهم، وقتلوا منهم، وأسروا، واستردّوا ما أخذوا من أموالهم ورجالهم، وعاد المنهزمون من عسكر الملك مسعود إليه وهو بنيسابور فندم على ردّه طاعتهم، وعلم أن هيبتهم قد تمكّنت من قلوب عساكره، وأنهم قد طمعوا بما حقّقوا من نصرٍ لذا أرسل إليهم يتهدّدهم ويتوعّدهم، فقال طغرل بك لإمام الصلاة عند السلاجقة: اكتب إلى الملك مسعود: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾[1] ولا تزد على هذا، فكتب ما قال، فلما ورد الكتاب على الملك مسعود الغزنوي أمر فكُتب إليهم كتاب مملوء بالوعود

(١) سورة آل عمران: الآية ٢٦.

الجميلة وبعث معه الخلع النفيسة، وأمرهم بالرحيل إلى «آمل» ونهاهم عن الشرّ والفساد، وأقطع دِهستان[1] لجغري بك داود، ونسا لطغرل بك محمد وفراوة[2] لبيغو إبراهيم ينال، ولقّب كل واحدٍ منهم بـ«الدهقان» لكنهم استخفّوا بمن بعث، ولم يُبالوا بالخلع، وقالوا لرسول مسعود: لو علمنا أن الملك مسعود يُبقي علينا إذا قدر لأطعناه، ولكننا نعلم أنه متى ظفر بنا أهلكنا وذلك لما علمنا مما مضى معه فنحن لا نطيعه ولا نثق به. وأخذ السلاجقة يجولون في خراسان كما يحلو لهم، ثم عادوا فأرسلوا إلى الملك مسعود يخادعونه بإظهار الطاعة، ويسألونه أن يُطلق عمهم أرسلان بن سلجوق من السجن فأجابهم إلى ذلك فأحضره عنده ببلْخ وأمره بمراسلة بني أخيه طغرل بك محمد، وجغري بك داود، وبيغو إبراهيم ينال يأمرهم بالاستقامة وكفّ الأذى فأرسل إليهم رسولاً يأمرهم بذلك، فلم يبالوا فأعاد الملك مسعود الغزنوي إلى السجن أرسلان بن سلجوق، وسار هو إلى مقره في غزنة،

(١) دِهستان: بلد مشهور في طرف إقليم مازندران قرب جرجان.
(٢) فراوة: بلدة من أعمال مدينة نسا، وبنى فراوة عبد الله بن طاهر في خلافة المأمون.

وأخذ السلاجقة يجولون في خراسان وغيرها.

أقام جغري بك داود بمدينة مرو وانهزمت عساكر السلطان مسعود أمامه مرةً بعد مرةٍ، واستولى الرعب على أصحابه ولا سيما أنه بعيد في غزنة، وتوالت كتب عماله إليه يستنجدون به، وهو لا يجيبهم إذ هو مشغول بالهند غير أن أعوانه قد لفتوا نظره إلى أن السلاجقة إذا قوي أمرهم سيطروا على خراسان ثم اتجهوا إلى غزنة فصحا مسعود من غفوته وجهّز العساكر الكثيرة وسيّرها مع أكبر القادة عنده ويدعى «سباشي» وكان حاجبه فأقام بنيسابور وأغار بغتةً على مرو وبها داود جغري بك فانهزم داود فحمل عليه صاحب جوزجان[1] فقاتله داود فقُتل صاحب جوزجان وانهزمت عساكره فعظم أمر قتله على سباشي ووقعت عليهم الذلّة وقويت نفوس السلاجقة وعاد داود إلى مرو فأحسن السيرة في أهلها وخطب فيها أول جمعةٍ في رجب سنة ٤٢٨هـ ولقّب في الخطبة بملك الملوك، وسباشي يرحل من موقعٍ إلى موقعٍ والسلاجقة يراوغونه وهو يتراخى عنهم لكنه اضطر إلى مباشرة الحرب عندما قلّت الأقوات على

---

(١) جوزجان: كورة واسعة من كور بلْخ بخراسان، وهي بين بلْخ ومرو الروذ.

العساكر والناس اضطر سباشي إلى مباشرة الحرب وترك المحاجزة فسار إلى داود وتقدّم داود إليه فالتقوا في شهر شعبان سنة ٤٢٨هـ على باب مدينة «سرخس» فاقتتل العسكران فلم يثبت عسكر سباشي وانهزموا إلى هراة فتبعهم داود وعسكره إلى طوس[١]، وبعد هذه الوقعة ملك السلاجقة خراسان فدخل طغرل بك نيسابور، وخُطب له فيها في شهر شعبان باسم السلطان العظيم، وسار داود إلى هراة وفارقها سباشي ومضى إلى غزنة وعاتبه الملك مسعود وحجبه، وسار مسعود بنفسه على رأس قوةٍ كبيرةٍ فوصل إلى بلْخ وقصده داود إليها أيضاً ونزل قريباً منها ثم دخلها، وسار مسعود من بلْخ إلى الجوزجان في أول شهر رمضان سنة ٤٢٩هـ في مائة ألف فارس، ومن الجوزجان سار إلى مرو، وسار داود إلى سَرَخْس واجتمع هو وأخواه طغرل بك وبيغو، فأرسل إليهم مسعود رسلاً في الصلح فسار بالجواب بيغو فأكرمه مسعود وخلع عليه، وكان مضمون الرسالة إنا لا نثق بمصالحتك بعد الذي حدث وجعلوه ييأس من الصلح، فسار مسعود من مرو إلى هراة وقصد داود

---

(١) طوس: مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور ستين كيلاً، وبها قبر هارون الرشيد، وقبر علي الرضا بن موسى الكاظم.

مرو فامتنع أهلها عليه فحاصرها سبعة أشهرٍ وضيّق عليهم وألحّ في قتالهم فملكها، فلما سمع مسعود بالخبر سار من هراة إلى نيسابور ومنها إلى سَرَخْس، فكان يتبع السلاجقة من موقعٍ إلى آخر وهم يغادرون الأماكن أمامه فلما حلّ الشتاء أقاموا بنيسابور ينتظرون الربيع، وكان الملك مسعود في شغلٍ عن القتال، ثم ذكّره أعوانه فذكر وتابع السلاجقة من نيسابور إلى مرو ومنها إلى البرية فضاقت عساكره بالأمر من طول العناء بالتعب والترحال والبعد عن الأهل والديار ثم الحرّ وقلّة الماء فوقع الخلاف بينهم وعلم داود بما جرى فحمل عليهم وهم على نزاعهم فولّوا مدبرين لا يلوون على نداء الملك مسعود ولا على صراخ الوزير فتبعاهم، وغنم السلاجقة الكثير الكثير، وأطلقوا الأسرى. كما أن محمد طغرل بك قد سار إلى نيسابور فملكها في أواخر شهر ذي الحجة ٤٣١هـ وأوائل شهر المحرم ٤٣٢هـ، فسكن الناس واطمأنوا بعد فوضى كانت تعمّ، وسار بيغو إبراهيم ينال إلى هراة فدخلها، وانطلق داود جغري بك إلى بلْخ وبها والي الملك مسعود، فأرسل إليه داود يطلب منه تسليم البلد ويُعلمه عجز صاحبه عن نصرته فقبض الوالي على رسل داود وسجنهم فنازله داود وحاصر المدينة فأرسل الوالي إلى

الملك مسعود، وهو بغزنة، يعرفه مجريات الأحداث، وما هو عليه من ضيق الحصار، فجهّز مسعود العساكر الكثيرة فسارت جماعة منها إلى هراة وبها بيغو إبراهيم ينال أخو طغرل بك فخرج منها ودخلها عسكر مسعود، كما سيّر مسعود ولده مودود في قوةٍ كبيرةٍ مدداً لقواته بخراسان، فسار مودود إلى بلْخ ليردّ عنها داود أخا طغرل بك، وكان مسيره من غزنة في شهر ربيع الأول سنة ٤٣٢هـ، وسار الملك مسعود بعد مسير ولده بسبعة أيامٍ يريد الهند، وقُتل مسعود في رحلته تلك. وأما مودود فإنه لما اقترب من بلْخ سيّر داود فرقةً من عسكره لمودود فأوقعوا بطلائعه وانهزمت تلك الطلائع وتبعهم عسكر داود. فلما أحسّ بهم عسكر مودود تراجعوا وعندما وصل الخبر إلى والي مسعود على بلْخ أطاع داود وسلّم إليه البلد وكان معه.

وسار طغرل بك سنة ٤٣٣هـ إلى جرجان فلما وصل إليها فتح له المقيم بها الأبواب فدخلها، وأقيمت الخطبة لطغرل بك بطبرستان كلها.

وانطلق طغرل بك سنة ٤٣٤هـ إلى خُوارزم فحاصرها ودخلها وانهزم صاحبها شاه ملك، ثم سار طغرل بك إلى الريّ، فلما سمع أخوه إبراهيم ينال

بقدومه سار إليه فلقيه وتسلّم طغرل بك الريّ منه. وأرسل إلى ملك الديلم يدعوه إلى الطاعة ويطلب منه مالاً ففعل ذلك، وسار إلى همذان فملكها، ولكن غادرتها عسكره بعد سنةٍ.

وسارت عساكر طغرل بك إلى كرمان ولكن لم يستطعوا دخولها حيث تكاثرت عليهم عسكر أبو كاليجار البويهي بقيادة مهذب الدولة.

أمر طغرل بك سنة ٤٣٧هـ أخاه بيغو إبراهيم ينال بالمسير إلى بلاد الجبل والسيطرة عليها فسار إليها من كرمان وقصد همدان ففارقها صاحبها وامتلكها إبراهيم ينال، واتجه منها إلى الدينور فغادرها صاحبها خوفاً من إبراهيم ينال وسار إلى قرميسين (كرمنشاه) فامتلك إبراهيم ينال الدينور وقد قويت عزيمته وزاد طمعه فسار يطلب قرميسين فارتحل عنها صاحبها وسار إلى حلوان وقد ترك فيها من عسكره الديلم والأكراد فوافاهم إبراهيم ينال فقاتلوه ودفعوه عن مدينتهم فانصرف عنهم، وسار إلى حلوان فملكها في آخر شعبان سنة ٤٣٧هـ، ووصلت الأخبار إلى الملك أبي كاليجار وكان بالأهواز فعزم المسير ودفع السلاجقة عن بلاده غير أنه لم يستطع السير لعدم الاستعداد الكافي.

وحاصر طغرل بك مدينة أصبهان سنة ٤٣٨هـ وضيّق على أهلها غير أنه لم يظفر بحاجته ثم تصالح مع صاحبها أبي منصور بن علاء الدولة على مال يحمله أبو منصور لطغرل بك ويخطب له بأصبهان وأعمالها.

أرسل الملك أبو كاليجار البويهي سنة ٤٣٩هـ إلى ركن الدين طغرل بك في الصلح فأجابه إليه واصطلحا، وكتب طغرل بك إلى أخيه إبراهيم ينال يأمره بالكفّ عما وراء ما بيده، واستقرت الحال بينهما أن يتزوج طغرل بك بابنة أبي كاليجار ويتزوج الأمير أبو منصور بن أبي كاليجار بابنة الملك جغري بك داود أخي طغرل بك وجرى العقد في شهر ربيع الثاني سنة ٤٣٩هـ.

ووقعت وحشة بين طغرل بك محمد وبين أخيه بيغو إبراهيم ينال، وكان سبب ذلك أن طغرل بك قد طلب من أخيه إبراهيم ينال أن يُسلّم إليه مدينة همدان والقلاع التي بيده من بلاد الجبل فامتنع واتهم وزيره أبا علي بأنه يسعى بينهما بالفساد فضربه، وجمع كل من الأخوين عسكره والتقيا واشتدّ القتال بينهما وانهزم إبراهيم ينال وسار طغرل بك في أثره فملك

بلاده جميعها وقلاعه كلها، وتحصّن إبراهيم ينال بقلعة «سرماج» وامتنع عن أخيه فحاصره طغرل بك وقاتله فملكها في أربعة أيامٍ، وهي من أحصن القلاع وأمنعها، واستنزل أخاه إبراهيم ينال منها مقهوراً، وأرسل إلى نصر الدولة بن مروان يطلب منه إقامة الخطبة له فأطاعه وخطب له في سائر ديار بكر.

واستولى طغرل بك سنة ٤٤٢هـ على أصبهان ذلك أن صاحبها أبا منصور بن علاء الدولة لم يكن ثابت الطاعة لطغرل بك فتارةً يعلن له الطاعة وأخرى يطيع الملك الرحيم بن أبي كاليجار البويهي فأضمر طغرل بك له السوء، فلما سار طغرل بك من خراسان لأخذ بلاد الجبل من أخيه إبراهيم ينال وقد فعل ذلك وسار بعدها إلى أصبهان عازماً على أخذها من أبي منصور، ووصلت الأخبار إلى أبي منصور فتحصّن ببلده واحتمى بأسوارها ووصل إليه طغرل بك في شهر المحرم سنة ٤٤٢هـ فنازله وأقام على حصاره ما يقرب من سنةٍ وكثرت الحروب بينهما إلا أن طغرل بك قد استولى على سواد أصبهان. ولما طال الحصار ضاق الأمر على صاحبها وعلى أهلها وأرسلوا إليه يبذلون

له الطاعة والمال فلم يُجبهم إلى ذلك ولم يقبل منهم إلا بتسليم البلد فصبروا حتى فُقدت الأقوات ونفذ الصبر فخضعوا وسلّموه البلد فدخله في شهر المحرم سنة ٤٤٣هـ، فأحسن إلى أبي منصور وإلى الرعية كافةً، وانتقل من الريّ إلى أصبهان وجعلها دار مُقامه.

وسار ألب أرسلان بن داود أخي طغرل بك من مدينة مرو في شهر جمادى الأولى سنة ٤٤٢هـ وقصد بلاد فارس، ولم يعلم به أحد كما لم يُعلم عمه طغرل بك فوصل إلى مدينة «فسا»[1] فانصرف عاملها، ودخلها ألب أرسلان فقتل كثيراً من الديلم ومن العامة، وأخذ الكثير من المال وعاد إلى خراسان خوفاً من عمه طغرل بك.

ومرض طغرل بك سنة ٤٤٥هـ، ووصل إلى أصبهان وهو مريض، ثم عوفي ـ بإذن الله ـ ووصل إليه الأمير أبو علي بن الملك أبي كاليجار البويهي فأكرمه وأحسن ضيافته.

---

(١) فسا: مدينة في بلاد فارس من أعمال شيراز تبعد عنها ١٤٠ كيلاً، وتبعد عن مدينة كازرون ٥٠ كيلاً.

وسار طغرل بك سنة ٤٤٦هـ إلى أذربيجان فقصد تبريز فأطاعه نائبها وخطب له وحمل له من الأموال ما أرضاه، وكذلك سائر تلك النواحي أرسلوا إليه يبذلون الطاعة والخطبة والمال ويمدّونه بالعسكر فأبقاهم على بلادهم وسار إلى أرمينية وقصد مدينة ملازكرد وهي للروم فحاصرها وضيّق على أهلها وسيطر على ما جاورها وهي مدينة حصينة، وأرسل إليه نصر الدولة بن مروان صاحب ديار بكر الهدايا ودعمه بالعساكر، وأعلن له الطاعة، وخطب له، وآثر طغرل بك غزو الروم ونال منهم ووصل في جهاده أرضروم، وعندما أقبل الشتاء رجع إلى أذربيجان على نية أن يعود إلى الجهاد في بلاد الروم إذا انقضت أشهر البرد.

واستولى قريش بن بدران صاحب الموصل في شهر شعبان سنة ٤٤٦هـ على مدينة الأنبار بعد حصارٍ وقتالٍ وخطب لطغرل بك فيها وفي سائر البلدان التي تخضع له، كما أخذ الأمير قريش من الأنبار ما كان للبساسيري ولأتباعه فيها، وهذا ما أثار البساسيري وأخرجه عن طوره وخاصةً أنه قد وصل إلى بغداد في شهر رمضان ابنا المحلبان أبو الغنائم وأبو سعد وهما صاحبا الأمير أبي المعالي قريش بن

بدران فأراد القبض عليهما فلم يتمكّن فأظهر جفاءه للخليفة القائم بأمر الله وتصرّف تصرُّف الحاكم المطلق، ثم سار إلى الأنبار فدخلها قهراً وأساء التصرّف بالحريق والنهب وأسر أبا الغنائم بن المحلبان وخمسمائة رجلٍ من أهلها، وسار بهم إلى بغداد.

بعث طغرل بك إلى الأهواز أبا علي بن الملك أبي كاليجار على رأس جيشٍ فملكها واستولى عليها.

وفي شهر المحرم من سنة ٤٤٧هـ سار القائد الديلمي فولاذ إلى شيراز فدخلها باسم الملك الرحيم خسروفيروز بن المرزبان أبي كاليجار، وأخرج عنها الأمير أبا منصور فولاستون بن المرزبان أبي كاليجار، وقطع خطبة طغرل بك في شيراز وخطب للملك الرحيم ولأخيه خسروشاه أبي سعيد وكاتبهما يُظهر لهما الطاعة فعلما أن يخدعهما بذلك فسار إليه أبو سعيد واجتمع هو وأخوه أبو منصور على قصد شيراز على اتفاقٍ بينهما في طاعة أخيهما خسروفيروز الملك الرحيم فتوجّها فيمن معهما من العساكر نحو شيراز وحصرا فولاذ فيها وطال الحصار إلى أن فُقدت الأقوات فيها،

وهرب منها فولاذ ودخلها الأميران أبو منصور وأبو سعيد وأقاما بها وملكاها.

كان البساسيري يحرص على أن يتقرّب من العساكر الأتراك بصفته أنه يعود إلى أصلٍ تركي، ويعمل على استغلالهم وتسخيرهم لمصالحه، لكنه في الموضوعات العقدية والفكرية يقف دائماً إلى جانب المتلوّنين من الديالمة بصفته من موالي بني بويه الذين عاشوا ونشأوا في بلاد الديلم، كما أن صاحبه التاجر النصراني أبا سعد يقوم بأشياء محرّمةٍ ويستظلّ بظلّه، كما أنه يُراسل المستنصر العبيدي صاحب مصر ويدّعي ما يدّعيه المتلوّنون من الانتماء للدوحة الشريفة، فلما نفذ صبر العساكر الأتراك انطلقوا إلى دور البساسيري فنهبوها وأحرقوها وفي الوقت نفسه فقد رأوا في طغرل بك السلجوقي بعض ضالتهم إذ هو بعيد عن المتلوّنين، ويريد أن يُعيد فكرة الجهاد إلى ديار الإسلام وقد غزا الروم وجاهد، ولما رجع من الجهاد عاد إلى الريّ ومنها إلى همدان في شهر المحرم سنة ٤٤٧هـ، فأعلن أنه يريد الحجّ وإصلاح طريق مكة والسير إلى الشام ومصر للقضاء على العبيديين لإزالة ضلالاتهم وما يبثّونه في المجتمع من انحرافاتٍ، وكاتب طغرل بك

أصحابه بالدينور وقرميسين (كرمنشاه) وحلوان للاستعداد لذلك وتجهيز العسكر وتأمين الأقوات والعلف وكل ما تحتاجه الجيوش وشاعت هذه الأخبار ببغداد فارتاحت نفوس المسلمين لها، وارتاع لها الذين يدّعون الإسلام ويظهرونه بألسنتهم فقط، ويعلنون محبتهم للذين ينتمون إلى الدوحة الشريفة، وما ذاك بالحب الصادق ولكن للتفرقة بين المسلمين وليسهل إشعال الفتن بينهم في سبيل إضعاف الأمة، وتجزئة المجتمع.

وصل طغرل بك إلى حلوان فانتشر المسلمون على طريق خراسان، وسمع الملك الرحيم خسروفيروز البويهي بالخبر فانطلق إلى واسط، وفارقه البساسيري في الطريق لإبعاد التهمة عنه، وجاءت رسالة من الخليفة القائم بأمر الله إلى الملك الرحيم يدعوه للعودة إلى بغداد فعاد. وبعث طغرل بك رسالةً إلى الخليفة يُبالغ في إظهار الطاعة. ووصل الملك الرحيم إلى بغداد في منتصف رمضان ٤٤٧هـ، وأظهر للخليفة الطاعة، وأنه قد سلّم أمره إليه ليفعل ما يراه. فأُجيب أن المصلحة تقتضي أن يعود أهل بغداد إلى بيوتهم، وأن يرسل الأجناد رسولاً إلى طغرل بك يبذلون له الطاعة والخطبة فأجابوا إلى ذلك وفعلوه وأرسلوا رسلاً إليه فأجابهم إلى

ما طلبوا ووعدهم الإحسان، وتقدّم الخليفة إلى الخطباء بالخطبة لطغرل بك بجوامع بغداد، فخُطب له يوم الجمعة لثمانٍ بقين من رمضان سنة ٤٤٧هـ، وأرسل طغرل بك يستأذن الخليفة بدخول بغداد، فأذن له، وخرج الوزير إلى لقائه في موكبٍ عظيمٍ من العلماء والأمراء والأعيان وصحبه أيضاً أعيان الأمراء من عسكر الملك الرحيم، فلما وصل الوزير إلى السلطان طغرل بك أبلغه رسالة الخليفة واستحلفه للخليفة وللملك الرحيم وأمراء الأجناد، ودخل طغرل بك بغداد يوم الاثنين لخمسٍ بقين من شهر رمضان سنة ٤٤٧هـ.

وفي يوم الثلاثاء وهو اليوم التالي من دخول طغرل بك بغداد، انتشر عسكره في الأسواق فلم يتفاهم أحدهم لغةً مع أحد الباعة ووقع الخلاف بينهما فاستنجد البائع بالعامة واستغاث فوقع الصياح وسمع الناس فاعتقدوا أن الملك الرحيم وعسكره قد عزموا على قتال طغرل بك والسلاجقة، ووقعت حوادث في معظم محالّ بغداد إلا في الكرخ، ودخل أمراء عسكر الملك الرحيم إلى دار الخلافة نفياً للتهمة عن أنفسهم، وإن بُعد أهل الكرخ، وابتعاد أمراء الملك الرحيم

ليشيران إشارةً كاملةً إلى التخطيط المدبّر لهذه الأحداث. وقد قُتل من العامة ومن السلاجقة جمع كثير ولكنه من طرفٍ واحدٍ بالنسبة للحوادث التي تقع والتي يثيرها المتلوّنون عادةً.

ألقى طغرل بك القبض على الملك الرحيم وعلى من معه عندما دخلوا خيمته وذلك في أواخر شهر رمضان سنة ٤٤٧هـ وحُبسوا ثم نُقل الملك الرحيم إلى قلعة السيروان، ووجدت الفوضى.

أرسل الخليفة إلى السلطان طغرل بك يُنكر ما جرى من إلقاء القبض على الملك الرحيم[١] وأصحابه وما حدث من نهبٍ في بغداد، وقال له: إنهم خرجوا إليك بأمري وأماني فإما أن تُطلقهم وإما أن أخرج أنا من بغداد، فإني إنما اخترتك واستدعيتك اعتقاداً مني أن الأوامر الشريفة تزداد وحرمة الحريم تعظم وأرى أن ما حدث هو العكس. فأطلق طغرل بك بعضهم وأخذ إقطاعات عسكر الملك الرحيم البويهي كلها وأمرهم بالسعي لتحصيل رزقهم بأنفسهم، فتوجه كثير منهم إلى البساسيري

(١) كانت ولاية الملك الرحيم البويهي على بغداد ست سنواتٍ وعشرة أيام.

ولزموه فكثر جمعه وكاتب المستنصر العبيدي صاحب مصر.

وهكذا انتهت سيطرة البويهيين على الخلافة العباسية وحلّ مكانهم السلاجقة.

العبيديون:

كان الظاهر العبيدي أبو الحسن علي بن منصور الحاكم صاحب مصر منذ سنة ٤١١هـ، وتوفي في منتصف شهر شعبان سنة ٤٢٧هـ، وكان عمره ثلاثاً وثلاثين سنةً وكانت ولايته خمس عشرة سنةً وتسعة أشهرٍ وسبعة عشر يوماً، وكانت له مصر والشام والخطبة له بإفريقية، وكان منصرفاً لذاته مفوضاً أمور الدولة إلى وزيره أبي القاسم علي بن أحمد الجرجرائي(١). ولما توفي الظاهر ولي بعده ابنه أبو تميم معد ولُقّب المستنصر بالله، وبقي بالحكم حتى سنة ٤٨٧هـ. وكان الحاكم في دولته بدر بن عبد الله الجمالي(٢).

---

(١) يروى أن أبا القاسم كان مقطوع اليدين من المرفقين فاستمرّ في الوزارة مدة ولاية الظاهر، ثم لولده المستنصر حتى توفي أبو القاسم سنة ٤٣٦هـ.

(٢) بدر بن عبد الله الجمالي، أبو النجم: أمير الجيوش المصرية، والد الملك الأفضل، أصله من أرمينية اشتراه جمال الدولة بن=

وفي سنة ٤٢٧هـ اجتمعت قبيلة زناتة بإفريقية وزحفت بخيلها ورجلها قاصدةً مدينة المنصورة[١] فلقيهم صاحبها المعزّ بن باديس بموضعٍ يقال له: «الجفنة» قريبٍ من مدينة القيروان فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم المعزّ وعساكره، ثم رجعوا إلى القتال وشجّع بعضهم بعضاً وصبرت قبيلة صنهاجة رجال المعزّ، وانهزمت زناتة هزيمةً منكرةً وقُتل منها عدد كبير وأسر مثلهم وتعرف هذه المعركة باسم وقعة الجفنة، وهي مشهورة عند صنهاجة لأهميتها عندهم.

وخالف بنو حماد المعزّ بن باديس وعادوا إلى ما كانوا عليه من العصيان فحشد لهم المعزّ العسكر وسار إليهم وحاصرهم في قلعتهم المعروفة بقلعة حماد وضيّق عليهم وأقام محاصراً لهم ما يقرب من سنتين.

= عمار غلاماً، فتربّى عنده، ونُسب إليه، وتقدّم بالخدمة حتى ولي إمارة دمشق للمستنصر سنة ٤٥٥هـ، ثم استدعاه إلى مصر واستعان به على إطفاء فتنة نشبت فوطّد له أركان الدولة، فقلّده وزارة السيف والقلم، وأصبح هو المرجع في دولة المستنصر، وكان حازماً شديداً على المتمردين، وتوفي بالقاهرة سنة ٤٨٧هـ عن عمرٍ يناهز اثنتين وثمانين سنةً.

(١) المنصورة: هناك عدة مدن في عددٍ من الأمصار تحمل اسم «المنصورة» وهذه في إفريقية قرب مدينة القيروان.


البحر المتوسط
المهدية
طرابلس
سرت
برقة
أجدابية
زويلة

وقطع المعزّ بن باديس سنة ٤٣٥هـ خطبة المستنصر العبيدي صاحب مصر وخطب للخليفة العباسي القائم بأمر الله، ووردت عليه الخلع والتقليد ببلاد إفريقية وجميع ما يفتحه، وقد جاء في أول رسالةٍ بعثها الخليفة إلى المعزّ: من عبد الله ووليه أبي جعفر القائم بأمر الله أمير المؤمنين إلى الملك الأوحد ثقة الإسلام وشرف الإمام وعمدة الأنام ناصر دين الله قاهر أعداء الله ومؤيّد سنة رسول الله ﷺ، أبي تميم المعزّ بن باديس بن المنصور ولي أمير المؤمنين بولاية جميع المغرب وما افتتحه بسيف أمير المؤمنين، وهو طويل. وأرسل له سيفاً وفرساً وأعلاماً، فوصل ذلك إليه يوم الجمعة فدخل به إلى الجامع والخطيب على المنبر يخطب الخطبة الثانية فدخلت الأعلام، فقال: هذا لواء الحمد يجمعكم وهذا معز الدين يسمعكم وأستغفر الله لي ولكم. وقطعت الخطبة للعبيديين من ذلك الوقت وأحرقت أعلامهم[1]. فما كان من المستنصر العبيدي إلا أن شجّع قبائل بني هلال ومن معهم الذين نزلوا بصعيد مصر وأفسدت فيه أن تتحرّك نحو المغرب فوصلت إلى بلاد المعزّ بن باديس وعاثت فيها الفساد،

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

وانتصرت على جنده، ودخلت مدينة القيروان وخرّبتها سنة ٤٤٣هـ، ولم يبق للمعزّ بن باديس سوى المهدية وما حولها، ولكن بعد مدةٍ قوي أمره وعادت له مكانته حتى توفي سنة ٤٥٤هـ.

واتجهت جماعة من فرقة الإسماعيلية إلى بلاد ما وراء النهر وأخذت تدعو إلى طاعة المستنصر بالله العبيدي صاحب مصر فوافقهم أناس من سكان البلاد وأظهروا مذهبهم فأنكر ذلك أهل ما وراء النهر وسمع ملك البلاد بغراخان فأراد الإيقاع بهم ولكنه خشي أن ينجو منهم أحد ممن وافق على ضلالات الإسماعيلية لذا لجأ إلى الحيلة وأظهر إليهم أن يميل إلى بعض أقوالهم ويريد الدخول في مذهبهم فشعروا بالغبطة والسعادة فأحضرهم مجالسه حتى عمّ جميع من أجابهم إلى ضلالاتهم فقتل القادمين منهم إلى بلاد ما وراء النهر ومن أجابهم ممن بحضرته وكتب إلى سائر بلاده بقتل من فيها فنُفّذ أمره وسلمت البلاد منهم.

خرج من مصر سنة ٤٣٤هـ رجل يُسمّى «سكين» كان يُشبه الحاكم العبيدي الذي قُتل سنة ٤١١هـ، وادّعى «سكين» أنه الحاكم وقد رجع بعد موته فتبعه جمع من الكفرة الذين يعتقدون رجعة الحاكم، واغتنموا خلو

قصر الحكم بمصر من الجند فقصدوها مع «سكين» في منتصف النهار فوثب من كان فيها من الجند فقال لهم أصحابه إنه الحاكم بأمر الله فارتاعوا لذلك ثم ارتابوا به فقبضوا على «سكين» وارتفعت الأصوات ووقع القتال وجاء الجند إلى القصر والقتال قائم فقتلوا جماعةً من أصحاب «سكين» وأسروا الباقين ثم قتلوهم.

أمّر المستنصر العبيدي على بني قرّة بمصر رجلاً منهم يقال «المقرّب» وقدّمه عليهم فنفروا منه وكرهوه، وطلبوا من المستنصر أن يُبدله بآخر فلم يعزله عنهم وأظهروا العصيان فأقاموا بالجيزة مقابل القاهرة وقاموا بالإفساد فبعث إليهم المستنصر جيشاً يقاتلهم ويكفّهم عن الفساد، فانتصر بنو قرة على الجيش فعظم الخطب على المستنصر فجمع الأعراب من طيّ وكلب وغيرهم من العساكر وسيّرهم في أثر بني قرّة فأدركوهم بالبحيرة فاقتتلوا في شهر ذي القعدة سنة ٤٤٣هـ، فانهزم بنو قرّة وقُتل منهم الكثير، وانتهت فتنتهم.

أما في بلاد الشام وهي تتبع العبيديين أصحاب مصر وكان نائبهم عليها أنوشتكين الدزبري وقد كان كبيراً عند المستنصر العبيدي غير أن الوزير أبا القاسم الجرجرائي كان يحسده لكنه لم يجد للوقيعة به سبيلاً،

فسعى بكاتبٍ للدزبري اسمه أبو سعد، فأُشيع عن الكاتب أنه يعمل لإبعاد الدزبري عن العبيديين، فكوتب الدزبري بإبعاد أبا سعد فلم يفعل، وقصد جماعة من الأجناد مصر وشكوا إلى الوزير الجرجرائي النائب الدزبري فعرّفهم سوء رأيه به وأعادهم إلى دمشق وأمرهم بإفساد الجند عليه ففعلوا، كما حرّض الوزير الجرجرائي حاجب الدزبري على مخالفته، وأحسّ الدزبري بما يجري فأظهر ما في نفسه، فأحضر الجرجرائي عنده وأمر بإهانته وضربه، ثم إنه أعطى بعض العسكر الذين يخدمونه أرزاقهم ومنع الآخرين الذين يسيئون والذين يُكاتبون من مصر فشغبوا عليه وحدثت فوضى وشعر بضعفه فارتحل إلى بعلبك، وتبعه بعض أهل الشغب فسار إلى حماة فمُنع عنها وقوتل، وراسل المقلد بن منقذ الكناني واستدعاه فأجابه وحضر عنده بألفي رجلٍ فاحتمى وسار إلى حلب ودخلها وأقام بها مدةً وتوفي في منتصف شهر جمادى الأولى سنة ٤٣٣هـ. فلما توفي فسد أمر بلاد الشام، إذ طمعت الأعراب في نواحيها فخرج حسّان بن المفرج الطائي بفلسطين، وخرج معز الدولة بن صالح الكلابي بحلب وحاصرها وملك المدينة، وامتنع أعوان الدزبري بالقلعة وكتبوا إلى مصر يطلبون النجدة فلم يصل إليهم شيء.

وولي أمر دمشق مقدم عساكرها الحسين بن أحمد وشغل بحرب حسان بن المفرج.

وصلت عساكر من مصر إلى حلب في شهر جمادى الآخرة سنة ٤٤٠هـ وكانت بِأعدادٍ كبيرةٍ فحاصروها وبها معز الدولة أبو علوان ثمال بن صالح الكلابي فقاتلهم ثلاثة أيامٍ وصبر فارتحلوا عن حلب. ثم وصلت قوات كثيرة من مصر بعد سنةٍ تقريباً فخافهم أبو علوان ثمال فانصرف عنها فملكها العسكر المصريون.

وفي اليمن قام الصليحيون بالدعوة إلى الإسماعيلية عام ٤٣٩هـ حيث ظهر بها عليّ بن محمد الصليحي بعد أن تحصّن بجبل مسار بناحية حراز، وكانت الدعوة التي هي القرمطية قد انقطعت بعد اختلاف علي بن الفضل وابن حوشب، إذ سيطر الأول على المنطقة وأعلن كفره الصريح حتى مات مسموماً سنة ٣٠٣هـ، على حين اعتزل ابن حوشب في مغارب اليمن ثم تلاه ابنه جعفر، ثم الداعي بن أبي الطفيل، ثم هارون بن محمد بن رحيم، ثم يوسف بن أحمد الأشجّ، وكان آخرهم سليمان بن عبد الله الرواحي معلم علي بن محمد الصليحي، والذي أوصاه قبل موته أن

يكون خليفته بالقيام بأمر الإسماعيلية وذلك بعد أن أخذ الموافقة من المستنصر العبيدي بمصر.

لقد رأى علي بن محمد الصليحي[1] أن من سبقه من دعاة الإسماعيلية لم يكتب لهم النجاح لأن سلوكهم لا يضمن لهم تجاوب الناس وانقيادهم لهم وخاصةً علي بن الفضل الذي بدا كفره للجميع. لذا فقد أظهر

(١) علي بن محمد بن علي الصليحي، أبو الحسن: رأس الدولة الصليحية وأحد الذين ملكوا اليمن عنوةً، ولد في مدينة «قتر» من أعمال حراز سنة ٤٠٣هـ، وكان أبوه القاضي محمد حاكماً في جبل مسار من أعمال حراز باليمن. وصحب عامر بن عبد الله الرواحي أحد دعاة العبيديين فمال إلى ضلالاتهم، وجعل يحجّ دليلاً بالناس، ويتألف منهم من يتوسّم فيه الإقبال عليه حتى كان له ستون مريداً من مختلف القبائل، وقد حالفوه بمكة سنة ٤٢٨هـ على الدعوة للمستنصر العبيدي صاحب مصر، وكثر أعوانه وجهر بالعمل، ثم امتنع بهم في جبل مسار، وفي سنة ٤٥٥هـ ملك اليمن، واتّخذ صنعاء مقراً له، وبنى فيها قصوراً، وأسكن ملوك اليمن الذين أزال ملكهم عنده في صنعاء، وخرج حاجاً يريد مكة في موكبٍ عظيمٍ واستخلف مكانه ابنه المكرم أحمد، فلما بلغ تهامة خيّم في مكانٍ يسمى الدهيم ففاجأه سعيد الأحول أخو جيّاش بن نجاح، وكان علي الصليحي قد قتل أباهما نجاحاً في جملة من قتل من ملوك اليمن، فقتله سعيد بثأر أبيه وذلك سنة ٤٧٣هـ.

الصليحي التدين وتمكّن من إغواء بعض العامة وأصحاب الأهواء، وملك اليمن، وقد ولّاه المستنصر العبيدي مكة المكرمة.

أما الروم فكانت العلاقات بينهم وبين العبيديين حسنةً أيام المستنصر إذ عُقد صلح بين الطرفين أيام إمبراطور الروم ميخائيل الرابع، ثم جُددت الهدنة بين الجانبين سنة ٤٣٩هـ، وحمل كل من صاحب مصر وملك الروم لصاحبه هديةً عظيمةً. وغزا طغرل بك السلجوقي بلاد الروم فأسرع الإمبراطور قسطنطين التاسع نحو العبيديين وجرى اتفاق بين الطرفين تعهد فيه امبراطور الروم أن يمدّ مصر بالغلال، غير أن الإمبراطور قسطنطين قد توفي وخلفته الإمبراطورة تيودورا فلم توافق على الصلح إلا بشروطٍ أهمها أن يتعهد العبيديون بمساعدة الإمبراطورة إذا ما اعتدي عليها فلم يقبل المستنصر العبيدي هذا الشرط الأمر الذي أدّى إلى قتالٍ بين الجانبين انتصر فيه العبيديون في القتال البري بينما هُزموا في القتال البحري، وهذا ما دفع المستنصر العبيدي إلى عقد هدنةٍ سنة ٤٤٧هـ.

الأندلس

تفرّقت كلمة المسلمين في الأندلس. وأعلن أهل قرطبة وعلى رأسهم أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور إلغاء الخلافة وذلك في منتصف شهر ذي الحجة سنة ٤٢٢هـ، وأسند القرطبيون أمرهم إليه فظهرت إمارة قرطبة، وبعدها قامت ممالك أو دويلات مستقلة، يحكم كلاً منها أمير مستقل عن غيره من الأمراء. وقسّمت الأندلس إلى ست مناطق رئيسية تضمّ كل منها إمارةً أو أكثر حتى بلغ عددها أحياناً عشرين إمارةً، وأشهرها: بنو جهور في قرطبة، وبنو عباد في إشبيلية، وبنو الأفطس في بطليوس، وبنو هود في سرقسطة، وبنو أبي عامر في بلنسية، ومجاهد العامري في دانية، وبنوذي النون في طليطلة.

الملاحظات

بعد قراءة هذه المرحلة التاريخية، وهي مرحلة السيطرة البويهية (٣٣٤ ـ ٤٤٧هـ) يمكن أن نصل إلى:

○ كان الخليفة صورةً فقط فليس له إلا اللقب (الخليفة)، وكيف لا يكون ذلك وقد رأى جبروت المتنفّذين وطغيان المسيطرين لقد قتلوا قبل هذه المرحلة أربعة خلفاءٍ، وحجروا على خليفةٍ، وسملوا عيون ثلاثة خلفاءٍ، ليكونوا عبرةً لكل من يأتي بعدهم من الخلفاء حيث كان المسيطرون يسيرون على منحىً يختلف تمام الاختلاف عن منحى الخلفاء، وإن كانوا يظهرون الإسلام ويُبدون العاطفة الجيّاشة والمحبة الفائقة للدوحة النبوية وما ذاك إلا باللسان والله يعلم ما في القلوب، ولا يعلم أحد سواه لذا يصعب الخوض في الموضوع وإن كانت المؤشّرات تُشير إلى أضعاف ما يتوقّعه المرء.

ولما كان الخليفة صورةً لا يُوجّه الأوامر ولا يُصدر القرارات ولا يستطيع مخالفة أصحاب النفوذ ولا

معارضة رجال القرارات كما لا يتقيّد القواد بتعاليمه لذا فقد كانت مدة ولاية الخليفة في هذه المرحلة طويلةً بالنسبة لمن سبقهم في هذا العهد، حيث مدة الخليفة المطيع لله تسع وعشرون سنةً، ومدة الخليفة الطائع لله ثماني عشرة سنةً، ومدة الخليفة القادر بالله إحدى وأربعين سنةً، ومدة الخليفة القائم بأمر الله خمس وعشرون سنةً ثم عشرون سنةً أخرى في عصر السيطرة السلجوقية.

○ بنو بويه أسرة كانت قديماً تعتقد المجوسية، وقد حكمت الدولة الفارسية فلما جاء الإسلام وأزال تلك الدولة وقضى على المجوسية حقدت هذه الأسرة على من كان السبب في زوال مجدها وعظمة سلطانها ـ على ظنّ أبنائها الخاطئ ـ ولكن لا تستطيع أن تقف في وجه التيار الإيماني العارم، وقد اعتنق شعبها هذا الدين الجديد وتبع سبيل المؤمنين سوى فئةٍ قليلةٍ منها أفراد من هذه الأسرة غير أن هذه الفئة قد اضطرت أمام الموج أن تُظهر الإسلام بألسنتها دون أن يمسّ شغاف قلوبها ـ والله أعلم ـ.

رأت هذه الفئة المتلوّنة أن الاستمرار على هذا الوضع لا يُفيد شيئاً ولا يُغيّر وضعاً، ولا يُبدّل سلطاناً

وخاصةً بعد أن رأت عبد الله بن سبأ وتخطيط أبناء ملّته فسارت على نهجه واتبعت طريقه، وللتعمية وذرّ الرماد في العيون اتخذت أسلوب إظهار محبة الدوحة النبوية ـ وهل أشرف من ذلك ـ وغالت وبالغت في سبيل التعمية، ولفت النظر، والعمل على التشويه بدسّ تعاليم غريبةٍ وأفكارٍ بعيدةٍ، وبثّ الفتن لإضعاف الأمة.

ومرّت الأيام ووقعت فتن، وحدثت خلافات، وبُثّت آراء شاذّة، ولكن لم تُجد المتلوّنين شيئاً حيث كان يتحطّم ذلك كله أمام صفاء الإسلام ونقاء الفكر ورسوخ العقيدة وثبات الإيمان، ورأى المتلوّنون تحرّكاً على الساحة تبدو عليه الدقة وينال أصحابه محبةً أيضاً إذ من يُدعى لهم من دوحة آل البيت كذلك أولئك هم من بني العباس، فترك المتلوّنون ما كانوا عليه، وحملوا لوناً جديداً وساروا مع الركب واندفعوا، وكانت المواجهة، وكان الظفر.

وجد المتلوّنون أثناء المواجهة أن الركب القادم لا يختلف عمن ارتحل بالنسبة لهم إذن لا بدّ من العمل الجديد ضدّ القادم، فبدأت الإساءة وأخذت الدعاية وانطلق العمل لإيقاع الخلاف وإحداث الفتن، ومثيرو ذلك هم المتلوّنون وهم جند القادمين، وكل عملٍ من

الجند إنما هو باسم القائد ويتحمّل السيد إثمه. ولا بدّ للمتلونين من أن يأخذوا لوناً جديداً ويدعوا لقادةٍ جديدين، ولم يجدوا أفضل ممن كانوا يُظهرون محبتهم ويُبدون العمل لهم ويدّعون التبعية والإخلاص لهم والصدق معهم.

إن علامات الكذب قد أخذت تبدو وإشارات النفاق بدأت تظهر وصفات الادّعاء قد وضحت وهل أكثر من تغيير اللون دلالة؟ وأكثر من التخلّي عن الإمام عند اللقاء إشارة، وما يوم الحسين بن علي ﷺ، ويوم زيد بن زين العابدين بالبعيد ولا بالذي يُنسى!!! إذن لا بدّ من تغيير المخطط وتبديل أسلوب المواجهة والعمل من الزمن للهدف البعيد، فالهدف السريع يتعثّر وأسلوبه ينكشف وضحاياه تكثر.

بدا آل بويه على ساحة العمل وعُرفوا بنشاطهم حيث كانوا قد خسروا السلطان، وفقدوا المكانة، وأضاعوا المنزلة، ولم يُعرفوا بالإسلام فيرتفعوا لأنه كان باللسان ولم يدخل الأعماق، كان من تغيير الخطة تبديل الواجهات والقواعد وعدم تسلُّم الخلافة بل السيطرة عليها، وتوجيه إثارة الفتن بدعم الجانب الأقل عدداً كي لا يضيع، وكي يتساوى الجانبان فتكون الفتنة

أكبر أثراً وأكثر فتكاً وأشد خطراً فلا يُنسى أثرها ولا يزول خطرها.

انتقل آل بويه من فارس إلى بلاد الديلم وعاشوا هناك بين الديالمة حتى عُرفوا بهم ونُسبوا إليهم، وكان الديالمة قد أسلموا منذ مدةٍ وجيزةٍ فعلمهم قليل بالذي آمنوا به لذا استطاع بنو بويه أن يُؤثّروا عليهم ببعض المفهومات ويدخلوا إلى عقولهم بعض الأفكار. ولما ارتقى بنو بويه وسيطروا على الخلافة دخلت أعداد كبيرة من الديالمة في العسكر، حتى كانت جماعتان في العساكر أولاهما: الأتراك الذين دخلوا أيام الخليفة محمد المعتصم بن هارون الرشيد، وثانيتهما الديالمة الذين دخلوا أيام بني بويه، وقد كان هؤلاء سلاح بني بويه إذ يُعرف بنو بويه أنهم من الديالمة، ولبني بويه أثر فكري على الديالمة، كما لهم أثر اجتماعي واقتصادي إذ هم الذين أتوا بهم إلى العسكر. أما الأتراك فهم الطرف المقابل للديالمة، والصراع بين الطرفين مستمر، بل إن إدخال الديالمة في العسكر إنما كان الهدف منه تسهيل إثارة الفتن وتأمين الدعم.

إن من يُرسم له تمثيل دورٍ أو تأدية مهمةٍ لا بدّ له من انتقاله من موطنه الذي عُرف به إلى موطنٍ آخر

يكون فيه مجهول الأصل والنسب والعقيدة ليُمثّل ما يريد تمثيله ويدّعي ما يريد ادّعاءه وليضيع الفكر الذي يحمله والهدف الذي يسعى إليه والعمل الذي يتبنّاه، وهذا أمر معروف من قديم ولا يزال إلى يومنا هذا، وصاحب المخطط الذي يعمل من الخلف يُبيّن الأسلوب، ويرسم الطريق، ويوزّع الدعاية، وينشر الشائعات المناسبة، ويضع لكلٍ ما يوافقه.

وقد طرح المتلوّنون المزايا الرائعة التي اخترعوها والصفات المثالية التي ابتدعوها لأسرة آل بويه حتى شاعت وعمّت المجتمع وأصبحت كحقائق وجاء الذين دوّنوا التاريخ فنقلوها إلى الأجيال حتى وصلت إلينا كما أراد مروّجوها.

سيطر أحمد بن بويه على بغداد سنة ٣٣٤هـ، وخُلع الخليفة المستكفي بالله، وبويع المطيع لله، وسملت عيناً المستكفي، ولم يبق للخليفة شيء من الحرمة.

كان البويهيون يسمّون أسماء إسلاميةً وذلك قبل أن تكون لهم السيطرة، فلما دانت لهم البلاد رجعوا يسمّون أسماءً جاهليةً تعود إلى العصر الفارسي والعقيدة المجوسية مباهاة بما كانوا عليه.

كانت أسماء أبناء أبي شجاع بويه: أحمد (معز الدولة) والحسن (ركن الدولة) وعلي (عماد الدولة) هذا أيام التخطيط والتهيئة فلما حقّقوا ما رسموا له صارت أسماؤهم:

بختيار بن معز الدولة.

بويه بن ركن الدولة.

فناخسرو بن ركن الدولة.

فيروز شاه بن فناخسرو (عضد الدولة).

فيروز بن فناخسرو (عضد الدولة).

المرزبان أبو كاليجار بن فناخسرو (عضد الدولة).

رستم بن علي (فخر الدولة).

فولاستون بن المرزبان أبي كاليجار.

خسروفيروز بن المرزبان أبي كاليجار.

كيخسرو بن المرزبان أبي كاليجار.

خسروشاه بن المرزبان أبي كاليجار.

اسفنديار بن المرزبان أبي كاليجار.

كامرو بن المرزبان أبي كاليجار.

بهرام بن المرزبان أبي كاليجار.

شيرزيل شرف الدولة بن فناخسرو عضد الدولة.
سلار أبو حرب بن شيرزيل شرف الدولة.
فناخسرو أبو منصور بن شيرزيل شرف الدولة.
وكان وزير بهاء الدولة يُدعى «سابور بن أزدشير».

وهذا ما شجّع الآخرين على إحياء أسماء الأجداد الجاهليين بالتسمية بأسمائهم وكانت هذه المرحلة أكبر مرحلةٍ في التاريخ الإسلامي طفحت بالأسماء الجاهلية الفارسية والتركية والديالمة والتي نعرف منها نحن أسماء الولاة والقادة وقد مرّ معنا أسماء ملوك البويهيين ومن أسماء الأتراك والديالمة مرّ من القادة. وشمكير، بيستون، سبكتكين، ألفتكين، بجكم، سيمجور، تجتكين، خجخج، توزون، نوشتكين، صيغون، كورتكين.

أما العرب فقد كانوا بعيدين عن ساحات القتال لأن:

١" ـ هناك مخطط من المتلّونين لإبعاد العرب عن شؤون العسكر إذ أن بُعدهم إضعاف الخليفة فهو رأسهم وهم دعامته التي يعتمد عليها مهما كانت الأمور بين العرب.

٢" ـ ملّ أكثرهم ما يجري من خلافاتٍ ومكرٍ

وضلالاتٍ وبدعٍ ومتاهات وحيلٍ فاتجهوا إلى دنياهم فالأملاك تكفيهم والجواري متوفرة، مع ما في هذا من خطأٍ.

لذا لم نجد أسماءً عربيةً بين القيادات فخلى الجو لغيرهم وهذا هو مخطط المتلوّنين.

وهذا إن دلّ فإنما يدلّ على الرغبة بالارتباط بالماضي الجاهليّ والاعتزاز به. وإن كان كثيراً ما يخفون تلك الأسماء أمام المجتمع بالألقاب مثل: عضد الدولة وعزّ الدولة وبهاء الدولة وضياء الدولة و.... أو بالكُنى مثل أبو طاهر، وأبو الفوارس، وأبو منصور، وأبو شجاع، وأبو المظفر و...

○ كانت تقع فتن بين السنة والشيعة سنوياً في بغداد تُثيرها جماعة فيقف العسكر الديلم بجانب الشيعة وكذلك صاحب السلطة من بني بويه وذلك ليس حباً بمن وقفوا إلى جانبهم ولكن إبداء التأييد لما يظهرونه من حب آل البيت، وحتى تكون الفتنة أكبر فإذا وقفت السلطة إلى الجانب الثاني قضي على الفتنة بسرعةٍ لأن السنة أكثر عدداً، والسلطة لا تريد هذا بل تريد إشعال الفتنة بشكلٍ قويٍ.

○ وفي سنة ٣٥١هـ كتبت العامة ممن تدعمهم

السلطة على أبواب المساجد لعنة الله على معاوية بن أبي سفيان ﷺ، ولعن الله من غصب فاطمة ﷺ حقّها. وكانوا يعنون أبا بكرٍ ﷺ، ومن أخرج العباس ﷺ من الشورى ـ يعنون عمر ﷺ، ومن نفى أبا ذر ـ يعنون عثمان ﷺ من الصحابة ـ ولعنة الله على من لعنهم ـ ولعنوا من منع من دفن الحسن ﷺ عند جده ﷺ ـ ويعنون مروان بن الحكم ـ، ولما بلغ ذلك جميعه معزّ الدولة لم يُنكره ولم يُغيّره[1].

○ وفي سنة ٣٥٢هـ في العاشر من شهر المحرم أمر معز الدولة بن بويه أن تلبس النساء المسوح من الشعر، وأن يخرجن في الأسواق حاسراتٍ عن وجوههن، ناشراتٍ شعورهن يلطمن وجوههن، ينحن على الحسين بن علي ﷺ، ولم يمكن لأهل السنة منع ذلك لكثرة الشيعة وظهورهم، وكون السلطان معهم.

○ وفي الثامن عشر من شهر ذي الحجة سنة ٣٥٢هـ أمر معز الدولة بن بويه بإظهار الزينة في بغداد وأن تُفتح الأسواق بالليل كما في الأعياد، وأن تُضرب الدبابات والأبواق، وأن تُشعل النيران على أبواب

---

(١) البداية والنهاية: ابن كثير. حوادث سنة ٣٥١هـ.

الأمراء وعند الشرط فرحاً بعيد الغدير ـ غدير خُمّ ـ فكان وقتاً عجيباً مشهوداً، وبدعةً شنيعةً ظاهرةً منكرةً[1].

ويكاد يحدث هذا سنوياً، ولم يكن له سابق أمرٍ، وكان القصد من ذلك إثارة الفتن بين المسلمين وإيقاع الخلاف لإضعاف الأمة وقتل أعدادٍ من أبنائها سواء أكانوا من هذا الطرف أم من ذاك، وإن كان أحبّ إلى السلطان إن كان القتلى أكثر من الصف الذي يقف مقابلاً له.

○ الأسرة السامانية أسرة فارسية انتقلت إلى بلاد ما وراء النهر وآل حكم المنطقة إليها بعد أن عُرفت بها ونُسبت إليها، غير أن أمراءها قد أخذوا فيما بعد بمذهب الإسماعيلية، وكانت لهم مراسلات مع العبيديين (الفاطميين) أصحاب مصر، بل كانوا يدعون لهم على المنابر أحياناً وذلك لأن العبيديين ادّعوا النسب الإسماعيلي رغم أصلهم اليهودي المعروف.

○ وأسرة الحسن بن بهرام مؤسس القرامطة في هجر أسرة فارسية، وأخذت تقوم بدورها بالإفساد في بلاد العرب والشام وأطراف العراق.

---

(١) المصدر السابق نفسه.

○ والأسرة الحمدانية أسرة عربية أفرادها أصحاب مصالح رأوا طغيان ادّعاء النسب للدوحة الشريفة فأعلنوا ارتباطهم بالأدعياء، وأظهروا حملهم للدعوة إلى المنتسبين إلى آل البيت وحبّهم وما ذلك إلا لتأمين مصالحهم وتحقيق أغراضهم.

○ والأسرة العبيدية التي حكمت إفريقية ومصر والشام وأجزاء من بلاد العرب ودُعي عليها على منابر هذه الأمصار أسرة يهودية تعود إلى ميمون بن ديصان وإن ادّعت الأنتساب إلى محمد المكتوم بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وللأسرة العبيدية هدف يلتقي مع القرامطة وبني بويه والسامانيين في إضعاف الأمة الإسلامية ومحاولة القضاء عليها، إضافةً إلى الهدف الخاص التي يتعلّق بسلطان اليهود.

○ هذه الأسر الحاكمة في ديار الإسلام في هذه المرحلة ذات هدفٍ مشتركٍ واحدٍ تقريباً وهو إضعاف الأمة الإسلامية لذا نلاحظ:

١ ـ إن فكرة الجهاد لم تكن موجودةً في هذه المرحلة ولم ترتفع حتى في الحالات الأساسية التي يكون فيها الجهاد فرض عينٍ على أبناء الإسلام كحالات غزو الروم للمسلمين.

٢ ـ لم يقاتل أحد حكام هذه الأسر القرامطة رغم كفرهم الصريح وإفسادهم الكثير ومنكراتهم التي يرتكبونها، ولم يُعلن أحدهم الجهاد ضد هذه الفئة بل كانوا على صلةٍ حسنةٍ بهم.

أمدّ بختيار عز الدولة البويهي القرامطة سنة ٣٦٠هـ بسلاحٍ وعتادٍ حتى دخلوا مدينة دمشق.

كان للقرامطة مندوب عند البويهيين في بغداد يُعرف بـ «ابن شاهويه».

أجار القرامطة ناصر الدولة الحمداني.

أرسل أبو تغلب بن ناصر الدولة الحمداني سنة ٣٥٨هـ هدايا إلى القرامطة قيمتها خمسون ألف درهمٍ.

مدّ سيف الدولة الحمداني القرامطة سنة ٣٥٣هـ بالحديد بناءً على طلبهم ليتخذوا منه سلاحاً.

كان مروان القرمطي يحفظ الطرقات لسيف الدولة الحمداني، ثم ثار عليه سنة ٣٥٤هـ بحمص.

أبو المعالي بن سيف الدولة الحمداني وغلام أبيه قرعويه خطبا للمعز العبيدي سنة ٣٥٩هـ.

طلب القرامطة العون من سيف الدولة.

نزل ناصر الدولة الحمداني على القرامطة

واستجار بهم سنة ٣٣٥هـ عندما ثار عليه الأتراك في مدينة تكريت.

كان السامانيون بعيدين عن القرامطة لذا لم يكن بينهم احتكاك سواء أكان لقاءً أم خلافاً.

لما هُزم أبو تغلب الحمداني سار إلى العزيز العبيدي.

دعم معز الدولة البويهي ناصر الدولة الحمداني ضد الأتراك سنة ٣٣٥هـ.

طلب أبو المعالي بن سيف الدولة الحمداني نجدة الروم سنة ٣٧٢هـ.

طلب أبو الفضائل بن أبي المعالي مساعدة الروم مرتين سنة ٣٨٢هـ.

وكانت مراسلات بين العبيديين والقرامطة، كما أن القرامطة قد أعادوا الحجر الأسود إلى مكانه في الكعبة المشرفة بناء على طلبٍ وتوجيهٍ من العبيديين.

وراسل نصر بن أحمد الساماني عبيد الله (المهدي) أول الحكام العبيديين وأخذ بمبادئ الإسماعيلية.

كان قتال الحمدانيين للإخشيديين دعماً للعبيديين الذين لا يزالون في إفريقية.

كانت المنازعات بين هذه المجموعات صوريةً لإشغال الناس وجعل كل اهتمامهم في موضوعاتٍ جانبيةٍ ولترك الجهاد والدعوة إلى الله.

وكانت الخلافات بين هذه المجموعات وهميةً لذا غالباً ما تنتهي بالصلح، والأقوى يمدّ الطرف الآخر بالمال، وغالباً ما تقع هذه الخلافات نتيجة اختلافٍ بين أمراء المناطق الصغيرة المتجاورة على حدود مناطق النفوذ بين الجانبين.

يقدّم الضالعون في المخطط والمتقاتلون في كلا الجانبين العسكر الذين ينتمون إلى الإسلام انتماء صحيحاً انتماء إيمانٍ بالقلب، وقتلهم يُسرّ له الطرفان وهم في كل طرفٍ، ويحرصون على الاشتراك بالقتال حرصاً على أخذ المال إذ كان الوسيلة الأولى للحصول على الأموال والمتاع.

○ وكان من مخطط المتلوّنين في إضعاف الأمة وإيقاع الخلاف وإثارة الفتن تشجيع العسكر على القتل والنهب والسبي أثناء دخول المدن مقاتلين والإغارة على مدن وقرى ومخيمات المخالفين والقتل والنهب والسبي كما يشاءون مع العلم أنه لا يصحّ سبي المسلمين والمسلمات وهذا ما يجعل الشباب يتجهون للانضمام

إلى عسكر القويّ وصاحب النفوذ فيُؤمّر عليهم من عُرف بقيادته واشتهر بشجاعته وينضوي تحت لوائه أبناء أرومته وهم غالباً من الديالمة والأتراك وهما طرفان في المنافسة والخلاف في الفكر والاتجاه، وكان المتلونون يستغلّون هذا ويحرّكون فريقاً على آخر رغم أنهم يعدّون أنفسهم ديالمة كما أنهم من حيث التوجّه الفكري والعقدي منهم، غير أن ما يحصل عليه العسكر من مالٍ ومتاعٍ في السلب والنهب والإغارة ينسي، وهذا ما كان يقع به الأتراك دائماً غير أن الديالمة دائماً إلى جانب بني بويه.

○ هذه السياسة القتالية في النهب والقتل والسبي أفقرت الناس إذ نال الكثير منهم بلاء هذه المصائب ونتيجة هذه البلاء أحسّ المجتمع بضائقة الدنيا وكره الحياة وأصابه الخمول، ووقع في اليأس وركبته الهموم والأحزان نتيجة فقد الأهل والولد قتلاً أو سبياً أو إصابةً بالعجز بفقد عضو أو كسرٍ و... وهذا ما أضعف الأمة، كما أضعفها من ناحيةٍ ثانيةٍ ترك الجهاد والصراعات الدائمة وهذا هدف من أهداف المتلوّنين.

وبُثّت في هذه المرحلة شوائب أُلحقت بالمبدأ وهي ليست منه وهذا من أهداف المتلوّنين أيضاً.

وانتشرت هذه الشوائب في أصقاع كثيرةٍ وهذا ليس غريباً فإمارات هذه المرحلة كلها تلتقي على هذا وتسعى له بإمكاناتها كافةً.

وهكذا فقد حقّق المتلوّنون جزءاً ليس قليلاً من الذي يهدفون إليه وهو تفرقة الأمة وإضعافها وبثّ شوائب فيما تراه. ومع هذا كله لم يُحقّقوا أغراضهم ـ ولله الحمد ـ وذلك أنهم اختلفوا فيما بينهم. فما من إمارةٍ من إماراتهم إلا وانقسم أبناؤها بعضهم على بعضٍ، ووقع الصراع بينهم، فانكسرت شوكتهم، وضعف أثرهم. وانتهت الدولة السامانية سنة ٣٨٩هـ، وزالت الإمارة الحمدانية سنة ٣٩٤هـ. وضعُف شأن العبيديين بعد ظهور أصحاب نفوذٍ في الشام، ثم قطع الخطبة لهم في إفريقية المعزّ بن باديس سنة ٤٤٠هـ.

وظهرت الدولة الغزنوية في مشرق ديار الإسلام وأعلنت الجهاد وتقدّمت فتوحاتها في الهند فخشي آل بويه أمرها ما دامت ترفع راية الجهاد وأحبوا أن يكون بينهم وبينها حاجزاً فلما ظهرت قوة السلاجقة، ووقع الخلاف والصدام بينها وبين الدولة الغزنوية شعر آل بويه بشيءٍ من الراحة والطمأنينة النفسية، وشاءت إرادة الله أن تكون نهايتهم على يد السلاجقة سنة ٤٤٧هـ.

جاء السلاجقة منقذين للناس الذين ضاقوا ذرعاً بالبويهيين وميولهم والسعي وراء أهدافهم بالهدم ودخل السلاجقة بغداد واستقبلتهم الأمة فبذلوا جهدهم للخلاص من عناصر البغي والفساد فدعموا عبد الله بن علي العيوني فقضى على القرامطة سنة ٤٦٧هـ نهائياً في البحرين. كما دعموا القوة الإسلامية في الشام فأزال صلاح الدين الأيوبي الدولة العبيدية من جذورها سنة ٥٦٧هـ. وبذا زالت آثار مرحلة السيطرة البويهية عن الخلافة ـ ولله الحمد والمنّة ـ. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



المُحْتَوى

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة